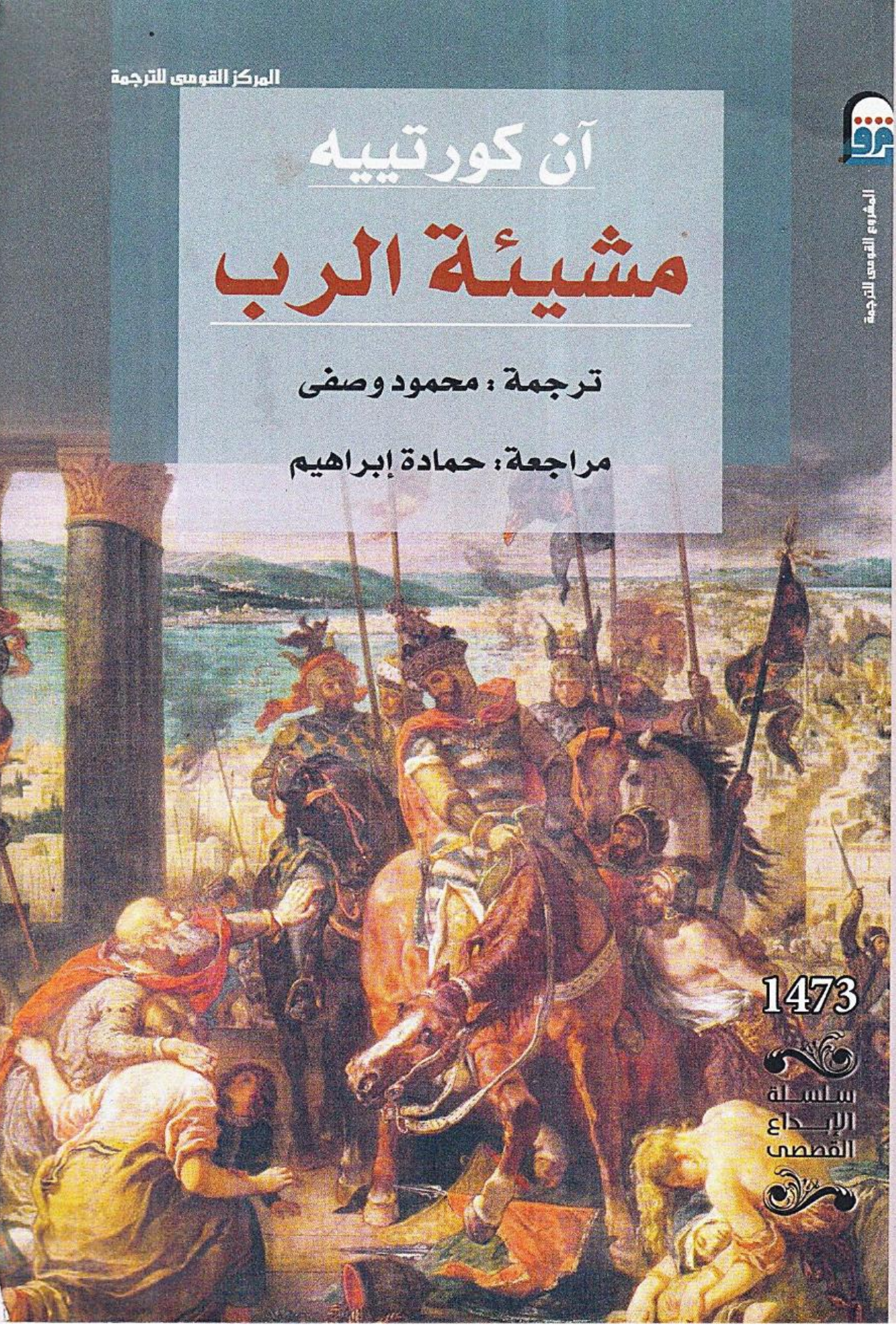


المركز القومى للترجمة
المشروع القومى للترجمة
آن كورتييه
مشيئة الرب
ترجمة : محمود وصفى
مراجعة: حمادة إبراهيم
1473
سلسلة الإبداع القصصى



مشيئة الرب

(رواية تاريخية)

المركز القومى للترجمة

إشراف : جابر عصفور

سلسلة الإبداع القصصى

المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد : 1473
- مشيئة الرب (رواية تاريخية)
- آن كورتييه
- محمود وصفى
- حمادة إبراهيم
- الطبعة الأولى 2010

هذه ترجمة رواية :

Dieu Le Veult

Par: Anne Courtillé

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦

فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo
e.mail:egyptcouncil@yahoo.com Tel.: 27354524 - 27354526
Fax: 27354554

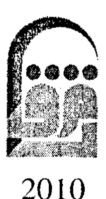
مشيئة الرب

رواية تاريخية

تأليف: آن كورتيه

ترجمة: محمود وصفى

مراجعة: حمادة إبراهيم



2010



مقدمة

"إن الحرب الصليبية ما هى إلا معركة مشتركة بين مسيحيى الغرب لتحرير الأماكن المقدسة" (چان فاڤييه). ألا وهى القدس التى كانت دائمًا هدف وغاية كل معتمر وحاج إلى بيت الله فى أوائل العصور الوسطى. لقد كانت هذه المدينة المقدسة هى معقل الإمبراطورية المسيحية فى الشرق، والتى حكمها العرب منذ عام ٦٩٣ ميلادى، ولكن الغرب كان له هيمنة أخلاقية عليها، ومع هذا فقد تدهورت شروط استقبال الحجاج لهذه المدينة المقدسة فى أوائل القرن الحادى عشر، بسبب الاضطهادات التى مارسها الخليفة الحكيم. فى عام ١٠٧٩، احتل الأتراك المدينة؛ وبهذا الغزو تعرض الحج إلى الأماكن المقدسة للخطر بشكل مؤقت.

فى عام ١٠٩٥ نادى البابا أوربان الثانى فى مجلس مدينة كليرمون بفرنسا بشن حملة صليبية. ومع ذلك، إذا كان غرضه هو استعادة حرية الدخول إلى مدينة القدس وإلى تعزيز المسيحية فى المشرق، فقد كان عليه أن يرضخ للعديد من الاعتبارات السياسية الأخرى. "لا توجد هناك وسيلة أكثر أمانًا من اتحاد العناصر الأكثر اضطرابًا

لمسيحيى الغرب، تحت قيادة البابا، لاستغلالها فى هذا المشروع الضخم الجرىء والذى من شأنه الاستحواذ على أماكن العبادة المقدسة" (جورج تات).

شهد القرن الحادى عشر انتعاشاً ديموجرافياً واقتصادياً كبيرين. فى عهد البابا جريجورى السابع (١٠٧٣-١٠٨٥)، شهدت الكنيسة إصلاحات كبيرة فى محاولة لمحو عيوبها الرئيسية، وحققت حينها نجاحات كبيرة من خلال مؤسسات السلام، والتى وُجهت للحد من العداونية الشعواء لفرسان هذه الفترة. مع ذلك ظلت النتائج محفوفة بالمخاطر، ولهذا استشعر أوربان الثانى الحاجة لمبادرة تمكنه من تأكيد دوره كزعيم روحى للغرب.

لذا أناب البابا مسئولية الحملة إلى ممثله، أسقف مدينة بووى فى فرنسا، أديمار دى مونتيل، والذى فاق توقعاته وآماله، عندما شارك فى الحملة الصليبية الأولى، ليس فقط فرسان الجيش الذين كان يرغب فى تواجدهم، بل أيضاً جموع من الشعب بقيادة بطرس الناسك، والذين كانوا مصدراً لتعقيدات لا حصر لها.

ومن ثم، يجب تصور كيف كان العالم الغربى منقاداً وراء الكنيسة المنتعشة بفضل الإصلاح الجريجورى، وكيف كان البابا يقف نداً أمام الإمبراطور الألمانى هنرى الرابع، وأيضاً لملك فرنسا فيليب الأول، الذى كانت تصرفاته فى حياته الزوجية لا تتفق مع مبادئ الكنيسة. أمام

الغرب كان المشرق ينقسم إلى عالمين يتواجهان: الإمبراطورية البيزنطية القسطنطينية، وهى وريثة الإمبراطورية الرومانية القديمة التى تحمل ازدواجية فى الهوية الحضارية، ألا وهما اليونانية والرومانية، فى مواجهة الإسلام الغازى، الذى تغلغل واستقر فى أنحاء حوض البحر الأبيض المتوسط، واستحوذ على مدينة مانتزيكيت فى عام ١٠٧١، فى نصر حاسم على الإمبراطور الرومانى الرابع.

كانت الحملة الصليبية الأولى بمثابة مواجهة غير عادية بين الغرب والشرق.. مواجهة كانت لها عواقب اقتصادية وفكرية فى الغرب بخلاف ما نتج عنها من معارك شرسة ومميتة على جميع الأصعدة.

١

- انفخ فى بوقك!

هكذا صاح هوج دو روامون بلهجة آمرة لزميله الذى تناول بسرعة بوقًا من العاج، يتدلى من رقبته بواسطة حبل. نفخ برنييه فى البوق فانتفخت أوداجه، ونفرت عروقه المزرقة من صدغيه. أصدر البوق نفيرًا غليظًا طغى على الأصوات الأخرى، ثم رن صداه فى الغابة التى راح الرجلان يتقدمان فيها دون اكتراث أو حذر. شعرا بالرهبة من الجانبين المنحدرين بشدة حيث يحدان الممر الضيق الذى يمشيان فيه، تعلوه تلال شاهقة ذات قمم مدببة. لمحا غزالة شاردة تجرى برشاقة أمامهما إلى أضيق منطقة فى الممر، فراحا يقودان الخيول ببطء، الواحد تلو الآخر على طريق تفترشه كميات كبيرة من أوراق الشجر المتراكمة فى ذلك المكان بفعل رياح مواسم خريف متتالية.

استدار الرجلان دورة كاملة لم يتبعهما فيها رفقاؤهم، بينما شقت الغزالة طريقها بمهارة وسط الأشجار، واختفت لتتركهما وحدهما.

قال هوج:

- أنا لا أعرف هذا المكان.

سأله بيرنييه وهو يشير إلى كتلة ضخمة من الحجارة الزرقاء.

– أليست هذه هى صخرة الكهنة التى نلمحها من بعيد؟

رد هوج:

– سوف نصبح عند أراضى برتراند دى مونتقير.

رد بيرنييه، وهو شارد الذهن يملس على شاربه البنى الطويل فى حركة ميكانيكية.

– ربما.

– أطلق نفير البوق من جديد!

كان من النادر أن يضل سيد منطقة ورامون، طريقه وسط التلال والغابات، التى كان يدعى دائمًا معرفتها تمام المعرفة، ولكن ما حدث أنه فى هذا اليوم بالتحديد، والموافق الخامس عشر من شهر أكتوبر، شعر بقلق، حيث لم يمض شىء كما يريد. فقد غادر فى نزهة طويلة على الخيل يرافقه فيها تابعوه، كى يجلبوا احتياجاتهم من لحم الغنائم لفصل الشتاء. فى بدء الرحلة التقوا برجل شبه عارٍ، وقد بدا وكأنه قد فقد عقله. أشعث الشعر وله لحية طويلة، ظهر لهم فجأة، معترضًا طريق موكب الفرسان، بعد أن برز من حافة غابة أشجار البلوط. راح الفرسان المشاغبون يتضاحكون هازئين منه، فهم دائمًا يبحثون عن مغامرة أو حكاية طريفة ليتندروا بها، ولهذا جروا وراءه مقتفين أثره. راح ذلك الرجل الغريب يجرى، كما لو كان أرنبًا مفزوعًا تاركًا وراءه فى

النباتات الشوكية، بعض الآثار من القطع المهلهلة، والتى تعلقت فى الأشواك من قميصه الرث. طارده فى البداية الفرسان على الخيل، ثم نزلوا منها مهرولين على الأقدام فى طين حقل، حُرث حديثًا، تتقدمهم كلاب الصيد الهائجة. تعقبوه بعد ذلك، مارين خلال حواجز من الشجيرات ثم بساتين، حتى وصلوا إلى حافة بركة. وهناك لجأ إلى منزل صغير لأحد الرهبان المتعبدين الذى تفاجأ به فهب خارجًا من الكوخ الصغير ذى السقف القشى وهو يصرخ:

– هذا مجنون!

و مع ذلك تغلب المتعبد على خوفه، وواجه الفرسان الذين قد شكلوا حوله دائرة تهديدية، وقد أشهر كلٌ منهم سيفه فى يده، وصاح فيهم قائلاً:

– توقفوا.. إنه لمجنون. راح الراهب يكرر ذلك، وهو يرتجف.

ظهر من خلفه الرجل، محتميًا بباب المنزل المتفكك، ممسكًا بفرع شجرة غليظ فى يده، وقبل أن يتمكن الفرسان المشدوهون من الرد أو القيام بأدنى حركة، هوى بالعصا على رأس المتعبد، الذى سقط مغشيًا عليه. وفى اندفاعه، تهاوى بدوره عند أقدام هوج وبيرنييه اللذين سرعان ما أمسكا به من قميصه الممزق الرث. صاح فيه هوج قائلاً:

– ما هذا الذى فعلته بحق القديس هوج؟

– أنا مجنون. رد عليه الرجل ساخراً، وقد جحظت عيناه.

– أنت مجنون حقًا! فلنتخلص منك إذن أيها الحثالة!

رفع هوج سيفه لأعلى، وبضربة واحدة قوية بحده، شق بها رأس الرجل الذى سقط على الفور بجوار المتعبد الذى كان قد أسترد وعيه، وقال بغضب، وهو يحدق فى عينى الفارس هوج الرماديتين:

– بل أنت المجنون! من الذى أعطاك الحق فى الحكم عليه وتنفيذه؟

– ألستُ أنا لورد هذه الغابة؟ رد عليه هوج وهو يهز كتفيه باستخفاف.

– ألم تسمع من قبل عن السلام أو عن هدنة الله؟ سأله المتعبد العجوز، وهو يمسح على مؤخرة رأسه فى محاولة لتخفيف الألم عن نفسه.

– وما شأنك أنت بمثل هذه الأمور؟ نحن لسنا فى فترة الصيام، ولا فى موسم أعياد الميلاد[١] أو تحسب نفسك من رجال الدين مثلاً! [٢]

– أنا فى مصاف رجال الدين، كرهبان الدير الكبير. رد الراهب وهو يشير بيده فى إيماءة غامضة إلى المنطقة الموجودة ما وراء البركة.

---

(١) هدنة الله: هى هدنة أفتى بها اجتماع مجلس رجال الدين فى مدينة پيرپينيان بفرنسا، لوقف القتال حال وجود حرب فى موسم صيام المسيحيين، وموسم أعياد الميلاد، وكذلك أيام الآحاد والخميس من كل أسبوع.

(٢) سلام الله يحمى فى الواقع رجال الدين والحجاج والعمال والنساء والأطفال.

-- نحن جيا ع!

هكذا قال هوج مغيراً الحديث، وهو يتابع بعينيه طائر الحجل، الذى راح يحوم فوق البركة.

تقدم راؤول، ولم يكن قد نطق بكلمة بعد. كان ضئيل الحجم وقصير القامة مقارنةً برفاقه، أمرد وأصلع الرأس تقريبًا، يرتدى طاقماً متوسط الطول، له أكمام، فاتح اللون تزينه أنواط ذات ألوان زاهية. فى حركة مباغتة وسريعة، قبض راؤول على تلابيب المتعبد وجذبه لأعلى، ليجعله واقفًا على قدميه. تسرب الدم من أذن الرجل المتعبد اليمنى من فرط قوة ضربة العصا، والتى كانت خارجة من رأسه أكثر من أذنه اليسرى، مما كان غريب الشكل وغير متناسق.

- نحن جائعون! هكذا زمجر أموند دى سيڤيراك، شاب طويل ضخم الجثة وهو ابن خالة هوج دو روامون.

فقد كانت أماهما أختين. على يد أموند اليسرى، وقف صقر لون ريشه أحمر، ويتطابق بشكل غريب مع لون شعر صاحبه. بيده الأخرى راح يملس عليه ويداعبه، بينما كان الطائر يغمغم فى وداعة.

- ليس لدى ما يؤكل أيها الفرسان. هكذا قال المتعبد قبل أن يكمل: فلتمضوا فى سلام.. أما أنا فسأقوم بدفن هذا الشقى المسكين.. وليرحمه الله..

- ولكن لا بد أنك تأكل شيئًا، أليس كذلك؟ قاطعه هوج

- نعم.. أكل خبزًا.

- لا بأس.

- ولكنك لن تجده لذيذًا.

- على أى حال... أرنى إياه.

وجد المتعبد نفسه مُجبرًا، بل منصاع، ولا يملك أن يعارض هؤلاء الفرسان المتسلطين المتوحشين، لذا مشى وهو يئن من وهن ساقيه القصيرتين اللتين يكسوهما سروال بسيط، إلى باب المنزل المتواضع، وأخرج من ورائه رغيف خبز كبيرًا ومستديرًا، بدا سطحه مطهوًا أكثر من اللازم.

- حقًا يبدو غير شهى بالمرة. وافقه هوج الرأى، وهو يتحسس رغيف الخبز قبل أن يُكمل: ومع ذلك، فسوف نتذوقه.

انتزع هوج من الحزام الملفوف حول خاصرته خنجرًا صغيرًا ذا مقبض مصنوع من العظم، لا يفارقه أبدًا، ثم شق به قطعة من الرغيف، وضعها بسرعة فى فمه الكبير. برزت عظام وجهه من حركة مضغ فكيه، حيث كانت ستصبح ملامحه العادية قاسية، لو لم تكن له هاتان العينان الرماديتان الواسعتان جدًا واللتان تظللهما رموش داكنة طويلة ورثها عن أمه.

- يا للقرف! هتف هوج باشمئزاز قبل أن يُكمل: لم أذق من قبل أبدًا شيئًا بهذه الخشونة والطعم المرير. لابد أن الأوقية منه، لم تكلفك عشرين قرشًا!

رمى هــوج بالقطعـة المتبقيـة فى يده للكلاب التى انقضت عليها وهى تنبح.

ابتسم المتعبد، وهو يقول لهوج:

– أيها الفارس المسكين... أتعتقد أننى أمتلك عشرين قرشًا لإطعام نفسى؟

– وكيف تتكسب رزقك إذن؟

سأله بيرنييه بنبرة صوت غليظة، وبتعبير وجه عابس مُحتقر، ارتسم على فمه الذى يغطيه شارب بنى كثيف الشعر.

– مـن تبرعاتك، إذا مـا شئـت. أجابه المتعبد وهـو يحدق فيه بعينيه الصغيرتين الماكرتين، وقـد بدا جفناه محتقنين تحيطهما ظـلال حمراء.

– من تبرعاتى؟

– ليس هناك أسوأ من خداع ومراوغة من لا يريد أن يفهم.

هكذا قال المتعبد، ثم أدار لهم ظهره، ومشى بخطى بطيئة، متجهًا إلى كومة الحطب الملاصقة لكوخه، وتناول منها مجرفة، ثم التفت إليهم وهو يصيح، ملوحًا بها فى اتجاههم:

– والآن اتركونى، فسوف أقوم بدفن هذا الشقى، ولتقولوا للسادة قساوسة كنائسكم أن يصلّوا على روحه.

– لك ذلك أيها الشجاع! قال هوج وهو يرمى له بحفنة من القطع المعدنية الفضية اللون ذات القيمة الضئيلة على الأعشاب ثم أكمل: لك أيضًا هذه النقود، لتدعو لى فى صلواتك. أما أنتم، فهيا بنا من هنا، فقد أضعنا وقتنا بما فيه الكفاية.

وجدوا صعوبة فى البحث عن خيولهم، مما زاد من إثارة حنق هوج العصبى، حيث ركب على "الأميرة الحسناء" وهو فى قمة غضبه.

– إن إيتييه سوف يُطعمنا خير الطعام! صاح راؤول، وهو يشير إلى مزرعة، ظهر سطحها المصنوع من القش من بعيد فى عمق الوادى كما تعالى الدخان من مدخنتها.

– وابنته جميلة. هكذا تمتم بيرنييه، وهو يشد على لجام فرسه.

– إذن فلنذهب جميعًا إلى إيتييه! هتف هوج، وهو يلكز مهرته المفضلة "الأميرة الحسناء" بضربة قوية من ركاب حذائه المعدنى فى جانبيها، فصهلت وهى تقفز، متخطية حفرة فى الأرض، وتبعها رفاقه، وهم يرمحون بخيولهم بسرعة وتهور.

كان فناء المزرعة موحلاً بشدة؛ بسبب الأمطار التى هطلت كثيرًا فى الأسابيع القليلة الماضية، ولم تكن حرارة الشمس البسيطة فى هذا اليوم الخريفى المعتدل، كافية لتجفيف ومحو الآثار الوخيمة لشهر سبتمبر. اندفعت مجموعة من الأطفال، هيأتهم قذرة وثيابهم رثة من وسط أكوام القش، مخزنة تحت سقيفة متواضعة، لتحميها من الأمطار، وانتشروا فى فناء المزرعة، وراحوا يهللون وراء الفرسان:

– اللورد راؤول... اللورد راؤول.

على عتبة باب المزرعة ظهرت سيدة عجوز قاسية الملامح. إنها بيرث، حماة إيتييه، والتى وقفت تراقب المشهد ويداها على ردفيها.

– أحضرى لنا بعض الطعام. صاح فيها راؤول، وهو يقفز نازلاً من على حصانه، متجنبًا بالكاد، بركة من المياه الراكدة، وبها آثار عجلات العربة.

– إن إيتييه ليس هنا، ولا ابنتى.. إنهما يعملان فى الحقل الواقع على التبة أعلى البستان.. يقومان ببذر حبوب الشوفان باستخدام المحراث.

– فليذهب أحد لإحضارهما!

– هيا أسرعى يا بيرنيت.

جرت الابنة الكبرى بيرنيت بعد أن رفعت طرف سترتها الممزق جزئيًا، واجتازت البركة التى كان يلهو فيها بعض البط، وسلكت الممر الهابط إلى التل الصغير وسط بستان أشجار التفاح التى اكتظت بالثمار.

عادت الجدة إلى الداخل يتبعها الزوار، حيث استقروا جالسين، محدثين جلبة أمام ألواح طويلة نُصبت فوق قوائم لتشكل مناضد طويلة.

– الأكواب والنبيذ. هكذا طلب راؤول

– وابنتك الشابة الجميلة؟ طلب بيرنييه

- الحقيقة أنها تعمل فى قصر سيدنا.

- لقد أخفيت عنا ذلك!

هز راؤول كتفيه باستخفاف.

كانت بيرث العجوز، وهى تعرج قليلاً مما كان يعطى انطباعًا بأنها ترقص عند المشى، تضع كوزًا بجانب برميل يستند إلى الجدار فى نهاية الغرفة المعتمة.

- سيدى اللورد..

انفتح الباب ودخلت الفتاة الصغيرة ذات السترة الممزقة، وفى أعقابها رجل يرتدى معطفًا عليه آثار أصابع موحلة قد مُسحت به.

- سيدى اللورد، ليس لدى الشىء الكثير كى، أقدمه لكم. قال الرجل، وهو يرفع قبعته المصنوعة من الصوف الأحمر.

- أرنى ماذا لديك فى قبوك!

قال راؤول ذلك، وهو ينهض واضعًا كوبه بصوت عال على الطاولة، بعد أن أفرغ محتواه فى سكبة واحدة. عاد بعد لحظات وهو يحمل لحم الخنزير فى يده وقال:

- سيكفينا هذا مع بعض من الخبز، والذى آمل أن يكون أفضل من خبز الناسك.

انفجر الجميع ضاحكين.

– أوه وهذا شيء تجيد أوجستين عمله. قال إيتيه ذلك، وهو يؤيد الرأى وأسرع لبدء تجهيز وجبة دسمة كافية لإطعامهم أياماً عديدة.

ثم غادر الجميع بعد أن أخذت خيولهم قسطاً من الراحة وشربت من النافورة البسيطة فى فناء المزرعة، والتى تحولت إلى مصدر لشرب الماء، وبعد أن أكلت بعض حفنات الشوفان، قدمها لهم الأطفال. وقف إيتييه يراقب الفرسان، وهم يبتعدون، وفى عينيه نظرة ارتياح ورضا، قبل أن يعود إلى حقله لينضم إلى أوجستين، التى كانت قد قطعت شوطاً كبيراً فى العمل.

استمر هوج فى قيادة رحلة الصيد، بينما أخذت الشمس تتجه تدريجياً إلى الغرب. كانت حصيلة اليوم خنزيرين بريين تم قتلهما ببراعة كبيرة بواسطة بيرنييه وراؤول، وبعد أن أنهكتهما مطاردة فرقة الكلاب لهما بما فيه الكفاية. ثم فلت منهم أيل بعد أن أستنفد مجهوداتهم، وكأنه يهزأ بهم.

– من هناك ؟

فجأة جاءهم هذا الصوت من اتجاه قمة الربوة. راح هوج وبرنييه يحدقان، ولكنهما لم يستطيعا تمييز شىء، بسبب ضوء الشمس المبهر. ثم سمعا حفيف أوراق الشجر، وطقطقة الحطب، وفجأة شاهدا فارساً يخرج من بين الأشجار، يليه فارس آخر. تقدم الاثنان وكلٌ منهما سيفه فى يده، ثم توقفا عندما أصبحا أمام هوج وبيرنييه تماماً.

– هوج دو رواموون فى أرضى! هكذا قال الأول بنبرة ساخرة، وكان يرتدى سترة مطرزة عليها نسر أسود ذو أجنحة مفتوحة. ألم أمنعك من قبل أن تطأ حوافر حصانك، أو بالأحرى حوافر فرسك بما أنك لورد رواموون لا يحب إلا الإناث؟

أنفجر برتراند دى مونتقير، ضاحكًا ضحكة شريرة، وهو شاهر سيفه الثقيل فوق رأسه، يلوح به يمينًا ويسارًا، بينما راحت شفرته اللامعة تسطع فى ضوء الشمس.

– لقد ضللنا طريقنا وتاه منا طريق أراضينا! رد عليه هوج بهدوء.

– لا شك أنك كنت تقتفى أثر الأيل البرى الشارد، الذى مررنا به منذ قليل. رد الفارس الآخر قبل أن يكمل: لقد رأيناه يعبر حدود غابة أشجار خشب الزان، قبل أن يلقى بنفسه فى بركة الماء. فمن الذى سمح لك بالصيد فى أرضى؟ بحق القديس فوى، سنعرف ذلك حالاً!

مرة أخرى، دار السيف فى الهواء، عندما نطق صاحبه بكلمة "القديس" حيث إنه يتباهى دائمًا بامتلاكه أثرًا من هذا القديس، يحتفظ به بعناية بالغة داخل مقبض السيف المعشق بماء الذهب.

– هذا الأيل البرى آت من أراضى أتباع راؤول.

– هذا أمر مشكوك فيه!

– أؤكد لك ذلك. هكذا أكد بيرنييه بهدوء

– ها هى قوة مساعدة إضافية قد أتت. هيا انزلوا أنتم أيضًا!

تجمع بالقرب من هوج مرافقوه بعد أن لمَّ شملهم، وجروا بعد أن سمعوا نداء البوق العالى. بينما تجمع خلف برتراند دى مونتڤير فرسان آخرون.

- ها نحن الآن، وقد أصبح عددنا كبيرًا بما فيه الكفاية، كى نستمتع معًا. هكذا علق الفارس المتغطرس قبل أن يكمل: سوف تدفع ثمن اقتحامك أرضى. فلنتبارز!

كانت القوتان متعادلتين تقريبًا من حيث العدد. حوالى عشرة مقاتلين فى كل فريق. رسم كلوڤيس، خادم هوج، علامة الصليب على صدره. كان الالتحام الأول كصدمة عنيفة. اهتز بيرنييه فوقع من على فرسه وفعل نده الشىء نفسه. اشتبكا بسيفيهما، ووقفا وجهًا لوجه، بلا حراك، وحاول كلٌ منهما أن يلقى بثقله على الآخر، كى يذعن. ليس ببعيد عنهما كان هوج يسدد كل ضربة أشرس من التى قبلها بحد سيفه المخلص أديل، والذى ورثه عن جده. كان برتراند يماثله فى القوة الجسدية. من حولهما، تحولت المواجهة إلى قتال فردى، شرس ومرير، سعى فيه كل مقاتل إلى أن يسيطر على الموقف، ويجعل عدوه يتقهقر إلى الوراء، حتى يعميه ضوء الشمس المبهر. ولكن ما حدث أن انحدر قرص الشمس اللامع فجأة وراء التل، مغرقًا الوادى فى عتمة تشكك فى هذه الاستراتيجية الأساسية. فى هذه اللحظة كان هوج يُجهز أخيرًا على منافسه الذى تفاجأ، ويباغته فى حركة قوية بتصويب سيفه بين عينيه. كانت هذه دائمًا ضربته المفضلة، والتى علمه إياها أبوه من خلال التدريبات الشاقة على المعارك.

– ها قد أمسكت بك! أترغب فى الاستمرار؟ هكذا سأله وهو يزيد من ضغط حد سيفه، الذى رسم علامة فى بشرة الآخر، فخرج منها خيط دقيق من الدم الصافى.

– توقفوا!

هكذا هتف صوت قادم من عمق غابة أشجار خشب الزان.

– توقفوا! راح الصوت يكرر، وهو يقترب منهم شيئًا فشيئًا.

رغم أن هوج لم يخفف من ضغط سيفه المنتصر، فقد هدأ المتبارزين من حوله.

– أوقفوا على الفور هذا القتال الأحمق. صاح الفارس، وقد ظهر أخيرًا خارجًا من بين شجرتين فى ممر ضيق من اتجاه الشمال.

– يا إلهى! إنه الأب! غمغم هوج دون أن يُبعد سيفه.

– ماذا أنتم فاعلون بالهدنة؟ ألسنا فى يوم الجمعة، موسم عيد أوكتاف القديس مارك[١]؟

كان الأب راكبًا على جواد رائع الجمال، أثار إعجاب وحسد الفرسان الآخرين، وهكذا تقدم أب دير شيزديو، وفى أعقابه ثلاثة

---

(١) كانت فترة هدنة الله تمتد من يوم الخميس إلى يوم الأحد. أما الأوكتاف فهو اليوم الثامن بعد انتهاء عيد أو مناسبة دينية.

رهبان، وقد بدت الجياد التى يمتطونها كالدواب المسكينة. بنعومة، قفز الأباتى پونس دى تورنون من على جواده إلى الأرض، وصاحبت حركته العباءة الفضفاضة المشقوقة من الجانبين، قبل أن تنزل بوقار إلى وضع عمودى.

- أنتم لا تجيدون صنع شىء إلا القتال والتناحر! والأنكى من ذلك أنكم لو كنتم تتعاركون، فيما بينكم، ما كنت سأبوخكم أو أتهمكم بشىء. ولكن مما لا شك فيه، أنكم اليوم قد دمرتم، وأفسدتم أرض أحد الفلاحين الفقراء، وأوقعتم زوجته أو ابنته فى حفرة، ورحتم تطاردون آيل برى ملك لفلاح آخر، وهلم جرا...

وقفوا جميعًا واجمين؛ وكل منهم سيفه فى يده.

- هوج دو روامون، ألا يمكنك أن تنحى سيفك هذا جانبًا؟

نحى الفارس هوج سيفه بندم وأسف. كان خيط الدم قد تجلط فوق أنف برتراند الذى تنهد بارتياح. وضع كلٌ منهما سيفه فى غمده، وعدلا من وضعه حتى لا يعوقهما فى السير.

- برتراند دو مونتقير... بما أننا لسنا بعيدين عن منزلك، فلتدعنا إذن على العشاء، ولتكرم ضيافتى، حيث إن رئيس الدير القريب من هنا، دائمًا ما يقدم طعامًا كريهًا، فهو يلعب دور الزاهد، كما أن لدى أشياء مهمة لأخبركم بها.

بهذه الكلمات التى قيلت بنبرة صوت لا تحتمل الرد عليها، قفز الأب يونس على ظهر جواده بخفة.

إن السمعة التى اكتسبها بأنه شخص متسلط آمر والتى رافقته منذ توليه منصب رئاسة الدير فى غضون الأشهر القليلة[1] كانت فى محلها، هكذا فكر هوج.

صعد الفرسان بخيولهم على التبة ببطء. كانت السماء ملبدة بالغيوم السوداء الكثيفة، ولذا راحت الشمس تختبئ وتظهر خلفهم بعد أن انخفض قرصها، حتى أصبح ملاصقًا للأفق وراء التلال، وكأنه كرة ضخمة فوسفورية اللون. شق الفرسان طريقهم فى صمت وعندما وصلوا إلى منحنى ممر ضيق، ظهرت بناية شاهقة.

– هل تم الانتهاء من بناء قصرك الحجرى؟ هتف هوج، متسائلاً

– نعم، وقد أقمت به منذ منتصف شهر يونيو. رد برتراند بفخر قبل أن يُكمل: وماذا عن قصرك أنت؟ هل بدأت فيه...؟

– نعم، ولكننى لست على استعداد أن أتخلى عن برجى الخشبى العتيق.

زال التوتر من الأجواء، فشعر الأب يونس بالارتياح والرضا، ومضى بجواده وراء الفارسين اللذين اقتربا من بعضهما البعض، وراحا يثرثران بطريقة شبه ودية. لكز الرهبان الثلاثة خيولهم، ليحثوها على

---

(١) أصبح يونس دى تورنون أبًا لدير شيزرديو فى عام ١٠٩٤

صعود الربوة المرتفعة بشكل حاد، حتى يسلكوا رقعة صخرية، أقام فيها برتراند دى مونتبقير منزله الرئيسى. فى نهاية الموكب، كان الخدم والكلاب يتبعون الفرسان الآخرين، مهرولين وراءهم. وصل الضيوف إلى القاعة الكبرى للقصر واستقر كلُ منهم فى مكانه على المائدة وأداروا ظهورهم للموقد، الذى كان يُطهى فيه ببطء الخضار المسلوق وتُشوى الدواجن. تفقد هوج القصر بأكمله، بدءًا من غرفة تخزين المواد الغذائية الموجودة فى الطابق الأرضى، والتى تُحفظ فيها اللحوم كخزين للشتاء، حتى الصندرة، مرورًا بالطابق العلوى، الذى تم تقسيمه بكل بساطة عن طريق ستائر سميكة. مر بـ "دوفين"، زوجة برتراند فحياها وكانت محاطة بعدد كبير من الذرية. جذب انتباه هوج الأرضيتان الضخمتان اللتان تفصلان الطابق الأرضى عن العلوى، وترفعان مدخل الباب، وأبدى إعجابه بجودة الجرانيت الأزرق الذى استخدم فى عملها، كما أخبره برتراند بمشروعه عن بناء كنيسة.

أخيرًا وبعد أن وضع الخدم أمام ضيوف سيدهم أطباقًا من الجوز والبندق، وثمرات التفاح الأحمر الفاخر، وأسطال جديدة من النبيذ، نهض الأب يونس من مكانه، وبصعوبة أسكت أحاديث المجموعة الدائرة وقال لهم:

– أصدقائى... هكذا بدأ بفرك يديه بحماس وقال:

– إننا مقبلون على أحداث كبيرة، سوف يعلن لنا عنها البابا فى اجتماع مجلس مدينة كليرمونت. سوف تعلمون أنه سيكون

باستطاعتكم عن قريب القتال من أجل قضية أكثر نبلاً من منازعاتكم الصغيرة التافهة هذه، على حدود الجيرة. لذا وحدوا صفوفكم، ووفروا قواكم الجسدية. جمعوا أكبر عدد منكم بقدر المستطاع وتعالوا إلى مدينة كليرمون، لتسمعوا رسالة البابا[1].

– وما الموضوع؟ سأله هوج.

– لا أستطيع أن أُفصح عنه الآن. هكذا قال الأب پونس دى تورنون بغموض قبل أن يكمل: أود فقط أن أذكركم بأنه منذ أكثر من عشرين عامًا انهزم نصارى الشرق على أيدى المسلمين، وهى أول هزيمة كبرى مُنى بها الإمبراطور قسطنطين[2]، ومن يومها ومدينة القدس فى أيدى الكفار.

– وما الذى فى وسعنا عمله؟ تساءل بيرنييه، وقد بدت على وجهه الحيرة.

– الكثير يا بنى.... فمنذ عشر سنوات، استعاد النصارى مدينة طليطلة فى إسبانيا... أليس هذا مثلاً يدعو للتأمل وللاحتذاء به؟

– ومع ذلك فإننا لن نذهب إلى القدس! صاح برتراند وقد تحرك فى مكانه على الأريكة، غاضبًا، فاصطدمت ساقاه الممددتان بإحدى

---

(١) أوربان الثانى (بابا الفاتيكان من عام ١٠٨٨ إلى عام ١٠٩٩).

(٢) هزيمة معركة مانتزيكرت فى نوفمبر١٠٧١، وهى مدينة فى تركيا اسمها الحالى مالازجيرت.

القوائم التى تحمل اللوح الخشبى السميك المستخدم كطاولة، بينما دق بأصابعه الغليظة عليها.

– وأنت يا أخى، هل تعلم ما الذى سيقوله البابا؟ هكذا سأل راؤول الفارس الجالس إلى جواره، والذى كان يرتدى عباءة بها سلسلة طويلة من البقع المتسخة. لم ينبس الأخ أوجستن، وكان يغرس أسنانه فى تفاحة، فاكتفى بهز رأسه نفيًا. فى الواقع أن الأب راح يُعلن خلال الأسابيع القليلة الماضية أن هناك نبأ عظيماً، ولكن الراهب الشاب كان يجهل محتواه. على الجانب الآخر من المائدة، هز بيرنييه كتفيه باستخفاف، متجاهلاً الأمر، وكانت عيناه تتابعان بشهوة الخادمة الصغيرة، وهى ترتب الأوعية الصغيرة فى خزانة كبيرة مصنوعة من خشب البلوطو الذى يلمع من كثرة استخدامه وقدمه.

بدأ الأب پونس دى تورنون يتحدث الآن عن موضوع آخر ألا وأنه عاد لتوه من دير لاڤوديو، حيث لاقى أفضل ترحيب من الراهبات الموجودات هناك.

– بفضل تبرعات الكونت روبير[١]، أصبحت الراهبات هناك فى عداد الأثرياء. يا لهن من محظوظات حتى إن ابنته الشابة جوديث، فضلت العيش فى الدير على خطيبها!

---

(١) كونت منطقة أوڤيرنى.

- وما الذى أصبح عليه الآن خطيبها هذا؟

- لقد أصبح سيمون دى كرسپى راهبًا هو الآخر!

رفع الأب پونس دى تورنون كوبه المعدنى فى اتجاه برتراند، الذى أجابه بإيماءة موافقة طفيفة من رأسه.

- سوف نذهب إلى مدينة كليرمونت! قال هوج بلهجة مصممة، وهو يسكب المزيد من النبيذ فى السطل بجرعات كبيرة.

- ولمَ لا ؟ أيده برتراند.

فى ركن بعيد من القاعة معتم، حيث تضيئه شعلة مصباح متوهجة، ترامى إليهم صوت نغمات ناى حادة. فقد جلس موسيقى شاب مستندًا إلى الجدار، وراحت أصابعه الرقيقة تعزف بمهارة. بالقرب منه، وقف قزم يلعب بكرتين ملونتين على نغمات الناى. راح الأب پونس دى تورنون يتابعهما بعينيه وقد شعر بالحبور والرضا من هذا المشهد السلمى، بقدر ما شعر مما رآه من نيات حسنة واضحة من الفارسين المتصالحين.

- فلنلتقِ إذن فى كليرمون. قال الأب، وهو يقفز ممتطيًا صهوة جواده فى صباح اليوم التالى بعد أن أقام صلاة جماعية بمناسبة يوم القديس لوقا، ودعا الله من أجل السلام وأن يحترمه الفرسان.

حيُاهم مودعًا بإشارة سريعة من يده، ثم ابتعد بجواده وأخذ ينزل به الربوة بحذرٍ، سالكًا الطريق الموجود بين الرقعة الصخرية والغابة الواقعة أدناه. علَت الشمس ساطعة فى السماء خلف القصر.

– وماذا لو ذهبنا للصيد معًا؟ هكذا اقترح برتراند على هوج

– بكل سرور. رد عليه هوج دون تردد

نام برتراند نومًا هنيئًا الليلة الماضية بين رفقائه فى القاعة الصغيرة فى الطابق الأرضى للقصر، وبعد أن وُضعت تحت تصرفهم. ظل برهة من الوقت يفكر فى كلام الأب الذى أدار رأسه إلى حد ما، ولكنه سرعان ما راح فى سبات عميق.

– توجد هناك خنازير برية جميلة على أرض هرقل دى پوليناك. استمر برتراند فى الكلام مع هوج وقال: وإذا التقينا به، سنستطيع القتال مع رجاله... فهم شبان أقوياء البنيان، ويحبون ذلك!

بدا على برتراند الحماس الشديد وهو يقول ذلك، وغمز بعينه لهوج وكأنه يعطيه إشارة البدء. كانت جبهة برتراند لا تزال تحمل علامة سيف هوج. فهى عبارة عن ندبة قصيرة على شكل صليب.

– ها هى بداية تبشر بيوم رائع! رد هوج عليه، وهو يرفع سيفه ليقبل شفرته بهيام.

هكذا نُسيت التعليمات التى وجهها لهم رئيس الرهبان، بل الأكثر أنهم نسوا موضوع القدس. أطلق أحد الخدم التابعين للموكب سراح الكلاب التى جرت تنبح فى سعادة غامرة، بينما بدت الخيول متلهفة للانطلاق هى الأخرى. كانت الخادمة الصغيرة، والتى رصدها بيرنييه فى الليلة السابقة تدفع أمامها قطيعاً من الماعز غير منضبط بالمرة، راح يمرح بين الصخور المتناثرة حول الدرب الملىء بالعشب. أمسكت الفتاة الصغيرة بعصا، أخذت تلوح بها لهم، محاولةً دون جدوى أن تلملمهم. انتشرت الدجاجات وهى تنقر الحبوب فى فناء الدواجن الصغير ذى الطبيعة الرملية. نشر طاووس واقف ذيله على شكل عجلة غير آبه بأى شىء، و بالكاد لا يزعجه البط المتبختر من حوله وهو يقوقأ بصوت عالٍ.

- ها أنت يا سيدى!

أحضر كلوڤيس فرس هوج "الأميرة الجميلة" والتى صهلت بفرحة، عندما امتطاها صاحبها وجلس على السرج المصنوع من الجلد الأشقر.

٢

– يا عزيزتى، ينبغى علىّ أن أذهب.

دخل هوج دى روامون إلى الغرفة، التى يوجد فى نهايتها سرير مرتفع، اختفت عليه مارى، حيث تمددت بكسل وسط عدد كبير من الوسائد والمساند. كان هوج قد رفع الستائر عندما نهض أخيراً من الدفء اللذيذ لفراش الزوجية.

انبعثت من المطبخ روائح قوية لدخنة السمك، والذى وضعه أودون فى اليوم السابق، وهو المسئول عن صيد البرك.

– أنت ذاهب بالفعل؟ سألته مارى، وهى تتقلب على جانبها، ورأسها مسنود بذراعها، بينما انغرست كوعها فى لحاف طرى وناعم الملمس.

– نعم يا عزيزتى، وصدقينى هذا يؤسفنى !

نظرت مارى إلى هوج نظرة إعجاب صامتة لهيئته التى تعززها بعض الأناقة. كان يرتدى جوارب طويلة، ألوانها مبهجة مخططة باللونين الأزرق والأرجوانى. فوق قميصه الداخلى المصنوع من القطن الطبيعى الرقيق الذى كان له معصمان ضيقان، يظهران فوق يديه الغليظتين

الممتلئتين بالشعر، تدثر بسترة ليست بطويلة من الصوف الأسود، مطرزة بألوان عديدة لتجميل المنطقة حول الأكتاف وأسفل الأكمام الفضفاضة، كما أنها مفتوحة فتحتين كبيرتين من الأمام والخلف لتسهيل ركوب الخيل، وفى الوقت نفسه تغطى الساقين. زينت حليات متدلية من الذهب أسفل السترة، كانت ترن كلما تحرك هوج رنينًا يشبه طقطقة الكريستال، مُحدثة ضوضاء أعلى من جلبة اهتزاز سلسلة المفاتيح المعلقة فى حزامه.

- لا تنس أن تترك لى المفاتيح! قالت له مارى

- اطمئنى لن أنسى... فليس فى نيتى أن أحرمك من الأكل.

ضغط هوج على كلماته هذه، وهو يبتسم ابتسامة لطيفة، وراح ينظر إليها بعينيه الرماديتين اللتين تتوجهما رموشه الداكنة، وهو يُعدل من عباءته الصوفية البسيطة ذات اللون القرمزى طوقها هوج بهدبين صغيرين من الخيوط عقدهما على كتفه اليمنى.

فى النهاية وعلى شعره الأشقر القصير، المحمر قليلاً، مثل لحيته المشذبة بدقة، وضعت قلنسوة كبيرة من الصوف الملبد.

- ها أنا قد أصبحت جاهزًا... ألست وسيمًا؟

- أنت وسيم جداً يا هوج. قالتها مارى بلا مبالاة.

- تبدين غير مقتنعة بالمرة.

– أنت تتركننى، إذن أنا أفكر بالفعل، فى شىء آخر...

– فى رجل آخر، ربما.

– ربما. تقلبت مارى تحت اللحاف، فارتسمت بوضوح أكبر منحنيات جسدها البض، وسقطت بعض المساند.

هز هوج كتفيه باستخفاف، وقال لها متسائلاً:

– ربما! ألم أبُح بحبى لك مساء أمس يا حبيبتى؟ ألم تكتفى بذلك؟

– بالضبط، أنت تتخلى عن امرأة حامية للغاية... وهذا ليس من العدل!

– ولكن أمور المملكة تنادينى. رد هوج

– أى أمور؟ أخبرنى بها! لقد كنت بالأمس فى حالة سكر شديد، حتى إننى لم أفهم سبب حماسك المفاجئ لكى تتركنى، وكذلك تترك قصرك الذى تحبه، حتى أكثر منى.

– لقد وصل البابا إلى مدينة كليرمون، كما أن خالى المطران دوراند يجهز لاجتماع مجلس المدينة، وهناك شائعات تقول إن البابا أوربان يدعو جميع الرجال ذوى الهمم لأنْ يستمعوا إلى خطبته.

– وماذا سيقول لهم؟

– وكيف لى أن أعلم؟ إلا إذا كان سيطلب منا أن نشن حرباً! ففى المرة التى تحثنا فيها الكنيسة على شن حرب، أرجو ألا تضيعى علىَّ هذه الفرصة الذهبية.

- ولهذا أنت متحمس للغاية؟

- فعلاً، وها أنا مستعد.

راح هوج يربط حذاءه ذا الرقبة العالية، المصنوع من الجلد الناعم، والذى يصل إلى ركبتيه، ونعاله السميك يرن وقعه على ألواح الأرضية الخشبية.

- كلوفيس... تعال لتحمل صندوقى.

- إذن تعال، وقبلنى قبل أن تذهب. قالت له مارى

اقترب هوج من السرير، فى حين ظهر كلوفيس صاعداً الدرج الصغير الذى يصل الطابق العلوى بالقاعة الكبرى فى الطابق الأرضى، وفاحت منه رائحة دخنة السمك القوية.

- رائحتك نتنة! هكذا نهره هوج وأكمل: لكم أتوق للهواء الطلق! هرع كلوفيس ناحية الصندوق، وحمله بيديه الغليظتين، ثم نظر بسرعة إلى "سيدته"، قبل أن يهرول، نازلاً السلم من جديد، فراحت الدرجات تئن تحت ثقله.

- وداعًا يا حبيبتى.

انحنى هوج بقامته الطويلة تجاه السرير بعد أن تفادى الستارة المسدلة من حوله.

- وداعًا.

هكذا قالت له مارى، وهى تمد ذراعيها ناحيته، وجذبته بيديها من معطفه، مما اضطر هوج لأنْ ينحنى أكثر قليلاً.

- كلا يا حبيبتى! قال هوج، محتجًا قبل أن يتهاوى فوق اللحاف.

تمسحت مارى به، ثم طبعت بشفتيها على تجويف رقبته، وراحت تعبث بيديها فى شعره، حتى تبعثر تسريحته. قاوم هوج للحظة، ثم سرعان ما وجد النشوى الحسية مثل الليلة الماضية، ولهذا ترك نفسه يستمتع بها، حتى ولو كانت سريعة، ولكنها مثيرة للغاية.

- ها أنا فى حالة جميلة. قال هوج وهو ينهض منتعشًا

- كان ذلك لذيذاً. قالت مارى، وهى تتمطى بكسل ثم أكملت: لكم تبدو مضحكًا، وأنت مبعثر الملابس بهذا الشكل!

- فلتضحكى إذن كما شئت. غمغم هوج

- سيدى اللورد... الخيول جاهزة.

فى أسفل الدرج، كان كلوقيس يذكر سيده بما أمره به.

- على الأقل تستطيعين مرافقتى. قال لها هوج، متذمرًا، وهو يتوجه ناحية الدرج المصنوع من الخشب الأبيض قبل أن يُكمل: أنا لا أعرف متى سنلتقى مرة أخرى إذا ما طلب منا البابا أن نرحل لشن الحرب.

- ولكن الطقس بارد جدًا... لقد انتهى الخريف بالفعل قبل موعده.

هكذا قالت، قبل أن تغطى نفسها مرة أخرى باللحاف حتى أنفها.

راحت تستمع إلى خطوات زوجها الثقيلة، وهى تنزل على الدرج الذى كان يحدث صريراً، وكأنه سيتفكك.

"مما لا شك فيه أن هذا القصر العتيق أصبح يئن، ويتصدع من كل جانب"، هكذا فكرت مارى، وهى تتخيل البناء الحجرى الجميل، الذى بدأ هوج فى إنشائه. سمعت من جديد جلبة لبعض الأصوات، ثم ساد الصمت.

كان هوج واقفًا فى الخارج، وأمامه كلوفيس يمسك بفرسين:

الفرس الأنيقة "الأميرة الجميلة" وجواد ضخم قوى البنيان يصلح للمعارك. السرج ومعه الفرش ذو المقابض الجلدية الداكنة، جُهزت ووضعت بعناية على كل حصان. وضع هوج قدمه على ركاب السرج المعدنى المتدلى من رباط طويل، وامتطى الفرس البيضاء الرائعة الجمال، والتى كان قد أهداها له ابن عمه أموند دى سيڤيراك. فهى فرس ذات أصول عريقة، عصبية، مدهشة الجمال، وكانت تُشعره بفرحة لا توصف فى كل مرة يشرع فى امتطائها، حتى إن زوجته مارى كانت ولا شك ستغار، لو كانت شاهدته، وهو يملس على جيدها بحنان ورقة، غير معهودتين له.

أمسك الزمام القصير بيد متحكمة، وألقى بنظرة إلى أعلى تجاه البرج الخشبى المربع، حيث لاحظ أن بعض ألواحه قد تعفنت وأفسدتها الرطوبة، فأعطى الأمر لمساعده بودرى أن يقوم بإصلاحه.

– قم أيضًا بسكب بعض أوراق نبات البردى على أرضية المطبخ للقضاء على رائحة دخنة السمك.

– نعم يا سيدى اللورد. هكذا أذعن ببساطة الرجل القصير القامة الممتلئ الجسم.

على المرتفع المقام عليه القصر، كانت هناك ربوة صغيرة، تحيط بها أرض فضاء مسطحة نوعًا ما، يحيط بها سور من قواطع كبيرة من خشب الزان القديم، جنبًا إلى جنب. فى هذا الفناء، بخلاف إسطبل الخيول والملحقات المختلفة بها، توجد مبانٍ خشبية صغيرة لغرض استقبال أصدقاء وضيوف هوج ومارى فى حال وصولهم دون إنذار مسبق، وكذلك لمعيشة بعض الخدام والخادمات. لكز هوج فرسه الجميلة فى جانبها لكزة خفيفة بالجزء المعدنى المدبب فى الركاب، فقفزت الأميرة الجميلة فى مكانها:

– هيا... اذهبى، اذهبى! هكذا قال لها هوج، وهو يداعب شعر جيدها بيده الكبيرة.

اقترب كلابان من كلابه، وراحا يحومان حول سيدهما، فقال لهما هوج:

– فلتبقا عاقلين! سوف أعود لاحقًا، وسنذهب معًا فى رحلات صيد.

راح الكلبان يهزان ذيليهما، وينبحان بلطف قبل أن يعودا ليجلسا

أمام قفص الطيور، الذى تقبع فيه بعض الصقور، وطيور العقاب والصقور الصغيرة المخصصة للصيد فى انتظار عودة مدربها. فى القفص المجاور، راحت تتطاير بمرح، وتزقزق العصافير الصغيرة المغردة، التى كان يصطادها هوج أحيانًا ليسعد بها زوجته. كانت طيور الحب المغردة والكنارى الملونة، تشكل أهم هذه الطيور، بينما كان طائر العندليب، يسحر مارى والأطفال، بغنائه العذب.

أشارت المرضعة برتراد بيدها، فأسرع تييرى الصغير، مهرولاً تجاه أبيه فحمله هوج بقبضته القوية، ململمًا سترته الصوفية وقبله. كان خداًّ الصغير محمرين وناعمين. أفلتت إليانور بدورها من بين ذراعى مرضعتها وتشبثت بسترة والدها الذى انحنى تجاهها وداعبها قائلاً:

- جميلة أنت يا صغيرتى، لكم أنت جميلة! إلى اللقاء يا حبيبتى.

شعرت الطفلة الصغيرة بأن والدها قد تخلى عنها بأسرع مما كانت تتوقع، فأجهشت فى البكاء، قبل أن تحتمى فى ثوب برتراد المرضعة، وتخفى وجهها فى كمها الواسع كالقمع. هكذا شعر هوج بالتأثر لمغادرته وراح يراقب المشهد بدقة، قبل أن يعطى ظهره للأرض الهابطة بشكل طفيف، والتى تحد الربوة ونزل إلى السهل. تأمل أولى القطع الهلامية من الصقيع، والتى سقطت فى بداية هذا الشتاء على العشب البرى المنحدر، فجعلت لونه مصفراً، وهذه الرقعة من الأرض كان يقوم بزراعتها فى الماضى مساعدو جده الأكبر، ومنهم رجل كان اسمه هوج أيضًا، وكان صديقًا حميمًا للملك هوج كاپيه آنذاك.

بدا السهل منحدراً قليلاً فى نهاية المطاف، ولكنه انفتح فجأة على طريق أوسع فوق الوادى الضيق. التفت هوج إلى الجانب الأيمن، وراح يملى عينيه، مركزًا ببصره على المنظر، الذى كان يسعده خلال الأشهر القليلة الماضية: وهو موقع بناء قصره الحجرى الجديد. كان هوج قد اختار هذا المكان بالتحديد، لتشييد قصره عليه، نظراً لطبيعته الصخرية، وبالتالى يوفر تكلفة عملية الحفر. راح من جديد يقيس بعينيه المسافة المنحدرة التى تفصله عن الوادى الصغير الواقع تحته.

– إن أعدائى ليسوا بالقرب، كى يتمكنوا من مباغتتى فجأة. غمغم هوج، وهو يوجه كلامه إلى خادمه قائلاً: انظر يا كلوڤيس إلى هذا الصرح... لن يحتاج حفيدى إلى إعادة بنائه مرة أخرى، فهو راسخ وصلب.

التفت الخادم المنصاع، ناظراً فى اتجاه الجدار الحجرى الرمادى، الضارب إلى الحمرة، وأجابه بنعم مقتضبة.

– أنت دائمًا ثرثار للغاية يا كلوڤيس! قال له هوج مازحًا

ابتسم كلوڤيس، كاشفًا عن أسنانه المصفرة.

فى اللحظة ذاتها وصلت حمولة من الحجارة، مسطحة يجرها ثوران منهكان من طول فترة تسلق الهضبة، رغم كونها ليست حادة الميل. ما إن لمح بيجون، مشرف العمال وجود اللورد هوج، حتى هرول ناحيته وهو يقول:

– سيدى اللورد... تعال بسرعة! لقد وقع حادث.

سلم هوج زمام فرسه "الأميرة الحسناء" لخادمه كلوڤيس، قبل أن يهرع وراء بيجون. كانت الحجارة مبعثرة على الأرض فى كل مكان، بطريقة تعوق نعل الأحذية، وتمنع التقدم بسرعة. أخيراً وصلا إلى حشد من العمال، أفسحوا لهما الطريق عند رؤيتهما. تمدد على الأرض رجل يسيل فى دمائه.

- لقد انهار أحد المداخل المقوسة. هكذا أوضح بيجون

ركع هوج على ركبتيه بالقرب من الرجل الذى كان يئن من الألم.

- كلوڤيس... استدع لى قسيس كنيستى. صاح هوج فى خادمه قبل أن يكمل: إن الله هو الوحيد القادر على مساعدته الآن!

وضع هوج قلنسوته من جديد، ثم نهض وهو يوجه كلامه إلى بيجون قائلاً:

- لماذا وقع هذا الانهيار؟

- ربما خطأ فى السقالات... رغم أننى راقبت جيداً تعشيق الحجر فى بعضه البعض. هكذا فسر له بيجون قبل أن يكمل: بل كان الأسمنت قد اختلط جيداً وامتزج مع الجير، ولكن يبدو أن ذلك حدث، بسبب برودة الجو.

- نعم، هذا محتمل. ولكن إذا ما انقضى الوقت فى إعادة ما قد تم بناؤه بالفعل، هل سيأتى اليوم الذى أرى فيه قصرى مُشيداً وجاهزاً؟

ابتعد هوج وهو غاضب فى اتجاه موقع البناء، حيث كان العمال قد استأنفوا عملهم. رن صدى دق المطارق على القوالب الحجرية الخام، حتى تأخذ أشكالاً منتظمة، بينما قُلب مسحوق يشبه الأسمنت المصنوع من الرمال الصفراء بواسطة المجارف، وراحت المعاول تشق التربة، وتصاعد أزيز منشار النجار على الخشب الجديد، الذى خُصص لعمل الدرج بين الطابقين الأرضى والعلوى، وذلك للتوفير، وصنعه من خشب البلوط وليس من الحجر. بدأت تظهر ملامح قاعة الاستقبال فى الطابق الأرضى ذات الشكل المستطيل. بينما جُهز المدخل داخل جدار سميك إلى حد كبير تحت العرضة ذات فتحة واحدة بسيطة، ومخازن الطابق الأرضى سوف تكون مضاءة وبها تهوية عن طريق نوافذ مستطيلة طويلة من أعلى ودائرية من أسفل، موجهة إلى الداخل. تم الانتهاء تقريبًا من أسقف المداخل المقوسة باستثناء المدخل الذى وقع فيه الحادث. باستخدام سلم خشبى صغير، تسلقه هوج إلى الطابق العلوى، حيث به بداية عنق مدخنة ضخمة بدأوا لتوهم فى تشييدها هى الأخرى. شعر هوج بالرضا والارتياح عندما لاحظ أن الحجر الكبير، الذى سيستخدم كإطار قد أصبح جاهزًا بالفعل.

فى الخارج، كان حشد من العمال قد تجمهر حول الرجل المصاب.

كان القسيس قد وصل لتوه مع كلوڤيس الذى أحضره وراءه على جواده.

– أسرعوا، سوف يسلم الرجل الروح! هكذا قال لهم بيجون، وهو يوسع دائرة الحشد كى يُفسح الطريق للقسيس الذى كان يحتضن علبة من الفضة، انتزع منها قطعة من الخبز المقدس وزلقها بين أسنان المصاب، وباركه، ثم راح يردد كلمات بصوت غير مسموع. لوح كل الواقفين بعلامة الصليب على صدورهم. أطلق الرجل المصاب صرخة ألم عالية، فهموا أنها حشرجة الموت، ثم أغلق له هوج جفنيه برقة، وقال متسائلاً:

– من يكون هذا الرجل المسكين؟

– إنه ألدفرد من قرية بوا.

– سأذهب لأقابل أسرته... أما أنت يا بيجون، فأنا أعتمد عليك فى سرعة التقدم فى البناء أثناء غيابى.

– سوف نشرع فى تركيب سقالات الطابق العلوى. رد عليه بيجون، وهو يلف قلنسوته بعصبية حتى يُعدل من وضعها قبل أن يكمل: فما إن ننتهى من وضع الأسقف المقوسة، سنبدأ فى تثبيت ألواح الخشب على الأرضية، فقواطعها الحجرية جاهزة.

– حسنًا! أستودعكم الله!

– سوف نمر فى طريقنا على قرية بوا. وجه هوج كلامه لكلوڤيس، وهو يُعدل من جسمه على السرج، ويضع قدميه فى الركاب المعدنى بقوة وحزم.

مرا فى طريقهما إلى القرية ببعض الحقول المهجورة، التى يغذى منها المزارعون قطعانًا من الخراف والماعز، ثم عادا مرة أخرى نحو التل ليسيرا حوله، ليكتشفا تلك القرية الصغيرة، وكأنها تختبئ، محتمية خلف القصر الخشبى على شكل مجموعات صغيرة من الأكواخ الخشبية المتواضعة، متناثرة حول كنيسة حجرية صغيرة. سارا بحذاء الترعة، حتى مرا بالطاحونة التى يمتلكها، والتى وقف العامل بها، وهو فلاح عجوز فظ، حياهما بإيماءة غير واضحة. ظهر صبى صغير عند مفترق الطريقين كان يحمل ميزانًا خشبيًا طويلاً على كتفه، يتدلى منه دلوان.

- إنه ابن ألدفرد، ويدعى جيرن. قال كلوڤيس لسيده

- قدنا إلى منزل أسرتك! صاح فيه هوج، وهو يقفز من على فرسه.

وصلا إلى الساحة التى قاما فيها بضرب الحبوب والغلة معًا فى غضون الأسابيع القليلة الماضية، ثم لمحا أحد المزارعين، وهو على وشك ذبح خنزير يصرخ عاليًا وهو يصارع الموت. لوح المزارع بيده يحيى هوج، فقد جعلته أخلاقه الحميدة محبوبًا لدى كل مزارعى المنطقة، لذا كانوا يقابلونه دائمًا بالعرفان والاحترام، على الرغم من صراعات الحياة اليومية التى لا مفر منها. فقد كان هوج يتمتع بسمعة طيبة، كونه عادلاً ومنصفًا فى مبادراته السخية، عندما يكون حصاد المحاصيل شحيحًا، أو عندما تلم مصيبة بإحدى الأسر. عند أول كوخ متواضع سقفه من القش، بجوار الكنيسة الصغيرة، كان يسكنه قروى حر، يعمل كحداد فى أوقات فراغه، وهكذا أصبح عمله ضروريًا للقرية، حيث إنه كان قادرًا

على تثبيت حودات معدنية للمواشى، أو إعادة تركيب إطار لعجلة عربة. دخل جيرن إلى الكوخ المجاور المصنوع من جذوع الأشجار الموضوعة بترتيب سيئ وفوضوى، حيث لا تكفى لتحمى المكان من البرد والرطوبة. فى الداخل كانت هناك أمرأة منهمكة فى تقليب مرق الخضار فى وعاء كبير مثبت فوق حامل ثلاثى القوائم فى منتصف المدفأة. التفتت مندهشة من هذا الاقتحام المفاجئ وقالت:

- سيدى اللورد؟

- لقد مات ألدفرد... سحقته الحجارة فى موقع البناء. أعلن لها هوج بصراحة، ودون مقدمات.

وقفت مصدومة تطالعه دون أن تنبس بكلمة. الحق أنها كانت معتادة على المصائب. فمن الأطفال الذين ولدتهم، لم يتبق لها إلا جيرن وأجات. قُتل والدها أثناء معركة شنها لورد المزرعة المجاورة، حيث كان لا يحترم الرجال ولا المحاصيل؛ أما والدتها فقد توفيت وهى تلدها.

شعر هوج بالشفقة على هذه المرأة المسكينة التى دكها الفقر. وضع كيس نقود من الجلد على قاعدة السلم الخشبى الصغير الموجود أمام الموقد وأضاف قائلاً:

- ابعثى لى بابنتك إلى القصر، فستعمل هناك كخادمة، سيوفر عليك ذلك فمًا أقل يحتاج لإطعامه. سيصل لك جثمان ألدفرد كى يُدفن بالقرب من الكنيسة، كما سيقوم القسيس بصلاة جنائزية على روحه.

– أشكرك يا سـيـدى اللورد. راحت المرأة تراقب هوج وهـو يفـتـح الباب الخشبى الخشن ويغادر، ثم جلست على أريكة خـشـبـيـة مـتـهـالكة وانـخرطت فى البكاء.

كـان كلوڤـيس ينتظر سـيـده فـى الخـارج بينمـا بدأت بـعض رقـائق الجليد فى التساقط مما أزعج فرس هوج "الأميرة الحسناء". فى اللحظة التى خرج فيـها هـوج من الكوخ ظهرت أجات، ابنة ألدفرد، تتقدم وهى تحـمل حزمة هزيلة من أعواد الحطب على كتفـها. كانت ترتدى قميصًا وفوقه سترة بالية من الصوف الخشن الردىء، لونه ضارب إلى الحمرة، وحول خصرها حبل طويل مضفر من الألياف، وملابسها مبللة بالكامل حتى أعلى الركبتين. توقف هـوج للحظة كى يطالعـها: بشـرة وجـهـهـا مـسـمـرة، بينمـا أحـمـرت وجنتـاها من برودة الجـو. تبـادلا النظرات فلم تُخفض أجات عينيها، كما كان من المفترض عند مقابلة سيدها وحيته بإيمـاءة خـفـيفـة من رأسـهـا، بهـا مزيج من الجرأة والخجل، ثم تـابعت سيرهـا حـتى باب الكوخ البـائس. تابعـهـا هـوج بعينيه ليتـأمل جسـمـهـا النحيل، بينمـا راحت ردفاها يتمـايلان فى تناغم. كان كلوڤيس قد امتطى ظهر جواده، فقال له هوج:

– ها نحن قد تأخرنا. امتطى هـوج بدوره فرسـه "الأميرة الحسناء" على شبـه مضض ثم أكمل: بالرغم من ذلك، أود لو أن أصلى هذه الليلة عند ابن خالتى أموند. فهو تحت سلطتى، ويدين لى بالإقامة عنده.

بعد رحلة طويلة على ظهر الخيل، مروراً بغابات كثيفة، وبرك تنتشر بهـا أحـواض الورد البلدى ترتجف من البـرودة، بدأ الطريق يرتفع تدريجيًا. ثم، وبعد منحنى حاد بشكل واضح، ظهر منزل أموند دى سيڤيراك وهو بناية ضخمة تم الانتهاء منها فى العام السابق. لقد سعى أموند إلى تعزيز الاحتياجات الضرورية لوسائل الدفاع عن هذه البناية، وذلك بتشييد مبنى آخر فى الفناء الخارجى أكبر وأكثر راحة من أجل أسرة، عدد أفرادها كبير. بعد أن دلف الفارسان إلى الساحة الخارجية، دقا على الباب، الذى تمت تقويته بدعامات معدنية تنزلق بعناية، ففتح لهما خادم على الفور.

– أنا هوج دى روامون، وأتيت لزيارة ابن خالتى أموند. هكذا قال هوج وقد ارتسم خياله الطويل فى الظلام.

– ادخل. صاح صوت نسائى

ناول هوج قبعته للخادم، وتقدم إلى الداخل.

– أحييك يا زوجة ابن خالتى. قال هوج ذلك، وهو ينحنى باحترام أمام امرأة شابة تجلس على مقعد قوائمه على شكل حرف (X) ومنقوشة بشكل بسيط.

– مرحبًا بابن الخالة! قالت له أود

كان حولها زمرة من الأطفال يلهون ويلعبون.

– هل أموند غير موجود؟ سألها هوج وقد بدا مندهشاً لعدم رؤية ابن خالته بالمنزل فى مثل هذا الوقت.

– إنه لم يرجع بعد من رحلة الصيد. قالت أود بهدوء قبل أن تكمل: لقد غادر ومعه صقره الذى لقبه "الملك الجميل"، والذى انتهى لتوه من تدريبه... ولكنه لن يتأخر. ثم وجهت كلامها إلى الخادمة وهى تأمرها قائلة: بيرين، قدمى لنا نبيذ الأعشاب، وأخطرى چيفروا بقدوم ابن خالتنا.

– لقد جئت طالباً استضافتى هذه الليلة.

– إلى أين أنت ذاهب إذن؟

– إلى مدينة كليرمون عند خالى المطران، كى نكون فى استقبال البابا.

سرعان ما أصبح الحديث مملاً، ومرت الساعات دون أن يعود أموند ولا خادمه. كان الظلام قد هبط منذ فترة طويلة عندما اقترحت أود على هوج أن يتناولوا العشاء بعد أن تعبت من الانتظار. ما زال أموند متغيباً وكان چيفروا، ابنه الاكبر، وهو فى سن المراهقة قد كبر بسرعة شديدة، صموتاً وبالكاد لا يتكلم. هكذا جلس هوج وحيداً إلى جانب مدفأة النار، التى حافظ الخدم على اتقاد شعلاتها بعناية، وهم يروحون ويجيئون فى القاعة الكبرى، كى يظل بها بصيص من الضوء، بعد أن أطفأوا المصابيح الثمينة لتوفير الوقود.

كانت عجينة لحم العجل المفروم الرقيقة المخلوطة بالدهن الممتزج مع مرقة الأرنب الجبلى لها مذاق طيب. وبما أن هوج له شهية كبيرة،

ومن شدة جوعه بعد تلك الرحلة الطويلة، تأخر على المائدة يقضم بعض الفواكه والمكسرات التى قامت زوجة ابن خالته برفعها فى النهاية.

– يا ابن الخالة... لو تأذن لى، فسوف أنسحب إلى غرفتى وراء الستار. قالت له أود وقد تدثرت فى معطف كبير من فرو السنجاب، وقد شعرت بالبرد، بعد أن نهضت وهى تجذب الأطفال ناحيتها والذين سرعان ما أتبعوها. ثم وجهت كلامها إلى ابنها الأكبر قائلة:

– چيفروا... فلتتول أمر ابن خالتنا وتسهر على راحته. ولا يجب الاعتماد على عودة أموند هذه الليلة، فلا بد أنه ترك نفسه منقاداً فى رحلة بعيدة، وبلا شك أنه قد وجد مأوى للمبيت عند أحد مزارعينا. سوف تراه غداً.

هز هوج رأسه بالموافقة وحيا زوجة ابن خالته التى انصرفت إلى الغرفة المجاورة. عندما أصبح هوج وحده، قام بخلع سترته، وكذلك البنطال، وظل فقط مرتدياً قميصه الداخلى. انضم إلى مساعده كلوڤيس وخادم آخر، متمدداً على مرتبة كبيرة عليها لحاف ووسادة. لم يمر وقت طويل حتى داعب النوم جفونه، حيث زارته فى المنام فتاة صغيرة تحمل حزمة على كتفها.

فى اليوم التالى، ظل هوج فى انتظار أموند حتى أنتصف النهار ولكن دون جدوى، وفى نهاية الأمر استأذن من زوجة ابن خالته وغادر المكان.

قادا الخيول من جديد فى وسط غابة من الأشجار بخطى متمهلة، ثم زادا من سرعتها قليلاً على طريق منحدر بعض الشىء، قبل أن

يغوصا داخل غابة تساقطت عليها أشعة الشمس الحارقة تحت سماء زرقاء وصافية تماماً، وظلا يتوغلان حتى وصلا إلى منطقة، تتشابك فيها فروع الأشجار بشدة، تجردت بالمرة من أوراقها.

– سيدى... أنت تدخل إلى الغابة الملعونة. صاح فيه كلوقيس وقد خفف تماماً من سرعة جواده.

– هل حقًا تؤمن بمثل تلك الخرافات؟ رد هوج وهو يطلق ضحكة عالية رنت فى المكان.

– سيدى... أنت تضحك، لكن أتعلم أن العديد من الفرسان الذين عبروا غابة خشب الزان هذه لم يعودوا منها أبداً؟

تعمد هوج أن يُزيد من سرعة فرسه، وراح يركض بها إلى الأمام، وهو يلوح بيده كدلالة على أنه لا يتأثر بقصص قطاع الطرق وقصص السحرة.

لكز كلوقيس جواده الوفى بأسف، كى يزيد من سرعته، ويلحق بسيده الذى توغل بمرح، سالكًا دربًا ضيقًا فى أعمق أعماق الغابة. عبرت غزالة صغيرة من أمامه بسرعة، يليها وعل يجرى فزعًا. ها هو هوج وقد انخرط فى سباق مجنون، بل راح يثير حفيظة فرسه "الأميرة الحسناء"، مطلقًا صرخات فرحة، رن صداها بين بين جذوع الأشجار العتيقة التى تحيط به.

فى اللحظة التى راح كلوڤيس يدفع فيها جواده القوى الوفى للعدو إلى أقصى حدوده، وعندما وصل أخيراً إلى نفس مستوى سرعة فرس سيده، وتقريبًا كانا عند حافة الغابة، رآه يتوقف فجأة حتى إن فرسه التى كانت فتحات أنفها رطبة فراحت تصهلهل بطريقة ملتاعة؛ ثم يقفز منها إلى الأرض. أمامه كان هناك رجل مسجى على الأرض، وبالقرب منه حصان لونه بنى محمر ملقى على جانبه والدم يتدفق منه.

- أموند! صاح هوج وهو يقترب من الرجل.

نزل كلوڤيس من على جواده هو الآخر.

- إنه ابن خالتك أموند. هتف كلوڤيس بدوره

- نعم، وهو فى حالة سيئة.

ركع هوج على ركبتيه، وخلع عباءته لكى يغطى بها الرجل المصاب.

- أموند! أتسمعنى؟! همس له هوج

تحرك أموند وراح يتأوه، فقال كلوڤيس مؤكداً:

- إنه لم يمت... أترى يا سيدى؛ إنها غابة ملعونة!

- اخرس! غمغم هوج وقد بدا منزعجًا ثم أكمل: أموند... أنا ابن خالتك هوج.

كان لون بشرة أموند شاحبًا ووجهه ممتقعًا. كانت يده اليمنى ما زال القفاز بها، وكان الصقر واقفًا عليها منذ لحظات، ولكنه كان قد اختفى.

– انظر! قال له كلوڤيس بدهشة.

رفع هوج بصره فاكتشف رجلاً مصابًا آخر على الجانب المجاور من الدغل القريب، ووراءه حصان آخر.

– يبدو أن ذلك الرجل قد مات. قال كلوڤيس وهو يقترب منه.

ظل هوج راكعًا على ركبتيه، ومرة أخرى حاول أن يتكلم مع ابن خالته. تحرك أموند ثم غمغم ببعض كلمات غير مفهومة. بعد ذلك رفع يده التى يغلفها القفاز لأعلى، ثم هوت على الأعشاب.

– أموند! من الذى فعل بك هذا؟ سأله هوج بعد أن دب فيه الأمل من جديد.

فتح أموند عينيه وحرك شفتيه من جديد فألصق بها هوج أذنه حتى يتمكن من سماعه.

– إبل؟ من هو إبل هذا؟

فتح أموند فمه من جديد، ولكن سال منه الدم هذه المرة، ثم تصلب جسده فجأة.

– لقد مات! قال هوج مؤكدًا وأكمل: هناك حالة وفاة كل يوم... إن هذا لكثير. أغلق له جفنيه ثم أضاف: وهناك أرملة أخرى لا بد من إبلاغها بالخبر!

– أتريد العودة إلى قصر زوجته؟ سأله كلوڤيس، وهو مرتعب من فكرة عبور هذه الغابة الملعونة من جديد.

– يجب أن أعيد لها زوجها!

– أليس من الأسهل أن نقوم بدفنه هنا؟

– نعم أسهل، ولكن ليس من اللائق.... فقسيسه وأهله وأتباعه وخدمه يجب أن يلقوا نظرة وداع أخيرة عليه، وأن يقيموا صلاة جنائزية. هيا ساعدني! هكذا كانت نبرة صوت هوج لا تحتمل الجدل أو الرجعة.

هكذا رفعا جسد أموند المسكين ورفعاه مثنيًا على ظهر "الأميرة الحسناء" ثم قاما بربطه بها بعناية. بعد ذلك اقتربا من المتوفى الآخر، وحفرا حفرة صغيرة بسرعة، وذلك بمساعدة السكاكين الصغيرة التى صُممت خصيصاً كي توضع لتدس فى الحزام، وكان كلٌ منهما يحملها دائمًا فى رحلاته. بعد ذلك قاما بوضعه داخل الحفرة بكل حرص، ثم تأملاه وكلٌ منهما يشير إلى صدره بعلامة الصليب، وتلا هوج صلاة قصيرة تنتهى بعبارة:

– فلترقد روحك فى سلام!

– فلترقد روحك فى سلام! كرر كلوڤيس وراءه بعد أن خلع غطاء رأسه الصوفى.

هكذا عادت "الأميرة الحسناء" أدراجها بسهولة على نفس آثار حوافرها التى ارتسمت فى الأرض خلال ركوضها الأهوج منذ قليل. أما كلوڤيس، فكان الآن يفكر أنهما لن يركضا بنفس سرعة الذهاب، وراح يتلفت بين حين وآخر ليتأكد من أنه لا يوجد أحد فى أعقابهما.

كان أطفال أموند يلعبون فى الفناء، عندما دلف هوج وتابعه مرة أخرى أمامهم. كان الظلام على وشك الهبوط، فقد أصبح النهار قصيراً جداً. هرع چيفروا للقائهما بعد أن كان منهمكًا فى تجفيف عرق جواده بالقش بعد الجرى. قفز هوج نازلاً من على فرسه، بينما كان الصبى قد تعرف على والده.

– أبى! تمتم الصبى ببؤس.

اقتربت پترونى، شقيقته الوسطى، بدورها فقال لها شقيقها:

– لقد مات أبونا... تعالى، علينا أن نبلغ أمنا.

– و"الملك الجميل"؟ تساءلت پترونى.

– من؟ سألها هوج متعجباً

– صقر أبى.

– لقد اختفى.

– لكم كان طائراً جميلاً، بريشه الرمادى وعنقه الأحمر! قالت الفتاة، والتى بدت متأثرة بفقدان الصقر أكثر من وفاة والدها، وكأنها على ما يبدو لم تدرك معنى ذلك.

وقف هوج مشدوهاً، وهو يشعر تقريبًا بالأسف على عودته، وهو يحمل معه الخراب. ساعده اثنان من الخدم فى إنزال جثمان سيدهما من على الفرس، فى حين خرج القسيس على عتبة الكنيسة الصغيرة بعد أن سمع الجلبة فى الفناء. سمنته المفرطة جعلت نزوله سريعًا على

السلالم الأربعة، الموجودة على عتبة الكنيسة كمغامرة محفوفة بالمخاطر.
لو لم يكن هوج حزينًا، لكان ابتسم وهو يشاهد هذا المنظر.

- لقد مات سيدك. هكذا أعلن له هوج

- هوج! هكذا خرجت أود من المنزل بعد أن دفعت بابه الثقيل ذا الضلفة الواحدة. وحبيبى أموند المسكين، كيف تأتينى به؟

- لقد وجدته هكذا فى الغابة الملعونة... وقضى نحبه بين ذراعى.

- ولكن من الذى قتله؟

- إبل... شخص يُدعى إبل... لقد همس بهذا الاسم قبل أن يموت.

- إبل؟ ومن يكون إبل هذا؟

- هذا هو ما سأسعى لإيجاده! وأقسم بشرف هوج دى روامون! هكذا رد هوج وهو يبصق على الأرض. ها أنا أقسم بذلك، سوف أنتقم لابن خالتى، أؤكد لك يا عزيزتى أود.

- آوه، ما أجمل سلام ربك! وهدنة ربك! هكذا وجهت أود كلامها هذا للقسيس المسكين، وكأنها توبخه، ثم اقتربت من جثة زوجها، التى وضعت على أريكة حجرية. شاعراً بتحرج شديد، رفع القسيس رأسه إلى أعلى، وقد بدا حزينًا، وهو يشير على صدره بعلامة الصليب، ثم راح يصلى بصوت غير مسموع. عاد إلى الكنيسة الصغيرة، ثم خرج مرة

أخرى ومعه إناء من الماء المقدس، راح يرش به جثمان المتوفى، وبعدها بخره بمبخرة يفوح منها الدخان، لوح بها بقوة حول الجثمان.

بعد ذلك قامت خادماتان كبيرتان فى السن بتغسيل الجثمان غسلاً جنائزيًا. أمسك الخادم بجثمان المتوفى بين ذراعيه فوق حوض بينما راحت الخادمتان تصبان الجثمان بمغرفة منقوعة بالماء الساخن الممتزج بأعشاب، رائحتها عبقة. فى الوقت نفسه، كان القسيس راكعًا على ركبتيه، يتلو بعض آيات الأنجيل.

أمضى هوج ليلته مرة أخرى فى منزل أموند، وحضر جنازته فى اليوم التالى. بعد ذلك امتطى فرسه، وهو يحيى أود التى وقفت تودعه محاطة بأطفالها فقال لها:

- سوف أنتقم له! صاح هوج وهو يحث فرسه "الأميرة الحسناء" على الركوض بشكل أسرع.

حامت الغربان بشكل غير منتظم فوق المنزل ذى الحجارة الصفراء التى انعكست عليها أشعة الشمس الخافتة على استحياء، وكأنها تشارك هى الأخرى فى الأجواء الحزينة المحيطة. هكذا لن يرى أموند بعد الآن المنزل المنتصب فى غطرسة، والذى طالما تفاخر به. تجمعت الغربان وعلا نعيقها ثم بدأت تتباعد.

راح كلوقيس يتابعها بعينيه، وهو يتنهد، فقد كان عليه أن يعبر من جديد تلك الغابة الملعونة.



٣

عندما دق جرس الكنيسة الضخم إيذانًا بصلاة الليل، كان رئيس الرهبان پونس دى تورنون يعانى من كابوس أثناء نومه. رأى البابا واقفًا ينتظر على باب الدير، ولم يفتح له أحد، فعاد أدراجه، وهو يزفر من الغضب، فسارع پونس ممتطيًا جواده، محاولاً اللحاق به دون جدوى. استيقظ مفزوعًا، وهو يتصبب عرقًا، وقد تحقق فقط من قرع أجراس الكنيسة. لما استرد وعيه ونهض، كانت أذناه تطنان، فوجد صعوبة فى تثبيت نظره على المخطوطة الصغيرة الموضوعة على رف صغير على الحائط بجانب فراشه البسيط، الذى يوجد مثله العديد فى القاعة الطويلة، التى كانت بمثابة عنبر للنوم لحوالى عشرين راهبًا.

ارتدى فوق ملابسه الداخلية التى بلا أكمام، سترة الراهب[١] التى لها أكمام ضيقة، فشعر ببرودة شديدة فى ذراعيه، ثم العباءة الفضفاضة

---

(١) زى الراهب، وهو عبارة عن سترة منتفخة ذات أكمام طويلة ضيقة، تُلبس عادة على الجسد مباشرة فى فصل الصيف، أما فى فصل الشتاء فيُلبس تحتها لباس داخلى من دون أكمام.

المشقوقة من الجانبين، وفى النهاية وضع غطاء الرأس الخاص بمنصب الأبيل. راح يعدل من شعره الذى خطه الأشيب بأصبع متوترة وبسرعة، وقد قُص على شكل دائرة مثل التاج. نظر أمامه تجاه عنبر الرهبان الذى كان الظلام ما زال مخيمًا عليه، إلا من ضوء شمعدانين متواضعين، وضعا فى أول العنبر وآخره. على ضوئهما الخافت، رأى يونس باقى الرهبان، وهم يقومون بنفس الإيماءات المألوفة.

كى يكون مثلاً يُحتذى به، بما أنه القدوة فى هذا الدير، أسرع يونس، رئيس الرهبان، إلى الدرج الضيق المنحدر الذى يقود مباشرة إلى الكنيسة. هرول خلفه الراهبان الأخان روبر وأديليلم، فهما المسئولان عن الصلاة. فى صمت مطبق، راحا يمشيان خلفه، وفى قدميهما نعلان مفتوحان، وأتبعهما باقى الرهبان. حارس الأشياء الثمينة فى الكنيسة، والذى ينام فى ركن بعيد داخل الكنيسة على حصيرة من القش تغطيها كسوة من الصوف، كان قد أضاء الشموع تمهيداً للصلاة.

رغم أن يونس دى تورنون كان قد تولى منصبه ككبير القساوسة لدير شيز - ديو منذ حوالى عام، فإنه كان عامًا حافلاً بالأنشطة والأحداث. فما أن أنتُخب لهذا المنصب حتى سافر إلى إيطاليا، حيث التقى بالبابا أوربان الثانى، ومجلس مدينة بياتشينزا هناك. أشاد الجميع بكونه رجلاً شديد الذكاء، مليئًا بالحيوية، رابط الجأش وعنيداً.

مثل سلفه جريجورى السابع، وكان يعرف كيف يصد ويقف نداً للإمبراطور هنرى، رغم أنه رابع رجل فى السلطة والنفوذ[1].

و لكن أهم ما فى الأمر، أن المشاركين فى المجلس كانوا قد تعجبوا بشكل خاص من قصص الوفود القادمة من قسطنطينية، وهى تحمل نداء عامًا، تطلب فيه المساعدة ضد الوثنيين، العرب الملاعين، الذين راحوا ينتزعون فى الواقع شيئًا فشيئًا، الممتلكات الآسيوية من إمبراطور المشرق، بل سيطروا على أماكن العبادة المقدسة فى مدينة القدس.

- إن إمبراطورنا باسيليوس[2] ألكسيس الكبير، يطلب مساعدتكم. هكذا اختتم مبعوث الإمبراطورية كلمته، وهو شاب قوة البنيان، طويل أسمر البشرة، وله لحية وشارب مشذبان جيداً. رن صدى صوته فى الصرح الواسع الملون الجدران. أصغى إليه جموع كبار رجال الدين بانتباه كبير، وهم يراقبون بتفصيل وباندهاش كل فرد من أفراد الوفد وألوان ملابسهم الزاهية الألوان الذين أحاطوا به. فأقمشة ثيابهم الناعمة الباهظة الثمن، وأزياؤهم المزدوجة الكسرات، والحلى الثمينة التى كانت تشبك معاطفهم، كل هذا كان يُظهر ترفًا غير معهود فى الغرب.

لم يتأخر رد فعل البابا.

---

(١) هنرى الرابع، الإمبراطور الألمانى، كان قد ذهب إلى كانوسا، كى يطلب الصفح من جريجورى السابع فى يناير ١٠٧٧ .

(٢) إمبراطور بالإغراقية.

- سوف نقوم بمد يد المساعدة لكم. أجاب البابا بنبرة صوت هادئة بدا فيها التصميم.

تنهد كبار رجال الدين من حوله، ولكنهم هزوا بالتحضير رؤوسهم بالإيجاب. وسرعان ما اتُخذ قرار بتجهيز لمجلس الأمن فى فرنسا، وذلك حتى يبدأوا النظر فى ظروف الإغاثة. إنه المجلس الذى يضم الآن جميع أساقفة وبطرياركية المملكة، بما فى ذلك أسقف مدينة كليرمون، الذى كان من المقرر عقده قريباً.

هكذا عاد يونس، متحمساً إلى مدينة كليرمون، وكذلك قبل أيام قليلة من وصول البابا أوربان الثانى، الذى جاء لحضور الاحتفال الدينى لمدينة پووى، ألا وهو عيد القديسة مارى فى الخامس عشر من شهر أغسطس(١).

لقد التقى يونس فى هذه المدينة المقدسة، والتى يرتادها الحجاج دائمًا، بالإضافة إلى أديمار دى مونتيل، أسقف البلدة ألدبر، وكبير أساقفة مدينة بورچيه، ودوراند، أسقف مدينة كليرمون وهوج أسقف مدينة جرونوبل.

سرعان ما فاز أديمار دى مونتيل بثقة وتقدير البابا أوربان، كى يكون خليفته. أليس هو من استقبل البابا استقبالاً مهيباً؟ أقل مبادرة

---

(١) عام ١٠٩٥

من مبادرات اهتمامه تجاه البابا أنه فتح له باباً فى كاتدرائيته كان مخصصاً لدخول البابا، ثم أغلقت على الفور بعد مروره؟ لقد قدر البابا أوربان هذه اللفتة كثيراً.

شعر يونس بالغيرة قليلاً من ذلك، ولكن عزاه فقط أنه قام باصطحاب الحبر الأعظم بنفسه إلى دير تشيز - ديو.

الحق يقال إن البابا أوربان الثانى[1] قد انبهر بتميز الرهبان هناك، وكذلك بالأجواء المحيطة، التى كانت تتسم بالتوحش وبالترحيب الحار فى آن واحد. ود يونس دى تورنون أن يُبقيه لفترة أطول، كى يصحبه فى زيارات لأماكن عبادة صغيرة عديدة، قام الدير بإنشائها ونشرها فى منطقة أوفيرنى القريبة. لكن البابا كان يريد أن ينزل ضيفاً على كونت، مدينة تولوز، ريموند الرابع دى سان چيل، ولكنه بالطبع وتقديراً لمجهودات يونس، كتب قراراً رسمياً، يعد يونس بضمان الحماية البابوية، التى تضمنت جميع ممتلكات الكنيسة.

- لماذا هذا الكابوس؟ غمغم يونس، وهو يهم بالجلوس فى المكان المخصص له وسط الرهبان الذين كانوا جميعاً موجودين لحضور الجلسة. لهذا استطاع روبير وأديليلم أن يبدآ.

---

(١) البابا أوربان الثانى (أود دى شاتيلون)، كان قد شغل منصب راهب بينديكتين سابقًا فى مدينة كلونى، ثم انتخب البابا فى آذار / مارس عام ١٠٨٨

دق جرس خفيض، معلنًا بداية الصلاة. ارتعد يونس، فقد كانت أرضية الكنيسة تبعث ببرودة شديدة، فشعر وكأن قدميه قد تجمدتا. برغم أن المكان كان يعمه الخشوع، وقف الأب ويداه متشابكتان، وقد أخفض عينيه لأسفل مثل رفاقه، ومن ير هذا المشهد يمكنه الاعتقاد بأنهم جميعًا فى حالتى تأمل وخشوع عميقتين للغاية. يونس كان فى الواقع يفكر فى رحيله الوشيك إلى مدينة كليرمون حيث سيقتنص كل فرصة متاحة، كى يقدم جزيل الشكر شفهيًا إلى هذا البابا، الذى قدر فيه شخصيته المتسلطة والمتفهمة فى آن واحد. وبالفعل، فقد جاء رسول فى الليلة الماضية، ليعلن أن البابا أوربان الثانى قد وصل إلى دير سوفينى، الذى يقع على بُعد حوالى عشرين فرسخًا، شمال مدينة كليرمون، حيث سيكون من المقرر أن يكون كل رجال الدين موجودين فى أستقباله والترحيب به. شعر يونس بخيبة أمل طفيفة، حيث كان يأمل فى زيارة أخرى من البابا لديره تشيز- ديو، ولكن البابا فضل الذهاب إلى دير كلونى. ألم يكن هو الآخر راهبًا من عشرين عامًا؟ كان ذلك إذن من الطبيعى. إن خطوة زيارة البابا لدير سوفينى أزعجت بشكل أكبر الأب يونس، الذى غار من إقامة الاجتماع فى أحد الأديرة المتواضعة الموجودة حول كلونى، وربما كان ذلك هو سبب وأصل الكابوس.

دق الجرس الخفيف مرة أخرى، معلنًا نهاية الصلاة، فأخرج يونس من استغراقه وأحلام يقظته وبالطبع لم يكن يصلى. شعر بالخزى من نفسه، فألقى بنفسه منبطحًا على بطنه فى حركة مسرحية عند قوائم

المذبح، فى رمز للتذلل أمام الإرادة الإلهية، ثم نهض واقفًا، ورسم على صدره بعلامة الصليب فى عجالة وبشىء من الفوضوية، قبل أن يعود من جديد إلى عنبر النوم. خلع غطاء رأسه وسترته، وقد بدا متعجلاً، ثم تهاوى على فرشته، وسرعان ما غط فى نوم عميق، ولكنه مريح. كان ما زال أمامه بضع ساعات، حتى يحين وقت صلاة الشروق[١]؛ حيث أصبح موعد الشروق يأتى متأخرًا، فى مثل هذه الأيام القاسية لموسم خريف لعين.

كان الاستيقاظ الثانى ليونس دى تورنون أقل توترًا، وهكذا أدى صلاة الشروق بشكل مكثف قبل أن ينضم إلى قاعة الطعام، حيث كان الراهب المسئول عن الطعام[٢] قد قام بتوزيع الخبز فى مكان كل من سيجلسون، بينما جلس راهب آخر وبدأ يتلو بصوت عالٍ محتوى مخطوطة دينية صغيرة فى لفافة متهالكة.

أعلن يونس دى تورنون عن نيته عقد اجتماع مع الرهبان المسئولين عن الصلاة[٣] قبل مغادرته، وبمجرد انتهائه من وجبة الطعام الضئيلة هذه، سار الأب يتقدم موكبًا، يتبعه فيه المسئول عن استقبال الضيوف،

---

(١) صلاة الشروق وفيها تتلى الأناشيد الدينية، وتقام عادةً بعد صلاة الفجر وقبل الصلاة الليلة.

(٢) هو رجل دين يُكلف فى الدير بتوزيع الطعام، كنوع من التوفير.

(٣) الرهبان المسئولون عن الأعمال الروحية فى الدير.

ثم المـرض، ثم خـادم الغـرف، ثم الحـارس، ثم العامل، ثم القسيـس، ثم الراهـب الذى يرتل الأنـاشيـد أثناء الصلوات، ثم مسئـول التـغذية. أتبعوا كلهم الأب إلى قاعة الاجتماعات، وكانت شديدة البرودة.

فى اليـوم نفـسـه، عـانـى دوران دى بريدن وهو أسـقف مـدينة كليـرمـون، مـن مـخـاوف أخـرى. فـقـد راودتـه كوابيس هو الآخـر، وكـان يستيقظ كل صـبـاح منحرف المزاج. راح ينهر بشكل مستمر كل تعس يتصادف تجوله فى سكن الأساقفة. بل لم يعد يعرف أحد، كيف يتعامل معه منذ عودته من مدينة بووى، والتى حضر فيها احتفال صعود العذراء مـارى للسمـاء. لم يكن التحـضيـر لمجلس الأمناء، بمـهمـة سهلة، وكـان دوران قد أمر بترميم المبنى العتيق على عجل.

فى هذا الصباح، أقيم القداس بسرعة فى كاتدرائية قديمة، تتسرب المياه من أسقفها منذ بضعة أيام. كان فصل الخريف هذا ممطراً حقًا، فـأسطح هذه الكاتدرائية العجوز، عمرها مائة وخمسون عامًا، وبالتـالى كـان لا بد من وضع تمثال العذراء الشهير لصاحبه رجل الدين اليوم[(١)] فى مكان آمن لحمايته من الكوارث. لهذا أُمر بوضع السقالات بسرعة، وتم استدعاء جميع عمال بناء الأسقف، ونجارى البلدة.

---

(١) تمثال العذراء عمل فنى رائع من الفضة والذهب والأحجار الكريمة، قد يضاهى تمثال القديسة فوى فى دير كونك. تم الانتهاء من نحت هذا التمثال الشهير فى القرن العاشر، وكان بمثابة نموذج يُحتذى به لباقى تماثيل العذراء ذات الطابع الرومانى فى منطقة أوڤيرنى. وقد اختفى هذا التمثال خلال الثورة.

- سوف يصل البابا بين عشية وضحاها، وها هى كل الأماكن التى فى وسعى أن أقترحها عليه، كى نتمم بها اجتماعاتنا. هكذا قال كبير الأساقفة بأسف، وكأنه يندب حظه العاثر، ثم راح يكمل: وها هم قساوسة القديسة مارى الرئيسة الملاعين يعيدون بناء كنيستهم!

- ومع ذلك يا سيدى، ستستطيع دائمًا أن تلجأ إلى الكنيسة القديمة، فهى ما زالت بحالة جيدة. ثم إنه يوجد الكثير من الكنائس هنا فى مدينة كليرمون، أليس كذلك؟ ولكننا سنكون قد انتهينا فى الوقت المحدد.

هكذا رد عليه القس أربير، وهو رجل طيب وصريح، ودائمًا ترتسم الابتسامة على ركن شفتيه، وكان المسئول عن أعمال الترميم، ولهذا حاول تهدئة كبير الأساقفة، الذى اكتفى بهز كتفيه، وخرج من البوابة الجنوبية، التى تقع على بعد خطوات قليلة من القصر.

- لحسن الحظ، إننا قد قمنا بإعادة ترميم الغرفة المخصصة للبابا. هكذا صرح كبير الأساقفة إلى إيتيه سكرتيره، الذى وجد صعوبة فى ملاحقة خطوات سيده السريعة، فقد كان عصبياً بشكل لم يعهده من قبل.

وفعلاً، كانت الغرفة المخصصة للبابا عبارة عن قاعة كبيرة كُسيت جدرانها بستائر وملاءات حمراء وزرقاء، قدمها تجار المدينة؛ أما العوارض والعوارض الصغيرة فقد أُزيحت عنها أنسجة العنكبوت، وبُلطت الأرضية ببلاطات من الطين الأحمر المحمى، وقد تم دعكها كما يجب،

حتى استعادت إلى حد ما بريقها الأصلى. وأخيراً وضعت قطع أثاث جديدة حول السرير الذى انسدلت من حوله الستائر فى محاولة لإضفاء جو أكثر حميمية على المكان.

- إن ما تسمونه قصراً، ما هو إلا ممر تعبث به تيارات الهواء من كل جانب. هكذا قال كبير الأساقفة دوران متذمراً وقد غدت ملامح وجهه عابسة، بل قاسية يوماً بعد يوم، ثم أضاف: إن الهواء القادم من الجبال أصبح قارصاً ولا يُستهان به.

ومنذ يوم الخامس عشر من شهر أغسطس، كان إيتيه، سكرتير دوران كبير الأساقفة، يمضى أيامه فى نقل أوامر دوران المختلفة، الذى كان يحاول أن يتنبأ بكل شىء.

- يجب علينا أن نحظر شواء اللحوم فى الشوارع. فمع كل هذه الوفود التى يجب أن نطعمها، فإن أصحاب أماكن الشواء والمطاعم قد يتسببون فى اندلاع الحرائق فى المدينة!

- هل احتياطى الحبوب الموجود لدينا يكفى؟ يجب أن تفكروا فى كيفية جلب المزيد من النبيذ... لا بد أن يضع سكان مدينة كليرمون مخازن منازلهم تحت تصرف زوارنا، وأيضاً موائدهم الغذائية، وحتى مخازنهم!

هكذا كان على منادى المدينة الكثير من العمل لنقله إلى الأهالى، رسائل وتعليمات الأسقف المتلاحقة.

والآن كان من الضروري مواجهة وصول الشخصيات المهمة. في ذلك الصباح، وكما كان الحال منذ أيام عديدة، وقف إيتيه يعد الوافدين الجدد.

– ها هو ريتشييه، كبير أساقفة مدينة سنس، وهوج كبير أساقفة مدينة ليون، قد عبرا الساحة قدومًا من باب بوتيرن[1]، وسوف يأتيان لرؤيتنا فى الساعة الثالثة بعد الظهر. وهكذا سيكون لدينا قريبًا عشرة من كبار الأساقفة منهم:

إيف ، وهو أسقف مدينة شارتر، وأجانوان أسقف أوتون، وپيير أسقف پواتييه، وهمبولد أسقف ليموچ، تم الإعلان عنهم.

– مع أولئك الموجودين بالفعل هنا، سيصل عددنا إلى حوالى مائة رجل دين. هكذا تنهد دوران ثم أضاف: قل لى بحق القديس أجريكول والقديس ڤيتال، أين سأضعهم؟

من خلال الممر الضيق الممتد بين الشجيرات الصغيرة، التى سقطت جميع أوراقها، وصل رجلان مجهولان أمام الباب المتواضع لمسكن الأساقفة، فأسرع دوران يحاول الانسحاب إلى مخدعه، عندما نبهه حارس الكاتدرائية قائلاً:

– هناك زائران يرغبان فى مقابلتك.

(١) باب خفى فى الأسوار المحيطة بالمدينة.

– أدخل الأول. رد عليه دوران بانزعاج لم يستطع احتواءه

"سيدى" هكذا قال الشاب الذى ظهر فجأة، وكان يرتدى طاقية صوفية لتحميه من ذلك البرد القارص؛ بينما أعطته وجنتاه المكتنزتان بشكل غريب انطباعًا طفوليًا.

– سيدى.. كرر الشاب وهو ينحنى، وفى الوقت ذاته رفع غطاء رأسه فتدلى منه شعره الأشقر بشدة.

– من أنت؟ سأله دوران، وهو يعقد حاجبيه.

– أبل دى پدرياك... لقد كلفنى الكونت ريمون بأن أكون فى خدمة حبرنا الأعظم سيادة البابا... ومنذ وجوده فى سانت جيل، وأنا لا أفارقه. ونحن الآن فى سوڤينى، وقد جئت فى طلبكم.

– فى طلبنا؟ سأله دوران باندهاش.

– لقد أرسل مولانا الحبر الأعظم أحدهم لإحضار كبير أساقفة مدينة بوربون، ويأمل فى حضورك المقابلة.

هب دوران واقفًا فجأة، وأطاح بظهر يده كرسى الأسقف المصنوع من الخشب الفاتح، بطريقة عنيفة فى اتجاه الجدار. كان يغلى من الغضب.. صاح فيه وقد فقد أعصابه:

– هذا جنون، لا يمكننى أن أترك بلدتى، بينما البابا على وشك المجىء.

– إن بلدتنا لا تبعد عن هنا سوى مسافة نهار واحد طويل على الخيل. قال لهم إبل بهدوء.

– نهار واحد... نهار واحد...

– لا يمكنكم التخلف... إذا فعلتم، فسينزعج الحبر الأعظم جداً.

– اتركني للحظة، فلدى زائر آخر.

جلس دوران مرة أخرى، وقد بدا واضحًا أنه أذعن للأمر، ولكنه كان لا يزال غاضباً للغاية.

كان الزائر الثانى هو هوج دى روامون، وكان قد وصل فى ساعة متأخرة من مساء اليوم السابق، ولكنه لم يجرؤ على إزعاج خاله، ولهذا جاء فقط هذا الصباح، ليقدم نفسه فى قصر الأسقفية، حيث جلس ينتظر خاله فى صحبة المبعوث الخاص للبابا. كان إبل دى پدرياك هو من دخل أولاً، تاركًا هوج مرتاباً فيه بشدة، ودلف إلى مخدع خاله، وهو ما زال مندهشاً بسبب ما حدث. ومع ذلك فكر جيداً وأعقل الموقف، فهذا الشاب لا يمكن أن يكون قاتل ابن خالته، إذا ما كان قد جاء لتوه من سوقينى، لقد كان هوج مضطرباً.

– هوج! عاودت دوران الابتسامة ما إن رآه.

فقد كان دوران يحب ابن شقيقته كثيراً، كما أنه كان يشبهه بطريقة غريبة. نفس الشعر المحمر قليلاً، فقط يشوبه بعض الشعرات

البيضاء عند الأسقف، ونفس العيون الرمادية التى تعلوها بدقة رموش داكنة، وحتى نفس الأنف الملتوية، والذقن السخى. فقط، كان بنيان دوران أضعف.

- ماذا جئت تفعل هنا؟ تساءل الخال.

- جئت بدافع الفضول، وأريد أن أعرف ما الذى سوف يعلنه البابا. فكثير من الشائعات تنتشر هنا وهناك.

- أجل، ولكن لا تحدثنى بعد الآن عن هذا الاجتماع ! هكذا قال دوران وقد عاودته المخاوف من جديد.

- أنا هنا لأقدم لك يد المساعدة. صرح له هوج

- أعلم أن السفر على ظهر الخيل لا يخيفك. فلتصحبنى إذن إلى مدينة سوڤينى، حيث يتحتم علىَّ أن أتبع المبعوث الخاص للبابا إلى هناك.

امتقع وجه هوج وهو يسأله:

- أهذا هو من يُدعى إبل الذى استقبلته قبلى؟

- نعم. لماذا؟

لم يرد هوج عليه، فنهض دوران مكانه، وراح يدلى لإيتيه سكرتيره ببعض الأوامر على عجل.

فى صباح اليوم التالى، وعلى بُعد عشرين فرسخًا[1] من موقع الكاتدرائية هذا فى اتجاه الشمال، أمر البابا أوربان الثانى برفع رفات القديس ماياول، وهو الرمز الدينى الشهير لبلدة سوفينى، وذلك فى قاعة الصلوات بالكنيسة. هكذا حضر الرهبان مراسم الاحتفال الدينى أمام رئيسهم، وكانوا فى آن واحد مستاءين من الانتقادات، التى وجهها لهم البابا، بسبب تواضع مستوى ضريح قديسه السابق، وأيضًا كانوا قلقين من نتائج المقابلة مع كبير أساقفة بوربون مع البابا أوربان الثانى، الذى استدعاه للحضور. فى خلال يومين، استطاع كبير الرهبان منهم أن يُقيم شخصية البابا. فهو شاحب الوجه، وتقاطيعه الدقيقة، حيث تلمع عيونه السوداء، وهذا الجسد الهزيل المتوسط القامة، يخفى وراءه طاقة رهيبة. نظرته ثاقبة، ومع ذلك يبدو رقيقًا فى أول تعامل، ولكنه لا يلبث أن يتحول إلى شخصية متسلطة، ما إن يستشعر مقاومة ما.

تقدم دوران دى بريدون داخلاً إلى الكنيسة بشكل لافت للأنظار فى اللحظة التى كان فيها الحفل على وشك الانتهاء. تقدم وراءه هوج وإبل، فراح وقع أحذيتهما يرن صداه على بلاطات الأحجار المربعة الفاتحة. كان البابا أوربان الثانى قد انتهى لتوه من مباركة قبر القديس للمرة الأخيرة، فما إن لمح دوران حتى نهره قائلاً:

– ها أنت أخيراً، وقد تأخرت كثيراً!

---

(١) الفرسخ وحدة قياس تعادل حوالى أربعة كيلومترات.

- رغم أننا قد ركضنا بخيولنا بسرعة رهيبة، حتى إنها منهكة للغاية، ونحن أيضاً.

- هذا لا يهم. هكذا أذعن البابا أوربان الثانى قبل أن يُكمل قائلاً: فسوف تكون موجوداً هنا من أجل اجتماعنا مع ذاك السيد الملعون لمدينة بوربون.

وصل أرشامبود الخامس، ومعه مجموعة من الأسلحة، بالكاد بعد وجبة العشاء التى كان يأملها خفيفة وبسيطة. يا له من حضور قوى!! ولكنه كان يبدو وقحًا، مما أثار استياء البابا سريعًا. تم إدخاله إلى قاعة الاجتماعات الخاصة بالدير، وهناك تجرد من سيفه، الذى كان معُبأ فى حزام غمده[1]، وخلع خوذته، ولكنه احتفظ بسترته المصنوعة من السلاسل المعدنية المُضفرة، فأعطى انطباعًا بأنه فارس فى حالة قتال. أثار ذلك حفيظة الحبر الأعظم، وكذلك الغطرسة التى صاحبت كل إيماءاته.

- أيها الفارس، ليكن فى علمك أن هذا الدير، رغم أن عائلتك قد ساعدت فى تشييده، لم يعد يتحمل الفظائع التى أنت وأسلافك اقترفتوها.

لم ينبس أرشامبود بكلمة، بل ظل واقفًا فى مكانه، مائلاً قليلاً إلى الأمام وساقاه منفرجتين إلى حد ما.

---

(١) سترة طويلة من المعدن.

– أنا ضد أى شخص يخطئ فى حق الدير. هكذا ضغط البابا على كل كلمة ينطقها، رن صداها تحت القبة الفاتحة اللون واستمر قائلاً:

– لذا أطلب منك رسميًا أن تتعهد بشرفك أمامى وأمام الأسقف دوران أن تحترم بشكل كامل جميع التبرعات التى قدمها أسلافك من قبل.

بدا أرشامبود، وكأنه يفكر فيما قاله البابا له، ثم تقدم خطوة إلى الأمام وقال بصوت متهدج من الغضب:

– فى المقابل، هل تسمح لى برفع الحرمان الكنسى الذى لا يزال معلقًا على روح والدى؟

– تعهد أنت أولاً!

أطرق أرشامبود يفكر للحظة قبل أن يُعلن:

– أقسم بقبر والدى أن أحترم هذا الدير.

– حسنًا يا بنى... وأنا أرفع الحرمان الكنسى عن والدك.

غمغم أرشامبود بكلمة (شكرًا)، تكاد تكون غير مسموعة... ثم تقدم بخطى واثقة، ورأسه مرفوع إلى أعلى، وكأنه يمحو ذله، خرج عبر الباب الواسع الذى ظل مفتوحًا على مصراعيه، وسرعان ما وصل إلى مدخل الدير. على الجانب الآخر من الجدران، سمعه الجميع، وهو يعطى بعض الأوامر، ثم سمعوا وقع حوافر خيله هو وحاشيته، وهى تركض وقد خفت جلبتها شيئًا فشيئًا من حافة الغابة.

فى عمق القاعة، كان هوج قد راقب المشهد برمته. تأثر بشكل شديد لسطوة البابا، وأعتقد أن البابا أوربان الثانى سيجلب لمدينة كليرمون كل ما كان يريده ويرغب به. فهو نفسه كان بالفعل متفقاً تماماً معه فى الرأى، مهما كان.

كان دوران قد استأذن بالانصراف من البابا أوربان الثانى الذى أكد وصوله إلى كليرمون بعد يومين. أسرع دوران وامتطى جواده وهو سعيد بهذه الرحلة على الخيل مع ابن شقيقته، حتى إنه عندما طلع النهار عليهما فى الطريق ، بدت له الليلة السابقة، التى قضاها مع هوج فى النزل، وكأنها نوع من الترفيه.

عندما تراءت له الأسوار المحيطة بالمدينة عاودته مخاوفه من جديد. فتح له الرقيب الضلفتين الضخمتين الثقيلتين لباب شامبت[١] وسرعان ما أعلمه بكل آخر تطورات الأحداث الأخيرة:

- هناك أناس يأتون من جميع الأنحاء، ويدخلون من جميع الأبواب ولم تعد بيوت الضيافة تكفيهم.

- ألم يفتح القساوسة بيوتهم للضيوف كما اتفقنا؟

- بالتأكيد، ولكن ذلك لن يكفى أبداً.

---

(١) فى مدينة كليرمون يوجد فى نهاية شارع المناء مكان يُسمى پورتوس وبه السوق، ويرجع ذلك إلى إنشاء مركز تسوق.

سلك دوران وهوج شـارع الميناء الذى يصل للنهـر، حـيث هالهم وجود تجمعات كبيرة من الناس والكثير من الغرباء.

- أترى يا خـالى أننى لست الفضـولى الوحـيد! أكد له هوج، وهو يضـحك بينما راح يشـد لجام فرسـه "الأمـيرة الحسناء" وأخذ يهدئ من روعها، حيث فزت وتوترت من جموع الناس الكثيرة حولها.

كان سكن الأسقفـية قـد امتـلأ على آخره بالضـيوف، الذين كان معظمهم ذوى مناصب مرموقة، ولهذا وجه لهم أب دير سانت ألير دعوة على العشاء. لقد استضاف ديره رؤساء أديرة تشيز - ديو، ودير سانت بنينى من مدينة ديچون وسان ريمى من مدينة رنس.

فى طريق العودة وجد دوران صعوبة كبيرة فى العثور على مأوى لهوج. لهذا رضا هوج بالنوم على فـرشـة بسـيطة، وضـعت على الأرض وشاركه فيها تابعه كلوڤيس، وراح فى سبات عميق. ما زالت الفتاة التى تحمل حزمة الحطب على كتفها تزوره فى منامه... انضم إليها منذ ليلتين إبل دى پدرياك.

فى اليوم التالى، شاهد رهبان الكاتدرائية منظراً غير مـألوف لهم بالمرة. تدفق عشرات كبار رجال الدين داخل كنيستهم، كى يحضروا صلاة الصباح الأولى. كانوا يرتدون عباءات مزينة بالمجوهرات، وفوقها صديريات طويلة من دون أكمام ذات ألوان متنوعة. راح العديد منهم يستكشف المبنى، حيث كان عمال البناء منهمكين فى أعمال الترميم على

السقالات. دخلوا من اتجاه الغرب، ثم راحوا يتأملون فى اتجاه الشرق، وبعد ذلك تقدموا بين صفين من الأعمدة المطلية بألوان، كان من الصعب تخمينها فى ظل العتمة التى تخيم على المكان، حيث تسلل ضوء النهار بالكاد الطريق الممتد فى قاعة العبادة.

– بحق القديس ڤاندريل، فالمكان يبدو عتيقًا ولكن جميل! هكذا هتف أودون دى نورماندى، وهو أسقف دير بايو هناك.

– بحق القديس ساتورنين، فهذا المكان يبدو كما لو كان الأبراميس (اسم كاتدرائية شهيرة فى مدينة تولوز)، هكذا أجابه إزارن، أسقف مدينة تولوز، والذى كان يمشى إلى جواره، وهو يشير إلى ذلك المكان الثمين الذهبى الحالم للمدينة ذات اللون الوردى.

فى كورس تلاوة الترانيم، كان هناك تمثال رائع لنسر من الذهب، تحط قدماه على الرخام السماقى، وهو على أهبة الاستعداد للطيران، بالقرب من مذبح الكنيسة. من ورائه وُضع تمثال للسيدة العذراء، والذى صممه فى الماضى أيضًا رجل الدين أليوم، وهو متخصص فى تصميم المجوهرات، وقد تم نسخه وتقليده لمرات عديدة.

– يا له من عمل مثير للإعجاب! هتف بصوت أجش أسقف ريس.

حدق فى وجوه الزوار بسكون غير عادى، تمثال السيدة العذراء وطفلها يسوع المصنوعان من الذهب والفضة، ينظران إليهم بعيون بؤبؤها الأسود مصنوع هو وما حولها من بياض القرن، وحجمه غير

متناسب مع حجم التمثال. بدا وكأنهما يدعوانهم بأصابع أيديهما الكبيرة غير المتناسبة إلى الاقتراب. مع ذلك عندما يرفع المرء عينيه إلى السقف المقبب، يراوده انطباع بأن المكان كان يتمتع بفخامة فيما سبق، ولكن هذا الانطباع يتلاشى عندما يدقق النظر إلى التقادم المؤلم، والألوان الزاهية التى انمحت وتدهورت. فقد تساقطت قطع من الجص فى المكان، وكان لا بد أن يكون المرء قوى النظر وذا خيال واسع، كى يتعرف على تمثال حمل صغير، ما زال موجوداً وله خلفية لا بد أنها كانت زرقاء ذات نجوم ذهبية.

تقدم أب سانت بينيى من مدينة ديچون، وهو رجل طويل القامة أشقر الشعر وغليظ التقاطيع، وانحنى خاشعًا يصلى أمام ضريح قديسى الشهداء أجريكول وڤيتال.

– يا للجمال! همس بالقرب منه أحد القساوسة، والذى كان على العكس منه تماماً، حيث إنه قصير القامة جداً وممتلئ الجسم، ثم قال له: تعال معى.

سار الأب وراء القسيس الذى قاده إلى كنيسة سان ميشيل الصغيرة والموجودة داخل الدير.

– انظر! ها هو الرداء الطاهر الذى أرسلته سيدتنا مريم العذراء إلى قديسنا بونيه.

هكذا لمعت عيون القسيس، وهو يقول ذلك.

فضل هوج دى روامون أن يتسكع فى وسط البلدة على حضور قداس الصباح. قادته قدماه إلى موقع كنيسة سانت مارى الرئيسية(١). لقد ازداد اهتمامه بهذا المبنى منذ أن شرع فى إعادة بناء قصره. حول قاعدة الكنيسة العتيقة التى ما زالت شامخة بأحجارها الضخمة غير المنتظمة الشكل، اتخذت شكل دائرة، ارتسمت على أرضيتها نماذج لكنائس صغيرة، سوف يتم بناؤها. لمح هوج رجلاً يقف فى الموقع، ومعه بوصلة ومسطرة، يرتدى سترة وصديرية صوفية طويلة، يتبادل الحوار مع اثنين من البنائين. كان أحدهما صاعداً على سقالة، منهمكاً فى وضع قطع من الأفريز التى من شأنها أن تستكمل الجدار. بينما الثانى راح يجهز عجينة تشبه الأسمنت.

- هل يعجبك ما تقوم به؟ هكذا بادر هوج بالكلام شاب توقف أمامه.

- نعم... وأنت؟

- أنا؟ أنا أعمل هنا.

- ما الذى تقوم به؟

- أنا أقوم بتقطيع الحجارة، وبما أننى متمكن من عملى، سأقوم بنحت تماثيل الغربان الخاصة بالكنيسة. أُدعى روبير. وأنت؟

- هوج.

---

(١) كنيسة نوتردام دو پور.

– اتبعنى!

قاده روبير إلى كوخ فيه رجل عجوز يعمل جالساً.

– أبى، هوج. هكذا قدم روبير كلاً منهما للآخر.

– انظر إلى هذه الغربان!

أمسك روبير بأحد تماثيل الغربان، بين راحتى يديه، وقد بدا منحوتاً بشكل بديع، فقال له هوج:

– يا له من تمثال رائع! أتستطيع عمل مثله من أجل قصرى؟

– كان ذلك سيسعدنى، ولكن لدى الكثير من العمل هنا!

أُعجب هوج بروبير، فنظرة عينيه العسليتين الصادقة، كانت تلمع مضيئة وجهه ذا الملامح العادية. كان شعره السميك يبدو كقبعة.

– لدى العديد من المشروعات. أكمل روبير: لكم أود أن أقوم بنحت كرانيش أعمدة الكورس:

هكذا قال روبير النحات، وهو يلتفت ليرفع ستاراً قماشياً كبيراً كان يغطى تمثالاً ضخماً. ظهر منها رأس أحد الأعمدة التى انتزعت صيحة إعجاب من هوج.

– ها هو تمثال الخطيئة الكبرى! قال روبير، وفى صوته نبرة انتصار.

اقترب هوج من التمثال يتأمله.

- بهذه النماذج، أتمنى أن يوكل لى القيام بنحت تماثيل الكنيسة كاملة! أضاف روبير معلقًا.

- لو كنت مكان الرهبان المسئولين عن المكان لكنت وعدتك بذلك فى الحال. رد هوج بحماس.

لمعت عينا هوج وهى تتفحص تفاصيل تمثال حواء، الذى برز فى زاوية من المكان، وهى تقوم بإغراء آدم المسكين، وفى يدها ثمرة تشبه الرمان، بعد ن اقتطفتها من على شجرة يلتف حول جذعها ثعبان ضخم.

- ومن هذا الذى هناك؟

- إنه حارس الجنة.

عندما جلس هوج القرفصاء اكتشف تمثال الرب، وهو يقبض على لحية آدم الذى يمسك بدوره بخصلة من خصلات شعر حواء.

- ولكن من أين أتيت بكل هذا؟

- لقد روى لى راهب طاعن فى السن قصص الإنجيل، عندما كنت طفلاً صغيراً، فكونت لها صوراً فى مخيلتى. وما زال لدى العديد من هذه الصور الأخرى فى رأسى!

- أنت حقًا تعجبنى! دعنا نحتفل بذلك... خذنى إلى حانة.

كان البرد قارصًا فى الخارج. مد أحد الشحاذين الذى، بُترت ساقاه، يده عندما رأى هوج الذى ناوله قطعة عملة معدنية. على بُعد خطوات كانت هناك امرأة واقفة تشوى ثمرة الكستناء على الفحم، وتبيعه للمارة.

قاده روبير إلى حانة المعلم چاك الذى حياه بحرارة، فقال روبير لهوج:

- سوف أتزوج ابنته برتيلد!

كانت الفتاة الشابة تقوم بوضع إبريق وبعض الأكواب على مائدة فى نهاية القاعة، عندما استدارت ورأتهما ابتسمت ابتسامة عريضة أضاءت وجهها ذا الملامح الرقيقة. غير أنها بدت منهمكة فى العمل وليس لديها متسع من الوقت. فمع واقعة مجلس القساوسة والضيوف الذين حلوا على المدينة، فقد تضاعف عدد زبائن الحانة. أما والدها فقد جلس منتفخًا بعلياء، غارسًا أصابعه فى حزامه، وفى عينيه نظرة رضا واضحة عن موقف العمل فى حانته. بينما راحت الخادمات يركضن هنا وهناك، لتلبية طلبات الزبائن.

على الطاولة المجاورة، جلس رجلان يتحدثان بصوت عال. وصل رجل ثالث وانضم إليهما. كان يرتدى قفازًا من الجلد البنى فى يده اليسرى التى يقف عليها طائر ذو لونين أحمر ورمادى.

- ها هو إبل! صاح أحدهما قبل أن يُكمل: مرحبًا بابن العم! أأنت أيضًا مهتم باجتماع مجلس القساوسة؟

انجذب انتباه هوج تمامًا إلى ما يدور على الطاولة المجاورة، حتى إنه لم يعد يسمع ما يقوله له روبير، كما أنه لم يول اهتمامًا لبرتيلد الساحرة الجمال التى كانت قادمة، وفى يدها قارورة النبيذ وبعض الأكواب.

– من أين أنت آت؟

– لقد اصطدت الكثير والكثير فى الأيام القليلة الماضية! هكذا رد المدعو إبل، وهو يُلقى بالسيف الذى كان يتدلى من حزامه على المنضدة ثم أكمل: إنه هذا الطائر يحقق إنجازات رائعة. فرغم أنه متمرد قليلاً، وليس دائمًا ما يكون مطيعًا، فإنه سيكون واعداً جداً إذا ما قمت بتدريبه جيداً.

– وما الذى جلبته معك ؟

– كل ما هو جميل وسمين!

– ألم تكن تصيد الفتيات من قبل؟

– بلى! بل ما زلت أركض وراءهن، حتى إذا ما تمنعن واعترض بعض المزارعين البسطاء، فضربة جيدة من هذا السيف تجعلهن يوافقن!

قال إبل ذلك، وهو يرمى بمعطفه البنى على مقعد قريب، ويضحك ضحكة عالية مستهترة، جعلت هوج لم يعد يطيقه. لقد أصبح الآن مقتنعًا بأنه قد وجد الهدف الذى يريد الانتقام منه، لهذا ألقى نظرة أخيرة على الطائر ثم نهض واقفًا.

– يا لك من رجل يا إبل! هكذا راح صديقاه يهللان، ويصدمان أكوابهما ببعضهما البعض.

– سوف نلتقي مرة أخرى. قال هوج ببساطة لروبير الذى بدا متفاجئًا لمغادرته المتعجلة هذه.

وقف هوج فى الشارع حتى هدأت أعصابه، ثم راح يفكر وهو يتمشى عائدًا إلى القصر الأسقفى: بالطبع ليس هناك رجل متغطرس واحد يُدعى إبل، وبالطبع ليس هناك صقر واحد له رقبة حمراء. ومع ذلك راوده حدس قوى بأنه قد التقى لتوه بقاتل أموند.

كان مستغرقًا تمامًا فى همومه وأفكاره، حتى إنه لم يعر أى انتباه لبعض المهرجين والعازفين، الذين كانوا يعزفون بانسجام على آلة موسيقية تشبه العود. على بُعد بضع خطوات أمام بوابة تيرال (أحد أبواب المدينة)، وقفت راقصة رشيقة، وراحت تتلوى على أنغام دف صغير، يدق عليه بابتهاج عازف، راح يؤدى حركات بوجهه. ليس بعيدًا عنهما وقف مدرب قرود يجذب بحبل قرده الذى بدا مستثارًا. عمت أجواء احتفالية غريبة على البلدة، ولكن كل ذلك لم يلفت نظر هوج أو يسترعى انتباهه.

ود لو أن يُخبر خاله بهمومه هذه، ولكن جو الإثارة الذى حوله هذا، جعله يعدل عن الفكرة، ولا يجرؤ على تنفيذها.



٤

تحت شمس ساطعة أنارت تلك الأيام الجميلة بشكل مدهش بعد فصل خريف كئيب وعابس، وصل البابا أوربان الثانى إلى مدينة كليرمون فى اليوم التالى فى توقيت صلاة العصر حوالى الساعة الرابعة. انطلقت أبواق الحراس الواقفين عند أسوار المدينة، ليعلنوا قدوم الحبر الأعظم، الذى دخل من بوابة شامبيه، صعوداً إلى شارع الميناء[١] وضعت الأعشاب المتناثرة هنا وهناك، وفروع أشجار التنوب واللوريل على أرض الشارع، حتى يتمكن الناس والعربات من المشى فيه بعد أن تحول إلى مستنقع طينى بفعل الأمطار. وقف أهالى مدينة كليرمون على حد سواء مع ضيوفهم، وحتى الغرباء، على أعتاب المتاجر وفى نوافذ المنازل للترحيب بالبابا بطريقة مهيبة. انضم إلى الموكب كلٌ من: ألدبر، كبير أساقفة بلدة بورج، ولامبر، أسقف بلدة أراس، ثم رؤساء الأديرة، جيبرت وبودرى، وهما أبرشية بلدة أميان، ثم ناسك يدعى بطرس كان يمشى حافى القدمين. من بين أفراد الموكب، تعرف هوج على إبل،

(١) منذ أوائل العصور الوسطى تم تطوير منطقة ما وراء بوابة تيرال لتتحول إلى حى تجارى فى اتجاه منطقة شامب هريم (ميدان ديليل) فى مدينة كليرمون

وكان لا يزال يلوح بالصقر على ذراعه، يمشى متقدمًا الموكب، مخترقًا الحشود، كى يُفسح طريقًا للبابا.

حيا دوران دى بريدون البابا، ورافقه من عند بوابة شامپيه، صاعداً إلى جواره الشارع المزدحم، بحشود تقف بطريقة غير منضبطة. لقد استيقظ دوران دى بريدون فى هذا الصباح على آلام فظيعة فى جنبه. عندما استشار چيربير، وهو صيدلى مستشفى الروح القدس، بعد أن استدعاه على عجل، اعترف بجهله لسبب هذه الآلام.

كان جميع وفود رجال الدين قد وصلوا بالفعل، وفى انتظار البابا فى الكاتدرائية، التى تخلصت بأعجوبة فقط صباح نفس اليوم، من السقالات التى كانت معلقة على واجهتها لأعمال الترميم اللازمة. فوق ملابسهم المصنوعة من الكتان الأبيض أو من القطن الخام، وضعوا العباءات المطرزة بواسطة أشرطة أفقية ورأسية، وكل هذا تحت ثوب كهنوتى من دون أكمام ذى ألوان فاقعة، مشكلين ردهة متعددة الألوان، مر البابا وموكبه وسطها حتى وصلوا إلى الجوقة التى تضيئها الشموع المنصوبة على شمعدانات من جميع الأحجام.

لم يتبق سوى ثلاثة أيام فقط على يوم العيد الثانى للقديس مارتن[١]، والذى سيوافق يوم الأحد، وهو المقرر أن تبدأ فيه اجتماعات المجلس رسميًا. فى خلال ثلاثة أيام، ستكون للبابا أوربان الثانى

---

(١) ١٨ نوفمبر ١٠٩٥

الفرصة كى يعلن عن توصياته المتعددة. تحولت القاعة الكبرى للسكن الأسقفى إلى قاعة مشاهدة، بها مقاعد للجمهور، حيث جلس البابا أمامهم على عرش خشبى أسقفى ضخم تحت مظلة حمراء مخملية.

لقتل الوقت، قرر هوج الذهاب لرؤية روبير من جديد فى موقع بناء كاتدرائية القديسة مارى الرئيسة. عندما لم يجده هناك عاد إلى الحانة يبحث عنه، حيث وجد إبل دى سوج. منذ أول يوم، عرف هوج اسمه عن طريق الأصدقاء المارين بالمكان، والذين كانوا ينادون عليه بصوت عال. فى تلك الليلة، جلس هوج وحده على طاولة، وراح يسكب كوبًا وراء الآخر، وبدا وكأنه ينتظر قدوم شخص ما، بل أخذ يتجاذب أطراف الحديث مع رواد الحانة من حوله، وأحيانًا بعض الخادمات اللائى يقدمن المشروبات. لمعت عيناه عندما رأى برتيلد تدخل إلى الحانة وهى تحمل سلة كبيرة تسندها على ردفها، وراحت تحيى زبائنها بلطف ومودة. كلما نظر هوج إلى إبل، ازداد اقتناعًا بأنه هو الذى ارتكب جريمة القتل.

فى مخزن الغلال حيث كان هوج يمضى ليله، راودته أكثر الأحلام عنفًا وجنونًا. رأى نفسه يتشاجر بطريقة وحشية مع إبل دى سوج، فى معركة بدت نهايتها غير مؤكدة، وكان يستيقظ وهو فى غاية الإنهاك. فى عشية يوم افتتاح مجلس رجال الدين، وأثناء استغراقه فى النوم وحلمه المفزع بقتاله مع خصمه المهم، كان إيتيه، سكرتير دوران، يحاول إخراجه من حلمه هذا قائلاً :

– استيقظ! لقد مات خالك!

اضطر إيتيه أن يكرر تلك الجملة الرهيبة ثلاث مرات، وفى كل مرة يرفع صوته أكثر، حتى استيقظ هوج هاجارد أخيراً وهو يقول مفزوعاً:

- ماذا؟ ما الذى يحدث؟ هكذا تمتم هوج، وهو مصدوم تماماً.

- لقد مات خالك.

أخيراً أفاق هوج واستوعب الخبر فقال مصدوماً:

- مات؟

- لقد عثر عليه خادمه ميتاً أثناء نومه منذ قليل.

- يا إلهى!

- تعال... إن قداسة البابا يقوم بمباركته فى هذه اللحظة.

دخل هوج إلى غرفة خاله الأسقف، حيث وجد البابا أوربان الثانى محاطاً ببعض مساعديه المخلصين، يتلو الصلوات التى راح يرددها الآخرون وراءه. كان خاله دوران المتوفى، ممدداً على السرير وملامحه هادئة وتعلوها الطمأنينة. قرع الجرس الخاص بالإعلان عن الأحداث، مثل الموت فى الكاتدرائية، بينما كان الجليد يتساقط فى الخارج. اختفت الجبال المحيطة بالبلدة داخل الضباب الكثيف.

- ينبغى علينا أن نقيم جنازته فى أقرب وقت ممكن. هكذا همس فى أذن هوج، جريجورى، الكاردينال الرومانى المتولى منصب سكرتير البابا.

تم ذلك فى النهار نفسه، وبعد احتفال جنائزى مهيب، برقت فيه الأقمشة الثمينة لملابس رجال الدين، وكذلك المناقشات التى دارت بين الحضور، جعلتهم ينسون الواقعة الحزينة. كان دوران دى بريدون الأسقف السادس والخمسين لمدينة كليرمون، وتم دفنه فى كنيسة القديس نيكولا، التى أمر هو بتشييدها أمام الكاتدرائية، فى اتجاه الشمال.

كان هوج شارد الذهن وكأنه غير حاضر طوال اليوم، حتى إنه لم يتحقق من وفاة خاله بالفعل إلا عندما رأى نعشه الثقيل المصنوع من المعدن اللامع، محمولاً على الأعناق، لينزل إلى مثواه الأخير فى حفرة، تم تجهيزها تحت رصيف الكنيسة. ملأه الحزن والشجن، فهام بعد ذلك على وجهه فى الشوارع المعتمة، حتى قادته قدماه إلى حانة المعلم چاك. كان إبل دى سوج جالسًا هناك مع رفاقه الذين رأهم هوج فى أول يوم. لم تخلص برتيلد من ملاحقة طلباتهم العديدة، بينما كان والدها يراقب الموقف بعين قلقة، فقد بدأ له حضور هذا الفارس ثقيلاً ومضجراً؛ فهو موجود فى الحانة تقريبًا طوال الوقت، بل وجوده يسبب جلبة وضجيجًا عاليًا هو ورفاقه فى المكان. ود هوج أن يرى روبير النحات.

– لقد ذهب ليجلب حمولة من الحجارة عند سفح تل شانتورج، ولكنه سيكون هنا غداً. قالت له برتيلد:

- إذن فحبيبك ليس هنا. هكذا تدخل إبل فى الحديث ثم أكمل: وأنت أيها الفارس الحزين، تعال وتتناول معنا الشراب.

قبل هوج الدعوة بعد أن نادى عليه إبل بهذا الشكل على أمل استدراجه فى الكلام، وهو الذى يدعى أنه صديقه. هكذا بدأ ينسج علاقة مع هذا الرجل، الذى كانت كل تصرفاته تثير حفيظة هوج أكثر فأكثر. فى ذلك المساء بالتحديد، ورغم كل شىء كان هوج سعيداً بمحاولة إغراق أحزانه مع رفقاء المكان، ولو كان إبل يتحدث مع رفاقه عن جريمة ما، لما كان هوج استطاع التحدث معه والاستماع إليه. عاد هوج إلى مخزن الغلال الذى ينام به فى ساعة متأخرة من الليل، وما إن رأه خادمه كلوڤيس، حتى راح يراقبه بعين خبيثة قاسية. كان كلوڤيس قد أمضى ليلته فى لعب النرد مع أحد أقاربه، الذى يعمل فى صناعة الأحذية، فى مكان ليس ببعيد عن الكاتدرائية. مرة أخرى كانت ليلة هوج مضطربة وغير هادئة... فهذه المرة، حلم بزوجته مارى، وعندما استيقظ لاحقًا فى وقت متأخر، شعر بالخزى حيث اكتشف أنه لم يفكر لا فى زوجته ولا أولاده بالمرة خلال الأيام الماضية.

أخيراً بدأت اجتماعات مجلس رجال الدين بجلسة طويلة عامة فى الكاتدرائية. ظل البابا غامضًا، ولا يريد أن يُفصح عن البيان المهم الذى كان من المفترض أن يعلنه وفقا للشائعات التى اجتذبت العديد من الناس، قادمين من أراضى أرڤيرن (منطقة فى وسط فرنسا).

– سنناقش أولاً موضوع حرمان الملك من غفران الكنيسة[1]. هكذا أعلن الكاردينال سكرتير البابا بصوت قوى عال.

– على الرغم من الطلبات التى تقدم بها الشخصيات البارزة فى هذه المملكة، والتى لا داعى لذكر أسمائها هنا الآن، وعلى الرغم من الهدايا الثمينة والتى كان بإمكانهم التلويح بها لكنيستنا، فأنا لم أترك نفسى لمخاوف حقيقة كونى داخل هذه المملكة. أؤكد على حرمان الملك فيليب من غفران الكنيسة، لأنه ما زال مصراً على إبقاء السيدة برتراد كزوجة له، رغم كونها زوجة الكونت فولك دى أنجو[2].

كان فوشيه دى شارتر يجلس مستنداً على عمود فى صحن الكنيسة، منهمكًا فى تدوين كلمات البابا على مخطوطة طويلة. كانت ريشته تحك المخطوطة بحماس، مُحدثة جلبة مماثلة لريشة الجالس إلى جواره، وهو راهب بينديكتين، يُدعى جيبر دى نوجن. كان منهما حريصاً على أن يكون مسجلاً.

---

(١) الملك فيليب الأول، (١٠٦٠ إلى عام ١١٠٨).

(٢) بعد أن طلق الملك فيليب الأول زوجته: بيرت دى هولندا، اختطف وتزوج برتراد جى مونتفور عام ١٠٩٢ وهى زوجة الكونت أنجو ولما حرم من غفران الكنيسة فى عام ١٠٩٦، تظاهر بالانفصال عنها، ثم أعادها فحرم من جديد عام ١١٠٠، فادعى أنه انفصل مرة أخرى، ثم عاد إليها من جديد ولكن بيرت (زوجته الأولى) كانت قد ماتت فى تلك الأثناء.بعد وفاة الملك، تنسكت برتراد فى منطقة فونتفرود.

أثار موضوع حرمان الملك تساؤلات بعض الحضور المتحمسين، والتى رد عليها البابا فى كل مرة بلهجة جادة وهادئة، وبأدب محسوب بل بكياسة وبلاغة مقنعة.

- يا له من ذكاء! هكذا قال جيبر دى نوجنت، متنهداً بعد أن تعلقت ريشته فى الهواء.

فى المساء تفرق الأساقفة والكرادلة كلٌ إلى حاله، وهكذا تأكد حرمان الملك بشكل نهائى.

خُصصت الأيام التالية فى تصديق جديد على كل ما اتخذه مجلس رجال الدين من قرارات سابقة، منها على سبيل المثال اتفاقية بياتشينزا (فى إيطاليا).

استمرت الحشود الكبيرة من الناس على النزوح إلى المدينة أكثر فأكثر، ولهذا استضاف جميع أهالى المدينة الضيوف، الذين تكدسوا فى ظروف سيئة للغاية.

- ومتى سيوجه لنا البابا خطبته؟ كان هذا هو السؤال الذى يدور على جميع الألسنة.

لهذا بدأ رجال الدين فى ممارسة ضغوط على البابا، لكى يتحدث أخيراً إلى الحشود التى لم تتوقف عن الازدياد. جاء رسول من كونت مدينة تولوز، لتقديم دعمه ومساندة سيده لجميع المبادرات التى يقوم بها

الحبر الأعظم. كان أسقف مدينة پووى، أديمار دى مونتيل، يعقد اجتماعات مطولة مع البابا كل مساء.

– يجب أن نرضى الجماهير! هكذا أعلن ألدبر، أسقف بلدة بورچ.

بدا البابا غير مرن فى هذه النقطة، ولهذا لم يأبه بأقاويل من حوله واستمر بهدوء فى خطته المقررة. فقد كان هناك الكثير من العمل ينبغى القيام به! أول قرار[1] تم تطبيقه، لاقى استحساناً من الناس، خاصة المدنيين، والذين تدافعوا تجاه أبواب الكاتدرائية، حتى يستعلموا أكثر عن اللوائح الجديدة:

– سوف نقوم بمراقبة الهدنة الدينية، فيما يختص بجميع الناس على حد سواء، وذلك لمدة أربعة أيام فى الأسبوع، ألا وهى: الخميس والجمعة والسبت والأحد، وسوف نطبقها فى كل الأيام، فيما يختص بالرهبان ورجال الدين والنساء.

كان هوج يقف مع إبل دى سوج، عندما راح رجل الدين يقرأ هذا القرار على الملأ.

– إذن لن نتمكن من التعارك. صاح إبل، محتجاً، وسرعان ما انضمت إليه زمرة من الحضور يؤيدونه.

---

(١) التنظيم.

- احتـفظ بأفكارك الحـربيـة هذه لدواعٍ أفـضل! صـاح بـه أحـد الفـرسان قـبل أن يُكمل: سـوف يخـبرنا البابا بأخبـار مـهمة فى نهـاية الأسبوع.

- عليه إذن أن يُعجل من ذلك، فقد بدأت أصابعى فى التنميل!

أخـرج إبل سيفه مـن غمـده وقبله فى حـركة مسرحيـة نوعًا ما، ثم قال: أبدًا لن أجد رفيقًا أفضل من هذا!

- على شرط أن تُحسن استخدامه. أجاب جيبووم، وهو كونت بلدة أوڤيرنى، والذى خرج من قصره هذا الصباح، كى يعرف الأنباء الجديدة.

- فلتتحدث أنت أيضًا عن نفسك!

أود هاربين، نائب كونت بلدة بورچ، وهو رجل طويل القامة مبتسم، أعرب عن رأيه هو الآخر. تجهم وجـه جيبـووم. كان لدى أود كثيـر من السلطة كى يفتح باب الجدل معه. لقد قام أود، نائب الكونت، بتشييد طريق ممهد على مشارف بلدة بورچ، دفع تكاليفها من ماله الخاص، كما أنه قدم امتيازات لأولئك الذين جاءوا ليسكنوا على طول الطريق الجديد، وهكذا جذب الأهالى وشـجـعـهم للمجىء إلى هذه المنطقة بشكل جعل كونت أوڤيرنى، جيبوم، يحلم بمشروعات عديدة، خصوصًا أنه لا يتمتع باحترام الأهالى على أراضيه.

إذا كان رجال الدين منهمكين فى جدول أعمال مزدحم للجلسات العامة أو فى القيام بمهمات قصيرة، فقد بدأ الفرسان وعامة الشعب،

والذين جاءوا من جميع أنحاء أطراف البلاد، فى مناقشات عقيمة، فقدوا على إثرها حدسهم فى تخمين ماهية الإعلان الشهير، الذى سيصرح به البابا. بكل تأكيد تم الحفاظ على سرية الموضوع بشكل كامل.

لذا كـان يجب أن يشـغلوا أنفسـهم. لقد رأوا مـعـارك الديوك تتضاعف على ناصية معظم شوارع المدينة، والتى كانت تنتهى أحيانًا بمشاحنات غاضبة وتعارك بالأيدى من جانب أصحاب الديوك، مما كان يسعد المتفرجين، ويشغل أوقاتهم. شارك هوج فى بعض ركوبات الخيل مع الرفاق، مما سمح له بالتنفيث عن غرائزه العدوانية، أو أحيانًا كان يشارك فى رحلات الصيد. حتى إنهم قاموا بتنظيم بطولات مصارعة ودية، على أراضى حقل هيرم، الواقع خارج جدران المدينة، نتج عنها ثلاثة مصابين بجروح خطيرة فى أقل من أسبوع، وتم نقلهم بسرعة إلى مستشفى الروح القدس.

فى خلال واحدة من هذه الدورات البطولية، لاح فى الأفق موكب من الرجال المسلحين، يتقدمون حول فارس، بدا متعجرفًا ومرتفع الصوت. تعرف هوج عليه، فهو سيد منطقة بوربون: أرشامبود الذى قام البابا باستدعائه، لأنه نكس الوعد الذى كان قد التزم به أمام البابا أوربان الثانى قبل بضعة أيام قليلة، وعاد إلى تجاوزاته. لهذا أُمر من جديد أن يوقف التعديات التى قام بها، بل طُلب منه أن يلتزم بتعهد جديد أمام أساقفة بلدتى پووى وكليرمون، وكذلك أمام كبير أساقفة بلدة بورچ. لهذا السبب كان أرشامبود مستاءً، حيث وجد نفسه مضطرًا

للبقاء فى البلدة؛ انتظاراً لخطبة البابا. وهكذا وجد الفرسان شريكًا مهمًا، ليمارس معهم ألعابهم العدوانية. اغتنم هوج هذه الفرصة ليدخل مع إبل دى سوج فى معركة، ظلت نتيجتها غامضة. حتى إن الحكم لم يستطع أن يقرر أو يحدد من الفائز.

من ناحية أخرى، استطاع إبل أن يتفوق على رفاقه وذلك عندما جعلهم يكتشفون كيفية التعامل مع سلاح جديد لم تسنح لأى منهم من قبل فرصة رؤيته أو استخدامه. فى الواقع أنه قام بتنظيم مسابقات لرمى السهام بالقوس والنشاب الأفقية، ولكن الجديد فى الأمر أن السهام كانت أقصر وأغلظ من الأقواس الرأسية، ولهذا كانت أشد فتكًا. وإذا كان العديد من الفرسان قد أبدوا استياءهم وازدراءهم لهذا السلاح الموجه لقتل المحاربين المشاة، فإن بعضهم قد تمكنوا من التدريب عليه، بل حققوا نتائج مشجعة للغاية. هكذا أصبح هوج واحداً من أبطال فن القتال الجديد، هذا ما أدى إلى عبوس رجال الدين القلقين بشأن هذه الأمور العدوانية. توطدت علاقة هوج بإبل، وأصبح هوج أمهر فارس يستطيع نصب القوس والنشاب بوضع قدميه على القوس، بينما يجذب سلك القوس بكل ما فيه من قوة.

– كان الأجدر بك أن تتعلم هذا السلاح الجديد! هكذا قال هوج لروبير.

كان روبير مهتمًا بمشاهدة تلك المعارك فقط، لكى يتمكن من رسمها على بعض لفائف المخطوطات الخشنة، بهدف نقل مثل هذه المشاهد لاحقًا، حيث إنها تلهمه فى نحت جداريات الكنائس والمبانى.

– لدى ما هو أفضل لأقوم بعمله!

أباح روبير لهوج بأن هناك رجلاً كريمًا متبرعًا، قد جاء إلى القسم الإدارى لكنيسة القديسة مارى الرئيسة، يُدعى إيتيان، وقد بدت عليه نية التكفير عن ذنب، بتقديم هبة سخية. وقد قرر الرهبان أن تُخصص هذه المنحة فى تشييد الكنيسة المستقبلية. وهكذا ستكون أمام روبير سنوات عديدة من العمل فى بناء تلك الكنيسة.

– سأتمكن بذلك من الزواج! باح روبير لهوج، وقد بدا فى قمة سعادته فهنأه الآخر بدوره.

فى أثناء إقامة صلاة عيد القديسين أجريكول وڤيتال[١]، سرت الشائعات بأن اجتماعات المجلس قد انفضت. تمت إعادة صياغة اثنين وثلاثين قرارًا تتناول موضوعات متنوعة، مثل موضوع منع رجال الدين من أن يحملوا أسلحة أو أن تكون لهم محظيات، ومثل منع الملوك وغيرهم من الأمراء من أن يعطوا أبناءهم أو أقاربهم مناصب دينية رفيعة فى الكنسية، أو منع نهب ممتلكات رجال الدين وحرمان المعتدى من غفران الكنيسة.

---

(١) الموافق ٢٦ نوفمبر.

– سوف يتحدث البابا فى كل ذلك غداً!

هكذا انتشرت الشائعات فى البلدة، وسرعان ما تناقلها المنادون، كى يخبروا الأهالى بأن الحبر الأعظم، وحيث إنه لا توجد ميان كبيرة بما فيه الكفاية، سيلقى خطبته فى ميدان هيرم. ولهذا انهمك النجارون فى تثبيت منصة خشبية تستند على جدارن بوابات المدينة.

على الرغم من البرودة التى اشتدت بفعل الرياح الهابطة من قمم جبال مون دوم، بدت الأجواء محمومة، وهكذا راح ميدان هيرم الشاسع يمتلئ بالناس تدريجيًا. ها هو پونس دى تورنون قد جاء، رغم أنه مر بأسبوع عصيب، نتيجة حمى زرقاء شديدة، ليجلس فى الصف الأول مع معظم رجال الدين ذوى المناصب الرفيعة. تدفقت الأهالى على المكان كالأمواج، وها هم الحراس يقفون على أسوار المدينة، ينتظرون قدوم البابا، كى يعلنوا عن وصوله للجماهير عن طريق أبواقهم الطويلة. كان الازدحام شديداً، حتى إن الناس لم تعد تتلفت حولها من كثرة الحشود حولهم. فى وسط المدينة، أغلقت جميع المتاجر أبوابها، كما توقف الحرفيون عن أعمالهم، وحتى فى موقع بناء كنيسة القديسة مارى الرئيسة، سعدت الطيور بهدوء المكان، فراحت تغنى أو تنقر بواقى الطعام الذى تركه عمال البناء فى المكان.

تمكن هوج من التسلل بين الحشود، ليقف ليس ببعيد عن جيييووم دى مونتيل، شقيق أسقف مدينة پووى، ومعه رسول ريمون دى تولوز، والكنسى الذى كان قد قابله من قبل: ويدعى ريمون دى أجويلير،

وقد نشأ فى مدينة پووى، وكذلك قسيس الكونت دو تولوز. جاء إلى المكان أيضًا أرشامبود دى بوربون وفرقته المزعجة، وانضموا إلى إبل دى سوج ومساعديه. قريبًا منهم، جاء روبير يرافق خطيبته برتيلد، ممسكًا يدها برقة. أيضًا جاء والد روبير، ومعه المعلم چاك، صاحب الحانة، وكانا يتبادلان انطباعتهما عن كل ما يدور حولهما. أسفل المنصة، جلس كلٌ من جيبر دى توجان، وفوشيه دى شارتر على مقاعد خشبية صغيرة وضعت خصصيًا لهما، بما أنهما راجعا وقائع يوميات المجلس. وضع كلٌ منهما على ركبتيه مخطوطتين: الأولى بغرض الاحتماء من البرد، حيث خبأ كلٌ منهما يديه فى كُمَّى قميص الراهب، والثانية فوق معطف من الصوف السميك الغامق.

كان أحدهما قد دون على المخطوطة الجديدة هذه العبارة:

"إنهم عديدون مثل حبات الرمال، وأكثر من نجوم السماء"

فجأة، تعالى نفيرالأبواق، ففزت الطيور، التى كانت واقفة على النتوءات البارزة من أسوار المدينة. تطايرت الغربان، متناثرة فى السماء، وكأنها بقع سوداء. تبعتها العصافير الصغيرة بطريقة أكثر تحفظًا فى اتجاه الأشجار التى تساقطت أوراقها، وأصبحت تقريبًا جرداء. امتنعت الحشود عن الكلام تدريجيًا، والتفتت الرؤوس كلها فى اتجاه أسوار المدينة. أخيراً ظهر موكب يعج بألوان عديدة، قادمًا من ناحية البوابة شامپيه، ثم لمحت الحشود جسد البابا النحيل، وهو يصعد ببطء على الدرجات الخشبية المثبتة على يمين المنصة. تبعه اثنان من رجال الدين:

الأسقف الجديد لمدينة كليرمون الذى انُتخب لتوه فى الليلة الماضية، ويُدعى غييوم دى بافى، ثم أسقف مدينة پووى، أديمار دى مونتيل، يليهما جريجورى، سكرتير البابا. هكذا ظهر البابا أخيراً أمام الحشود الهائجة، والتى لم تكف عن الصياح أو التلويح بأذرعها. لوح البابا بكلتا يديه إلى الحشود لتهدئتهم، ووقف متكئًا على درابزين خشبى صغير، حتى عم الصمت أخيراً. وقف وراءه بتواضع غييوم دى بافى، الذى لم يكن قد اعتاد على مهامه الجديدة، بينما كان أديمار دى مونتيل واقفًا بشكل أنيق.

– إن الأمر عاجل ولا بد أن تمدوا يد العون، وبسرعة إلى إخوانكم فى المشرق، كما وعدناهم كثيراً، فهناك ضرورة ملحة لذلك. لقد هاجمهم الأتراك والعرب وتقدموا فى أراضى رومانيا، حتى وصلوا إلى ذلك الجزء من البحر الأبيض المتوسط المعروف باسم ذراع القديس جورج[١]، وما زالوا متوغلين فى عمق بلاد النصارى، وقد هزموهم فى معارك سبع مرات للآن، وقتلوا أعداداً كبيرة منهم، وأسروا أعداداً كبيرة أخرى، ودمروا الكنائس، وعبثوا فى المملكة[٢].

---

(١) منطقة البوسفور التى تقع فيها مدينة القسطنطينية.

(٢) منذ عام ١٠٧٠، فقدت إمبراطورية المشرق تقريبًا كل أراضيها الآسيوية، أمام الأتراك الذين فازوا بالنصر فى عام ١٠٧١، واحتلوا مدينة مانتزيكرت. حتى إن الإمبراطور الرومانى الرابع تم أسره. وفى عام ١٠٧٩، وقعت مدينة القدس فى أيدى الأتراك السلاجقة.

هكذا تحدث البابا بنبرة صوت رخيمة وقوية تركت أثرًا فى الحشود على طول الخطبة، التى كانت مُعدة بدقة بالغة، مع احتفاظه فى الوقت نفسه بعفوية ما. راحت الحشود تستمع إليه فى حبور وهدوء بعد أن أسرهم الكلام.

- ولهذا السبب، فأنا اطلب منكم وأحثكم — وليس أنا وحدى فقط، ولكن الرب هو الذى يدعوكم ويطلب منكم كمبشرى المسيح — الفقراء والأغنياء على حد سواء، أن تسارعوا بردع وطرد هذه الحثالة الخسيسة من المناطق التى يقطنها إخواننا...

- أحسنت. هكذا علق باختصار وقوة إزارن، أسقف مدينة تولوز، وهو يميل على ريمون أجويلير، قسيس مدينة پووى.

- إن من سيذهبون إلى هناك، ولو لقوا حتفهم أثناء السفر سواء بالبر أو بالبحر، أو أثناء القتال ضد هؤلاء الوثنيين، سوف تُغفر لهم خطاياهم فى الساعة نفسها(١).

سكت البابا أوربان الثانى عن الكلام فى وقفة، كى يسمح لمستمعيه فيها أن يستوعبوا تمامًا كلماته ثم أردف قائلاً:

- إن من اعتادوا من قبل على التعارك بشراسة فى حروب خاصة ضد إخوانهم فى المسيحية، فليحاربوا إذن ضد الكفار...

(١) لأول مرة فى ذلك العصر يظهر مفهوم التسامح: وهو العفو التام عن الذنوب، بسبب الخطايا.

- ها هو موضوع جدلى لا بد أنه يؤثر فيك يا عزيزى إبل. هكذا قال له صديقه چيرفيه وهو يضحك ساخرًا، حيث كان أقرب رجل يقف إلى جواره.

لم ينبس إبل بكلمة واحدة، بل ظل يفكر فى صمت. أكمل البابا وهو يضغط على كلماته، وأشار بإصبعه آمرًا:

- إن من كانوا يعملون كمرتزقة من أجل صفقات حقيرة يتكسبونها فى الوقت الحالى، فلينضموا بسرعة لنا، حتى تكون مكافأتهم أكثر نبلاً بل أبدية. فليجهز المحاربون عتادهم، ويتدبروا ويجمعوا ما يسد مصروفاتهم. عندما ينتهى فصل الشتاء، ويحل فصل الربيع، على المحاربين أن يهرولوا بسعادة، دون أن يولوا عن شىء، كى يسلكوا الطريق تحت قيادة الرب! إنها مشيئة الرب!

مرت لحظات قليلة، سرت فيها قشعريرة من التأثر فى صفوف الحضور، ثم انطلقت أول صيحة "إنها مشيئة الرب" ثم راحت تتردد من صف إلى آخر حتى تحولت إلى صرخة هائلة. ارتفعت الأذرع، واستُلت السيوف من أغمادها لتنتصب إلى أعلى.

- إنها مشيئة الرب! هكذا راح يردد كلٌ منهم، مهنئًا أو معانقًا من يقف إلى جواره.

عندئذ بارك البابا الحشود الواقفة أمامه فى إشـــارة كبيرة، فركع الجميع فى حركة واحدة كلٌ منهم على ركبتيه، وأشار بعلامة الصليب على صدره بشكل جاد. ثم هبوا واقفين من جديد، وراحوا يهللون باسم البابا أوربان الثانى، الذى طلب منهم الهدوء بإشارة ملحة من يده وأكمل:

– أيها الإخوة الأعزاء... اليوم، يتجلى داخل كلٍّ منكم ما قاله الرب في كتاب الإنجيل: "عندما يتحد اثنان أو ثلاثة أشخاص تحت اسمى، سوف أكون بينهم. فلتكن إذن صيحة واحدة، هى التى تُسمع بين أفراد جيش الرب: إنها مشيئة الرب!

هكذا أطلق البابا من جديد موجة من التهليل والابتهاج، ثم ما لبث أن بدأ نزول الدرجات الخشبية بحرص، تاركًا المجال لسكرتيره جريجورى، الذى تمكن بصعوبة من السيطرة على الحشود وإعادتهم إلى الهدوء، كى يتلو بصوت قوى صلاة الغفران من كتاب الإنجيل. فى تناغم تام، راحت الحشود تضرب على صدرها، ثم ما إن حصلوا على الغفران، استأنفت هتافاتهم الصاخبة بمزيد من الحماس.

– إنها مشيئة الرب! هكذا صاح بلا كلل الفرسان ورجال الدين والنساء والحرفيون والتجار، وحتى الأطفال بحماس وهمة غير مسبوقين.

سرعان ما انتشر الخبر بين الناس، حتى إنهم اضطروا إلى أن يضع كلٌّ منهم صليبًا، بمعنى أن يرتدى كل منهم فوق ملابسه صليبًا على صدره، وأن يكون صليبًا أحمر؛ تذكرة بدم المسيح[١]. ألم يذكر البابا تعاليم سيدنا عيسى:

---

(١) لم تكن المصطلحات مثل (الحملة) أو (الحملة الصليبية) تستخدم فى ذلك العصر، بل كان يُقال: "نحمل الصليب".

"إن كل من لا يحمل صليبه ولا يتبعنى، ليس جديراً بى؟" ألن يكونوا هؤلاء أكثر توقيراً؟ متأثرين بهذا الشعور، كان الجميع على وشك الهرولة فى أسرع وقت إلى بائعى الأقمشة والستائر، عندما ظهر رجل قصير القامة وصعد بدوره المنصة، وإن لم يكن قد لوح لهم بلفتة مصممة، وبأنه يرغب فى التعبير عن رأيه هو الآخر، لكان الناس قد تركوا المكان:

– من يكون هذا الرجل؟ سألت برتيلد خطيبها روبير الذى كانت يده تحتضن يدها بقوة.

– لا أعرف! أجابها روبير النحات.

ولكن سريعًا ما تداول الحضور اسمه وقال أحدهم:

– إنه الناسك بطرس، وقد عاد لتوه من القدس، فلنستمع إليه!

ساد الصمت من جديد، وبدأ الناسك حديثه قائلاً:

– إخوانى، أتوسل إليكم أن تسمعونى... لقد كنت فى القدس، ولن تستطيعوا أن تتخيلوا الأهوال التى رأيتها هناك. فمنذ أن تولى ذلك الشرس الكافر الخليفة الحكيم، السلطة[١]، فلم يعد هؤلاء الكفار يسمحون للنصارى بالصلاة فى الأماكن المقدسة... فلتزيحوا الطريق

---

(١) هذا الخليفة هو الذى قام بتدمير القبر المقدس ما بين عامى ١٠٠٩ و١٠١٠ وأدى اضطهاد حجاج الأماكن المقدسة إلى ندرة أعدادهم تدريجيًا، ومع ذلك، ازدادت أعدادهم واستأنفوا مواسم حجهم فى رحلات جماعية كبيرة.

إلى الشرق، حيث يجب أن يكسح، لا بد أن تسلك جميع الأمم طريقها لمواجهته! يجب أن نصد الشيطان، ونرغمه على التقهقر. فلتتوافدوا على أرض الميعاد التى يتدفق فيها اللبن والعسل!

كان صوت الناسك قويًا، بالطبع لم يكن بنفس وقعٌ وتأثير صوت البابا، ولكنه كان متحمسًا. ولكن كلماته كانت مبتذلة، رغم أنها توضح ما يقع من أحداث فى القدس، وعن تدنيس قبر السيد المسيح، مما أشعل غضب الأهالى أكثر فأكثر، فراحوا يرددون من جديد وبصوت أعلى وأكثر تهدجًا:

- إنها مشيئة الرب!

بعد أن اطمأن الناسك بوصوله إلى النتيجة المرضية، نزل من على المنصة بدوره، ثم اختلط بالحشود. أراد كلٌ منهم أن يلمس ملابسه الصوفية الخشنة، المتصلة بغطاء رأس الرهبان، ويرتدى فوقه معطفًا حقيرًا، وكان حافى القدمين.

قرر هوج وروبير الاحتفال بهذه المناسبة فى حانة السيد چاك. كانت برتيلد قد سبقتهما بالفعل مع والدها إلى الحانة، حتى لا يجعلوا زبائنهم ينتظرون، فلا بد أنهم قادمون وبكثرة. فى شارع الميناء، التقيا فى طريقهما بالفعل ببعض الفرسان، وقد حاكوا الصليب الأحمر على أكتافهم اليمنى. حتى إبل دى سوج، فقد علق راية بيضاء يتوسطها صليب على رمحه الطويل.

طمأنت پترونيى، بائعة الأقمشة، زبائنها أن لديها كميات كبيرة من الأقمشة الحمراء فى محلها، مُخزنة على أرفف فى غرف، مساحاتها كبيرة. وهكذا توقف هوج فى محلها، وطلب منها أن تقص له صليبًا حاكته له پترونيى، بشكل فج على سترته الزرقاء.

– هل تعقد النية على الرحيل؟ هكذا سأله روبير.

– نعم. أجاب هوج ببساطة، وهو واثق من قراره، ثم سأله بدوره: وأنت؟

– أنا؟ لا أستطيع أن أترك عملى، ولا برتيلد.

– أما أنا فسأترك زوجتى وأولادى وناسى، ولا تنس موقع بناء قصرى الجديد... فلن تكون لدى الإمكانيات، كى أنتهى من تشييده! أنت ولا شك مخطئ، لحرمان نفسك من هذه المغامرة الرائعة.

لم يرد روبير عليه.

انقضى النهار بنفس الجنون الذى بدأ به، فقد سرت فيه شيئًا من عدوى الحماس فى أنحاء المدينة، وسكانها سواء كانوا من أهاليها الدائمين أو ضيوفها المؤقتين. تدلت الصلبان الحمراء من نوافذ المنازل الضيقة، المعتمة الواجهة، المصنوعة من الطين الفاتح، وعروق الخشب القاتمة، وكلما مرت الساعات، تضاعفت أعداد الصلبان على الأكتاف أو على الصدور.

– إنها مشيئة الرب! كانت هذه هى صيحة التظاهر فى كل مكان.

فى كل مرة كان يلتقى فيها أى رجل يحمل علامة الصليب برجل آخر، كان يحييه بكلمات سحرية. كان كلٌ منهم يمجد الآخر، ويشجع بعضهم البعض، وهم يبدون أسفهم على الافتراق بعد هذه اللحظات النادرة.

فى الواقع، كان الفرسان ورجال الدين والفلاحون، أو حتى الخدم، يأملون من الآن فى العودة إلى أراضيهم وبلدانهم أو حتى قراهم. سبب ذلك أن كلاً منهم كان عليه الذهاب والاستعداد للرحيل الكبير. كان هوج يأمل فى ذلك أيضًا، وكان خادمه كلوڤيس يستحثه على ذلك بحماس. ولكنه كان يرغب فى تسوية موضوع إبل دى سوج قبل الرحيل، ولذلك قرر أن يقضى ليلة أخرى فى مخزن الحبوب الموجود فى الطابق العلوى لسكن الأساقفة. كان إبل لا يزال موجوداً فى المدينة، فقد لمحه هوج بصقره الواقف على قبضة يده فى حانة المعلم چاك، حيث كان يحتفل بقراره للذهاب إلى الحملة، وأمامه العديد من أكواب الخمر.

فى قصر الأسقفية، كان أوربان الثانى مجتمعًا بكبار رجال الدين الآخرين، حيث يتحتم عليه مغادرة المدينة فى اليوم التالى، متجهًا إلى ليموچ. كان أديمار دى مونتيل، أسقف مدينة پووى، يشع بالنشاط، فقد تم تكليفه بتنسيق العملية. فهو الذى سيعطى إيذانًا ببدء الرحيل فى جميع أنحاء المناطق المحيطة بعيد صعود مريم العذراء إلى السماء.

– يا أديمار، ستكون أنت رئيس الحملة هناك، وستتحدث باسمى. فليمضوا جميعًا أيامًا عظيمة ناجحة، سواء على قمم الجبال، أو فى السهول، إلى أن يأذن لهم السيد المسيح بهزيمة أمة الشيطان تلك!

– بما أن سيادتك تأمر بذلك، فمهما حدث، سوف أقودهم، وسوف أحمل راية سيدنا المسيح، وسيادة حبرنا الأعظم. هكذا رد أديمار بصوت هادئ ملىء بالحرارة، وقد بدا حقًا غير مدرك بهذا العبء الجسيم الذى حمله على كتفيه.

امتن البابا لصوت أديمار الواثق، الذى انتقلت إليه سلطاته. لقد كان قرارًا اتُخذ بعد تفكير ناضج وعميق، كشف مدى رغبة البابا الشديدة فى ألا يفلت زمام أمور السيطرة على الحملة، والأهم من كل ذلك عدم تركه لهؤلاء الفرسان الذين كانت فوضويتهم وروعنتهم تصيبانه بالخوف والقلق. ففى مملكة، كانت فيها السيادة فى حالة يرثى له، حيث كان الملك معزولاً من قبل الكنيسة، توجب توخى الحذر. فكونهم يقودهم رجل متميز، سوف ينسى هؤلاء الفرسان الملاعين الاقتتال فيما بينهم وغرائزهم الوضيعة. سوف تتحول مبادراتهم، ولا شك وتنصب فى طريق واحد نحو مصير أفضل.

راح هوج يراقب الرجلين الجالسين وجهًا لوجه على كرسيين من كراسى الأسقف العالية الخشبية الغامقة اللون. كان كبير الأساقفة أديمار رجلاً هزيل الهيئة، ولكنه يفرض الاحترام من الوهلة الأولى. دون أدنى شك، فهو قادر على رفع الجبال التى من شأنها أن تحث على تنظيم هذه الحملة التى بدت عملاً مجنونًا. قيل بين الناس إن أديمار كان فارسًا قبل أن يصبح رجل دين.

على صعيد آخر مختلف تماماً كان روبرت أربيسل، وهو ناسك كان قد طلب جلسة استماع، وهكذا عُهد إليه بالدعوة للحرب الصليبية فى بلدة أنجو، وإلى حث جميع رجال الدين ذوى المناصب الكبيرة، كى يوجهوا الدعوة بدورهم إلى جميع أفراد الشعب إلى الحملة الصليبية باقتناع وحماس. ومع ذلك فقد استاء البابا أوربان الثانى عندما أبلغوه بخطبة بطرس الناسك.

– لقد وجهت كلامى أولاً إلى الفرسان. فلا النساء، ولا الضعاف يجب أن يغادروا؛ لأنهم سيكونون بمثابة تضحيات غير نافعة. أعتقد أنه سيتحتم علينا أيضاً أن نحتفظ بالرجال المتزوجين لزوجاتهم فى حال عدم موافقتهن. أما بالنسبة للرهبان، فلا ينبغى عليهم هم الآخرون أن يدعوا الناس إلى الحملة من دون موافقة أسقفهم أو رئيس الدير التابعين له.

هكذا صرح البابا وهز أديمار دى مونتيل رأسه بالموافقة، وكذلك فعل رئيسا أديرة كلونى وشيز – ديو. بعد ذلك انسحبوا ودخلوا فى مخدع دوران لعقد اجتماع مغلق، ليناقشوا فيه كيفية جلب مساعدات يدعمون بها الصليبيين.

– ربما نتمكن من النظر فى تقديم قروض للفرسان من أجل معداتهم. هكذا اقترح بطاعة منافقة پونس دى تورنون.

– إنها لفكرة جيدة. رد عليه هوج دى سيمور، وهو الأسقف النشط جداً لدير كلونى، الذى بدت هيئته المتقشفة ترتسم على الحائط الواضح

من ورائه بشكل صارخ من جراء الشمس الآخذة فى الغروب، والتى تسللت أشعتها، من خلال الفتحة البيضاوية للنافذة الضيقة.

– تصرفوا كما يحلو لكم. هكذا وافقهم البابا أوربان الثانى الذى كان راضياً. فقد أثارت كلماته البسيطة المنتقاة حماس الجميع، فسرعان ما تجسد ذلك فى آلاف من الأفكار. ابتسم البابا، وأغمض عينيه للحظة، ثم طلب منهم بإشارة من يده أن يتركوه وحده. لقد كان هذا النهار عصيباً ولكنه كان مثمراً، وقد حانت اللحظة كى يشكروا الرب.

فى صباح اليوم التالى حان وقت الفراق. هكذا بدأت الحشود تغادر المدينة شيئًا فشيئًا، وراحوا يعبرون من نفس بواباتها التى شهدت نزوحهم إليها خلال الأسبوعين الماضيين. فى أثناء الليل كان هوج قد فكر جيداً وهداه عقله أخيراً إلى تأجيل موضوع انتقامه هذا لحين عودته بما أنه سيلتقى بإبل فى رحلته إلى الشرق. مع ذلك وقبل مغادرته، أراد أيضًا أن يذهب لوداع روبير. عند موقع بناء الكاتدرائية، كانت الأرض تكسوها طبقة رقيقة من الجليد، التقى هوج بروبير، الذى بدا هائماً على وجهه ومهموماً.

– لقد اختفت برتيلد. قال روبير لهوج ما إن رآه وأكمل: نحن نبحث عنها منذ مساء أمس.

فى الحانة، كان المعلم چاك، يجلس منحنيًا، رأسه منكس لأسفل، بدا منهكًا بعد أن أمضى ليلته من دون نوم، وراح يولول قائلاً:

– آه يا صغيرتى برتيلد... ما الذى سيحدث لى من دونك؟

٥

أخيراً ترك هوج مدينة كليرمون، ولكن اختفاء برتيلد أقلقه. طاردته صورة إبل دى سوج، وهو جالس أمام المائدة فى الحانة، وعيناه لا تكادان تفارقان الشابة برتيلد. ظلت هذه الصورة تلاحقه، حتى استطاع فى النهاية أن يطردها من رأسه.

– ليس من المعقول أن أُحمّل هذا الشاب كل خطايا العالم! هكذا قال هوج لنفسه، وقد استخلص إلى هذه النهاية بعد فترة خشوع طويلة من التأمل أمام تمثال القديسة مارى فى الكنيسة الرئيسة والتى صلى لها داعياً أن تعود برتيلد.

فى اللحظة التى مر فيها أمام سور قطع الحطب الموجودة فى المناطق المحيطة بمنزله، اخترق الساحة الموجودة أسفل برج منزله، وشد لجام فرسه "الأميرة الحسناء" فهدأت من سرعتها، وراحت تمشى فى خطى بطيئة، فلمح الفتاة أجات. ها هى الفتاة ذات الحزمة على كتفها أكثر جمالاً بكثير مما كانت عليه، عندما كان يراها فى منامه. كانت أجات تجرى وراء الدجاج، وهى تحاول أن تُدخله إلى حظيرته بالقرب من حظيرة المواشى، حيث كانت هناك بقرة تخور. من خلال الباب المفتوح

جزئيًا، لمح هوج العجوز إتينيت، التى كانت جالسة تحلب إحدى البهائم التى كان لون فروتها مزيجًا من النارى والأسود. لم ترد أجات على تحية هوج لها، بل سارعت داخل حظيرة الدواجن، وراحت تلقى لها ببعض الحبوب التى كانت تخبئها فى حجر ردائها بعد أن تجمعت الدواجن أمامها. لقد تعَرف هوج أيضًا على هذا الثوب التى ترتديه أجات، فقد كان يخص زوجته مارى سابقًا، وقد استبدلته أجات بذلك الرداء المتسخ الذى كانت ترتديه أثناء لقائهما الأول.

توقف هوج بفرسه أمام مدخل حظيرة الدواجن بينما تجاوزه خادمه كلوقيس، متجهًا إلى إسطبل الخيول.

– هل أنت سعيدة هنا؟ هكذا سأل هوج أجات.

لم تنظر أجات إليه، ولا حتى ردت عليه، بل استمرت فى عملها بهمة. كونت أشعة الشمس المائلة إلى الغروب هالة حول شعرها الداكن. ابتسم هوج وراح يفكر، وراوده شعور غريب بالسعادة، حتى أخرجه من أستغراقه فى أحلام يقظته، وصول ابنه الصغير تييرى، يجرى فى اتجاه أبيه ومن ورائه مربيته برتراد، التى راحت تهرول، متدحرجة على أرض المسار الصاعد حتى مدخل البرج. رفعه هوج، وأجلسه أمامه على الفرس، فأمسك تييرى الصغير بلجام الفرس وقال لها:

– هيا! هيا!

- احترس! صاحت برتراد، وقد وصلت بعد فوات الأوان، كى تحمى "كنزها الصغير".

- احترس! كررت المربية بصوت مغلوب على أمره.

قاد هوج فرسه "الأميرة الحسناء" فجعلها تلف وتعود فى عكس الاتجاه الذى جاءت منه، فراحت تصهلل عندما مرت أمام إسطبل الخيول. فإذا كانت الفرس غير راغبة فى ترك المكان، فإن صرخات الصبى الفرحة قد أثارتها. رفعت برتراد ذراعيها عاليًا، وكأنها تستغيث بالسماء، وراحت تراقبهما، وهما يبتعدان، ثم اقتربت من أجات لتُشهدها على ما يحدث قائلة:

- إن هذا الرجل أكثر طفولة من ابنه!

هزت أجات كتفيها بلا مبالاة. كانت قد انتهت من إطعام أمهات الدجاج والأفراخ الصغيرة. وقف ديكان على أهبة الاستعداد للهجوم فى مقدمة الحظيرة يراقبانها وهى تخرج وتغلق من ورائها بعناية التعريشات الخشبية الرقيقة المصنوعة من خشب شجر الكستناء، والتى تستخدم كباب للحظيرة.

كانت مارى جالسة على راحتها أمام المدفأة الموجودة فى القاعة الكبيرة للطابق الأرضى، حتى تتدفأ من تيارات الهواء غير المحتملة، والتى عصفت بالقصر لمدة يومين متتاليين، مما تسبب فى هزات وصرير مخيف فى البرج المهيب. سارعت الخادمات لتجهيز وجبة العشاء. وضع

المرق فى وعاء كبير، على حامل ثلاثى القوائم، حتى يكون متوازنًا، راح يتقد، وبدأ شى الدواجن المعلقة فى أسياخ. راح إناء الطهى يتأرجح على قضيب معدنى، مُدلى من رف، أصبح لونه أسود من الهباب المتصاعد بفعل النيران المتقدة. على لوح من الخشب الخام وضعت أوعية ضخمة مستديرة، وأباريق وكؤوس وأطباق فخارية.

كانت إليانور الصغيرة تلعب عند قدمى أمها، عندما دخل كلوقيس إلى القاعة بعد ربط جواده فى الإسطبل.

– كلوقيس! ها أنت أخيراً! أين سيدك؟ هكذا هتفت مارى، وقبل أن يرد عليها كلوقيس دخلت المربية برتراد، مسرعة، وقد بدت منزعجة وراحت تقول:

– سيدتى، سيدتى! قالت وهى تهرول وقد جلبت معها نفحة كبيرة من الهواء البارد داخل الغرفة التى تعبأت بالدخان.

– ما الذى يحدث؟

– لقد عاد سيدى اللورد. قالت برتراد وهى تلتقط أنفاسها

– وماذا بعد؟

– لقد حمل تييرى الصغير على هذه الفرس الملعونة "الأميرة الحسناء" وجرى به.

– اهدأى! لن يحدث له شىء.

- سوف نرى! قالت برتراد وهى ترفع عينيها إلى السماء.

- وأنا ماذا عساى أن أقول، وأنا التى لم أره حتى الآن؟ فبدلاً من أن يأتى لرؤية زوجته، فقد فضل ركوب تلك الفرس مع ابنه! وأنتم! هيا أسرعوا!

هكذا استاءت مارى، فراحت تزفر على خادماتها جام مزاجها السيئ. كان يمكن أن يكون يومًا لطيفًا، فقد زارها هذا الصباح تاجران أشترت منهما سترتين لهما ألوان مختلفة، وكذلك معطف مطرز.

- تعالى يا ڤاليرى... سوف تساعديننى فى وضع سترتى الجديدة.

صعدت مارى بخفة وسرعة على الدرجات المؤدية للطابق العلوى الذى يضيئه مصباح بسيط. خلعت قميصها الصوفى، وظلت بملابسها الداخلية المصنوعة من القطن الخفيف، فظهرت مفاتن جسدها بوضوح تحت هذا اللباس الخفيف. خلعت أيضًا قطعة القماش الدافئة التى كانت تغطى رأسها ورقبتها، ثم وضعت على كتفيها شيئًا مثل العباءة. مدت خادمتها ڤاليرى لها يدها بثوب آخر، جذبته من داخل خزانة كبيرة، أبيض ناصع، كانت قد طوته بعناية وفن، ثم ارتدته مع أحد الثوبين ذواتا الأكمام المتدلية، وقد اشترتهما لتوها فى اليوم نفسه. حيك الثوب من قماش أحمر أرجوانى، ينحسر بضيق عند البطن والجنبين، ثم ينزل على شكل طيات كبيرة عند منطقة الأرداف، مما جعل مارى تمشى بطابع متبختر إلى حد ما فى الذهاب والمجىء، ولكن بخطى متزنة.

تصاعدت إليها رائحة لحم مشوى.

- أليست النار التى تشعلونها هذه أقوى من اللازم؟ صاحت مارى، موجهةً كلامها لخدم الطابق الأرضى بنبرة صوت ما زالت عصبية.

مدت ڤاليرى إليها معطفًا مطرزًا تطريزات كبيرة عند الأطراف فارتدته، وأحكمت غلقه عند منتصف الصدر بدبوس معدنى كبير[1] مرصع بالأحجار الكريمة، ورثته عن والدتها.

- لكم أنت جميلة يا سيدتى! قالت لها خادمتها ڤاليرى بعد أن لمحت ابتسامة نادرة على وجهها، فهى دائمًا عابسة.

ترامى إلى سمع مارى صوت زوجها آتيًا من الطابق الأرضى، حيث كان يأمر خادمه كلوڤيس أن يعيد فرسه "الأميرة الحسناء" إلى الإسطبل.

- أين سيدتك؟

سأله هوج بعد أن جال بنظره فى القاعة الكبرى للطابق الأرضى لوهلة واحدة، وهو مندهش لغيابها رغم وجود مفرش التطريز الخاص بها بالقرب من المدفأة.

- السيدة مارى فى الطابق العلوى. أجابته برتراد. هرولت ناحيته ابنته أليانور فطبع هوج قبلتين على خديها، وهو يمسك بها بطرفى

---

(١) دبوس معدنى أو بروش، غالبًا ما يكون مصنوعًا من الذهب ومرصعًا بالأحجار الكريمة.

ذراعيه، ثم وضعها على الفور على بلاط أرضية القاعة التى تكسوها بشكل غير منتظم، بلاطات مثمنة الشكل.

– أنت سيئة الطبع مثل أمك! قال هوج متذمراً لابنته أليانور، التى سرعان ما راحت تصرخ غاضبة عندما شعرت أن أباها يتخلى عنها بهذه السرعة.

ناول هوج سيفه لابنه تييرى، ثم راح يصعد السلم الخشبى بخطى سريعة ثقيلة، أحدث ثقلها صريراً عالياً.

– ألم يمكنك المجىء لاستقبالى؟

– ألم يمكنك أنت أن تأتى لرؤيتى قبل أن تأخذ ابنك على أميرتك الجميلة؟

ابتسم هوج، فقد فهم أن مارى كانت حالتها المزاجية سيئة.

– وها نحن متعادلان الآن... قبلينى.

– قبلنى أنت أولاً!

– أهكذا تستقبلين فارسك؟

– فارسى ليس متلهفاً لرؤيتى تقريباً.

لم يرد عليها هوج، ولكنه ضمها إلى صدره بذراع قوية محكمة، حتى لا تستطيع مقاومته.

مع ذلك صدته ماری، علی الرغم من تهیج حواسها، التی کانت خامدة لفترة طویلة وقالت له:

– نحن بصدد تناول العشاء... ولا بد أن الأوز الصغیر قد تم طهوه جداً حتی أصبح مثل صحن الجلبانات وعبق البریة، وکذلك لا بد أن میاه المرق الممتزجة بالکالی والثوم، قد غلت بشدة منذ وقت طویل.

– ولکنی متلهف لك أنت. قال لها هوج، وهو یضع یده علی قلبها.

– لاحقًا یا لوردی الوسیم... ولکن... ما هذا؟

لقد لاحظت ماری علی سترة الفارس التی یرتدیها زوجها هوج شریطی القماش، وهما یشکلان صلیبًا أحمر زاهی اللون.

– سوف أشرح لك لاحقًا.

قال لها هوج ذلك، وهو یمد لها یده، کی یساعدها فی نزول الدرج المنحدر بشدة.

– أحكِ لی إذن... ما معنی هذا الصلیب؟ قالت ماری لهوج، الذی أمسك بقطعة خبز بعد أن نقعها فی المرق ثم دسها بنهم داخل فمه ذی الشفتین الغلیظتین. بعد أن مضغها بقوة، رد علیها أخیراً:

– لقد مات خالی!

– سیدی الأسقف؟

كانت مارى لم تلتق بخال زوجها بالكاد إلا فى يوم زفافها، حيث كان الأسقف هو من باركه. قالت مارى وهى تشير بعلامة الصليب على صدرها:

– فليرقد إذن فى سلام! وماذا عن الصليب إذن؟ سالته مارى، وقد ازدادت حيرة.

– سأكون مع الحملة.

اتسعت عينا مارى من الدهشة، ولم تنبس فأكمل هوج:

– أنا ذاهب إلى الأراضى المقدسة.

– ما هذا الذى تقوله؟ أنت راحل مرة أخرى؟ لم تحتفظ مارى إلا بفكرة الرحيل.

– لقد طلب منا البابا أن نطرد الكفار من الأراضى المقدسة.

– إنه لمجنون! لن أتركك تغادر إلى هذه البلاد البعيدة! هتفت مارى، وهى تزفر الغضب الذى عاودها من جديد.

– إن البابا ليس مجنونًا... بل على العكس، فأنا لم أر فى حياتى رجلاً برزانته وحكمته.

تراءت إلى مخيلة هوج صورة وجه وهيئة الحبر الأعظم، الذى ترك فيه أثرًا كبيرًا.

– ولكن الأراضى المقدسة تبعد عن هنا أيام عديدة على الخيل. أضافت مارى.

– نعم... تستطيعين قول ذلك. قال هوج ضاحكًا، فهو نفسه غير متأكد، أين تقع مدينة القدس الشهيرة هذه[1] ثم أكمل: لأيام عديدة، بل أكثر من ذلك، وما هو أكيد أننى سأتغيب لعدة أشهر.

– عدة أشهر! أتتركنى أنا والأطفال؟ وقصرك؟

طالعت مارى هوج بنظرة حادة طويلة، وجفونها نصف مغلقة، ترسب منها الضوء الممتزج بين النار ووهج المصابيح. بدت له وكأنها تتحدث بلهجة مصيرية قاطعة.

– قصرى سينتظرنى كما ستنتظريننى أنت... فالحجارة لن تطير، وسيستمر بيجون فى الإشراف على الموقع يا مارى...

التفت هوج نصف التفاتة إلى زوجته، وراح ينظر لها مباشرةً فى عينيها فقالت له:

– أما أنا فسأستطيع أن أطير. لوحت مارى بيدها فى اتجاه عنق المدفأة.

– يا مارى... سأغادر مهما حدث! لقد اتخذت قرارى بهذا الشأن، وسأذهب مع الحملة.

---

(١) للوصول إلى مدينة القدس، سواء عن طريق البر أو البحر، كان لا بد من قطع حوالى ٤٠٠٠ كيلو متر.

كان هوج غير آبه بهذا الموضوع، كما كان بالذى سبقه، فخرجت كلماته واضحة وجافة، فلم ترد عليه مارى، ولكنها أطاحت بصحن الدواجن الموجود أمامها، كانت قد وضعته لها ڤاليرى.

بعد أن أنتهى هوج من شرب حسائه، بدأ فى التهام الطائر الصغير بنهم، وراح يفككه بأصابعه التى كانت تقطر دهنًا. بعد ذلك انتقل إلى الطائر الثانى، وراح يتكلم من جديد، ساردًا خطبة البابا بالتفصيل، محاولاً بصعوبة أن يوصل حماسه بالموضوع إلى زوجته. كانت المنضدة الصغيرة التى يلتف حولها الخدم، يستمعون أيضًا إلى سيدهم باهتمام.

– كنت أتمنى أن أغادر أنا الآخر! هكذا أعرب بودرى، كبير الخدم.

– وأنا أيضًا. قال الشاب اليافع چيربر، وهو منحنى يطالع سيده.

– لقد دعا البابا الفرسان... أما أنتم فلديكم ما يتحتم عليكم عمله هنا. قال هوج لهم ببرود.

هز چيربر كتفيه باستهزاء، ولكن بطريقة غير واضحة فى الوقت نفسه.

– لقد حلفت اليمين أن أغادر، ولذلك فسوف أغادر. هكذا قال هوج بلهجة حاسمة، كى يُنهى الموضوع، ثم تناول تفاحة، وراح يقضمها بصوت صاخب.

– حسنًا غادر إذن!

قالت له ماري، ثم نهضت من مكانها وهي تدفع بعصبية المقعد الذي كانت تجلس عليه، فسقط ظهره على مقربة من المدفأة. التقطه هوج، دون أن يلتفت ناحية أجات، التي دخلت لتوها إلى المكان، جالبةً معها نسمة هواء منعش من الخارج، بل اتبع زوجته ماري على الدرج. عادت إليانور إلى البكاء، بينما ألقى تييري بقطعة من الخبز في نار المدفأة.

- يا حبيبتي... لا يمكنك منعي من تنفيذ رغبتي.

أمسك هوج بمعصم ماري، فراح طرف كم ثوبها الطويل الأحمر يترنح فيما بينهما، وكأنه حاجز منيع يفصلهما رغم هشاشته.

- كلا، بالطبع لا يمكنني أن أمنعك. رضخت ماري بصوت مليء بالضجر.

فرغم الفرحة العارمة التي شعرت بها، عندما علمت بخبر عودة زوجها، ثم حالة الغضب الخفيفة التي اعترتها، تحولت الآن إلى سخط شديد استنفد أعصابها. ترك هوج معصمها الذي كان يضغط عليه، ثم أمسك يدها برقة، وحملها إلى شفتيه.

- دعينا نستفيد من هذه اللحظة الراهنة. ألست أنا هنا الآن لأحبك؟

- نعم، ولكنني دائماً تعيسة في غيابك.

- انسي ذلك وأحبيني.

ضمها هوج بين ذراعيه، ورفعها إلى أعلى قليلاً برقة. تدلى كما ثوبها الطويلان، وبدا وكأنهما رمزًا لإذعان ماري له، التي وضعت يديها على مؤخرة عنقه، وتعلقت به كمركب تلوذ بمرفأ. أزاحا معًا قليلاً الستائر، التي لم تُرفع ذلك الصباح من حول الفراش المرتفع عن الأرض، وتمرغا في الغطاء السميك المصنوع من فرو الثعلب الأحمر، وبدا وكأنهما يحلقان في السماء. بركلة واحدة صحيحة من قدمه، خلع هوج حذاءه ذا الرقبة الطويلة، ثم بركلة أخرى، خلع الفردة الثانية. أحدث سقوط كل فردة منهما، جلبة عالية على الألواح الخشبية التي تغطيها حصيرة مفروشة أسفل السرير، منسوجة من القش الخشن. من ثم بدأ هوج يخلع سترته، بينما خلعت ماري غطاء رأسها وألقت به على الخزانة المجاورة للفراش.

أخيرًا أصبحا وحدهما، لم يعودا يسمعان بالمرة لحركة الأقدام ذهابًا وإيابًا في الطابق الأرضي، أو لأحاديث الخدم، ولا الروائح الصادرة من المطبخ، فقد راحا يستعيدان من جديد سعادتهما، والتي دائمًا ما تتجدد منذ زواجهما، عندما يكونان معًا. هكذا تلاشت خلافاتهما. بتمعن وبطء، راح هوج يجرد ماري من ملابسها، والتي تركت نفسها له بصبر. انكشفت بشرتها الناصعة البياض كالحليب، وكذلك ظهر طابع الحسن المرسوم في تجويف كتفها، فقبله هوج بشهوة، ثم أحاط ماري بجسده في لطف، فأعطته نفسها دون تمنع. فرغم أنها كانت متمردة ومنزعجة، بل متقلبة المزاج، فقد استسلمت في النهاية للفارس المنتصر.

ومع ذلك، بالنسبة لهوج، لم تعد هذه المرأة مارى! أجات كانت هناك بالقرب منه، بل قريبة لدرجة يستطيع بها أن يلمسها، وها هى البشرة البيضاء تستعيض بسمار خمرى مغرٍ للغاية. خلط هوج بين المرأتين فى تداخل غريب، حيث أصبحتا من الآن تحتلان تفكيره.

بعد أن شعر هوج بالسعادة والرضا، سرعان ما استغرق فى نوم عميق، تداعبه أحلام تخيلية لحواسه. فقد رأى أجات تركب فرسه "الأميرة الحسناء" وهى عارية تماماً إلا من قلادة تزينها الزهور، ويظهر بوضوح فى تجويف كتفها طابع الحسن. رآها تمد يدها إليه، ولكنها سقطت مغشية عليها فى اللحظة التى اعتقد أنه لمسها فيها. سمع مارى تئن إلى جواره، ثم بكت ابنته إليانور، بعدها سمع المربية برتراد وهى تهدهدها، وقبل بدء مرحلة جديدة من السباق المحموم بالخيل، كانت أجات قد اختفت عند المسار الذى يحف بالغابة، وإذا بخادمه كلوفيس يصيح:

- سيدى... لا تدخل، إنها الغابة الملعونة.

بعد ذلك بلحظة، ظهرت أجات من جديد، ولكن بملامح حواء مثل التمثال الذى عرضه عليه روبير. وقفت تمد يدها له بفرع شجرة ملىء بالأوراق، فشل فى تناوله منها. خلفها، ظهر ثعبان يصدر فحيحاً عالياً ومفزعاً.

- كلا! صرخ هوج فى أثناء نومه.

- اسكت. غمغمت مارى.

هدأ هوج، ولكنه كان يرتعد، فجذب غطاء فرو الثعلب فوقه ، واستغرق فى حلمه من جديد. عند سفح برج قصره الحجرى الجديد بعد أن تم إنجازه، وقف بيچون، مشرف العمال، يودعه. كان هوج يرتدى السترة الواقية ذات السلاسل المعدنية، وعلى رأسه خوذة تلمع، عاكسة ألف شعاع تحت لهيب شمس الصيف، رد له السلام ملوحًا له بالدرع البيضاوية الطويلة التى تتدلى منها راية ذات لونين أبيض وأحمر. كانت مارى وإليانور تبكيان، بينما كان تييرى الصغير محمولاً على كتفى بودرى كبير الخدم، لوح له بيده هو الآخر. صاحت له أجات بعبارة، ولكنه لم يفهمها.

أفاق هوج من النوم فى ساعة متأخرة. كان المنزل قد استأنف أنشطته منذ فترة طويلة. ترامت إلى سمعه ضوضاء مختلفة من قاعة الطابق الأرضى، وشم رائحة الخبز الطازج، فدغدغت فتحات أنفه. ها هى مارى ملتصقة به بلا حراك.

– أنا جائع. قال هوج، وهو يزيح عنه غطاء فرو الثعلب. ارتدى بالكاد سترته فوق سرواله الداخلى(١) ذى الألوان المبهرجة، ثم ارتدى على عجل حذاءه ذا الرقبة الطويلة، وأسرع نازلاً الدرج المزعج اللعين.

---

(١) هو نوع من السراويل الطويلة اللاصقة، مثبتة عند الركبتين أو بواسطة حمالات تُربط فى الحزام، ويكون مصحوبًا بجوارب من الكتان، أو من الحرير أو القماش، سواء بألوان مخططة أو لون واحد سادة.

كانت إليانور تتناول عصيدة مصنوعة من الحليب؛ بينما كان تييرى قد غادر إلى الكنيسة الملحقة بالقصر لتعلم القراءة على يد القسيس. أما كلوڤيس، فكان ينتظر سيده ليحلق له ذقنه، كما اعتاد فى طقوس كل صباح. راحت أجات وڤاليرى تنثران على الارض حزمة من أغصان شجر التنوب التى تمتص وتقاوم رطوبة الأرضية، كما أنها تنشر رائحة ألطف من روائح الشواء والطهى التى عبأت المكان فى اليوم السابق. ما زالت ألسنة اللهب، متقدة بقوة فى المدفأة، حيث يقوم بإبقائها چيربر، ولهذا فهو ينام الليل بالقرب منها طوال فصل الشتاء، من أجل هذه المهمة. أيضًا يقوم چيربر بتنظيف المشاعل، فهو يزيل بعناية ذلك الجزء المحترق من تيل الشمعة، وذلك باستخدام ملقاط، أو يستبدل به تيلاً آخر جديداً فى قلب المشعل.

– احرص على التوفير يا چيرببر. هكذا قال له هوج عندما رآه قبل أن يُكمل: سوف أحتاج إلى المال من أجل السفر! المشاعل الجديدة ستكون من الدهن الحيوانى. هيا اذهب لإحضار بودرى وإلوى.

أمسك هوج بقطعة كبيرة من رغيف خبز، كانت موضوعة على طاولة الخبز، ثم جلس أمام المدفأة. ناولته ڤاليرى كوبًا يشبه أنواع النبيذ الرديئة، وهو شراب يجلبه الخدم من أهالى القرية المجاورة، كان الفارس هوج يحب احتساءه أثناء تناول وجبته الأولى فى الصباح. ظلت أجات واقفة فى ركن بعيد.

بعد لحظات قليلة، جاء بودرى، كبير الخدم، ومعه إلوى، الوكيل المسئول عن جمع النقود من المزارعين.

- أنتما تعرفان أننى سأتغيب لأشهر طويلة. سيكون وقت الرحيل ولا شك فى فصل الربيع وقت جمع التبن. لهذا ستكونان سيدى المنزل فى غيابى، ولكن قبل أن يحدث ذلك، فأنا بحاجة إلى أموال كى أسلح نفسى وأسلح الفرقة التى أعتزم اصطحابها معى. فلتذهبا إذن لإخطار أتباعى من الفرسان. فأنا فى أشد الحاجة إليهم، أكثر من أى وقت سبق. حتى الآن، وأنا لم أبالغ فى مطالبى. ستذهبان فى جولة إلى كل أتباعى، وتدعوانهم إلى هنا فى عيد الغطاس. سوف أقيم مأدبة العشاء لهم وقتها، ثم سنقوم برحلة صيد معًا، وبعض الدورات القتالية، بعدها سأقوم بتسليح الفرسان، فهذا ضرورى لنا. إن كلاً من فولبرت وراؤول وبيرنييه ابنه البكرى فى سن تسمح بمرافقتنا، دون أن ننسى چيفروا، ابن الراحل أموند ابن خالتى.

هكذا تحدث هوج إلى خدمه بلهجة آمرة، وما كان على بودرى وإلوى إلا أن يربطا سرجى جواديهما وينطلقا بهما. وضع سيدهما معطفه على كتفيه، ولأول مرة هذا الصباح، يتنبه إلى وجود أجات، فنظر إليها طويلاً قبل أن يغادر. نزل بسرعة، المسار المنحدر، والذى يقود إلى الساحة السفلية للبرج. أمام الإسطبل، كان كلوڤيس يضع السرج على جسم "الأميرة الحسناء" اللامع. راح هوج يملس على عنقها

فارتعشت بشرة مؤخرة جيدها، وضربت الأرض بحافرها الأيسر، فكان هذا دائماً أفضل علامة على سعادتها.

- جميلة أنت... كم أنت جميلة! هكذا همس هوج فى أذنها قبل أن يضع قدمه فى الركاب المعدنى المخصص للكز الحصان، حتى استقر بارتياح فى وسط ظهرها تماماً. جذب لجامها بخفة، فكانت هذه إشارة للرحيل. تبعه كلوقيس على جواده هو الآخر. بدا الطريق الذى سلكاه قد جف من الأمطار، لهذا راحت حوافر الخيول تنزلق بشدة على قطع الزلط التى تزحزحت بسبب الصقيع.

- بهدوء... بهدوء! هكذا غمغم هوج، وهو يعبر بفرسه إلى ما وراء الساتر الحجرى المحيط بالقصر، قبل أن يرخى اللجام قليلاً من جديد، فى إشارة لبدء الجرى أسرع.

حياه أحد المزارعين، الذى كان يرعى قطيعاً من الخنازير فى الغابة التى يغذيهم فيها. أخذ كلبه ينبح عند مرور هوج وكلوقيس. بعده بقليل، لامحاً صبياً يقوم بجز الحشائش المصفرة الضارة بفعل الصقيع. حيا هو الآخر سيده بإيماءة من رأسه، فابتسم هوج له قبل أن يسرع بفرسه، كى يجتاز رقعة الأرض القفار، التى تفصل بينه وبين موقع بناء قصره الجديد.

كان البرد قارصاً، حتى إن الدموع ملأت عينيه، فمسحها بكم سترته فى اللحظة التى اقترب فيها بيجون لاستقباله. كانت سقالات

الطابق العلوى للقصر، قد تم وضعها. عند منطقة أرضية مائلة، كانت هناك عربة حجرية صغيرة مربوطة، ليدفعها ثلاثة بنائين. إلى أسفل قليلاً، كان هناك عامل بناء يمزج الرمال، ليصنع مادة تشبه الأسمنت بمطرقة فى قالب خشبى، بينما راح مساعده يملأ قفة ضخمة، سرعان ما رفعها عامل بناء مفتول العضلات. وقف حمال يقطع الحجارة، ثم يكومها بعد ذلك فى سلة، وما يلبث أن يعلقها فى الهواء بفضل بكرة متصلة بجهاز رفع بدائى كبير وحبل سميك.

وقف هوج للحظة يراقب فيها هذا المشهد الملىء بالحياة. أخذ يستمع بلا تركيز إلى شرح بيجون، مشرف العمال، حتى لوح لهما النجار بالفأس الذى يحمله فى يده. لقد بدأ مبنى القصر يأخذ شكلاً واضحًا الآن. شعر هوج بسعادة سريعة لحظية. لقد كانت مارى على حق... سيكون من القسوة ترك كل هذا.

- إنها مشيئة الرب! غمغم هوج.

فى المساء ذاته، أعلنت له مارى أنها حامل.

- سيكون بالكاد مولوداً عندما تكون أنت على وشك الرحيل.

قالت له مارى بحزن شديد ووحشة، وهى تلقى بنفسها بين ذراعيه، وهما على الفراش، بينما الستائر المحيطة به مسدلة بإحكام.

بلطف وحب، راح هوج ينظر إليها طويلاً، ثم قال:

- يا له من خبر سعيد! إن مملكتنا فى حاجة إلى فرسان.

- أنت لا تفكر إلا فى القتال والحرب! ثم من الذى قال لك إنه سيكون ولداً؟

ظهر على وجه مارى خيبة الأمل، فأفلتت من بين ذراعيه، وأدارت له ظهرها.

- كلا يا حبيبتى... صدقينى عندما أقول لك إننى لن أكون سعيداً برحيلى هذا.

التفتت مارى له، واحتضنته من جديد.

٦

بقى لهوج حوالى شهر قبل الاجتماع المقترح لأتباعه. خصص هوج هذا الشهر للقيام بأنشطته المعتادة، والتى اتخذت بعضها أبعادًا أخرى فى انتظار مغادرته. بخلاف زياراته شبه اليومية إلى قصره الحجرى الجديد، الذى كانت تكاليف استكماله ستتأثر، بسبب تكلفة الحملة العسكرية. على جانب آخر، كانت رحلات الصيد فى هذه الفترة الشتوية، هى إحدى وسائل تمضيته الوقت، وقد أعطاه ذلك الفرصة أيضًا، كى يتعارك مع الصيادين غير المصرح لهم بالصيد، الذين كانوا بذكاء ومكر، يصطادون السناجب والظربان، وفصائل حيوان ابن عرس، بغرض بيع فرائها. كان هوج يحب مطاردتهم وتخويفهم، ولكنه كان يسمح لهم فى أغلب الأحيان بالمغادرة ومعهم غنائمهم.

- اتركوهم! فلا بد أن يأكل ويعيش هؤلاء المتسولون. هكذا أمر هوج خادمه كلوڤيس ودينيس، الخادم المسئول عن كلاب الصيد.

كان هؤلاء الصيادون يمثلون بالنسبة لهوج، نوعًا استثنائيًا من البشر الحر، الذى لا يعتمد فى معيشته على أحد، ولهذا كانوا يتمتعون بمزايا، رغم عوائق وعيوب حالتهم.

– بل ليس لديهم أحد، ليقدم لهم يد المعونة. كرر هوج لبيرنييه، أقرب أصدقائه ومرافقه الرئيسى فى رحلة التسلية هذه.

– بالتأكيد، ولكنهم أيضاً لا يدينون بشىء لأحد. أجابه تابعه بيرنييه.

– إن مزارعينا مجرد نكرة من دون حماية لورد قوى. بادره هوج.

– نعم، ولكن ماذا كنا سنصبح من دون مزارعينا؟ أجابه بيرنييه بتواضع.

كان بيرنييه قد استجاب لدعوة بودرى وإلوى سريعاً، وعلى الفور أيد ضرورة الرحيل. كان يعشق القتال بشكل يجعل من المستحيل أن يحرم نفسه من فرصة كهذه. لقد سلح هوج جيبوم، ابن بيرنييه الأكبر، أثناء اجتماع عيد الغطاس، واختاره، كى يرحل معهم أيضاً.

– أنت الأول! لكم أنا سعيد أنك سترافقنى! هكذا أجابه هوج.

– ولكن ما الذى ستقوله بيرينچير؟ هكذا سألت مارى هوج، وهى ترفع رأسها عن مفرش التطريز.

– لا شىء يا حبيبتى... لم تقل شيئًا مثلك! أكد لها هوج ببساطة وسرعة.

رافقت كلمات هوج ابتسامة ساحرة، ولكنها سرعان ما تلاشت، عندما لاحظ هوج أن بيرنييه لا يرفع عينيه من على أجات، التى كانت منهمكة فى فرز حبات الفول.

من ناحية أخرى عاد بودرى وإلوى محملين بموافقات متحمسة لدعوة سيدهما. إن فولبرت وراؤول سيكونان موجودين هما أيضاً. إنهما المحاربان الأكثر موهبة فى المنطقة.

جاب هوج مع بيرنييه المناطق الريفية المحيطة للبحث عن شبان أقوياء، قادرين على تشكيل فرقة، يقترح اللورد أخذها معه. كانت فرصة أيضًا لتفقد أراضى هوج. إن الروابط التى طالما ما نجح هوج فى نسجها مع الأهالى، الذين يسكنون فى القرى الواقعة على أراضيه، بدت إيجابية بطبيعة الحال. فحتى العبيد منهم أو من أُعتقوا وأصبحوا أحرار أنفسهم ، ترددوا فى مرافقة سيدهم إلى الحرب، وفى التخلى عن أسرهم وعن مصادر رزقهم.

و مع ذلك، فإن البعض منهم، كان يحاول البحث عن المغامرة، مثل ابنى الطحان الأقرب للقصر اللذين يعيشان فى قرية الأخشاب، فقد كان كل منهما على حد سواء، يرغب فى الرحيل، مما أثار استياء والدهما، وهو طاعن فى السن.

– واحد منكما فقط هو الذى سيتبعنى فى الحملة. هكذا قال لهما هوج لحسم الموقف قبل أن يكمل: فلتلعبا الزهر لتحددا من سيغادر، ولكنكما ستكونان معتوقين أنتما الاثنان.

رحب والدهما الطحان العجوز بهذا الخبر، وأعرب عن سعادته بتقديم جوال إضافى من الدقيق بخلاف حصته المقررة من الإتاوات.

– شكراً يا سيدى اللورد. هكذا شكره الطحان، مُعرباً عن امتنانه.

أعُجب بيرنييه مرة أخرى بحنكة صديقه ومعاملته الطيبة لعبيده، فهو كان أكثر قسوة بكثير فى التعامل مع عبيده وخدمه.

كان هوج قد عرض أيضًا العمل على جيرن، شقيق أجات، وإيواءه فى قصره، ولكن والدته عارضت ذلك بشدة قائلة:

– إنه الرجل الوحيد المتبقى فى المنزل.

أذعن هوج، ولكنه فرض شروطه على الصبى قائلاً:

– عليك أن تذهب إذن للعمل فى ورشة الحدادة مع أربر. وهناك، لن يكون لك الحق فى لمس أرانبى! كما ليس لك شأن بالخنازير الوحشية ولتدعها فى سلام.

أحمر وجه جيرن خجلاً... فقد كان هوج على علم بكل ما يحدث فى العزبة، ولكنه تعمد غض بصره، حيث كانت هذه القرية وسكان أكواخها فى غاية الفقر والبؤس. راح الطين الذى يغطى الحوائط يتساقط حول القطع الخشبية، بينما غطت المخطوطة الورقية المتسخة التى كانت تستخدم كحماية للنافذة الوحيدة الموجودة فى الكوخ، والتى تحرك تيارًا من الهواء داخله! لمح هوج من خلالها أم أجات. لا بد أنها كانت ولا شك جميلة فى شبابها. أثاره وجه جيرن أيضًا لشدة شبهه بأجات شقيقته. فهو له الملامح نفسها والعيون نفسها، بل البشرة الجميلة نفسها. الفرق أن نظرة الصبى لم تكن بها وقاحة عينى شقيقته.

– يبدو أنك بارع جدًا.

فى الواقع كان هوج يعلم جيداً أن الفتى جيرن قد اشتهر فى القرية باستدراجه لخنزير وحشى كان قد اعتاد المجىء إلى القرية لأكل التفاح، فكان جيرن يسعد بتقديم الشوفان له، لهذا كان الحيوان يعود كل يوم، وأخيراً انتهى به الأمر بالوقوع فى حفرة حفرها له الفتى الشاب ببراعة. تغذى أهالى القرية بأكملها عليه لأيام عديدة، وهكذا نال جيرن تقديرهم وعرفانهم الكبير.

لمح هوج فخاً شبكياً لاصطياد الأسماك فى ركن من الغرفة الكئيبة ففهم على الفور أنها تُستخدم، ولا شك فى استخراج الأسماك المحظورة من البرك المحيطة بالقرية. التقط جيرن نظرة سيده الذى التزم بالصمت، متذكراً تأثير نظرة أجات المتساهلة له.

- هيا... تعال إذن للعمل لدى أربر. هكذا حسم هوج الموقف فى الحال، وهو يقود الفتى جيرن الذى أذعن للعمل فى ورشة الحدادة.

لقد شعر هذا الحداد، أربر، وغيره من حدادى القرى التى يمتلكها هوج بالرضا والابتهاج، حيث تأمن لهم العمل لشهور عديدة مقبلة. فبخلاف إنتاج عملهم المعتاد، سواء بإعادة تطويع العجلات المعدنية أو الأوانى الضخمة، وكذلك الأدوات الخاصة بالحرث والزراعة، بل قاموا أيضاً بتنفيذ العديد من الطلبيات الخاصة بأدوات عمال بناء قصر هوج الحجرى الجديد. أما الآن، فلا بد أن يشرعوا فى تصنيع أسلحة. لذا تحتم على كل حداد منهم أن يقوم بصناعة سيفين ورمحين على الأقل.

أمام ورشة الحدادة التى يحميها ساتر من القش، وقف أربر، وود ألا يترك مكانه أمام المشهد، حيث تجمهر الأهالى للفرجة على العرض الذى قدمه هوج وبيرنييه، حيث مثلا معركة بالسيوف ليشرحا فيها، كيف ينبغى قهر الخصم والإجهاز عليه. قال هوج لهم:

- لا بد أن يكون السيف ثقيلاً، وأن يبلغ طوله حوالى ثلاث أقدام.

- ولا بد أن يكون مقبضه مرتفعًا لأعلى قليلاً، كى يتمكن الفارس من الإمساك بالسيف بكلتا يديه. أكمل بيرنييه مؤيداً شرح هوج.

- أما بالنسبة للوزن، فيجب ألا يقل عن سبع أوقيات، حتى يكون كافيًا لشق جسم العدو. قال هوج، وهو يُقبل أديل، سيف والده الذى لا يفارقه أبداً، إلا إذا كان من الضرورى سنه أو صقله. كما أن المقبض الذى يتعرض لاستخدام قاسٍ وسيئ، ينبغى تعديله أو تغيير وضعه أو توجيهه لوضع آخر فى بعض الأحيان.

كان الحداد فسيقوم أيضًا بتصنيع القطع الحديدية الخاصة بالحراب، التى كانت مقابضها مصنوعة من الخشب الصلب، فكانوا يطلبون من الحطابين تصنيعها.

- وجذوع أشجار التفاح، أو الأشجار الرمادية التى تشبه أشجار عيد الميلاد أو أشجار الاسبن هى الفضلى لصنع مؤخرة الرماح. أبدى هوج رأيه.

- وماذا عن السن الحديد، هل أصنعه حاداً، أو شائكًا أو ذا برشام؟ هكذا سأله أربر الحداد، الذى كان دائمًا حريصًا على إتقان عمله، للحصول على نتائج جيدة.

- كما يحلو لك، فليس لدى أى تفضيل.

فى قبو القصر، كان هوج يحتفظ دائمًا بمجموعة متنوعة وكبيرة من البلطات والخوذات، التى ورثها عن أسلافه، ولهذا فقد كلف خادمه چيربر بالحفاظ على زيه المعدنى للمحاربين، هذا كما لو كان جديداً، رغم أن الصدأ طاله بشكل طفيف بفعل تقلبات الطقس فى فصل الخريف هذا.

- سوف يُستخدم كل هذا فى أغراض نبيلة! هكذا أعلن هوج، وهو يكشف عن كنوزه لصديقه، وتابعه بيرنييه، ثم أضاف: أنا أعلم أن والدى وجدى لم يكونا دائمًا مثالاً يحتذى به فى تصرفات اللوردات. فقد دمرا وأفلسا أكثر ما قاما بحماية عبيدهم، بل ما زالت تتردد فى جميع أنحاء المنطقة قصص اغتصاب مروعة لا بد أنه كانت لهما يد فيها.

- هل صحيح أن مجلس أمناء رجال الدين قد مدد هدنة الله؟ سأله بيرنييه.

- نعم ولحسن الحظ أن لدينا الآن ما نقاتل من أجله فى مكان آخر. فلنترك إذن الناس الشجعان هنا. إنها مشيئة الرب!

لقد اعتاد هوج أن يُصرخ بصيحة التظاهر، ثم يرفع سيفه المتسلط لأعلى، آمراً فرسه بالإسراع فى الركض.

أعُجب الشباب من المرشحين بحماس سيدهم اللورد، فتضاعفت أعداد من يرغب فى الذهاب معه إلى الحملة، وتنوعت مهنهم: فها هو من يعمل فى جز فرو الأغنام، ومن يقود الدواب، ومن يحمل الأسماك من البركة، والذى يحلم برؤية البحر، مروراً بصانع الأحذية، والنساج أو النجار.

هكذا كان هوج يعود منهكاً كل ليلة ولكن سعيد وراضٍ فى الوقت ذاته، إلى برجه، حيث كانت فى انتظاره زوجته مارى. يبدو أنها قد رضخت فى النهاية، وقبلت رحيله، ولذلك كانت تمنحه نفسها بشوق وحنان ما إن ينفردا فى المخدع الخاص بهما. ظلت أجات هى الوحيدة التى تمثل مصدراً للقلق. لقد أصبحت تشغل باله وأحلام يقظته بشكل كبير، بل إنه كان يشعر بالغيرة من بيرنييه، الذى كان ينظر إليها كثيراً... الأكثر من ذلك أن مارى كانت توليها رعاية خاصة، وتعاملها بمودة ورقة.

اضطرب هوج إلى حد الهوس، فقد كانت أجات ترتدى أثواب مارى القديمة، حتى إن هوج لم يعرف ماذا يفعل. كان لا بد أن يعترف أنها أشعرته بالخوف. كان الشعور الذى راوده غريباً عليه، بدرجة جعلته لا يعرف كيف يتصرف. وكما أنه لم يحدث أبداً أن التقى بها وحدهما، فقد انتهى به الأمر بالاعتقاد بأن الحظ ليس حليفه، وأن القدر لا يمنحه فرصته، وأن قسيسه، رغم أنه لا يتوانى عن تقديم بعض العبر له، كلما اعترف له بمغامراته اللا أخلاقية مع واحدة أو أخرى من نساء أهالى القرى، كان عليه أن يصلى بخشوع أكبر، بل يجب أن تصبح دعواته مستجابة.

ومع ذلك، فى إحدى الأمسيات، حدث أن تأخر هوج عند أربر الحداد، كى يقوم بتحديد حودات فرسه الأميرة الحسناء، وفى طريق عودته من القرية إلى قصره، لمح أجات، وهى تسلك الممر الضيق الموصل إلى النهر. كانت تحمل على كتفيها قضيبًا خشبيًا طويلاً معلقًا فى طرفيه دلوان من الخشب محاطان بالحديد. أوقف هوج فرسه وقفز من عليها إلى الأرض. قال لها:

- أليس هذا ثقيلاً عليك؟ كان ينبغى أن يساعدك چيربير.

لم تنبس أجات بكلمة واحدة، بل لم تنظر إليه، وأخذت طريقها إلى الساحة السفلية للقصر.

- ألا يمكنك الرد؟! صاح هوج بها، بعد أن تحقق بالفعل أنه لم يسمع صوتها من قبل أبداً.

تقدمت أجات ببطء على الطريق الذى راح يصعد لأعلى أكثر فأكثر. أتبعها هوج سيرًا على الأقدام، وهو يمسك فى يده لجام فرسه، الأميرة الحسناء، مرة أخرى راح ينظر مفتونًا بحركة ردفيها المتموجين واللذين أبرزهما بشكل أكبر الرداء الأزرق، الذى كان ملكًا لمارى. انسكبت بعض قطرات الماء من الدلوين بفعل حركتها المنتظمة. تباطأت أجات فى مشيتها، فقد أصبح الصعود شبه حاد.

- أعطينى حملك، فسوف أساعدك.

اقترب منها هوج.

التفتت أجات إليه فبدا على وجهها بوضوح الحنق والغضب. ثم وبحركة مباغتة استمرت فى مشيها ضاربة بالقضيب الخشبى المعلق على كتفيها وجه هوج.

– يا لك من عاهرة!

وضع هوج يده على خده الذى كان الدم بالفعل يتسرب من خلال أصابعه. ترك لجام "الأميرة الحسناء" التى راحت ترعى بلا مبالاة، تأكل العشب الأصفر النامى على الدرب.

– أيتها العاهرة، توقفى!

التفتت أجات إليه، وهى أعلى منه، حيث كان الدرب يرتفع لأعلى بشكل حاد وكأنه درج، فبدت كأنها تهيمن على هوج الذى صاح فيها:

– لا تنسى أنك ملكى.

– أنا ملك لمن أريد أن أكون ملكه.

هكذا قالت له أجات بصوت راعد أجش، ولكنه فاتن فى الوقت ذاته، حاد وبارد أيضاً.

مرة أخرى اهتز الدلوان بشدة، فانسكب من جديد بعض محتواهما من الماء. استأنفت أجات صعودها.

ربط هوج "الأميرة الحسناء" فى عقدة من غصن شجرة، فصهلت عندما رأته يبتعد عنها ليسلك الممر الهابط والمؤدى إلى النهر. شطف مكان الجرح الذى على خده بالمياه القارصة البرودة، فشعر بألم حارق ولكنه أوقف الدم. تلطخ معطفه بالوحل والماء من حوله، فراح يسب ويسخط وأمسك بحجر، ورماه بعصبية شديدة فتدحرج فى اتجاه الشلال. أطلق طائر أسود صفيراً، فرد عليه عصفور آخر. راود هوج شعور بأنهما كانا يسخران منه.

عندما عبر هوج سياج فناء قصره، كانت أجات تُطعم الدواجن التى كانت ملتفة حولها، مُحدثة حالة هرج ومرج جميلة من الفوضى. استقبله جيرببر فى الإسطبل، فلمح الدلوين اللذين كانت تحملهما أجات أمام الباب.

– أمسك. قال له هوج وهو يناوله لجام "الأميرة الحسناء" ثم أضاف: أنت من يجب عليه الذهاب لجلب المياه من النهر.

بدا هوج عصبيًا، وفى حالة مزاجية سيئة، ولهذا لم ينبس جيرببر بكلمة، ولا حتى علق على الجرح الذى فى خده.

كانت بعض قطرات الدم ما زالت تنزف من الجرح الكبير.

صاحت الديوك الرومية بصوت عال، عندما مر هوج من أمام باب حظيرة الدواجن، فلم يلتفت حتى إليها، بينما كانت أجات قد اختفت.

– ها أنت، وقد أصبحت مستعداً تماماً للقتال. قالت له مارى، ما إن رأته يفتح باب القاعة ويدخل.

تحولت جميع العيون إليه، فاختلق هوج رواية أنه مر بفرع شجرة منخفض جداً، مما تسبب فى الحادث. كانت أجات واقفة هناك تضع بعض الأطباق الفخارية على الطاولة، والتى كانت قد جهزتها قبل ذلك ببضع لحظات على حوامل من الخشب الفاتح، فأفلت واحد من يدها، متحطمًا على الأرضية البلاط. نظر هوج إلى الفتاة أجات، فالتقت أعينهما، فتخيل كلٌّ منهما الشعلة المتقدة التى سببتها النظرة.

كان الجرح ما زال واضحًا، عندما حان احتفال يوم عيد الغطاس. أوفوا بوعدهم، وبدأ أتباع هوج فى القدوم حسب الموعد، إما عشية ليلة العيد وإما فى صباح يوم العيد نفسه. أرنول، القسيس، بدأ بالاحتفال بالمجوس. احتشد الزوار فى المبنى الخشبى الصغير المشيد فى الفناء السفلى للبرج. أعلن هوج أنه سيقوم ببناء كنيسة حجرية صغيرة فى قصره الجديد. تهامس البعض: إنهم لن يشاركوا فى هذا البناء الذى يعتبرونه نوعًا من الكماليات الزائدة. كانت هذه هى الملحوظة الخطأ الوحيدة فى صباح اليوم الأول الذى انتهى بمأدبة فخمة ودسمة، تم تقديمها فى القاعة الكبرى للبرج الخشبى.

كانت مارى قد اهتمت بقائمة الطعام بشكل خاص، واستقدمت لهذه المناسبة بعض الطهاة والخدم من قرى مختلفة، وذلك لتعزيز وسند الخدم المعتادين الموجودين فى المنزل. فى تناغم تام تحت قيادة منظمة، وقفت أجات وڤاليرى وغيرهما من الخادمات، يقدمن الأوانى المختلفة، والتى وضعت بفن على مناضد كبيرة، لتفتح شهية المدعوين لتناول الطعام،

وقد كانوا بالفعل جياعًا بعد هذا الصباح الطويل. فالقائمة تتكون من: عجينة لحم العجل المدهون بنخاع الجاموس مع عجائن صغيرة من ثعابين البحر، ممزوجة بذيل الخنزير البرى ؛ وأيضًا مرقة الأرنب البرى وعصيدة الأنقليس كانتا مقدمتين إلى جانب تشكيلة من قطع الدجاج الكبير واللحم المحمص؛ وكذلك شرائح من السمك النهرى، محشوة بالصلصة الساخنة، بالإضافة إلى الفول المجفف، وفطائر بالثوم أو بالبصل، ناهيك عن مسلوق لحم الخنزير المقدد.

إلى جانب كل هذه الأطباق المنتقاة بعناية، قُدم النبيذ بكرم بالغ حتى إنه كان يتدفق كالمياه ؛ فقد كان بودرى، رئيس الخدم، يعلم تمامًا كيف يختاره من بين ما كان عبيد المنطقة من المزارعين مجبرين على تقديمه لسيدهم هوج. لقد كانت البراميل والأوانى المخزنة فى قبو القصر تشهد على محاصيل زاخرة بكل ما هو جميل خلال السنوات السابقة. وأيضًا عندما جاء دور الحلويات التى تحتوى على الكريمات والأطباق الأخيرة، ظهرت المكسرات والكمثرى المطهية، والجوز المقشور، والعجائن المسكرة الملفوفة، مما أسعد الضيوف. عندما نهض هوج من مكانه فى النهاية بكل كبرياء واعتزاز، لكى يكشف عن هدفه من هذه الوليمة، وغرضه من هذا التجمع، كان المدعوون بأحسن حال، كى يتقبلوا ما سيقوله لهم سيدهم.

بدأ هوج فى التحدث إلى لفيفه بصوت رخيم، متمكنًا تمكنًا كاملاً، ومع ذلك، لو كان هناك شخص قوى الملاحظة لكان استطاع ملاحظة

شىء من الضيق على وجه هوج، فراح يتحدث عن المعاهدة التى من أجلها وجه الدعوة لأصدقائه بشكل حميمى جداً، فما كان من مستمعيه إلا أن هتفوا فى أول تأييد حماسى له:

- إنها مشيئة الرب!

هب الفرسان بحماس واقفين، ورفعوا أكوابهم المعدنية اللامعة فى أيديهم، وراحوا يتبادلون التهانى. بات من الواضح أن دعوة البابا أوربان الثانى البارعة الكلمات، قد استمرت فى استقطاب المزيد من المؤمنين.

راحت الخادمة برتراد تفتح لفائف أشرطة كبيرة من القماش القرمزى، كان بودرى قد اشتراها من دكان أقمشة وأصباغ فى بلدة بيلوم، فى حين راحت ڤاليرى وأجات، تثبتان هذه الشرائط على سترات الضيوف.

بعد هذه اللحظة العظيمة، اقترح هوج على ضيوفه، أن يذهبوا جميعاً لمطاردة وقتل الذئاب. بالفعل كان قد تم الإبلاغ عن تواجد هذه الحيوانات المفترسة، بالقرب من قرية الأخشاب. حتى إن بعض الحطابين وقاطعى الأشجار، قد تعرضوا للهجوم. لا شىء يمكن أن يثير فضول صيادى الغابات ومحبى المغامرة، أكثر من مطاردة هذه الحيوانات الخفيفة السريعة، والتى كانت تثير ذعر المزارعين.

تكالب الضيوف فى اتجاه الباب، وبعد ذلك، إلى الساحة الصغيرة التى تحيط بالبرج، ومنها نزلوا إلى الفناء السفلى الذى أوقفوا فيه الخيول والخدم. بدوره راح دينيس، المشرف على فرقة كلاب الصيد،

يخرجها من أكواخها، وقد راحت تنبح وتتقافز مسرعة، بعد أن سمعت نفير الأبواق التى راح كلٌّ من كلوقيس وجيربير ينفخان فيها بمرح وابتهاج.

طلب هوج من ضيوفه أن ينتظروه قليلاً... كان فى الواقع مستاءً، حيث بدا له تابعه المقرب بيرنييه مهتمًا كثيرًا بأجات، فهو ينظر إليها طويلاً. بعد أن عبر فريق الفرسان القرية، سريعًا ما اخترقوا الغابة المجاورة، محدثين جلبة كبيرة، أثارت ذعر الطيور، فراحت تتطاير فى كل اتجاه، وكذلك فصائل حيوانات الغابة البرية، التى هرولت لتلوذ بجحورها. أراد هوج أن يطوق الغابة بفريق فرسانه، فراح ينظم صفوفهم بمهارة وسط أشجار البلوط والزان. أتبع كلٌّ منهم خادمه على جواده، وأمامهم كانت الكلاب تجرى منتشرة.

بعد فترة طويلة من الركوض بالخيل، ظهر أول حيوان من حيوانات الغابة، وهو يرمح بخفة. راحت الكلاب تنبح بصوت أعلى. لمح هوج عيون ذئب تلمع متوهجة فى عتمة المكان. من الغابة المجاورة، خرجت بسرعة أنثى ذئب مع اثنين من صغارها. تقدمت الخيول بشكل تدريجى إلى المكان المعنى، مسبوقة بالكلاب المسرعة، وهكذا تمت أول محاولة لتطويق المكان. ولكن الحيوانات كانت أسرع فى الهروب من هذا المكان، مجبرة الصيادين على مواصلة تعقبها.

بدأ المطر فى الهطول، بينما انتصبت فروع أشجار السنديان والزان العارية من الأوراق، وكأنها تنظر إلى السماء العابسة، والتى

راحت تنقشع غيومها بين الحين والحين. تدفقت مياه المطر على الأغصان، ومنها إلى الفروع ومن ثم إلى الجذوع، حيث اتجهت الرغوة المتكونة إلى اتجاه الشمال، وهو الاتجاه الذى تعقبه الموكب.

قاد هوج فريق أتباعه على الخيل. تطايرت من حوله أطراف معاطفهم المتعددة الألوان، وهم يركضون على خيولهم من جديد، وازداد إحكام أيديهم على الرماح الموجهة إلى الأمام. بعد ذلك وفجأة، أغلق الفرسان الدائرة، محاصرين فيها الذئب. قفز أحد الفرسان من على جواده إلى الأرض، مواجهًا الذئب الذى كان جالسًا، نهض على ساقيه الخلفيتين بلا حراك. تجمد جميع الفرسان فى أماكنهم، ووقفت الكلاب على أهبة الاستعداد للهجوم فى أول إشارة بدء من دينيس. فجأة، وفى حركة مسترخية للغاية، هب الذئب وكأنه خارج من التربة التى تغطيها طبقات عديدة من أوراق الشجر المتساقطة. بتمكن بالغ، رمى الفارس الواقف امام الذئب برمحه، فأصابه فى صدره، وإذا بنافورة كبيرة من الدم تنفجر منه. ترنح إلى الوراء، ثم تمكن الفارس من جذب الرمح بكلتا يديه من صدر الذئب، الذى تهاوى على الأرض نافقًا. هرولت الكلاب إلى جثته التى ما زالت دافئة وراحت تنهشها بأنيابها.

ترجل هوج نازلاً من على فرسه، واقترب من قاتل الذئب الذى استدار إليه. لوح جميع الفرسان بأسهمهم ورماحهم فى الهواء، مهللين. تعرف هوج على قاتل الذئب، فهو جييوم، ابن بيرنييه، الذى انحنى وكأنه فى حفل مراسم أمام هوج، الذى سيصبح سيده قريبًا.

– سأكون فخوراً بأن أجعلك فارساً، قال له هوج، وهو يربت بيده على كتف جييوم، ثم أكمل: أعتقد أن والدك سيكون سعيداً بذلك.

أخذ هوج ينظر، محدقاً فى كل فارس منهم، وهو يبحث دون جدوى عن بيرنييه. ساوره القلق، ومع ذلك امتطى فرسه من جديد، وهتف صارخاً فى أتباعه:

– إذن إلى أنثى الذئب وصغارها! صاح هوج وهو يلكز بعنف جانبى فرسه التعيسة، "الأميرة الحسناء".

– إنها مشيئة الرب! صاح تابعه فولبرت

– إنها مشيئة الرب! ردد وراءه راؤول.

تعمد هوج أن يترك الشاب جييوم يتقدم الموكب، مستفيداً من إعارة انتباه الآخرين إلى أنثى الذئب، التى اكتشفها أحد كلاب دينيس، واستدار هو إلى الاتجاه المعاكس.

راحت الأشجار تمر أمامه، بسبب سرعته الكبيرة، على فرسه الأميرة الحسناء، التى شعرت بالضغط المتزايد عليها، ورؤيتها الرماح الملوحة فى الهواء بشكل عصبى وعدوانى، أكثر فأكثر، حتى بدت وكأنها تتطاير. شعر هوج بارتياح، عندما وصل إلى حافة الغابة، فلم يتبق له إلا عبور القرية، ثم ارتياد الطريق المنحدر، الذى كان معتاداً عليه، بل يحفظه عن ظهر قلب. لاحت له السياج من بعيد.

لفت نظره أن جواد بيرنييه البنى المحمر، كان مربوطًا بإحدى الحلقات المعدنية المثبتة بالحائط الطوبى للإسطبل، ولاحظ أن فتحات أنفه ما زالت تنفث دخانًا. لاحظ هوج أيضًا الدلاء الخاصة بأجات. ندت صيحة شخص يئن من خلال الباب المفتوح جزئيًا، فدخل هوج إلى الإسطبل. ما إن تكيفت عيناه مع الظلام، حتى تفاجأ فى ركن من أركان الإسطبل برؤية أسوأ ما كان يخشاه. وجد بيرنييه يحاصر أجات بين الجدار ويده المسمرة، وبيده الأخرى يكمم فمها.

سارع هوج؛ وبحركة عنيفة شبه وحشية، جذب بيرنييه بعيداً عن فريسته التى لاذت بالفرار لخفة حركتها.

- أنت يا من هو رفيقى، كيف سمَحَتْ لك نفسُك أن تفعل ذلك؟ سأله هوج بصوت يرعد من الغضب.

فى البداية تفاجأ بيرنييه، ثم استرد صوابه بسرعة، وسحب سيفه من حزامه، واستدار شاهراً إياه فى وجه هوج.

- إنها مشيئة الرب! صاح بيرنييه، وقد فاحت من فمه رائحة النبيذ.

- لا تمزح باستخدام هذه الكلمات المقدسة. صرخ فيه هوج، وقد تملكه الغضب بالكامل.

استل هوج سيفه هو الآخر، ووقف الرجلان وجهًا لوجه، وسلاحه فى يده، ولكن لم يتحرك أىٌّ منهما، كما لو أن الكراهية قد جمدتهما.

- أنت تحبها.

هكذا بصق بيرنييه هذه الكلمات بمرارة... ود هوج لو أن يتجاهله، ولكنه قال له:

- أحبها. هكذا لم يتمالك هوج نفسه، فأجاب بهذا الرد، وهو يشهر سيفه فى حركة شبه غريزية، حتى صدر منافسه الذى تفادى الضربة بشجاعة واعتدل فى مكانه.

- سوف أقتلك! تابع هوج قائلاً: لقد اخترت آخر سترة لك، والتى لن يفارقها لون الدم بصبغته الأرجوانية الفاقعة، حمراء كلون العار الذى كان ينبغى أن يعلو وجهك.

تقهقر بيرنييه ناحية الباب، وحجب بقامته الطويلة بصيص ضوء النهار المتسلل من فتحة الباب الموارب. أشهر هو الآخر نهاية سيفه فى صدر هوج، الذى أعماه الضوء الساطع وسط الظلام.

- سوف تكون ملعونًا إذا قتلت سيدك. صاح فيه هوج.

- لم يعد هناك أسياد! قال له بيرنييه، وهو يمعن فى الضغط بسيفه على صدر هوج.

- توقفا يا ولدىَّ! قال لهما القسيس أرنو، وقد ظهر من وراء بيرنييه.

استغل هوج اللحظة التى تفاجأ فيها خصمه برؤية القسيس، وسدد بسيفه الثمين "أديل" ضربة قوية على سيف بيرنييه، فأسقطه من بين يديه.

- فليعطنى كلٌّ منكما سيفه! قال لهما القس أرنو، آمرًا ثم أكمل: أليست لديكما دوافع أخرى أكثر أهمية من الاقتتال من أجل امرأة؟

كانت آخر كلمة تفوه بها القس، بها نبرة احتقار.

ظل الفارسان واقفين بلا حراك أمام القس أرنو، الذى مد لهما بيديه منتظراً. كان هوج هو من أعطاه سيفه أولاً، بينما تردد بيرنيية، ثم التقط سلاحه، وناوله بدوره فى أيدى القسيس.

– اتبعانى! أمرهما أرنو، وهو يلف السيفين، محتضناً إياهما بحرص، ثم قادهما إلى كنيسة صغيرة، وجعلهما يركعان جنباً إلى جنب.

– صليّا! هكذا أمرهما بلهجة لا رجعة فيها.

وضع القسيس أرنو السيفين على مذبح الكنيسة، بالقرب من السيوف الأخرى التى ستقدم للفرسان الجدد فى اليوم التالى.

– ها أنا مرة أخرى مضطر لمباركة هذه الأسلحة الموجهة لاستخدامات أخرى، غير أن تقتتلا بها. ولهذا أطلب منكما أن تعدانى بصفة رسمية، ألا تتعاركا أبداً بعد الآن، مهما كانت خلافاتكما.

تأمل هوج القسيس أرنو، وهو رجل قصير القامة، الذى لم يستطع إخفاء نظرة عينيه المتسلطة بوضوح. حتى إنه ذكره بالبابا أوربان الثانى، أو بالأب پونس دى تورنون. لم تكن هناك حاجة إلى قوة جسمانية، كى يفرض المرء أفكاره. كان هوج أقوى وأطول منه جسمانياً، ومع ذلك ها هو الآن يطيعه. رفع هوج يده اليمنى، ووضعها فوق كتاب كلمات المسيح، وقال بصوت هادئ:

– أقسم على ذلك.

- أقسم على ذلك أيضاً. كرر بيرنييه هو الآخر

أعاد القسيس أرنو الكتاب، الذى مال لون مجلده إلى اللون الأبيض، إلى المذبح، وبعد ذلك بدأ يرش السيوف بالماء المقدس، الذى كان يملأ دلواً من البرونز.

- صلّيا!

مرة أخرى، كانت نبرة صوته آمرة، ولا تحتمل الجدال. ما زالا راكعين على ركبهما جنباً إلى جنب بشكل رمزى، ضم كلٌّ منهما أيديهما معًا، ثم رسم كلٌّ منهما علامة الصليب على صدره، عندما باركهما القس أرنو للمرة الأخيرة. كان رجل الدين من اللطف، حيث لم يطالبهما بالتعانق كصديقين.

عندما خرج الرجلان من هذه الكنيسة الضيقة، كان سيفاهما قد وضعا فى غمد حزام كلٍّ منهما بوقار، وهنا وصلت إليهما مجموعة من أتباعهما.

- لقد اصطدنا أيضًا أنثى الذئب وصغارها. أعلن لهما دنيس بصوت منتصر، وهو يجذب فرقة الكلاب المنهكة.

كان جييوم هو أول من قفز إلى الأرض من على حصانه.

- سيكون ابنك فارسًا بارعًا. اكتفى هوج بقول ذلك لأبيه بيرنييه، قبل أن يكمل: تعال يا چيفروا!

لقد حان الوقت الآن، أن يستأنف باقى البرنامج الذى خطط له، فأضاف:

– چيفروا هو الابن الأكبر لابن خالتى أموند، والذى قتله بعض الجبناء فى هذا الخريف. واصل هوج تقديم الشاب اليافع، چيفروا، الذى ظل يتقدم أمام باقى أفراد فريق أتباعه. أضاف هوج: هو أيضًا سنقوم بتنصيبه فارسًا غداً. لن ننتظر حتى تاريخ عيد العنصرة، حيث إنه ليس من المناسب إذن سنقوم بتنصيب الفارسين قبل ذلك. فقد داهمنا الوقت، ويجب أن يتوافر للفارسين متسع من الوقت، كى يستعدا قبل الرحيل الكبير.

هبط الليل، فتوجه هوج إلى أحد مبانى الساحة السفلية لبرجه، والذى كان سقفه القشى يتصاعد منه بعض الدخان. بالفعل كانت النيران متقدة فى الداخل تحت خزان فخارى ضخم، موضوع فوق الأرضية المفروشة بالأحجار الصغيرة. كانت ڤاليرى وأجات تسكبان محتوى الأوعية الكبيرة من الماء الساخن فى أوانٍ ذات حوامل ثلاثية فوق الموقد. عندما امتلأ الخزان، صرف هوج الخادمتين ڤاليرى وأجات من المكان، وهنا اقترب أرنو القسيس بدوره، وراح يبارك الماء المسكوب فى الخزان.

– هيا تحمما فى هذا الماء. أمرهما أرنو، القسيس ثم أكمل: هكذا تتطهرا من ذنوبكما، وتتخلصا من ماضيكما.

حضر هوج تحممهما، ثم ناول الفارسين المرشحان، چييوم وچيفروا، قطعتين كبيرتين من القماش الخشني الذى يشبه الخيش،

وسترة من اللون الأرجوانى المطرز عند خط العنق، ومعطفًا مصبوغًا باللون الأرجوانى أيضًا. بعد أن ارتديا ملابسهما من جديد، عبرا بشكل رسمى الساحة الصغيرة للفناء السفلى، ودخلا إلى الكنيسة الصغيرة التابعة للقصر، حيث كان القس أرنو فى انتظارهما. هكذا تحتم أن يقضيا ليلتهما فى الصلاة.

فى الظلام، صعد هوج مرة أخرى، بخطى بطيئة، الدرج المؤدى للبرج حيث كان باقى ضيوفه فى انتظاره. التقى فى طريقه أجات، فقالت له هامسة:

- شكرًا. هكذا غمغمت أجات، وسريعًا ما ابتعدت قبل أن يفكر هوج، حتى فى أن يلحق بها.

خفق قلبه بشدة، فمن الواضح أنه لن يتمكن من الحصول إلا على لحظات من العاطفة. اتكأ بظهره على جدار البرج، لبضع لحظات، ليتأمل السماء القاتمة الظلام، كما هدأت الرياح، فساد هدوء نسبى لم يتلاءم بالمرة مع أحاسيس هوج المتهيجة. قرر أن يدخل إلى القاعة الكبرى، فانبثق الدخان والضوء فى وجهه. قبل أن يتخذ مكانه على الطاولة، صعد إلى الطابق العلوى، ليلقى التحية على مارى، التى فضلت تناول العشاء وحدها. وجد تييرى الصغير يلعب بسيف خشبى، كان دينيس قد شكله له بعد أن اقتطعه من جذع شجرة.



٧

بعد ليلة طويلة من شرب الخمر والسكر، حافلة بالأحلام والكوابيس المتوالية، بعدها استيقظ ليحضر بخشوع القداس، الذى أقامه القس أرنو فى الساعة التاسعة صباحًا، بحضور جميع الضيوف. مع اقتراب نهاية مراسم القداس، كان من المقرر أن يقوم هوج بتنصيب الشابين جييوم وجيفروا فارسين.

ما إن انتهت المراسم، انحنى كلٌّ منهما أمام هوج، ورددا قسم الفارس الذى تلاه عليهما فولبرت:

– أن أنبذ الشر.

– أن أكون مخلصًا وواليًا لأصدقائى.

كان هوج واقفًا أمام اللفيف، عندما حدج بيرنييه بنظرة للحظة.

– أن أكون شجاعًا وسخيًا.

– أن أقضى على الخونة.

تحول هوج بنظره إلى جيفروا، وتأثر لشدة الشبه بينه وبين أبيه أموند، ابن خالته المحبوب، والذى كانت أمه، أود، قد أوصته برعايته

وقالت له متسائلة: هل حقًا من المعقول أن تقوده وتورطه فى هذه المغامرة الخطرة؟

- سوف أعمل على حماية الأرامل والأيتام. واصل فولبرت تلاوة القسم الذى راح يردده وراءه الشابان، الواقفان جنبًا إلى جنب بنبرة صوت آنية ومرتعش من شدة تأثرهما، وتحتم عليهما ألا يصل صوتهما إلى ما بعد الصف الأول من اللفيف.

- وأن أؤدى واجباتى تجاه الكنيسة.

هز القس أرنو رأسه، وقد بدا ضئيل الحجم جداً، وهو يقف بين فولبرت وهوج بقامتيهما الطويلتين.

- سأكون فى خدمة سيدى اللورد.

عاد فولبرت إلى مكانه وسط الصفوف، بينما أخرج هوج سيفه من حزامه، وكان متشحًا باللون الأرجوانى، مثله مثل الفارسين المنتقيين. رسم القس أرنو بعلامة الصليب على صدره، ثم راح يتلو صلاة بصوت مسموع بالكاد:

- فلترض عنهما يا سيدى المسيح...

وضع هوج سيفه بشكل أفقى على الكتف اليمنى لجييوم، ثم وبراحة يده اليمنى، ضرب بعنف رقبة الفارس المنصب.

- فليبارك الرب سيدى اللورد. رتل أرنو بهدوء.

– ها أنا قد ضربتك، وأنت قاومتنى... أنت إذن تستحق أنت تكون فارساً منا. هكذا أعلن هوج رسمياً.

أعاد هوج الطقوس نفسها مع چيفروا، ثم ساعد كلاً منهما على النهوض واحتضنه. بعد ذلك، وبمساعدة راؤول، راح يلف خصر كلٍّ منهما بحزام من الجلد، ثبت فيه السيف.

– إليك هذا السيف باسم الأب والابن والروح القدس، ولتستخدمه فى الدفاع عن نفسك، وعن الكنيسة. ردد القس أرنو، وكأنه يرتل آيات مقدسة.

بعد ذلك ثبت هوج بعض الركاب المعدنية فى الأحذية ذات الرقبة لكلٍّ من الشابين. وضع بيرنييه لابنه جييوم هناك خوذة ودرعًا بعد أن تم طلاؤهما بالشعار، وهو ثلاثة أفرع لشجرة صغيرة. بينما أعطى هوج بدوره لجيفروا خوذة ودرعًا باللون الأبيض، وفى وسطه صليب أحمر[1].

هكذا أصبح الفارسان، جييوم وچيفروا، مسلحين، راحا يلوحان بسيفيهما ثلاث مرات أمام أرنو، الذى أعلن ليختتم مراسم تنصيبهما قائلاً:

---

(١) عندما بدأت الحملة الصليبية الأولى، استخدم الفرسان دروعًا ملونة؛ حتى تكون لديهم تشكيلة متنوعة. لم يكونوا قد استوحوا بعد، علامات ثابتة وخاصة بهم. ببساطة، أصبح الصليب علامة على التعارف بين الصليبيين، ولذلك كثيراً ما استخدم لهذا الغرض. بعد ذلك بدأ فرسان الغرب فى محاكاة المارقين، الذين كانوا متمرسين فى استخدام الأسلحة ذات الطابع الشخصى، أو التى نقش عليها شعارهم.

- فليكن كلٌّ منكما فارسًا سلميًا، قويًا، وفيًا ومخلصًا لله.

ردد الحضور معًا وفى صوت واحد منسجم:

- الله أنت القاهر الأبدى... ابعث بنعمة مباركتك على عبديك جيبوم وچيفروا. هكذا انتهى أرنو القس.

ظلت خطوة أخيرة لم تتخذ بعد فى طقوس تنصيب الفارسين الجديدين، وهى أن يشيدا بامتنان لسيدهما اللورد هوج، الذى كان يرغب أن تُتخذ هذه الخطوة فى القاعة الكبرى للقصر. فى الوقت ذاته، كانت هذه وسيلة لاسترداد بعض المتنفس من الحرية، تجاه الكنيسة. بالإضافة إلى ذلك، لعب القس أرنو الدور الرئيسى فى تطبيق الطقوس منذ الليلة السابقة، وهذا يكفى.

هكذا صعد الجميع إلى البرج، وانفتح الباب على مصراعيه؛ حتى يدخل جميع الضيوف إلى القاعة الكبرى، التى افترشت أرضيتها بحفنة مُجددة من الليلة الماضية من الأعشاب والأفرع، ففاحت فى المكان رائحة الطبيعة الذكية. تسللت أشعة الشمس إلى القاعة، فأضافت بهجة إلى المكان، رغم ضوئها الضئيل الذى تخلل الفتحات الضيقة القليلة والموجودة ما بين ألواح الجدار الخشبية.

اتخذ هوج مكانه أمام المدفأة فى مواجهة ضيوفه. اقترب چيفروا منه، وانحنى أمامه قائلاً:

- سيدى اللورد، لقد أصبحت رجلك.

- وأنا أقر بذلك، وأقبلك كرجل.

وضع چيفروا يديه المعقودتين فى يدىّ هوج، الذى أغلق عليهما.

بعد طقس الأيدى الرمزى هذا، قَبَّلَ چيفروا هوج، ثم أمسك بالإنجيل، ليقسم عليه، وكان كتابًا صغيرًا، صفحاته محاكة ببعضها البعض، وغلافه فاتح اللون. بعدها قدم هوج له خاتمًا، كرمز للصلة التى تربطه الآن بتابعه الفارس الجديد.

بعد ذلك، تكررت الطقوس نفسها مع جييوم، وما إن انتهت، حتى هلل جميع الحضور، معلنين بذلك دخول الشابين التابعين بصفة نهائية إلى مجموعتهم.

– ها أنا قد تسلحت؛ لكى انتقم لوالدى. كانت هذه هى الكلمات الأولى التى قالها چيفروا لهوج، بعد انتهاء المراسم.

– هدئ من روعك يا چيفروا! قال له هوج

– ألم تعدنى بالانتقام له؟

– نعم، ولم أنس؛ وسيأتى الوقت لذلك، فلا تكن متلهفًا.

كان هوج قد نسى إبل فى الأيام القليلة السابقة... لهذا تذكره فجأة، وتذكر ابتسامته الوقحة.

– سوف ننتقم له! قال هوج، وهو يحكم قبضته بقوة على سيفه، ويبصق على الأرض.

خرجوا جميعًا، ووقفوا فى الساحة المحيطة بالبرج، وكما أن الوقت قد حان، فقد نُصبت موائد الطعام أمام الباب. تحتم أن يكون وقت المأدبة مختصرًا حتى يتسنى مزيد من الوقت لتدريب الفرسان الجدد، والدخول فى اختبار الركوض بالخيل، ثم البدء فى ممارسة المبارزة[١].

فى الحقل المنحدر فيما وراء السياج، كان الخادمان كلوڤيس ودينيس، قد أعدا بالفعل بعض نماذج الدمى، والتى ينبغى على الفرسان المبتدئين أن يصوبوا عليها رماحهم، أو يغرسوا سيوفهم فيها. خاصة أنهم وبعد انتهاء مراسم تنصيب الفارسين، جييوم وچيفرى، فى صباح ذلك اليوم، والتى شاهدوها جميعًا بخشوع وجدية، الآن شعروا بالارتياح للعودة من جديد إلى العمل بأقصى درجة من الهمة والنشاط.

حتى تييرى الصغير تابع العرض بتشوق، وهو يجلس مرتاحًا على كتفى الخادم جيربير، وعندما جاء دور والده ليتصارع مع بيرنييه فى هذه البطولة التى نُظمت لإنهاء اليوم على النحو المعتاد، لم يستطع تييرى الصغير، مثله مثل الآخرين، أن يميز ما بين العراك المفتعل والضراوة الحقيقية التى رافقت هذه المعركة. وقف الرجلان وجهًا لوجه، يتلاكمان لمرات عديدة؛ حتى تكون لكلٍّ منهما أسبابه للعراك. ركض كلٌّ منهما على جواده حتى الحبال التى تمثل نهاية نطاق حلبة البطولة، ثم عاودا الكرة عدة مرات، راميًا كلٌّ منهما الآخر بحربته، ثم يتواجهان كلٌ دون نتيجة تذكر،

---

(١) نوع من المبارزة توضع فيه دمى ترتدى دروعًا واقية، ينبغى على الفرسان العراك معها.

حتى سقط هوج. لحسن الحظ أن درع هوج خففت من صدمة حربة بيرنييه، الذى احتفظ بها فى يده بلا رحمة، فى مستوى أفقى، دون أن تسقط منه. كان القسيس أرنو يراقب بقلق الموقف عن بعد، من شرفة كنيسته الصغيرة، فهو الوحيد الذى يعلم أن ما بين الرجلين لم يعد مجرد لعبة. فراح يتلو بشكل متلعثم دعوات موجهة لله، ثم دعوات أخرى موجهة إلى مريم العذراء بصوت عالٍ، فراح جذعه الهزيل يعلو وينخفض. بل أشار على صدره بعلامة الصليب، عندما رأى هوج وهو يسقط من على فرسه، متدحرجًا على الأرض المفروشة بالأعشاب، ثم أشار بالعلامة مرة أخرى وهو يرفع عينيه للسماء، والصليب على صدره، عندما شاهد هوج ينهض من جديد.

– أشكرك يا إلهى. همس أرنو

هكذا عدل هوج من درعه، والتقط حربته من جديد.

ساعده كلوقيس على ركوب فرسه والجلوس على سرجها من جديد بعد أن تحدث مع بيرنييه. شعر القس أرنو بخيبة أمل كبيرة، عندما رأى فرس هوج، الأميرة الحسناء، تركض به من جديد بسرعة حتى الحبال التى تحدد نهاية حلبة السباق.

– يا إلهى... إنهما لمجنونان!

ثم دارت الفرس على أعقابها، وراحت تركض فى الاتجاه المعاكس لبرهة من الوقت – تكاد تكون غير ملحوظة – منطلقة إلى وسط الحلبة.

فى الاتجاه العكسى، انطلق بيرنييه، قادمًا هو الآخر. قذفت حوافر جواده بالعشب وطين التربة التى تحته من سرعته. بدا وكأنه تردد فى رمى حربته للحظة قبل أن تنحرف بعيداً عن هدفها. فى المقابل سدد هوج ضربة قوية بحربته على درع بيرنييه، الذى وقف على ركابه المعدنى قبل أن يرتبك، ويفقد توازنه.

تسبب انحشار حذائه الأيمن فى ركاب سرجه المعدنى فى إعاقة حركة بيرنييه، فسقطت خوذته على الأرض. لحسن الحظ أن جواده أبطأ من سرعته، حتى توقف تمامًا فأسرع هوج، قافزًا من على فرسه إلى الأرض واقترب من بيرنييه قائلاً:

– سامحنى يا بيرنييه!

التقط بيرنييه خوذته من على الأرض، ثم ارتداها وابتسم قائلاً لهوج:

– اطمئن... فأنا لم أمت.

كان القس أرنو قد ترك كنيسته الصغيرة، وجاء مهرولاً، فما إن رآه بيرنييه حتى قال له:

– أيها القسيس، فلتوفر صلاتك لأشخاص آخرين! هكذا قال له بيرنييه، وهو ينهض بمساعدة هوج.

– إن الأحياء فى حاجة للصلاة هم أيضًا، خاصةً من هم مجانين مثلكما! هكذا قال القس أرنو، وهو يحدق فى هوج الذى أخفض عينيه، ثم أكمل: كان ينبغى أن تكونا ملعونين.

لم يستمع هوج إلى كلمات القس الأخيرة... ففى الحشود الواقفة من الخدم والمزارعين، الذين أتوا من القرى المجاورة، لمح أجات واقفة بينهم. فقد وجدت أن هذه الألعاب جديدة عليها تماماً، لهذا لم تهتم إلا بمتابعة مشاهدة فارس واحد. دائمًا هو الشخص نفسه، بمعطفه الأرجوانى ودرعه المنقوشة بالصليب الأحمر، وإذا كان من يقفون حولها قد ألتفتوا إليها منذ قليل، لكانوا شاهدوها وهى تخفى وجهها بكفيها الطويلتين لحظة وقوع هوج وتدحرجه على الأرض... حتى إنها كتمت صرخة قصيرة ندت منها.

راح هوج ينظر إليها على مهل هو الآخر. كانت خوذته المعدنية ذات الأنف المدبب تحجب عنه الرؤية، فخلعها. كان شعره متلبداً ومبتلاً من العرق، فراح يعدله، ويصففه بأصابع عصبية. اقترب منه رفاقه الذين كانوا حوله، وكانت الشمس على وشك المغيب خلف ربوة القصر الحجرى.

– يا لها من معركة! هكذا علق فولبرت

– ما على المارقين إلا أن يأخذوا حذرهم إذن! قال راؤول

راح الجميع يهنئ الرجلين اللذين قد اجتمعا أخيراً على شىء واحد، ألا وهو إعجاب أصدقائهما بهما.

عندما صعد هوج وضيوفه من جديد إلى البرج، كانت أجات وڤاليرى والعديد من الخدم والخادمات يعملون بهمة، حيث كانوا يعدون

ولائم أخرى تنتظر المدعوين. شهدت على ذلك الروائح التى راحت تفوح والدخان المتصاعد من المدخنة الضخمة، والذى امتد إلى الباب.

راح جيربير يسكب النبيذ اللذيذ فى الأكواب التى قدمها الفرسان، قبل أن يتخذوا أماكنهم على المناضد التى وُضعت عليها قطع من عجينة سمك السلمون المرقط، وأسياخ خشبية بها شرائح من ثعبان البحر، وعش الغراب المقلى الممزوج بالتوابل، وقطع من لحم الغنم مخلوط بالبقدونس. كذلك الأرانب البرية المعلقة لشيها فى سيخ طويل، يدور تحت فوهة الموقد.

عندما جاء دور أكل عجينة الكمثرى النيئة ومرزبانية حلوى اللوز، وقبل البدء فى تذوق مشروب مصنوع من النبيذ والتوابل، نهض هوج فى مكانه، ومسح فمه بظهر كم سترته. ساد الصمت من حوله، وراح فولبرت يراقب سيده، وهو يمسك بقطعة من مرزبانية حلوى اللوز والسكر فى يده، وكذلك راؤول وبيرنييه، وكان كلٌّ منهما يمسك بكوب نبيذ فى يده.

– غدًا سوف ننفصل عن بعضنا البعض. هكذا بدأ هوج كلمته، ثم أكمل: ولا أعرف متى سنلتقى مرة أخرى. يجب أن يبدأ كلٌّ منا استعداداته؛ حتى نتمكن من السفر مع موسم عيد صعود العذراء. ولكن من المفترض أن نتجمع قبل ذلك.

– مع مَنْ سنغادر؟ سأله فولبرت.

– سأتحدث فى ذلك: سوف يكون هناك على الأقل جيشان: الجيش الأول سيكون تحت قيادة هوج، كونت مقاطعة ڤيرماندوا، وهو شقيق ملكنا الملك فيليب. أما الجيش الثانى، فسيكون تحت قيادة ريموند دى سان چيل، كونت مدينة تولوز، والاثنان رجلان جديران بالاحترام، ولا يجب أن ننسى الأسقف أديمار دى مونتيل، الذى عهد إليه البابا بقيادة الحملة بأجمعها.

– ومَنْ سيقودنا نحن؟ تساءل راؤول، وقد بدا متلهفًا.

– أولاً هذا الأخير، أى الأسقف أديمار دى مونتيل، ثم ولا شك كونت مدينة تولوز.

– والملك؟ سأله بيرنييه بغضب.

– الملك لن يتمكن من قيادة الحملة، بما أن الحبر الأعظم قد عزله. كما تعلمون، فإن الملك يعيش مع زوجة كونت أنچو، فولك لو ريشين، ولا يريد أن يتركها.

– إنه لا يريد الذهاب إلى الحملة من أجل امرأة! قال فولبرت ساخراً

حدج هوج بيرنييه بنظرة طويلة، جعلته يحول ناظره عنه. كانت أجات تضع بعض الأطباق الفخارية، المملوءة بالفطائر الملفوفة على الطاولة.

– ليست هذه هى القضية. هو ببساطة مطرود، أى لا يمكنه المشاركة فى الحملة التى نظمها البابا.

– ولكن الكونت ريموند ليس عليه أى غبار. قال راؤول.

– إنه يتمتع بسمعة طيبة، ربما تكون سنه أكبر قليلاً على مثل هذه المغامرة، ولكن خبرته الكبيرة، ستعود بالفائدة على جيشه. لقد سبق له خوض معارك ضد المارقين فى إسبانيا.

– كما أنه غنى جداً... فقد جلبت له هؤلاء النساء الثلاث الكثير من المال.

– لقد عُزل أيضًا؛ بسبب زواجه. قال القسيس على استحياء.

فى اللحظة نهض بيرنييه من مكانه ليقول:

– لقد فكرت. هكذا بدأ بيرنييه كلامه بشىء من التردد وهو يأرجح قدمًا على الأخرى. كانت المعلقات المعدنية التى تزين أطراف سترته السفلية تتخبط فى بعضها، محدثة صوتًا كصوت الكريستال. أكمل بصوت أكثر ثقة: لقد فكرت جيداً ولن أرحل.

هب هوج واقفًا أمامه وسأله باندهاش:

– ماذا تقول؟ ألم تكن أنت أول من قبل؟

– نعم، ولكن منذ شهر بالتحديد.. سنح لى الوقت، كى أتأمل الموقف برمته... لن أرحل، بل سوف يحل ابنى محلى.

كما لو كانت نظراتهم قد أفاقت من فعل الخمر، وأصبحت أكثر جدية، بل راح كلٌ منهم ينظر إلى الآخر غير مصدق. لقد نفح بيرنييه بهواء بارد فى أجوائهم الحميمية الدافئة.

أدرك هوج خطورة ما قاله بيرنييه، فكان أول من رد قائلاً:

– لا يمكننى إجبارك على الرحيل معنا. حدج هوج تابعه بيرنييه بنظرة صارمة، سرعان ما تحولت إلى جليدية قاسية، وأكمل: ولكنك تخيب أملى فيك... تخيل لو كل واحد منا قد فعل مثلك، ساعتها لن يظل هناك أحد، ليلبى دعوة البابا.

ثم وبحركة مباغتة وعفوية للغاية، فاجأ بها بيرنييه والحضور فى آن واحد، جذب هوج الصليب الأحمر من على سترة بيرنييه الذى راحت خيوطه الصوفية تتدلى متمزقة فى جميع الاتجاهات.

– إنها مشيئة الرب! هتف راؤول ثم أكمل: بحق القديس راؤول، فأنا لن أبخل بنفسى.

– إنها مشيئة الرب! صاح الآخرون بدورهم.

احمر وجه بيرنييه خجلاً، وعاود الجلوس من جديد.

– ولا شك ستكون بيرنچير سعيدة.

خرج صوت مارى الرقيق فجأة، متناقضاً مع نبرة أصوات الرجال الخشنة، والتى راحت تعبر عن نفسها بقوة وحماس.

– هل تعلمون أننى سأرزق بطفل جديد فى ذات الوقت الذى سيرحل فيه زوجى؟ أضافت مارى وهى تبتسم ابتسامة عريضة.

– اسكتى يا مارى. صاح فيها هوج، وقد اشتعل غضبه من جديد.

– سوف تكون پولين أمًا هى الأخرى عن قريب. قال فولبرت بهدوء، ثم أكمل: هذا ما هو جميل فى الأمر، لقد خُلقت النساء من أجل ذلك، كما خُلقنا نحن الرجال للحرب.

قال ذلك، ثم رفع فوهة قارورته إلى فمه، وأفرغ محتواها فيه على جرعة واحدة.

– فى صحة كل فرسان المستقبل هؤلاء! صاح راؤول.

– وصحة نسائنا! رد هوج وهو يمد يده بشجاعة، ممسكًا بقارورة النبيذ فى اتجاه زوجته مارى، التى حاولت الابتسام رغمًا عنها.

كانت أجات تقف بالقرب منه، وتحمل سلة كبيرة من التفاح، فتناولَ واحدة منها، وغرس فيها أسنانه بنهم.

– فى صحة نسائنا! كرر وراءه فولبرت، وهو يفرغ من جديد قارورته الفضية فى جوفه.

زال التوتر من الجو، وأخذت المحادثات من جديد منحى أكثر ودية ولطفًا. وبالرغم من ذلك، ففى نهاية الأمسية وعندما انسحب كلٌّ منهم إلى فراشه، ترك هوج زوجته مارى تصعد وحدها إلى مخدعهما. كان عصبيًا للغاية، فذهب إلى الخارج، كى يروح عن نفسه لبضع لحظات. أعلن ضوء القمر الساطع عن واحدة من ليالى الشتاء المقمرة الجميلة، كما كان يحبها هوج: صافية وواعدة. جذب انتباهه مرور ظل أحد

الأشخاص فجأة. حدق بعينيه محاولاً تخمين لمن كان هذا الظل، ولكن لم يعد هناك شيء يتحرك. ورغم حيرته فإنه نهض من على الحجر الكبير، الذى يستُخدم كمقعد للجلوس أمام البرج، وتقدم عدة خطوات. بدا له كل شيء ساكنًا من حوله، فيما عدا بومتين راحت ترد كلٌّ منهما على الأخرى فى صياح متزايد. كما لو كانت مشاجرة عائلية بينهما... هكذا فكر هوج، وهو يبتسم.

شعر أخيراً بأعصابه وقد استرخت، فهم بالدخول مرة أخرى إلى البرج فإذا بيد توضع على كم سترته، ففز فى مكانه متفاجئًا. فى النهاية كان وجهًا أدميًا ظهر فى الظلام. انعكس ضوء القمر الساطع على شعر أجات البنى الغامق، فبدا لامعًا دون أن يفسر ملامحها. تقدم هوج بدوره، مقتربًا من اليد فمرت فى هذه اللحظة سحابة كانت تحجب ضوء القمر اللامع، فأفشى فجأة بملامح وجهها المحبوب، وحينئذ سمع صوتها يهمس قائلاً:

– سيدى اللورد، أنا ملكك.

اختفت أجات قبل أن يفكر هوج حتى فى الرد عليها. بخفة وصمت، نزلت بسرعة الدرج المنحدر بشدة والمؤدى إلى الساحة السفلية للبرج. هرع هوج وراءها، محاولاً اللحاق بها، ولكنه سرعان ما سمع باب المنزل الصغير ينغلق، وهو الملحق الذى تسكن فيه أجات و فاليرى وبرتراد وإيتيينت.

فكر هوج فى أن يدق الباب الخشبى بواسطة الحلقة الحديدية المضفرة الصغيرة المعلقة فى وسطه، ولكنه لم يرد المجازفة بإيقاظ الآخريات. سمع نباح كلب، وبعده آخر. أذعن هوج عن الفكرة تمامًا وعاد أدراجه، صاعداً الدرج ببطء فى اتجاه البرج. سمع قلبه يخفق بشدة:

- سيدى اللورد، أنا ملكك. راح هوج يردد هذه العبارة بصوت خفيض، ثم بصوت أعلى وكأنه يُشهد القمر على الواقعة.

أنقشعت السحب من السماء فتلألأت النجوم بشكل واضح. دخل هوج إلى القاعة الكبرى، فوجد بعض الأسرة وقد وضعت فى زوايا مختلفة من القاعة، نام عليها بعض مرافقيه. لمح جيربير جالسًا بجانب المدفأة ليقلب النار، ليبقيها مشتعلة بعصى حديدية. بالقرب منه كانت هناك قطعة حطب مستديرة، تتدحرج على البلاط، آخذة معها بعض فتات الرماد والجمر. كانت المشاعل قد تم إخمادها.

- مساء الخير يا سيدى. قال له الخادم بصوت منخض متباعد.

راح هوج يصعد الدرج الصغير، الذى أحدث صريراً تحت وقع حذائه، رغم أنه كان يدوس عليها بحرص.

كانت مارى نائمة على بطنها، وذراعيها تلتفان حول وسادة كبيرة، فقبلها هوج. للحظة، شعر بالرغبة فى إيقاظها كى يضاجعها، ثم غير رأيه. لا يرد أن يُفسد النشوى التى شعر بها فى هذه اللحظة، فقد كان يفضل أن يضاجع أجات.

"سيدى اللورد، أنا ملكك"

مرة أخرى اقتادته أحلامه إلى جنة غريبة، بها نساء يشبهن جميعًا أجات، ثم قابل هوج ناسكًا، شعره أبيض طويل، وبشرته مجعدة بفعل الزمن.

– هل سيصبح الحلم حقيقة فى يوم من الأيام؟

– نعم، ولكنك ستكون ملعونًا. هكذا رد عليه الناسك، وهو يضحك ساخرًا منه

فى صباح اليوم التالى راقب هوج أصدقاءه وأتباعه، وهم يغادرون الواحد تلو الآخر. هكذا لن يروا بعضهم البعض إلا ودون شك، عندما يحين موعد عيد المتبن (عيد حصاد العلف)، ووقتها سيتجمعوا أستعدادًا للرحيل الموعود. بعد ذلك، ما إن رأى آخر أتباعه، بيرنييه وجييوم، يعبران السياج المحيط بالقصر مغادرين، حتى قفز على ظهر فرسه هو الآخر، ليتفقد أراضيه. كان الطقس جميلاً، فالشمس كانت مرتفعة فى السماء قبل أوانها فطلع النهار مبكرًا. ولا غرابة، وقد جاء فصل الشتاء مبكرًا هذا العام، بالتالى قصرت مدته. كما كانت هناك نفحة من عبير الربيع فى الجو، وبدأت البراعم تتفتح بالفعل، وكأنها تتظاهر.

– إذا ما سقط الصقيع، سوف يُدمر كل شىء. هكذا قال هوج لنفسه، حيث كانت إيرادات محاصيله الزراعية، تهمه بشكل أكبر من أن يتجاهل الأمور المتعلقة بالأراضى.

فى موقع بناء قصره الحجرى الجديد، بدا كل شيء يسير على ما يرام. فذلك الطقس الرحيم، حفزهم على المزيد من العمل، كما سهل تنفيذ الجدران التى بدأت هيئتها ترتسم، وتأخذ أجمل فأجمل الشكل الرباعى المأخوذ عن نموذج البرج العتيد، الذى يسكن فيه أصحاب القصر. شعر هوج بالارتياح والرضا، وهو يتفحص الموقع من رقعة أرضية تُظهره بشكل شامل، وهى الأرض التى ستستخدم كقاعدة لقصره الجديد. استدار بفرسه لشمس الصباح، فوجد أمامه فى المقام الأول تلك التلال الجميلة التى تَرَعَرَعَ بينها، وشَهَدَتْ صولاته وجولاته على فرسه فى فترة مراهقته، ووراءها من بعيد جداً، ظهرت قمم الجبال المستديرة التى توالت على شكل حلمات، تنعش رؤيتها العين حتى خط الأفق. علت بعض هذه القمم بقع بيضاء من الثلوج المتأخرة، والتى كان شكلها تقريبًا غير متوافق، خاصة أن فصل الربيع بدا آتيًا بلا مبرر، ولكن بحزم، ليحل محل الشتاء. ما وراء كل هذا، ظهرت جبال أخرى واقفة بشموخ، وقد كسا قممها الجليد بشكل تام، ولكن موحش أكثر.

أمر هوج خادمه كلوڤيس أن يتركه، حيث أراد أن يركض بفرسه وحده. راحت فرسه، الأميرة الحسناء، ترمح فى اتجاه غابة الأشجار المجاورة، ثم اخترقتها بمرح إلى الرقعة الأرضية المنكشفة فى وسطها، ثم إلى داخل منطقة موغلة بالأشجار الكثيفة. تحت ضوء الشمس المشرق، توالت بقع أرضية غامضة ومظلمة. أحب هوج هذا التناقض. لمح أيل غزال، وقف يراقبه وهو يمر بفرسه، وبالقرب منه صغيره، يرعى

فى سلام. لم تكن فى نية هوج الصيد هذا الصباح، ولهذا لم تخشه حيوانات الغابة. بعد ذلك وفجأة، ظهرت الشمس من جديد، وأصبح إحمرارها فى هذا الصباح ذهبيًا متقداً. رأى بعض الفلاحين يعملون فى حقل، تناثرت من حوله بعض المنازل، مما يشير إلى وجود قرية فى هذا المكان. بعد ذلك بمسافة ليست ببعيدة، شمخ بناء دير من حجر الجرانيت الملون بالأزرق والرمادى. بالقرب منه، انهمك بعض العمال فى موقع بناء كنيسة، بدت واجهتها مشيدة فى مستوى أعلى من بضعة أكواخ القرية. لمح هوج رجل الدين يتجاذب أطراف الحديث مع عمال البناء. بدل الرهبان الثلاثة المسئولون عن الدير عباءاتهم الطويلة بسترات أقصر من دون أكمام، ووقفوا يتابعون البنائين الذين كانوا يضعون بعناية الأحجار ذات اللون الضارب إلى الحمرة، مسترشدين بخط عمودى.

– يا له من لون جميل! هتف هوج.

حياه الرهبان بإيماءة من رؤوسهم، بينما اقترب منه رئيس الدير وقال له:

– هوج... لماذا أتيت لزيارتنا؟ هيا ندخل إذن.

صحبه رئيس الرهبان إلى البناء الضخم المحصن، ثم دخلا إلى قاعة، يقوم فيها رسام بطلاء أكبر حائط فى الحوائط الموجودة، وذلك باستخدام فرشاة يطلى بها على خلفية، زرقاء اللون.

– أنتم دائمًا فى حالة ترميمات. هكذا علق هوج

تقدم أحد الرهبان المتدربين، وسكب بعض النبيذ الممزوج بنكهة الأعشاب فى قارورة، قدمها لهوج، الذى راح يتشممها، ثم بدأ يرتشف منها على جرعات صغيرة.

- إنه لذيذ يا أبتاه.

- إذن؟

- أنا بحاجة إلى نقود.

- أنت ذاهب مع الحملة على ما أعتقد!

- نعم... ولكنها مكلفة.

- أنت أيضاً تبنى قصراً.

- ألست تقوم بالبناء أنت أيضاً؟

أخفض رئيس الدير عينيه فقد أصاب هوج أفضل تصويب. لهذا كان الأب يونس يلوم هذا الراهب على مشروع بناء الدير العملاق هذا.

- ماذا يمكننى أن أقدم لك؟ سأله رئيس الدير، وقد أصبح فجأة أكثر لطفاً.

- لقد أعلن أسقفك الأب يونس أن هناك تسهيلات سيمنحها ديركم للفرسان المسافرين إلى القدس.

– نعم، ولكن ما الذى ستقدمونه لنا فى المقابل؟

كان الأب پونس دى تورنون، قد اجتمع برؤساء الأديرة فى منطقة دوڤيرن، فور عودته من مدينة كليرمون وشدد على أنه فى حال منح القروض، ينبغى أن تكون مرهونة كتأمين.

– غابة سانت لوپ.

– أليست موبوءة بالذئاب كما يوحى اسمها؟

– كانت كذلك، ولكننا قمنا بقتل العديد منها، حتى لم يعد هناك أى ذئبة، ولا حتى أى ذئب رضيع. هكذا سيكون لديكم ما يكفى من الخشب لعمل الطبقات الخشبية لأسقف الدير الجديد، وحيوانات الغابة، والأرانب البرية لإقامة ولائم رائعة، ولن أحدثك عن الغزلان الصغيرة الطرية الشهية المذاق.

لمعت عينا رئيس الدير، وراح يسكب المزيد من النبيذ المُعطر، وهو شارد الذهن.

لقد حُسمت القضية... هكذا سيحصل هوج على بعضٍ من المعونة، تساعده فى معدات الرحيل للحملة، وحتى فى قصره. هكذا خرج هوج من الدير سعيداً، ليجد فرسه مربوطة فى حلقة معدنية متصلة بجدار الدير. كان عبور الغابة سريعاً هذه المرة، وكان الوعل وصغيره ما زالا هناك، فصهلت الأميرة الحسناء، عند مرورها بهما، وكأنها تحييهما. بعد ذلك قادتهما حافة الغابة إلى الضوء من جديد. لمح أمامه القرية

القابعة فى جوف التل. أبطأت الأميرة الحسناء من سرعتها بصورة تدريجية وغير ملموسة، وهى تمر بحذاء البركة. انعكست أشعة الشمس على صفحة المياه، فتوهج لون أعواد البوص والأعشاب المنتشرة على حافتها. فجأة لمع فأس حديدى، مُحدثًا وميضًا لفت انتباه هوج، فتساءل:

– ترى من الذى يعمل هناك؟ قال هوج لنفسه

أثار ذلك فضوله، فخفض من سرعة فرسه، ثم أوقفها تمامًا وقفز منها إلى الأرض. غرس حذاؤه فى تربة الأرض اللينة المحاذية لحافة البركة المليئة بالحشائش. تقدم هوج ببطء، مقتربًا من ذلك الفأس الحديدى، الذى راح يظهر ثم يختفى على فترات منتظمة، بدا سطحه المتساوى يزداد حجمًا لمرأى العين. وجد أمامه فجأة حزمًا من أعواد البوص، موضوعة فى صفوف جنبًا إلى جنب، منعته من التقدم. حينئذ ومن خلال هذه البستان الطبيعى، تعرف هوج على سترة أجات الزرقاء. هكذا تعمد هوج الاختباء ما بين الأشجار، حتى يتمكن من التمتع بمشاهدة هيئتها الرائعة والقوية فى آن واحد، والتى راحت حركة ذراعيها ذات الإيقاع المنتظم كرقص الباليه، تبرز جمالها أكثر. لقد أشمرت أجات عن كمى سترتها الواسعة، كاشفة عن بشرة محمرة قليلاً، راحت تنثنى برقة عند الكوعين.

بدا هوج مفتونًا، لهذا لم يتحرك من مكانه. ارتفع الفأس نحو السماء، ثم هبط بلا هوادة على أعواد البوص، التى راحت تتهاوى، جالبةً معها رؤوسها المجتزة، ساقطة فى ماء البركة، معكرة صفوها.

راح شعر أجات الكستنائى يتموج حول وجهها، مصاحبًا حركتها صعودًا وهبوطًا. كسر صمت المكان جلبة حركة الفأس المتهاوية بشكل منتظم على جذوع أعواد البوص الجافة. فجأة، ودون مقدمات صهللت فرسه، الأميرة الحسناء. تلفتت أجات من حولها، بعد أن أدركت وجود شخص ما فى المكان. كان هوج على بعد خطوات قليلة منها، ولكنه ظل مختبئًا. جالت أجات بعينيها فى البستان، حتى لمحت معطف هوج الأرجوانى اللون. أزاح هوج أعواد البوص الصلبة، ثم تقدم بخطى غير واثقة على التربة اللينة.

- لا تخافى... فأنا لا أريد بك مكروهًا. فقط أراقبك.

- أعرف يا سيدى هوج.

كانت أجات تُمسك بالفأس فى يدها اليمنى، فراحت تُعدل وترفع من خصلات شعرها المتبعثرة بجنون على وجهها، حاجبة ملامحها البرية. فتنت هذه الحركة الرائعة هوج أكثر، فتقدم خطوة للأمام، وتقريبًا بطريقة لا شعورية رفع يده تجاه وجهها وراح يملس عليه برقة.

تقدمت أجات هى الأخرى تجاهه حتى أصبحا وجهًا لوجه، لدرجة أنهما شعرا بأنفاس كلٍّ منهما وقد امتزجتا معًا. مال هوج ناحيتها، وأدرك أنها كانت طويلة القامة، بل أطول بكثير من زوجته مارى. اقتربت الفتاة بشفتيها منه فقبلها أولاً بحنان، ثم وبتهيج راح يداعب لسانه بلسانها. طوق بذراعيه جسدها القوى، الذى كان بالفعل مائلاً ناحيته.

كان هوج هو أول من توقف عن هذه المداعبات الساحرة قائلاً:

- كلا، أنا لا أريد أن أفعل معك ما قد فعلته من قبل أحيانًا مع فتيات أو نساء مزارعى منطقتى.

- لماذا؟ سألته أجات، وقد أصبح جسدها الآن ملتصقًا به.

- أنا سيدك، وهذا لا يعطينى الحق فى كل شىء.

- ولكننى ملكك، وقد قلت لك ذلك من قبل.

- أنت ملكى، ولكن هذا ليس مبرراً.

تقهقرت أجات خطوة إلى الوراء. وقف هوج بلا حراك وذراعاه معلقتان فى الهواء، وأخذ يتفحص هذا الجسد الذى استطاع أن يلمح بعض مفاتنه. هذا الصدر العارم، والمشدود بوقاحة تحت قماش سترتها الزرقاء، وخصرها النحيل الذى يلتف حوله حبل حقير من القنب، وهذه الأرداف الرقيقة التى تحملها ساقان لا بد أنهما طويلتان.

شعر هوج بنياته الحسنة، تضعف، وعزيمته تخور. تراءى له وجه قسيسه للحظة فى مخيلته ثم تلاه وجه مارى.

- لماذا؟ رددت أجات من جديد.

بهره صوتها العميق الأجش، ففتح لها ذراعيه فى حركة رقيقة ومتسلطة فى آن واحد، فارتمت هى بين أحضانه بطريقة طبيعية، وكأنها

تفعل ذلك للمرة الألف. تلاقت شفتاه بشفتيها من جديد، وفى هذه المرة كانت أجات هى التى تقود ممارسة الحب. شكلت أعواد البوص المقطعة والملقاة على حافة البركة فرشةً رائعة. تمددت أجات فوقها، وسرعان ما أطاح هوج بمعطفه وسترته بعيداً، فرمت أجات بدورها بسترتها، فبدت وكأنها بقعة زرقاء على الورود النابتة، بين الأعشاب الشيطانية. بعد ذلك أطاحت بقميصها الداخلى ذى اللون الفاتح، أخيراً اكتشف هوج الجسد، الذى طالما حلم به كثيراً، فوجده أشد إغراءً، مما قد رآه فى أحلامه. مرر بشفتيه عليه، فى هوس وجنون، عندما همست أجات قائلة:

- إنها مشيئة الرب!

وصل هوج إلى قمة شهوته، كما لم يحدث له من قبل.

- إنها مشيئة الرب! كررت أجات مرة أخرى.

- كلا، إن الرب لا يريد مثل هذه الأشياء. فأنت تفعلين الفاحشة، ولكننى أفعل أكثر منك.

كان هوج يشعر بالخزى والسعادة فى الوقت نفسه.



٨

بعد عدة أشهر لاحقة، حل يوم ساخن ارتفعت الشمس فيه عاليًا، معلنًا عن قدوم فصل الصيف، هرولت المربية برتراد إلى الحظيرة وهى تقول:

- إيتينت... إيتينت... هيا أسرعى، المولود الجديد على وشك أن يولد.

تركت المرأة العجوز البقرة، التى كانت تعتنى بها، وعجلها الوليد الذى وُلد لتوه فى اليوم السابق، وأتبعت الخادمة المسئولة عن تربية أطفال هوج.

كانت مارى ممددة على السرير الكبير، وقد أُزيحت الستائر الموجودة حوله على مصراعيها، بينما ارتسمت علامات الألم والتوتر على وجهها.

- أسرعى يا إيتينت. قالت لها مارى، وقد امتلأت عيناها بالدموع، عندما رأتها تظهر أعلى الدرج الذى راح يئن أكثر من أى وقت مضى تحت وطأة وزنها الثقيل.

- ها أنا قد جئت! أجابتها إيتينت بنفس متقطع.

ابتسمت مارى للحظة، ولكن سرعان ما تقلص وجهها مرة أخرى من الألم.

– سيكون كل شىء على ما يرام. قالت لها إيتينت، لتطمئنها ثم استدارت إلى ڤاليرى لتسألها: هل أعددت أوانى مياه إضافية ؟

– نعم لقد ملأت الأوانى بالماء، وأحضرت أوراق عشب اللورو. ردت عليها ڤاليرى.

– حسنًا.

أشمرت إيتينت عن كُمَيّ سترتها.

– ألا تعرفين أين سيدك؟ سألتها مارى بصوت يملؤه الوهن والضجر فى آن واحد.

– بالتأكيد لا أعرف... ولكن بحق القديس إيتين، قديسى، فلا دخل لسيدى فى ما يحدث الآن. تمتمت إيتينت.

– اذهبى للبحث عنه. أمرت مارى مع ذلك ڤاليرى التى مررت الأمر على چيربير الموجود فى الطابق السفلى.

– فلتذهب إذن! كررت إيتينت.

بعد لحظات، عاد چيربير، وهو يلهث معلنًا أن سيده غادر بفرسه، الأميرة الحسناء.

– فلتذهب إذن واقطف لنا بعض أوراق السرخس! قالت له إيتينت، التى كانت مؤمنة بفوائد هذا النوع من النباتات، حيث أخبرتها والدتها وجدتها عن مفعوله فى طرد الشيطان، وأعمال الشر، أو غيرهما من العكوسات. لقد وُلِد تييرى الصغير وأخته إليانور وسط أوراق السرخس وكان كلٌّ منهما يتمتع بصحة رائعة لحظة ولادتهما. هكذا كانت إيتينت تفخر دائمًا بالقول بأنها أخرجتهما إلى العالم فى أفضل الظروف الممكنة.

– هل أخبرتم مسبقًا القس أرنو كى يصلى من أجلى؟ قطبت مارى حاجبيها تحت اللحاف، وتلوت، وهى تصارع الألم.

– إنه فى كنيسته. ردت ڤاليرى بهدوء

– وأجات؟ سألتها مارى من جديد.

– لقد ذهبت لجلب الماء.

هزت إيتينت رأسها بطريقة مقتنعة. أما الحقيقة، فهى كانت تعرف مكان سيدها، وبلا شك مكان أجات أيضًا. فقبل بضعة أسابيع قليلة مضت، جاء هوج وهو يبدو نادمًا ليراها فى الحظيرة. وإذا كان قد بدأ بالمزاح معها عن ضروع الأبقار وعن الكميات الغزيرة المدهشة من الحليب، الذى كانت تدره هذه الأبقار، والذى لم تكن هناك سوى إيتينت التى تعرف كيف تحلبها، دون مثيل لها، سرعان ما أدركت إيتينت أن هناك غرضًا آخر لزيارته هذه.

– منذ متى وأنت معنا يا إيتينت؟ سألها هوج فجأة.

– لم أعد أعرف... فقد مرت علىَ مواسم كثيرة من أعياد الميلاد المجيد وأنا هنا... منذ أن كان الملك هنرى[1] الراحل لا يزال فى هذا العالم!

– ألم تصلى فى زمن جدى تييرى؟

– أوه بلى! قالت إيتينت، وهى ترفع بصرها إلى السماء.

– لا بد أنك كنت جميلة فى ذلك الوقت.

– بالتأكيد، كنت أجمل مما أنا عليه اليوم.

تذكر هوج عندما حُكى له من قبل عن مغامرات جده العاطفية مع الجميلة إيتينت، حيث ترمل وهو ما زال شاباً. فأمام هذه الملامح الهزيلة، وهذه البشرة التى تجعدت مثل قشر التفاح، وهذا الفم الخالى من الأسنان، تدارك هوج فجأة، قدر هشاشة الإنسان وضعفه فى مواجهة الزمن الذى يمضى.

"هكذا ستصبح أجات فى يوم من الأيام" فكر هوج للحظة "أجات... نعم، فمن أجلها جئت إلى هنا"

– سيدى اللورد، ما الذى تريده؟ فى النهاية طلبت منه الخادمة إيتينت، وهى تنظر ملياً من تحت جفنيها الثقيلين المجعدين فى عينى هوج الرماديتين واللتين ذكرتاها بجده، فهو رقيق ومتباهٍ فى آن واحد.

---

(١) الملك هنرى الأول (١٠٣١–١٠٦٠).

من جديد جذبت إيتينت بقوة على ضرع البقرة التى خارت معربةً عن استيائها.

- كونى عاقلة! ماذا بك؟

وقف هوج أمامها، طويل القامة مثل جده، واضعًا يده بلا مبالاة على سيفه، بينما إبهام يده الأخرى منحشر فى حزامه، فسألته إيتينت من جديد:

- هل الموضوع صعب إلى هذا الحد؟

- أجات حامل فى طفل منى... وأنا أعتمد عليك فى ذلك.

- هذا ليس أول طفل سفاح لك.

- أنا لا أريد هذا الطفل!

هكذا قال لها هوج هذه الكلمات بصوت جاف، ثم خرج على الفور. من ورائه، رفعت إيتينت عينيه للسماء، وغمغمت ببعض كلمات غير مفهومة.

منذ ذلك الحين، لم يوجه لها هوج حرفًا واحدًا، بينما هى ظلت تتذكر هذه اللحظات باستياء. ومع ذلك أطاعت، وراحت تجمع بعض أعواد الشبت من الحقل، ثم سحقتها، ثم استدعت أجات، ورمتها ببعض كلمات سحرية، والتى كان القسيس، ولا شك سيلعنها على فعلتها هذه:

- يجب أن تُخرجى هذا الطفل من أحشائك. كررت إيتينت عدة مرات هذه العبارة على أجات، وهى تضغط بيديها على بطن الفتاة.

هكذا أجُهضت أجات. بالطبع لم تحك لإيتينت على ركوبات الخيل المجنونة، التى أخذها فيها هوج فى الآونة الأخيرة فى فترة ما بعد الظهر حوالى الساعة الثالثة عصراً، والتى ولا شك، كان لها تأثير أكبر على الإجهاض. لقد علمها هوج كيفية ركوب الخيل، وهكذا كشفت أجات عن موهوبة كبيرة كفارسة. لكم أحب هوج تلك اللحظات، التى أعارها فيها فرسه، الأميرة الحسناء، لتركبها! بعكس زوجته مارى التى لم تركب حصاناً فى حياتها، فقد كانت تخاف.

أفاقت إيتينت من أفكارها هذه على تأوهات مارى. كانت أحواض الماء الساخن تنتظر على الأرض من حولهن، وفاحت رائحة أوراق الغار الذكية فى المكان، بينما راحت ڤاليرى تنشر أوراق السرخس على ألواح خشب الأرضية الفاتحة، والتى كان چيربير قد اقتطفها من على طول سياج الفناء السفلى، حيث تنمو فيه بكثافة.

عاد هوج إلى القصر فى ساعة متأخرة جداً؛ بسبب تأخره فى قرية الأخشاب، حيث قام أربرت الحداد بإطلاعه على أحدث الإنجازات، التى صنعها له. فالمعدات الخاصة بهوج، وكذلك معدات أقاربه وفريقه، كانت تقريباً جاهزة.

- لقد حان الوقت... اقترب وقت الرحيل. ها هو عيد القديس چان (٢٤ يونيو).

- سيدى... تعال بسرعة... السيدة مارى...

هرول هوج، تاركًا فرسه أمام الإسطبل، وراح ينهب بخطوات كبيرة الممر الحاد المؤدى إلى القصر، ثم دفع بعنف بابه الثقيل. فى أعلى درج الطابق العلوى، كانت الخادمة إيتينت، تقف فى انتظاره وقبضتا يديها على ردفيها:

– فليلعنك الرب! قالت له المرأة العجوز والدموع فى عينيها: فليلعنك الرب! كررت له ثم أمام نظرة هوج المتسائلة قالت له:

– لقد دفعت زوجتك ثمن خطيئتك.

تطلع هوج بنظره تجاه السرير، الذى كانت ستائره مسدلة عليه، فأضافت إيتينت:

– كان هناك طفلان، ولقد فعلت ما بوسعى... ولكن الأمر كان فوق احتمالها.

فاح فى المكان مزيج من رائحة أوراق السرخس، وأوراق اللورو ملأت الغرفة. كان القسيس راكعًا على ركبتيه، يصلى وجفناه نصف مغلقين.

أخيرًا فهم هوج... فهرع إلى الفراش، وأزاح بعصبية الستائر الخضراء الثقيلة، ثم انحنى على غطاء الفراش، الذى تغطت به مارى. بدا وجهها هادئ الملامح، يحيط به شعرها الطويل المتناثر على قطعة رقيقة من القماش الأبيض المطرزة.

- ماری! ماری یا حبیبتی. همس هوج بعد أن عانقها طویلاً وأخذ کتفاه فی الارتعاش من کثرة إجهاشه فی البکاء. ضم زوجته بشدة بین أحضانه، کما لو کان یرید أن یبث فیها الحیاة، التی کانت تتدفق بغزارة من جسده، ومن قلبه. بعد فترة طویلة من البکاء والأفکار السوداء، أعادته صرخات المولودین إلى الواقع.

کانت إیتینت قد قامت بدعك حلق فم کلٍّ منهما بأصابعها المنغمرة فی العسل، ثم قامت بتحمیمهما فی دلاء بمساعدة ڤالیری. وقفت أجات فی رکن بعید، فلم یعرها هوج أی اهتمام أو ینظر لها، وهو یقترب من طفلیه.

- لقد رُزقت بولد وبنت.

- المصیبة الکبری أن هذین البائسین قد أزهقا حیاة أمهما. قال هوج بصوت غاضب، وکأنه یزأر.

- ولکنهما جمیلان ویتمتعان بصحة جیدة. ردت الخادمة إیتینت

- لن یکون لهما أم، وأنا سوف أتغیب لفترة طویلة! أرنو!

خرج القسیس من حالة الخشوع، التی کان بها، ثم نهض مقترباً من هوج الذی قال له:

- قم بتعمیدهما... الفتاة سیکون اسمها ماری علی اسم أمها، أما الولد فسیکون اسمه لویس علی اسم أبی.

جذب انتباه هوج لوح خشبى موضوع بجانب الحائط، يثبته حاملان؛ عليه بعض الأشياء ذكرت هوج بمارى، مرآتها، مشطها الكبير المصنوع من العظام، بعض المستحضرات من الأرجوان والبنفسج وحليب اللوز. فى صحن فخارى صغير، وضعت بشكل مهمل، دبوس معدنى مصقول بصبغة ملونة، كانت أم مارى قد أهدتها إياه يوم زفافها، وبعض الكرات الخشبية الصغيرة المحاكة معًا، وسوار صغير.

فى اليوم التالى، وأثناء ما كان القس أرنو، يقيم الصلاة الجنائزية على مارى، اقترب رجلٌ على جواده من السياج المحيطة بالقصر، وقدم نفسه للحارس دينيس قائلاً:

- اسمى روبير، نحات وأقوم بتقطيع الأحجار... وأنا أعرف سيدك جيداً. هكذا أعلن روبير عن نفسه لدينيس، الذى كان يجلس عابساً على الأريكة الحجرية أمام الإسطبل.

بعد أن تم إخبار روبير بالظروف المحزنة، توجه إلى الكنيسة الصغيرة الملحقة بالقصر، حيث كان القس أرنو يرتل الصلوات الأخيرة. فى الصف الأول، وقف هوج يحيط به طفلاه من كل جانب وقد اختبأ المذبح خلف قامته الطويلة. من حوله، وقف الخدم يرددون الابتهالات وراء القسيس.

أشار القس أرنو بعلامة الصليب للمرة الأخيرة فوق النعش الماثل أمامه، ثم تم حمله إلى الخارج وسط حقل صغير مغلق، تتناثر فوقه قطع

الحجارة الصغيرة والبلاطات الصفراء، في منتصفه حفرة، قام في اليوم السابق بحفرها دينيس وچيرببير. مر كلٌّ منهم أمام النعش الموضوع في الحفرة، ليلقي عليه حفنة من التراب، ثم قام چيرببير، وفي يده مجرفة، بتغطيته ببطء بألواح من الخشب. في النهاية تم وضع بلاطة كبيرة من الحجر، تم إحضارها من موقع بناء القصر الجديد، ثم وضعت بحرص على تبة صغيرة تم تنفيذها مسبقًا.

في هذه اللحظة فقط، لمح هوج روبير، فنادى عليه قائلاً:

– أنت؟ ماذا تفعل هنا؟!

– لقد قررت الذهاب في الحملة، وأود الرحيل معك. رد عليه الشاب روبير، وهو يطلعه على علامة الصليب، التي حاكها على كم سترته المصنوعة من القماش غير المعالج.

– وأعمالك النحتية؟

– ستنتظر حتى عودتي. فموقع بناء الكاتدرائية غير نشط بالمرة، كما أن برتيلد لم تعد أبدًا. أنا حزين للغاية... فهل تريدني معك؟

نظر هوج إلى روبير، فتأثر كثيراً لابتسامته الصادقة، وحسن نيته. لقد نضجت ملامحه شبه الطفولية وازدادت نظرته لينة الصلابة. إنه الحزن ولا شك.

– هل تستطيع استخدام سيف، والقتال به؟ إنه يختلف تمامًا عن المطرقة والأزميل لنحت الحجر.

- سوف أتعلم. رد روبير عليه بهدوء، قبل أن يكمل: كما أننى مجهز.

- اللعنة! هكذا تذمر القس أرنو عابسًا، بسبب الجلبة التى أحدثاها.

- المعذرة يا أرنو. قال له هوج

- لقد أهدانى رهبان القديسة مارى، خوذة ودرعًا من السلاسل المعدنية... انظر... بل لدى قوس ورماح.

ربت هوج بيده على كتف روبير، وقال له:

- ستكون نعم الرفيق. قال هوج له بجدية، ثم أضاف: سوف يسعدنى أن تكون فى رفقتى.

- شكرًا. قال له روبير ببساطة، ثم أكمل: وحتى يحين يوم المغادرة، اسمح لى بأن أقوم بنحت الحجر، الذى ترقد تحته زوجتك. سأنحت عليه صليبًا وحملاً... لا بد أن زوجتك كانت رقيقة، كى تتحملك، وهذه الصورة، ستكون أيضًا رمزًا لطفليك البريئين اللذين ستتخلى عنهما.

اقترب تييرى الصغير، وتعلق بذراع أبيه، الذى بدا أكثر شبهًا بأمه مع مسحة حزن على وجهه، بينما بدت أخته إليانور، غير مدركة لما يدور حولها. أما الرضيعان التوءمان، فيبدو أنهما قد قاما بتلبية غريزتهما الأمومية الحديثة، فقد تم استحضار فلاحتين سمينتين هذا الصباح

فقط، من القرية المجاورة، حيث كل منهما لديها رضيع حديث الولادة. هكذا ستقومان بإرضاع مارى ولويس، فى حين سيتغذى رضيع كلٍّ منهما على حليب الماعز. هكذا تولت كلٌّ منهما أمر رضيع من الاثنين وإليانور الصغيرة، لا تتركهما البتة، وكُلفت الخادمة برتراد بالإشراف على ذلك.

سعد هوج أشد سعادة، عندما أخذ روبير معه إلى موقع بناء قصره الجديد. كانت أجات منهمكة فى تسمين الدجاج والديوك الرومية، عندما رأتهما يمران دون أن يعيرها سيدها أى انتباه. تابعت الفارسين بنظرة حزينة، حتى اختفيا وراء التل الصغير المستدير. راقبت إيتينت المشهد بحزن ووحشة، وهى جالسة على حجر بالقرب من أجات، حتى اقشعر جسمها من التأثر، بينما أخذ ضوء الشمس المائلة للغروب، يختفى ويظهر بين الغيوم.

هكذا راحت أجات تنتظر هباء أن يعاود العلاقة معها. بعد مرور خمسة عشر يومًا على مأساة رحيل مارى، وعندما أصبح رحيل هوج وشيكًا، قررت أجات أن تفاتحه فى الأمر:

– سيدى... ألم تعد تريدنى؟ سألته أجات بصوت عميق، خانته نبرة باردة شيئًا ما.

– كلا يا أجات... لا تحاولى إغوائى... لقد قالت لى إيتينت إننى ملعون، ولديها الحق فى ذلك.

– كيف تعتقد حقًا أن زوجتك ماتت بسببنا؟

– لأنها الحقيقة... والآن يجب علىَّ أن أسير فى الطريق المستقيم.

– سأكون ملكك إلى الأبد، وأنت تعلم جيداً أنك لن تنسانى. قالت له أجات.

– بما أنك تقولين ذلك، فهذا أكبر دليل على غرورك.

أراد هوج أن تكون نظرته إليها جافة، ولكنها لانت تحت وقع عينيها الداكنتين المشتعلتين بالعشق.

– أنت تحبنى، وأنا أحبك. هكذا قالت له أجات بإصرار، وهى تضغط ببراعة ودلال على الكلمات، التى طالما ردداها معًا.

مع ذلك رد هوج عليها بضجر:

– أنا راحل وسوف تنسيننى... ها هو دينيس يلتهمك بعينيه وسينتهى به الأمر سريعًا بإغوائك.

– كلا... لن يحدث ذلك أبدًا! سأرحل أنا أيضًا! صاحت أجات بصوت أجش ومغرٍ فى آن واحد.

– وأين ستذهبين؟ أنت بالكاد لم تتجاوزى من قبل، ما وراء الغابة الخشبية.

حاول هوج أن يلجأ للسخرية منها، كفرصة أخيرة لصدها، رغم أنه كان قيد أنملة من الانهيار والإذعان لمطالب أجات.

- سوف أرحل. كررت أجات، وقد بدت عنيدة.

شعر هوج وكأنه يذوب وهو يرى عشيقته البرية عابسة، مما أسعده. ومع ذلك فقد أقسم بينه وبين نفسه، ثم أقسم أمام الله فى الكنيسة الصغيرة، وكان أرنو هناك شاهداً عليه، ألا يمس أجات بعد الآن. الأكثر من ذلك أيضًا، وهو ما كان عليه أن يعترف به، أن القسيس كان يخشى أنه قد لا يفى بوعده وقسمه.

تركته أجات، وذهبت دون أن تضيف شيئًا. رآها تعبر السياج بخطى بطيئة، جعلت أردافها النحيلة تتبختر بشكل مثير، حتى دخلت إلى المنزل الصغير، الواقع فى الساحة السفلية للقصر، حيث تعيش فيه مع باقى الخادمات. تنهد هوج بارتياح. وصل روبير من القصر واتجه إلى الحقل المغلق، والذى كان بمثابة المقبرة العائلية. على حجارة شاهد قبر مارى، كان الصليب قد وضحت معالمه عليها، كما احتفظ بمساحة للخروف الذى كان بالفعل قد بدأ فى نحته.

- مساء الخير يا هوج. قال له روبير من بعيد وهو يربط جواده.

بالكاد رد عليه هوج، وبعد لحظات، كان يلكز فرسه، الأميرة الحسناء، بضربات ركابه المعدنى القوية فى جانبيها فانطلقت تركض به فى اتجاه النهر.

لم يظهر سيد المكان إلا فى اليوم التالى فقط، وقد بدا هادئ الأعصاب. بيد أن خادميه بودرى وألوى، لم يكن بمقدورهما أن يحدسا

الثورة العارمة، التى اشتعلت داخله، رغم اجتماعهما به لمناقشة تنظيم رحيله. ومع ذلك لم يعلم إلا فى المساء فقط، وأثناء تناول العشاء بخبر اختفاء أجات.

- أين هى؟ صاح هوج بصوت آمرٍ وقاسٍ، وهو يسأل ڤاليرى وبرتراد.

- وما أدرانى؟ ردت برتراد.

- وأنت يا ڤاليرى ؟

- إنها لم تعد إلى الآن من جانب النهر، ولكن الظلام لم يحل بعد.

دون أن يعلق أو يلقى مزيداً من الأسئلة، غادر هوج البرج، ونزل بخطوات متأنية السلم الخارجى المنحدر إلى الساحة السفلية، ومنها اتجه نحو السياج، وعبرها سالكًا الدرب العشبى المؤدى إلى النهر. من الذى كان بوسعه أن يخمن خفقان قلبه الشديد رغم مظهره اللا مبالى؟

على حافة ماء النهر، وجد هوج الذراع الخشبية الطويلة التى تحمل الدلوين، وهى الأدوات الخاصة بأجات، وكأنها قابعة تنتظر بحزن، مفتقدة صاحبتها. بالرغم من ذلك، راح هوج ينادى عليها عن غير اقتناع. فتركها لأدواتها، هكذا يشير إلى أنها قد وضعت نهاية لحياتها ولا شك. جاءه فقط رد طائر الوقواق الذى لمحه هوج واقفًا على فرع من أفرع شجرة صفصاف حزينة، وريشه الرمادى بلون الرماد، تشوبه بعض

البقع السوداء. أخذ الطائر يردد صياحه بشكل متكرر، فالتفت إليه هوج، وهو منزعج، وراح يتأمله ويقول لنفسه:

- لا بد أن حياة الطيور ليست أسهل من حياتنا. من جديد صرفه عن همومه، فرخ لونه أبيض وأسود صغير، جاء ينقر بعض الحبوب المتناثرة على الأرض حول قدميه.

- أجات! نادى هوج من جديد، وهو يضع يديه حول فمه على شكل مروحة، كى يُضخم صوته.

فجأة سكن كل شيء بلا حراك، حتى الطيور بدت فى هذه اللحظة، وكأنها تحترم الصمت، الذى خيم على المنطقة المحيطة بالنهر، بينما فى الخلفية ما يشبه شلالاً، تعلو منه بعض الصخور، الذى تنحدر من فوقها المياه.

عاود هوج النداء من جديد، ثم جلس على حجر أمام حافة النهر، وتناول حفنة من التراب والزلط، ورماها بحنق فى اتجاه المياه، التى تعكر صفوها للحظة. اجتاحه الغيظ وخيبة الأمل، وظل قابعًا فى مكانه بلا حراك لفترة طويلة، ثم نهض فجأة وصاح ثائرًا :

- وماذا كان عساى أن أفعل إذا ما كانت أجات هنا؟

فقط ردت البومة على السؤال الذى طرحه بنعيب منفرد.

حل الظلام، فقرر هوج العودة إلى قصره. أصابه أرق شديد، فراح يتقلب فى السرير بعد أن ركل غطاءه بعنف، فوجد صعوبة بالغة فى

النوم إلا فى الصباح الباكر، عندما غالبه النعاس. زارته أجات من جديد فى المنام وهى ترتدى ثوبًا أبيض طويلاً، تتناثر فوقه خصلات شعرها الأسود الطويل بإهمال، وقد جاءت تستقبله عند طرف حديقة غناء رائعة.

مرت الأيام التالية بسرعة شديدة، حتى إن هوج لم تكن لديه فرصة، كى يغوص فى أحزانه الجديدة. فبعد وفاة مارى، جاء اختفاء أجات ليشكل محنة إلهية ثانية. توالى وصول أتباعه وأفراد فرقته الواحد تلو الآخر على القصر، حتى اكتمل عددهم فى غضون ساعات قليلة. استقبلهم هوج بسرور واضح، وعلى الأخص چيفروا، ابن الراحل ابن خالته أموند، الذى وصل ملوحًا برمح فى يده، تعلو حربته راية صغيرة بها صليب أحمر متوهج اللون، كأنه مشتعل. أرضى حماس چيفروا الشديد هوج، فشعر بارتياح وسعادة، بعد أن كانت عزيمته قد خابت وذبلت فى الفترة الأخيرة.

- إنها مشيئة الرب! هتف كل قادم منهم ومعه فرقته الصغيرة، وعرباته المليئة بأغراضهم الشخصية والأسلحة.

- إنها مشيئة الرب! ردد وراءهم من كانوا موجودين، ووصلوا من قبلهم.

بدا هذا التجمع الطائفى، كما لو كان قد أخرج زعيمه من حالة الركود والسبات الخطيرة، التى كان فيها.

- إنها مشيئة الرب! هتف هوج مرحبًا بالوافدين الجدد، وقد اشتعلت لمعة فى نظرة عينيه، ولكنها كانت وامضة.

بعد ذلك، وفى عشية الرحيل الأكبر، جاء جيرن شقيق أجات التوعم، ليشكل حضوره تغييراً. أثارت هذه الزيارة مشاعر متناقضة لدى هوج، كان من الصعب عليه التحكم فيها، نظراً لتشابهه الكبير بها، مما أثار اضطرابه بشدة. تغلب هوج على اضطرابه، وراح يستجوب جيرن بقسوة مبالغ فيها، كى يحتوى مشاعره:

– ماذا تريد؟ سأل هوج بوقاحة الفتى الشاب، الذى قدم نفسه على استحياء عند باب البرج.

– أرغب فى الرحيل معك يا سيدى.

– ألم تعترض أمك على ذلك من قبل؟

– نعم، ولكنها اليوم ستقبل... فهى ستتزوج من أربر جارنا الحداد.

– ستتزوج من جديد؟ سأله هوج بنبرة فيها نفاق، حيث كان بالفعل يتذكر جيداً أن أجات كانت قد أخبرته من قبل عن مشروع زواج والدتها.

– هكذا سيكون لديها رجل فى المنزل، وبالتالى لن تكون فى حاجة لى. أضاف جيرن، وفى نظرته تصميم، وهو يثبت عينيه بعناد على قدميه.

– انظر لى! أمره هوج الذى اكتشف نفس عينى أجات الداكنتين.

راوده فجأة شعور غريب، بأنه إذا اصطحب جيرن معه، سيكون كما لو أنه اصطحب أجات معه.

كما لو كان هوج يعتذر وهو يقول لنفسه: "لا الرب ولا أرنو سيجدان ما يقولانه " وراح يتفحص هذا الشاب، الذى بدا متحرجاً من الموقف، فراح يتحرك فى مكانه. إذا كانت أجات دائماً تبدو أطول قامة بالنسبة لامرأة، فإن أخاها كان أقصر وأنحف بالنسبة لرجل... كان تقريباً هزيلاً.

– ماذا سأصنع بك؟ سأله هوج، كاسراً حاجز الصمت أخيراً، والذى وضع خادمه فى حرج واضطراب متزايد.

– سوف أكون الخادم الخاص بك، إذا أردت... ربما أبدو نحيلاً . أضاف جيرن، كما لو أنه قد قرأ أفكار سيده، ثم أكمل: ولكننى شديد التحمل... أستطيع أن أجرى بطول الغابة وعرضها لساعات، دون أن أشعر بأدنى تعب.

أثار تناغم نبرة صوته الجاف إلى حد ما، اضطراب هوج.

– بالتأكيد... أنت تجرى فى الغابة لمطاردة الأرانب! قال له هوج بصوت جاف، غير مسرور ثم أضاف: ولكن لدى بالفعل خادم خاص... ألا وهو كلوفيس.

– ألا تعتقد أنه متقدم فى العمر إلى حد ما؟ سأله جيرن وقد بدأ يزداد ثقة فى نفسه تدريجياً.

– أنت حقًا وقح يا جيرن! ضحك هوج بسخرية فجأة، وكأن غمة انكشفت لتوضيح الأمور إلى البرج فى الوقت نفسه الذى دخل فيه جيرن.

– إذن سأكون خادمك الخاص الثانى، حتى أوفر حماية أفضل لك يا سيدى.

– بل ستراقب وتهتم أكثر بچيفروا، ابن الراحل أموند، ابن خالتى.

– ولكننى أفضل أن أخدمك أنت يا سيدى. قال جيرن بإلحاح.

– أجل، ولكنك أيضًا ستكون معى لإطاعتى.

بعد لحظة من الصمت، نظر فيها جيرن لهوج بجرأة، راح ينظر لقدميه من جديد.

– سآخذك معى يا جيرن. هكذا أعلن له هوج رغم كل شىء، ثم أكمل: ها أنت وقد أصبحت حرًا مثل كل من سأصطحبهم معى فى هذه المغامرة الكبيرة. فلتأت هنا غدًا من الساعة السادسة صباحًا!

تغير وجه جيرن وتحول إلى الابتسام، كاشفًا عن أسنان منفصلة قليلاً عن بعضها البعض، كما كانت أسنان أجات.

هم جيرن بالمغادرة، ووصل بالفعل عند عتبة باب القصر، عندما ناداه هوج من جديد ليسأله:

– هل تعلم أين ذهبت أختك؟

كان چيربير، ثم كلوڤيس قد ذهبا الواحد تلو الآخر إلى القرية ليستجوبا جيرن وأمه، دون أن يحصلا منهما على أى معلومات.

– نحن لم نرها فى نواحى قريتنا بالمرة. قال جيرن وقد انقسم وجهه إلى جزء مظلل وجزء انعكس عليه ضوء الشمس المتسلل من باب القصر، الذى فتحه ووقف أمامه.

– وهل هذا صحيح؟ سأله هوج.

– لا أعلم شيئًا. هكذا أكد له جيرن، ثم استدار، وخرج بعد أن أشار له هوج بالانصراف.

من خلال الباب حيث كان هوج جالسًا فى مكانه بقصره، وقف يراقب جيرن، وهو يبتعد حتى وصل إلى السياج، ثم اتجه إلى الحديقة التى بها قبر مارى، ووقف يصلى على روحها. لقد اكتمل الحمل الذى نحته روبير على حجر شاهد قبر مارى، وأظهرت تفاصيل فروة الحمل وثناياها، براعته ودقته فى العمل من خلال أزميله، الذى حفر فى الحجر بقدرة وإتقان ملحوظين. تتبع هوج بعينيه البروزات الموجودة فى الاستدارات الدقيقة، وبدا كأنه استعاد بعض سكينته، وغاص فى حالة تأمل عميق، ثم ترامت إلى مسامعه من بعيد كلمة "إنها مشيئة الرب"، التى ترددت من وراء الجذوع الخشبية الطويلة. لقد كان راؤول. جُذبت عربات ثقيلة بواسطة خيول مربوطة ببعضها البعض بأطواق فى أكتافها، بينما غطت محتوياتها بواسطة أقمشة سميكة. اصطفت العربات جنبًا إلى جنب،

فأحدثت عجلاتها الحديدية الجديدة صريراً، إلى جانب عربات هوج الذى قام بالتحقق من محتوياتها فى الليلة السابقة. وضع القمح والأعلاف واللحوم المملحة جنبًا إلى جنب، وكذلك براميل من الزيت والأسماك المملحة وأوانى النبيذ. هذا الخزين والعتاد سوف يكفيهم لفترة من الوقت. بعد ذلك يتم التزود فى الطريق. تم تجهيز الأسلحة فى عربة أخرى، وكذلك المعدات المختلفة والملابس والخيام الملونة، التى ستكون بمثابة أماكن للإيواء فى المعسكرات.

عندما رأى راؤول يقفز بسعادة، نازلاً من على حصانه الأسود الجميل، ويقترب منه لمقابلته، شعر هيوج أخيراً أن ساعة الرحيل قد حانت.

٩

كان هوج ورفاقه على موعد مع عيد صعود العذراء. انطلق موكب خيولهم فى اتجاه الشرق، وكأنه نزهة طويلة، حفلت بالتجمعات واللقاءات، حيث بدت الحملة، وقد أخذت أهميتها القصوى. وجد هوج الحماس، وقد أتقد بين بعضهم البعض، عندما وصلوا إلى ميدان هيرم فى مدينة كليرمون. هذا الحماس الذى قد خبا وضاع منه خلال الأشهر القليلة الماضية، عندما طغت أمور حياته الشخصية على مشروع البابا أوربان الكبير. هذا الحماس الذى كان على وشك أن يذعن ويتخلى عنه من أجل مغامراته مع أجات، ومحاولته للبحث عنها. فى نفس صباح يوم الرحيل، وبينما كان القس أرنو يقوم بمباركة الفرسان، جاء بيرنييه ليودع ابنه، فكان حضوره بغيضًا. لو كانت أجات، قد سقطت فى شباكه، فلن يتحمل هوج ذلك.

– إنها مشيئة الرب! هتف بيرنييه ما إن انطلق الموكب.

– إنها مشيئة الرب! رد عليه هوج، ولكن ليس من قلبه.

لوح هوج برمحه الذى رفرف على الراية ذات اللونين الأبيض والأحمر، فى اتجاه بيرنييه. كانت إيماءته هذه ليست خالصة تمامًا،

بل تشوبها بعض العدوانية. بعد ذلك نظر للمرة الأخيرة إلى أطفاله، ثم حيَا خدمه، وتمنى ألا يعود أبداً. فمن دون مارى، أو أجات، لم يعد هوج يشعر بأن الحياة جديرة بأن تُعاش. سيعطى حياته لهذا الغرض النبيل، الذى أصبح مع ذلك غير مهم. تساقطت الدموع من عينيه، عندما لمح قصره الحجرى الجديد، وقد انتهى الطابق العلوى منه تقريباً. فهو لن يراه أبداً عندما ينتهى العمل فيه، وكان ذلك أمراً أشد قسوة من عدم رؤية أطفاله مرة أخرى!

– لا أعلم إذا كنا سنعود أم لا. قال راؤول للقس

– صل من أجلنا! أضاف فولبر: فإننا سنقوم بأشياء عظيمة.

أشار القس أرنو بعلامة الصليب على صدره، وهو الذى لم يفكر أبداً فى الرحيل، بهره هذا الإيمان الظاهر على الآخرين.

– هنيئًا لكل من سيرحل. همس القس وهو ينظر إلى الشمس، وهى ترتفع.

هناك، وعلى مسافة لم يستطع تخيلها، يتم الإعداد لأحداث لا تصدق. فهؤلاء الرجال، الذين طالما انُتقد سلوكهم، بدوا فجأة، وقد استعادوا إيمانهم فى قضية بدت أكبر منهم جميعًا، ولكنها تثير جموحهم.

بكرم وسخاء راح أرنو القس يباركهم واحداً واحداً. ولكن لم تعد فى استطاعتهم رؤيته. فالعربات الأولى منهم، كانت قد ابتعدت، فى حين

كانت العربات الأخيرة تنطلق بسرعة. كان هوج هو الوحيد الذى التفت إلى الوراء للحظة، قبل أن يترك نفسه مدفوعًا بهذا الحماس الذى لا يُقاوم، والذى زرعه هو فى أنفس أتباعه وأصدقائه.

عندما كان الموكب يسير بحذاء البركة، التى كانت أول شاهد على مغامراته العاطفية مع أجات، أخذ هوج ينظر طويلاً إلى أعواد البوص التى برزت تحت سماء ذات زرقة شديدة. بعد ذلك حول نظره بشجاعة تجاه الشرق البعيد، والتى لم تسمح أعماله التحضيرية المتعجلة فى الفترة السابقة أن يتمكن حتى من تخيل ماهيته.

– يا إلهى، أقدم لك حياتى، فلماذا تطالبنى بمثل هذه التضحية؟ غمغم هوج بأسف بالغ.

صاح فوقه غراب، وكأنه يرد على أحزانه بنعيقه الحاد. فر عصفوران لونهما أسود وأبيض، قافزان أمام فرسه، الأميرة الحسناء، التى أفصحت لهما الطريق؛ ثم خرجت أفعى ضخمة غير سامة بين الصخور الجافة الساخنة، قبل أن تختفى من جديد بين الشجيرات الكثيفة.

زاد هوج من سرعة فرسه مع رفاقه، مخترقين فى هذا الموكب الطويل ذى اللونين الأبيض والأحمر، وهما لونا الصليب المعلق على ملابسهم ورماحهم، وعلى مر الأيام، استعاد هوج الحماس، الذى كان عليه فى البدايات، وكان دائمًا هو الأول الذى يهتف صارخًا "إنها مشيئة الرب!"، على الأهالى فى المناطق الريفية التى كانوا يعبرونها.

تسببت العربات المحملة بالمؤن والعتاد والأسلحة، والتى تجرها الدواب من الحمير والثيران أو الخيول، فى إبطاء سرعة الموكب المنطلق على طول الطريق. هكذا سنحت الفرصة للفرسان، كى يقوموا بالتلويح وتحية العديد من الفلاحين، الذين يعملون فى الحقول، حيث كان موسم جمع المحاصيل على أُشده. عند مرور الرايات التى تحمل الصليب الأحمر، كانت المناجل فى أيدى المزارعين ترتفع، ملوحة لهم، ويتلألأ معدنها تحت أشعة الشمس التى تسببت فى اصفرار الحقول.

– إنها مشيئة الرب! هكذا كان الرجال والنساء يهتفون وهم يشيرون بعلامة الصليب على صدورهم، بينما كانوا منهمكين فى جمع ثمار حقولهم. فبعد المجاعة الناجمة عن المحاصيل الرديئة للعام الماضى، والتى كانت أشبه بكارثة، بدت محاصيل هذا الصيف أفضل.

– سوف يكون لدينا الكثير من الحبوب والشعير! أعلن المزارعون عندما كانوا يستقبلون المسافرين من الفرسان بكل ترحيب، فى وقت غروب الشمس.

– وهناك العديد والعديد من رجالنا الذين غادروا أيضًا فى الحملة بالفعل!

فى الواقع أن هوج ورفاقه قد اكتشفوا أن رجال الدين قد بشروا ونادوا بالدعوة للحملة فى العديد والعديد من المناطق، حتى إن عددًا

كبيراً من الرجال قد غادروا بالفعل أراضيهم، ذاهبين إلى الحملة. أما من بقوا، فلم يجدوا غير جنى حبوب الآخرين، وهكذا بعد المجاعة جاءت الخيرات منهمرة.

– لقد غادر أخى هذا الشتاء بعد أن لبى نداء شخص يُدعى بطرس. هكذا قال أحد المزارعين، وهو يصفه برجل قصير القامة وعنيد الذى، بالتأكيد هو هذا الناسك الذى تحدث بعد خطبة البابا الشهير فى ميدان هيرم.

– وهكذا ترك لنا أراضيه الزراعية، وحيث إن لدينا سبعة أطفال، فهو عرض لا يمكن رفضه. واصلت زوجة المزارع الذى بدأ الحديث.

هكذا كانت هناك قرى بأكملها قد هُجرت.

– لا بد أنهم قد قطعوا شوطًا طويلاً من الرحلة الآن! قال ذات مساء رجل شجاع غادرت زوجته وأطفاله فى أعقاب " بطرس الناسك هذا والذى لا يأكل إلا السمك فقط ".

– وأنت بما أنك رجل، لماذا لا تغادر معهم؟

– انظر! كشف المزارع عن ساقه اليمنى نصف المقطوعة؛ بسبب سقوطه من فوق شجرة، ثم أضاف قائلاً: لا يسعنى إلا أن أصلى لهم... إنها مشيئة الرب!

لا هوج ولا هذا المزارع كانا باستطاعتهما تصور أن "بطرس الناسك هذا" قد وصل هو وأتباعه فى اللحظة نفسها إلى مدينة قسطنطينية[1].

لقد كان نتاج المحاصيل رائعًا أيضًا؛ بسبب أن جميع هؤلاء الفرسان والمشاة العابرين البلاد، انشغلوا بأشياء أخرى، غير نهب المحاصيل، كما كان الحال من ذى قبل.

- عندما نرى الرايات ترفرف وعليها الصليب، نشعر بالراحة. كثيرًا ما كان يكرر ذلك المزارعون.

بالرغم من ذلك، فهذا لم يمنع بعض الانتقادات:

- من كثرة ما رغبتم فى إعداد أنفسكم، ستكون النتيجة وصولكم متأخرين جدًا. هكذا لامتهم فى يوم ما، امرأة محاطة بزمرة جامحة من الأطفال. فقد غادر زوجها هى الأخرى فى أعقاب بطرس الناسك.

- سوف تجدون هناك أناسًا كثيرين، وسترون أشياء رائعة. هكذا وجه يونس دى تورنون كلامه للفرسان المسافرين، فى أثناء إحدى مراحل استعداداتهم النهائية، وراح يستعرضهم أثناء ارتفاع قرص الشمس!

---

(١) غادرت الحملة الصليبية الشعبية فى شهر أبريل ١٠٩٦، بقيادة بطرس الناسك، بعد أن سلك الطريق البرى من منطقة كولونيا (ألمانيا)، ثم ريجنسبرج وصوفيا (بلغاريا)، ووصلوا إلى مدينة قسطنطينية فى شهر أغسطس، فهال الإمبراطور منظر هذه الجحافل غير المنضبطة - كانوا عشرات الآلاف من االرجال والنساء والأطفال - فعجل بإرسالهم إلى الجانب الآخر من مضيق البوسفور.

فى بلدة سانت أندريه حاول أب تشيز - ديو، استعادة النظام فى الدير، الذى كلفه بإدارته كبير أساقفة ڤيينا (جنوب مدينة ليون)، جى دى بورجونى. قبل أيام قليلة جاء لزيارته أديمار دى مونتيل، أسقف بلدة پووى، المنسق العام للرحيل إلى القدس، وهو من يمثل البابا.

- لقد سلك طريق الرحيل منذ أسبوع. قال پونس، وهو يستعد للعودة إلى ديره.

- سوف نصلى من أجلك. قال، مؤكداً عندما انطلق الموكب.

وفى حركة مسرحية، لوح بذراعه بإشارة كبيرة فى الهواء بعلامة الصليب، وقد أمسك فى يده بصليب مصنوع من الفضة والذهب، ومرصع بالأحجار الكريمة.

هكذا، وبعد أن خرج هوج من قصره ومن العزلة التى كان فيها إلى حد ما، اكتشف بقدر من الدهشة والرضا، كيف كان الجميع مهتماً بخطبة البابا، والوعد الذى حرصوا على تنفيذه بالذهاب للحملة، مما أشعل حماسه وحماس فرقته، التى توسعت شيئًا فشيئًا، من حيث عدد الفرسان والمشاة الذين تجمعوا من هنا أو هناك، حتى وصل هوج فى النهاية إلى هدف المرحلة الأولى.

ولكنهم لم يكونوا أولى الفرق المسافرة. لم يستطع جيرن أن يمنع نفسه عن الإعراب عن دهشته الواضحة، عندما اكتشف وجود معسكر ضخم للصليبيين من على تل صغير، فقال لهوج:

- سيدى... انظر!

جذب هوج لجام فرسه، الأميرة الحسناء، بشكل مفاجئ، حتى يوقفها، ونظر بدهشة، فهو أيضًا لم ير شيئًا كهذا من قبل. على مرمى النظر نُصب عدد ضخم من الخيام القمعية الشكل، أو المثلثة الشكل من جميع الألوان: حمراء وخضراء أو حتى زرقاء، تنتشر فيما بينها عربات وخيول ورجال فى حركة نشطة. تصاعدت أعمدة الأدخنة السوداء من النيران المشتعلة هنا وهناك فى اتجاه السماء، التى ارتسم فيها القمر على شكل هلال.

عندما وصل الفرسان إلى السياج المصنوعة من أعواد الحطب، التى كانت بمثابة مدخل المعسكر، ثم التفوا حول القسيس، كان هوج قد رآه فى مدينة كليرمون، وهو منهمك فى كتابة خطبة البابا أوربان على مخطوطة.

– انظر... إنهم كثيرون جدًا كحبات الرمال، وكنجوم السماء.[١]

---

(١) إذا كانت التعبيرات مثل: "حبات الرمال، ونجوم السماء، وجيش الحشرات، والحشود التى لا تعد" غير دقيقة، جاءت بعدها توضيحات رقمية مواكبة لوقائع العصور الوسطى متناقضة. يقدر چان فابييه أن تعداد الحملة الصليبية الأولى لا بد أن يكون حوالى ٥٠٠٠٠ رجل (قاموس فرنسا فى حقبة العصور الوسطى، باريس ١٩٩٤، صفحة ٣٢٥). وهذه الأرقام بعيدة عن الـ ٦٠٠٠٠٠ رجل، حسب ما قال فوشيه لبلدة شارتر أو ٤٠٠٠٠٠، حسب ألبرت لمدينة إكس! كان هناك ولا شك العُشر من الفرسان، بالإضافة إلى الشيوخ والنساء والأطفال ورجال الدين. قاد أكبر جيش للحملة ريموند دى تولوز، وهى فرقة الريفيين، كما كان يطلق عليها. وقد انضم إليهم سكان منطقة أوڤرنيى.

بدا ريمون دى أجويلير على وشك إلقاء شعر. فقد رفع ذراعيه لأعلى فى حركة مسرحية، تجاه هذا الجمع الهائل، فانجذبت إلى أعلى عباءته الكتانية، الآخذ لونها إلى اللون الرمادى، وظهر بنطاله المصنوع من القطن الخفيف الأبيض. تطايرت خصلات شعره الأشيب بشكل عشوائى حول وسط رأسه الحليق، فبدا وكأنه يضع تاجًا عليه، مظللاً على وجهه الذى كان خداه متوردين ومحمرين.

- تعالوا!

هكذا شق ريمون دى أجويلير، رجل دين بلدة پووى، طريقه بين الخيام، التى اصطفت فى خط منتظم إلى حد ما، وتبعه الوافدون الجدد، حتى وصلوا إلى المعسكر الرئيسى، الذى يحتله أديمار دى مونتيل. تعرف هوج على رجل قد رآه من قبل، متوسط القامة وكان يرمق محاوريه بأعين قاسية، ملامحه غامضة: فتحات أنفه منتفخة ومرهفة إلى حد ما، وشفتاه رقيقتان تكاد تبتسمان بتهكم. ثُبتت على الأعشاب بالقرب منه، راية كبيرة بها رسم للقديسة العذراء لبلدة پووى، ولكنها راحت ترفرف تحت وقع رياح خفيفة.

استقبلهم الأسقف بحفاوته المعهودة، رغم أنه كان مستاءً. فقبل ساعة واحدة فقط، جاء إليه رسول يحمل أنباء مقلقة.

- لقد كان حبرنا الأعظم على حق، عندما توخى الحذر. قال الأسقف لهوج ورفاقه. اتضح أن هناك العديد من اللصوص والمجرمين

بين الفرق التى سبقتنا فى الرحيل. لقد هلع الملك كولومان[١] عندما رأى مملكته، وقد دمرتها فرق هذا المجنون المتعصب، بطرس الناسك هذا، الذى لم يستطع التحكم فى رجاله، وهكذا سُفكت دماء العديدين من المجريين. بدوره أمر الملك بقتل الكثير من المتسببين فى ذلك. ها هو فولك، الذى حمل لنا هذه الأنباء الحزينة، وهو قادم من سيمليم[٢]، حيث رأى بنفسه هناك رفات هؤلاء الحجاج معلقة بشكل وحشى ومجنون على أسوار القلعة.

- لا يمكنكم أن تتخيلوا ذلك المنظر، سيظل دائمًا فى مخيلتى. هكذا أكد فولك، وهو يلوح بعصبية وقد لمعت عيناه!

- وعندما تعلمون أن دوق منطقة لورين الشمالية، جودفروا دى بويون، قد غادر لتوه، سالكًا الطريق نفسه[٣]، بمقدوركم أن تخشوا غضب المجريين، ورغبتهم فى الانتقام من هؤلاء الحشرات. بالفعل ستكون ويلات الله، كما قال القديس يوحنا فى وصفه يوم نهاية العالم.

---

(١) كولومان بوكليرك، هكذا كان يُدعى، حيث كان أسقفًا فى السابق، وعرف عنه ميله إلى الدراسة والعلم عن الحرب، عندما اعتلى العرش الملكى فى المجر. تحولت المملكة المجرية إلى الدين المسيحى منذ عام ١٠٠١ تحت حكم الملك چايك، الذى أصبح اسمه فى ما بعد القديس إتيان.

(٢) فى الوقت الحالى هى منطقة اسمها زيمون، إحدى ضواحى مدينة بلجراد.

(٣) تتبع جودفروا دى بويون وقواته نفس الطريق البرى، الذى سلكه بطرس الناسك إلى كولونيا وراتيسبون. تحتم على جودفروا أن يترك شقيقه بودوان دو بولونى، كرهينة فى بلاط الملك كولومان، لضمان عبور البلاد دون سلب ونهب. وقد حدث ذلك بعد حوالى أربعة أشهر من مرور بطرس الناسك وقواته.

كان أديمار دى مونتيل، قارئًا جيداً، ولهذا كانت لا تفوته فرصة، كى يذكر فيها بعض أقوال الكتاب المقدس، ولكنه لم يتمكن من إخفاء حنقه، وهو يرى سعادته بهذا التجمع الإعجازى الموجود من حوله، وقد تزعزع، بسبب الخوف والغضب. بدأ من الآن يقيس مدى صعوبات هذه المهمة.

– وماذا عن الكونت ريمون؟ سأله هوج

– إننا فى انتظاره. رد عليه أديمار دى مونتيل الذى لم يجرؤ على البوح بأن تأخير كونت دو تولوز، كان مصدر قلق رئيسياً آخر له.

كان الكونت قد أرسل بخطاب رسمى مطول، أوضح به أنه راحل بلا أمل فى العودة، لهذا تحتم عليه أن يرتب أموره وشئونه الداخلية قبل السفر. أعلن أيضا، وهذا ما استاء منه الأسقف أديمار بشدة، أنه سيغادر برفقة زوجته إلڤير.

لحسن الحظ أن تجمعهم المتحمس لمعظم أتباع هوج طمأن الأسقف. لقد كان يعلم أيضاً أن الكونت قد أخذ معه فى الحملة عدداً لا بأس به من الفقراء، الذين سلحهم على نفقته الخاصة. ثمة دافع آخر أشعر الأسقف بالارتياح، وهو أن هوج دى ڤيرماندوا، شقيق الملك، قد سلك طريقه هو الآخر فى اتجاه جبال الألب، برفقة حشود كبيرة.

هكذا شعر الأسقف أديمار، ممثل البابا، بالارتياح والرضا، ومثل كل يوم، كان يدعو الصليبيين للصلاة للرب. وإذا كان هو قائد الحملة،

فهو قبل كل شيء رجل دين. وضع على كتفيه بأناقة، الشرائط الحريرية حول الرقبة والذراع فوق ردائه الكهنوتي الحريري الفضفاض المطرز بخيوط الذهب، وبدأ إقامة القداس حوالي ساعة الظهيرة في ذلك الحقل الشاسع، حيث حاول أن يفتح آفاقًا جديدة من الإخوة والتسامح، أمام هؤلاء الفرسان العدوانيين شيئًا ما. في ذلك اليوم، وفي أثناء إلقائه الابتهال بصوت عالٍ قوي من فوق التبة الصغيرة، التي جُهزت لهذا الغرض، راح يذكر الصليبيين بالهدف الأسمى لهذه الحملة، كما لو كان هناك احتمال أن ينسوه، حتى ولو لفترة وجيزة من الوقت، قبل وصول ريموند دي سان چيل.

- سوف نشن هذه الحرب فقط بهدف تحرير الأراضي المقدسة، التي بقيت لزمن طويل في أيدي الكفار. وأنتم أيها الفرسان، هم من يتحتم عليهم حماية الناس وممتلكات الكنيسة، وكذلك الضعفاء والمساكين... هل هناك غرض أنبل ومعركة أفضل، يمكن أن تسنح لكم فرصة المشاركة فيها؟

توقف أديمار للحظة عن الكلام، كي يسعد بالقشعريرة التي أحدثها سؤاله هذا في صفوف هؤلاء الرجال المتوحشين، ولا شك، ولكن بسالتهم وشجاعتهم لا تحثهم إلا على أن تشتعل لمثل ذلك الهدف النبيل.

- نعم... هذا هو ما أقوله لكم. هكذا استخلص أديمار دي مونتيل في النهاية، قبل أن يُكمل: إن مدينة القدس الأرضية التي سنصل إليها

قريبًا، سوف تمهد لنا إلى القدس السماوية، حيث تتلاشى كل همومكم، عندما تصبحون هناك، تتأملون عظمة الله.

- إنها مشيئة الرب. صاح بصوت عَالٍ أحد الفرسان، يقف على يمين رفقاء هوج.

ردد الصيحة نفسها جميع الفرسان المتجمعين فى توافق تام بدا ثابتًا ومخلصًا.

- إنها مشيئة الرب!

رفع چيل، معاون الأسقف أديمار، رايته الحريرية البيضاء بفخر لأعلى، يرتسم عليها وجه القديسة العذراء، تطرزت أطرافها بخيوط من الذهب والفضة، مذكرة هوج بالتمثال الذى رآه فى كاتدرائية كليرمون.

عندما سيطر رجال الدين على هدوء المكان من جديد حتى يتمكنوا من استئناف الخطوات الاعتيادية للقداس، التفت هوج بطريقة غير ملحوظة، ليراقب الرجل الذى كان أول من صاح هاتفًا "إنها مشيئة الرب" فوجد أنه كان إبل دى سوج. كان واقفًا محاطًا برفاقه الذين رآهم هوج من قبل، فى مدينة كليرمون، حاملاً على ذراعه المغلفة بالقفاز، صقره الرمادى ذا العنق الأحمر. شعر إبل بأنه مُراقب، فالتفت بدوره ليكتشف هوج، فحياه بإيماءة قصيرة من رأسه.

بينما كان هوج قد بدا أخيراً، وقد استعاد بعض توازنه، شعر من جديد بأنه يواجه وضعًا دقيقًا تجاه حياته الشخصية. ألقى بنظرة على چيفروا، الذى بدا فى غاية الخشوع، وكان واقفًا إلى جواره مباشرة. فهل سيتعرف على صقر والده؟ تساءل هوج وهو يتنهد.

ناول معاون الأسقف الراية إليه، والذى بدأ يردد بصوت متناغم ترنيمة (باللغة اللاتينية)، كان قد ألفها:

– سالڤ ريجينا ماتر ميزيريكورداياى، ڤيتا، دولشيدو وسبس نوسترا، سالڤٍ!

قادت هذه الأجواء الفارس بعيداً عن أفكاره السوداء، فراح يردد هو الآخر بأعلى ما فى حنجرته مع رفاقه، وشعر بسلام داخلى، عندما تطايرت هذه الكلمات الأخيرة فى نسمة الهواء اللطيفة الباردة، التى حملت معها بوادر فصل الخريف:

– ويسوم بنيديكتوم فروكتوم فينتريس توى، نوبيس بوست هوك إكسيليوم أوستند[1]، ولكن فى لحظة ما، كان أديمار يباركهم المباركة الأخيرة قبل ختام القداس، شعر هوج بيد توضع على كتفه:

---

(١) حتمت التقاليد أن يكون أديمار دى مونتيل هو صاحب ترنيمة سالڤ ريجينا. لاحقًا أضاف القديس برنار إليها آخر ثلاث دعوات مقدسة، عبارة عن ابتهال إلى نوتر دام دو پور: يا رحيمة، يا رقيقة، يا مريم العذراء.

- هوج! ها أنت مستعد للرحيل... إذن سنكون من الصليبيين معًا.

قال له إبل دى سوج

- الملك الجميل! هتف على الفور چيفروا ما إن رأى الصقر على ذراع إبل

- الملك الجميل؟ تساءل إبل بنفس طريقته الوقحة، التى طالما أزعجت هوج أثناء فترة إقامته فى مدينة كليرمون.

- إنه الملك الجميل، صقر أبى. هكذا أكد چيفروا قبل أن يسأل إبل: أين وجدته؟

- فى قفص طيورى. أجاب إبل دون تردد.

مد جيفروا يده تجاه الصقر وهو يقول:

- أستطيع التعرف عليه... الملك الجميل كان له نفس هذه الرقبة ذات الريش الأحمر، كما أن له ندبة طفيفة... انظر..

اجتذب جيفروا اهتمام هوج، تجاه خط رمادى داكن، تحدد كما لو كان خيطًا يطرز عنق الصقر.

- من السهل أن يتشابه طائران. أقر إبل

تجمع بعض الناس حول الرجال الثلاثة. فى هذه اللحظة، ندت صرخة جذبت انتباه الجميع.

- برتيلد! ما الذى تفعلينه هنا؟

التفت الجميع ناحية الصوت. كان روبير يقف أمام امرأة شابة التى تعرف هوج عليها... إنها خطيبة روبير النحات من مدينة كليرمون. كان هوج قد نسى ملامحها، وما كان بلا شك سيتعرف عليها تحت أى ظروف أخرى. راح يتفحص وجهها البيضاوى المنتظم الملامح ووجنتيها المرتفعتين، يحيط بهما شعرها الأشقر الأملس المصفف إلى الوراء، منتهيًا بضفيرة. كانت ترفع رأسها بتفاخر، وتغطى جسدها النحيل سترة من الكتان الوردى، وفوقها معطف أزرق فاتح.

يا له من ظهور رقيق!! لم ير مثله منذ زمن طويل... هكذا أخذ هوج يفكر. بل إنها بدت مختلفة كثيراً عن الخادمة المتلعثمة الخجول، التى كانت تحمل الأباريق والأكواب فى حانة أبيها.

"ما الذى يمكن أن تفعله هذه الفتاة هنا"؟ تساءل هوج

وقفت برتيلد متفاجأة للحظة، قبل أن تستدير على أعقابها من أمام روبير، الذى جذبها من الحزام الجلدى الناعم الطويل الملتف حول خاصرها.

- لا تفرى من أمامى، بل قولى لى فقط: ما الذى تفعلينه هنا. قال لها روبير، وقد بدا هادئا جداً، إلا أن شحوب خديه الشديد، فضح انفعاله بالموقف.

كان إبل دى سوج يتابع ما يحدث فترك التجمع، الذى كان حول هوج واتجه بخطى ثابتة نحو برتيلد، بينما الصقر واقف على قبضة يده.

- إن برتيلد زوجتى. هكذا أعلن إبل، ببرود لروبير، وهو يمسك بذراعها ليقودها بعيداً.

لم يتحرك روبير من فرط الصدمة، ثم سأله:

- زوجتك؟

- نعم. أكدت له برتيلد

- أهكذا تنكصين بعلاقتنا وخطبتنا؟

- نعم، وقد اعترفت بذلك أمام الله.

- ولكن ما صنعه الله، لا يمكن للإنسان أن يفسده.

- تعالى! ضغط إبل أكثر، محكماً بقبضة يده على ذراع زوجته.

- أرجو أن تسامحنى. صاحت برتيلد، وهى تمشى بصعوبة بالغة، متتبعة خطوات زوجها الكبيرة المسرعة.

بدت هذه الكلمات، وكأن لها تأثيراً سحرياً على روبير، الذى سارع ليلحق بهما. فى خلال لحظة، كان قد وصل إليهما، ثم تعادهما ليجبرهما على التوقف فى الممر الضيق، الذى يقود إلى المخيم. فقد روبير أعصابه وانقض على إبل، ممسكاً بتلابيب سترته عند مستوى الرقبة. كان الصقر لا يزال واقفاً على قبضة سيده، فهجم على صدر روبير المعتدى. صرخت برتيلد، وهرعت بدورها، كى تجذب الصقر من فوق روبير، الذى كانت رقبته قد أُصيبت بالفعل، وتدفقت منها بعض قطرات الدم.

انضم هوج وچيفروا إلى مكان المتعاركين.

- تعال إلى هنا. كرر هوج لروبير.

- كلا! رد روبير، وهو يضع يده على رقبته، وقد سالت عليها الدماء، بينما امتلأت نظرة عينيه بالكراهية تجاه منافسه.

- تعال إلى هنا. قال له هوج مجدداً بلهجة أكثر تسلطاً.

- كلا! كرر روبير.

بدا مصمماً بشكل لا يتزعزع، ومع ذلك كان جسده ينتفض بأكمله، كما راحت أسنانه تصطك.

- تعال إلى هنا. قال له هوج من جديد، ولكن بحدة أقل هذه المرة: على الفارس إبل دى سوج أن يبرر موقفه تجاه ما قام به من أفعال.

ما إن نطق هوج باسمه حتى ارتعد چيفروا، ولكن نظرة هوج كانت كافية بأن تجعل الفارس الصغير يلوذ بالصمت.

تجمع خلفهم بالفعل بعض رفاق إبل وهوج، الذى لم يرد أن يتسرع فى تسوية أمر هذا الفارس، إبل، الذى انكشف أمره، وبان غروره الآن بشكل واضح. على مرمى النظر وأعلى التل سطعت الشمس، وأضاءت الطريق الضيق، راح يمشى فيه طابور من الفرسان يستعرض فى وحشة. فأين ذهب اتحاد الفرسان وهتافهم معاً للحملة؟

- إنه قاتل أبى، أليس كذلك؟ سأله چيفروا بصوت منخفض.

– أعتقد ذلك. رد عليه هوج، وقد أدرك أنه أشعل برده هذا ناراً، لن تخمد فى قلب الشاب الصغير.

– ألم تقسم لى من قبل بالانتقام لوالدى؟

– بلى، وسأقوم بذلك! قال له هوج بهدوء قبل أن يكمل: سيحين الوقت لذلك... عندما تأتى اللحظة المناسبة... أعدك بذلك.

– أرغب فى تنفيذ ذلك الآن. صرح له چيفروا

– الصبر إحدى الصفات التى تميز الفارس.

– سوف أقتله. نطق روبير بهاتين الكلمتين بكراهية، لم يكن أحد يتخيل أنه قادر عليها.

تطلع هوج إليه بدهشة وهو يتساءل: أين ذلك الفنان المسالم المولع بلوحاته وتماثيله؟ وقف هوج بين روبير وجيفروا، ينظر إليهما، وقد عرف أنه لن يستطيع أن يُحد أو يمنع رغبتيهما الجامحة للانتقام لوقت طويل. من ورائهم، كانت تعليقات الفرسان تدور من حولهم.

فى تلك الليلة، وداخل الخيمة التى قام كلوڤيس وجيرن بنصبها، فى وسط المخيم الصغير المخصص لرفاقه، أصابت هوج حالة من الأرق لم يستطع بسببها النوم. فقد تقافز فى مخيلته إبل، وروبير وچيفروا، ثم انضمت إليهم أجات. مرة أخرى، شعر بالندم، لأنه لم يتمكن من اصطحابها معه.

في اليوم التالى، عندما ذهب هوج إلى خيمة أديمار دى مونتيل، بعد أن قضى ليلته من دون نوم، قرر أن يشاوره فيما حدث، فما كان من الأسقف إلا أن استشاط الغضب، وقال له:

- أنتم تهتفون جميعًا: "إنها مشيئة الرب" بينما تكنون الغضب لبعضكم البعض هكذا. ما هى مشكلاتكم الشخصية أمام مشكلتنا الكبرى ومصيرنا؟ ما الذى يمكننى عمله بمثل هؤلاء المقاتلين؟

- لن تستطيع أن تحقق السلام بين ابن وقاتل أبيه.

- سيتكفل الكفار فى التوفيق بينهما جيداً!

- الأفضل سيكون حكم الله. هذا هو رأى ريمون دى أجويلير، قاله بحرص، حيث كان يتابع حديث هوج مع الأسقف، جالسًا على كرسى صغير مرتفع إلى جوار أديمار.

طالعه أديمار بانتباه، وكان قد استعاد هدوءه، بعد موجة الغضب التى اعتلته. فى الواقع أنه لم يكن يريد الاعتراف أبداً بأنه كان يواجه فى كل يوم يمر مشكلات مع هذه القوات، التى اتضح أنها كانت فى قمة هوجائها. لو كان البابا قد وجد وسيلة لخمد هذه الروح العدوانية لدى الفرسان، وهو يحثهم على الذهاب فى الحملة ضد الكفار، لكان ولا أدنى شك، سيدين المصاعب التى كان سيقابلها، ليجعلهم يتعايشون معاً.

بدا الأسقف أديمار، مستغرقًا فى أفكاره، صامتًا لبرهة، جاعلاً هوج ينتظر الرد منه، ثم أذعن قائلاً:

- لو كان البابا قد منع رحيل النساء مع الحملة، لما كنا قد واجهنا بعض هذه المشكلات. هكذا سقطت كلماته بصوت يملؤه الضجر.

- ألن يتطرق إلى هذا الموضوع، ليتخذ موقفًا واضحًا فى اجتماع مجلس مدينة بياتشينزا؟ سأله ريمون دى إجويلير.

- آمل ذلك! وما رأيك أنت؟

هكذا وجد هوج نفسه فجأة، مطالبًا بالرد، فى حين أنه لم يجد ماذا يقول. لو كان قادرًا على اصطحاب أجات معه، لما كان قد تردد أو حرم نفسه من تحقيق ذلك. غمغم ببعض الكلمات غير المفهومة.

- لا تقل لى: إنك تصطحب زوجتك معك؟ سأله أديمار بعد أن لاحظ الحرج على وجهه.

- لقد ماتت. قال له هوج بهدوء.

- سامحنى. قال أديمار لهوج، قبل أن يلتفت إلى ريمون ليستدرك من جديد ما قاله الكنسى، وكأنه تذكر فجأة اقتراحه وقال: أنت تقترح إذن حكم الرب... تحت أى شكل؟ قسم بسيط؟ أم مبارزة؟

- أريد أن أتقاتل. بادره هوج بسرعة

- اهدأ. أمره أديمار ثم أكمل بتهكم: تريد أن تتقاتل! أنت لا تفكر إلا فى هذا!

- فلنسمح لهم بأن يتقاتلا... وسيظهر الله من هو البرىء... فهو لن يدع الظلم يسود.

– وفنانك؟ هل سيعيد ذلك خطيبته إليه؟ وإذا كانت المبارزة يمكنها أن تُظهر البرىء من الجريمة التى تشك أنت فيها، ألن تغسل تلك الجريمة الأخرى؟

– بالتأكيد... وبحق القديس ميشيل، سوف نرى ما الذى سيحدث بعد ذلك.

راح ريمون دى أجويلير يسترجع فى مخيلته بوحشة ضريح رئيس الملائكة والذى بُنى على صخرة غريبة الشكل فى مدينته[1]، بينما أخذ يملس بهدوء على خصلات شعره المجعدة المصطفة على شكل دائرة حول باقى رأسه الحليق.

نهض هوج من مكانه، فقد شعر بالارتياح بعد أن ألقى بعبئه بين أيدى رجلى الدين، اللذين كان يتحدث إليهما. من خلال مشاركته فى المبارزة سوف ينتقم لابن خاله ولروبير. كان مستغرقًا فى تأملاته هذه، وهو يشق طريقه من جديد بين الخيام، عندما لفت انتباهه جمهرة بعض الناس. شكلوا مثل دائرة مغلقة، حول ما كانوا يشاهدونه بطريقة حجبت الرؤية تمامًا من كثافة الحضور، الذى راح يطالع بفضول وصمت.

– ما الذى يحدث؟

– هناك رجلان يتعاركان. أجابه أحد الفرسان

(١) بلدة سانت ميشيل دى إيجيى فى منطقة پووى.

– من هما؟

– إبل دى سوج، وأحد الوافدين الجدد الذين وصلوا بالأمس فقط.

– دعنى أمر!

راح هوج يدفع الواقفين بكوعيه، حتى تمكن من اختراقهم وصولاً إلى الصف الأول، حيث وجد روبير وإبل دى سوج يتدحرجان على الأرض.

بدا روبير مسيطراً على الموقف، فقد كان هو الذى جاثمًا فوق إبل، محتفظًا بيد قوية على كتف خصمه، وبيده الأخرى راح يهدده بخنجر على رقبته.

– توقفا! صرخ هوج، وهو يجرى ناحيتهما. فى لحظة من عدم التركيز، أفرج روبير عن قبضته، فانتهز إبل الفرصة وباغت روبير بلكمة قوية على وجهه. بالقرب منهما، وقفت برتيلد تبكى.

– توقفا! كرر هوج، وهو يحاول أن يمسك بيد روبير ليمنعه.

فات الأوان فقد كان خنجر روبير قد برز لتوه وانغرس فى صدر إبل.

– توقفا على الفور. صاح صوت آخر يقترب من بعيد.

سرت غمغمة بين الجمهرة الواقفة فى الدائرة شبه المنغلقة، التى تكونت حول المتعاركين. أفسح بعضهم الطريق كى يدعوا أديمار دى مونتيل يمر. كانت برتيلد قد هرولت بالفعل ناحية إبل الذى راح يتأوه من الألم، وهو ممدد على الأعشاب المصفرة. سريعًا ما انصبغت سترته ذات القماش الخشن، بدمه الأحمر المماثل للون الصليب المحاك عليها.

– أيها الفرسان... إن كل هذا غير جديد منكم! هكذا قال أديمار، وهو يشير بإدانته إلى جميع الحضور. فلتتركوا عدالة السماء تحل. إن إبل دى سوج متهم فى أشياء كثيرة قبيحة. فليستجيب لها إذن، ولكن وفقًا للطقوس التى وضعتها لنا كنيسة الأم المقدسة. فلنسمح إذن أن يحدد ذلك متهمه الرئيسى الذى سيكون بطلنا، وهو هوج دى ورامون.

– صاحب المعالى... قالت برتيلد، وهى تركع على ركبتيها بالقرب من إبل، فى مواجهة الأسقف. بدا وجهها شاحبًا، وراحت تلوى يديها بعصبية، وقالت بصوت خفيض:

– لا يمكن أن تسمح بحدوث هذه الجريمة.

– إنها مبارزة وليست جريمة... سيتصارع الرجلان بأسلحة متساوية، وسيكون كلٌّ منهما فوق جواده، وسيختاران نوع السلاح.

– ولكن إبل مصاب.

– وليكن... فلنترك له الوقت الكافى ليتعافى.

– يا صاحب المعالى... أنا چيفروا دى سيڤراك.. لقد قتل إبل دى سوج والدى... ولهذا فلا دخل لهوج دى ورامون فى هذا الشأن.

فى حركة مسرحية، ألقى چيفروا بنفسه، راكعًا على ركبتيه أمام الأسقف.

لم ينطق أديمار دى مونتيل بكلمة، بل استدار، ومشى بخطى واثقة، مخترقًا من جديد الحائط البشرى. ساد الصمت فى المكان، فلم يجرؤ

أحد بالتعليق على الحدث. بالنسبة للأسقف، فقد قيل كل شىء. على بُعد خطوات قليلة، كان ريمون دى أجويلير واقفاً فبادره قائلاً :

– لقد أحسنت القول... فأنت على حق، ولكن القلوب لا تهدأ هكذا... أنت مخطئ إذا ما تخيلت أنك سيد الموقف. سوف تستطيع أن تحث الجيوش على التقدم، وسوف تجعلهم يحاربون، ولكنك لن تستطيع التحكم فى مشاعر الرجال. إن الحب والكراهية سيظلان أيضًا فى الرحلة معنا، مهما فعلت، ومهما قلت.

لم يرد عليه أديمار، بل ود لو أن يهز كتفيه ليُظهر مدى ازدرائه. بالرغم من ذلك كان يعلم أن الكنسى ريمون على حق. سار منكس الرأس كأنه مُغيب، ثم راوده فجأة شعور غريب بالتعب والملل، لهذا ابتعد لينشد الخشوع من الأم القديسة. أصبح تمثال مريم العذراء، الذى يزين المذبح الرئيسى للكاتدرائية نصب عينيه. أضاء المكان المصباح الذى أمر بوضعه الكونت دو تولوز، قبل حوالى عام، بالقرب من التمثال ليلاً ونهاراً، بل تلألأ، وجعل الأحجار الكريمة التى رصعت ملابس تمثال مريم العذراء والسيد المسيح تسطع. فى سكون أبدى، راح تمثال الأم وطفلها يطالعانه بأعينهما البارزة، كما يفعلان مع الآلاف من الحجاج الذين يأتون كل عام، ليبتهلوا أمامهما. ومض ضوء كالبرق، ورأى أديمار التمثالين يمدان بيديهما إليه، ثم سطع ضوء آخر مبهر، أعماه للحظة عن الرؤية.

عندما عاد أديمار لوعيه من جديد، وجد الكنسى ريمون دى أجويلير يصلى إلى جواره. كان مكتوف الأيدى، وشفتاه تتحركان بالكاد. شعرا بالبرودة وهما يقفان أمام التمثالين، وقد ظللت فوقهما وكأنها تحميهما أفرع شجرة البلوط المترامية الأطراف.

– ربما تكون على حق، ما كان علينا أن نترك سيدتنا العذراء أبداً. قال له الكنسى ريمون، مبتسماً ثم أضاف: إننى أتضرع إليها، كى تمنحنا القوة على الاستمرار.

فى أثناء فترة نقاهة إبل، والذى كان جرحه سطحياً، حاولت برتيلد من جديد تغيير مسار الأمور، فراحت تقول لمن حولها:

– ألم يخطئ چيفروا فى حدسه هذا؟ هل فعلاً ذلك، الصقر يُعد دليلاً قاطعاً؟

فى المخيم، كانت المعركة المقبلة أمراً محسوماً ولا رجعة فيه.

– هل جننت يا هوج! إنه مقاتل خطر. راح أصدقاؤه يقولون له بقلق.

– أنا واثق من كونى على حق. هكذا رد عليهم هوج

– إنه أنا من يجب عليه القتال. قال له چيفروا، مؤكداً

– كلا، لقد كنت أنا ولى أمر أبيك وسيده. لقد مات بين يدى، وأنا من أغلقت له جفنيه ووعدتك بالانتقام له.

- إذا حدث لك مكروه، فلن أغفر لنفسى ما حييت.

- فقط ستتذكر أن سيدك قد قام بواجبه.

من حول أديمار، أثار قراره هو أيضًا زوبعة، جعلت العديد من رجال الدين يزمجرون غضباً:

- بينما يصدر البابا مرسومه بقرار السلام والهدنة الإلهية تحث أنت بنفسك على العنف.

ثم أخيراً جاء اليوم المشهود. فى الصباح الباكر، وعلى رقعة كبيرة من الأرض تم تحديدها بالحبال، وهى الساحة نفسها، التى جرت العادة أن يُقام بها القداس. تم تجهيز منصة خشبية صغيرة، كى يعتليها الأسقف ويهيمن منها على باقى الحضور. كان المتفرجون قد احتشدوا بالفعل فى صفوف مكتظة. لم يعد يتبقى غير الأطراف المتنازعة.

كان هوج هو من وصل أولاً، وقد ارتدى سترته الأرجوانية، تلك التى كانت أجات تحبها كثيراً، ووضع فوقها معطفاً، له خطوط متعددة الألوان، ربطه على كتفيه برباط قصير، فراح يرفرف فى الهواء. وضع على مقدمة رأسه خوذته المعدنية، ذات الأنف المدبب، بينما أمسك إلى جنبه الأيمن رمحه الطويل، الذى راح ترفرف فى نهايته الراية ذات اللونين الأبيض والأحمر. علق فى نهاية درعه المعدنية الطويلة ذات السلاسل، سيف أسلافه فى غمده، وقد تدلى من غمده. فى يده اليسرى أمسك بلجام فرسه الجلدى والدرع البيضاوية ذات اللونين الأبيض

والأحمر على شكل صليب. فى الجهة المقابلة، كان إبل قد وصل، وهو يرتدى ملابس سوداء بالكامل، فيما عدا الصليب الأحمر، الذى يعلو سترته ومعطفه. تدلى من حربته هو الآخر شعار الصليبيين، وعلى درعه السوداء رُسمت ثلاثة صلبان، ذات لون أزرق فاتح. حيا كلٌّ منهما الآخر، وكانا قد تعاركا من قبل أثناء الدورات الودية فى مدينة كليرمون.

كان من الممكن أن يعتقد من يراهما أنهما يلهوان ليس أكثر، ولكن عندما عَدل كلٌّ منهما خوذته على رأسه ووجهه، ظهرت فى نظرة كلٍّ منهما العداوة والتصميم الشرس. أشار أديمار لهما بيده، إيذانًا ببدء المعركة. أشارت برتيلد بعلامة الصليب على صدرها، وهى واقفة فى الصف الأول، وقام چيفروا بتقليدها، بينما اقشعر بدن جيرن من الرهبة.

كانت الصدمة الأولى شديدة، عندما التقى الفارسان كلّ منهما نحو الآخر.

لمس رمح هوج درع إبل، ولكن من دون أى أضرار. عم الصمت الحشود الواقفة. فى طرفى الساحة، وقف كلّ من الفارسين يستعد لمواجهة جديدة. فى الصدمة الثانية اختل توازن هوج الذى سرعان ما انتصب واقفًا على ركاب فرسه المعدنى، وتمكن من عدم السقوط. ارتعدت فرائص الحضور وأغمض چيفروا جفنيه بينما شحب وجه جيرن. مرة أخرى، راح الجوادان يركضان داخل سحابة من الغبار، فقد كانت قطرات ندى الصباح الباكر قد تبخرت. كان جموح الفرسين

على نفس مقدار شراسة المقاتليْن، حتى إن رمحيهما اصطدما بشدة مباغتة، جذبت رمح إبل من بين يديه، فسقط منه.

عاد كلٌّ منهما إلى طرف الساحة، وهنا ألقى هوج برمحه على الأرض ولوح لخصمه بسيفه الذى أخرجه من غمده، وقبله بحماس. مرة أخرى ركض كل فارس فى اتجاه الآخر وهو يلوح بسيفه إلى الأمام. عندما وجدا نفسيهما وجهًا لوجه، التحما بسيفيهما؛ فقاوما، وقد وقف كل منهما على ركاب فرسه المعدنى، وقد تقوس ظهره مائلاً للأمام، محاولاً أن يهزم الآخر. دام التوتر للحظة طويلة دون أن يتقهقر أىٌ منهما إلى الوراء.

تململ أديمار دى مونتيل على مقعده الصغير، والذى كان يضع عليه وسادة من المخمل الأحمر، ترافقه فى كل مكان. إلى جانبه كان ريمون دى إجويلير. شعر أصدقاء الفارسين المتقاتلين أن أيًا منهما لن يذعن أو يستسلم أبدًا. كانت الساعة حوالى التاسعة عندما بدأت هذه الجولة من المعركة، كانت الشمس قد توسطت السماء، وبلغت ذروتها.

- يبدو أن عدالة السماء سيتأخر حكمها! هكذا علق أحد رجال الدين، بشرته وردية، وقد بدا حانقًا على أشعة الشمس التى تلهب جلده.

- بل يجب أن تصل إلى نهاية. همس آخر

عاود الفارسان الكرة، وذهب كلٌّ منهما على فرسه، عند الحبال التى تحد الطرفين المتضادين للساحة. عَدل هوج من وضع خوذته على رأسه،

بعد أن تزحزحت أثناء الجولة السابقة. فى هذه اللحظة تخطى چيفروا الحبال التى تحد الساحة، وجرى فى اتجاه المنصة التى يجلس عليها الأسقف أديمار، وقال له صارخاً:

- يا صاحب المعالى، لا يمكننا ترك أحد هذين الفارسين ليموت. فكلٌّ منهما أقوى وأشجع من أن يموت فى هذه المبارزة، والأهم أنهما يستحقان الذهاب إلى الأراضى المقدسة لتحريرها.

- أحسنت القول! سرعان ما أيده رجلٌ من بين الحضور.

- أحسنت القول! كرر رجلٌ آخر.

- نعم... أوقفوا هذا القتال!

- أوقفوا هذا القتال!

هكذا تعالى الهتاف من كل جنبات الساحة.

- ها نحن وقد تقدمنا! قال أديمار بصوت راعد متذمر ثم أكمل: أيها الكنسى... توقف عن الصلاة! ماذا نحن بفاعلين؟

فى هذه اللحظة، كانت الحشود تهتف فى صوت واحد منتظم ومتكرر: "أوقفوا القتال".

نهض أديمار فى مكانه، ولوح للحشود بذراعيه فى إشارة كبيرة، كى يحثهم على الهدوء، ثم قال:

– إن الله لا يريد قول كلمته الآن... ولا شك أنها علامة أنه بحاجة إلى هذين الرجلين من أجل مواجهتنا الكبرى.

– ما هذا! صرخ روبير، وهو فى غاية الانفعال والغضب.

– لقد أبدى الله مشيئته... ومن يحاول أن يجادله فى ذلك سيكون مارقًا... فلنصل! قال أديمار بقوة وحماس.

ترجل كلٌّ من الفارسين، نازلاً من على فرسه، ثم مشيا جنبًا إلى جنب فى اتجاه منصة الأسقف. ابتسم الكنسى ريمون دى أجيلوير.

– إن الله يصنع عظائم الأشياء. هكذا دون الكنسى فى دفتر مذكراته فى ذات المساء.



١٠

– ها هم هناك!

منذ يومين وحراس موقع المخيمات، يترقبون الوصول الوشيك لكونت مدينة تولوز وجيشه. كان الكونت قد بعث بالفعل برسول جاء إلى الأسقف أديمار، وأخرج أمامه مخطوطة فى لفافة، كانت موضوعة فى علبة صغيرة من الجلد الأخضر، تتدلى من حزامه، وكانت مختومة بالشمع الأحمر، وناوله إياها. كان ذلك فى عشية عيد القديس ميشيل، الموافق الثامن والعشرين من شهر سبتمبر ١٠٩٦، وكى يشحذ النفوس، أعلن الأسقف عن إقامة احتفال قداسى كبير، تتبعه بعض العروض.

سرعان ما بدأ الصليبيون فى الأعمال التحضيرية، التى كسرت رتابة يومهم المعتاد من ركوب الخيل ورحلات صيد الحيوانات البرية فى الغابات المحيطة بالمعسكر، والتى بدأت تثير غضب سكان المنطقة بشدة، سواء كانوا من المدنيين أو رجال الدين، وهم يرون مخزونهم الثمين، سواء من الحيوانات أو خلافها، يضيع هباء، وكأنه يتبخر فى الهواء.

"أنا أقوم بمحطة أخيرة فى دير شيز – ديو، حيث كان الأب يونس من اللطف، كى يستقبلنى أنا وقواتى هناك. أتمنى الصلاة مرة أخرى أمام ضريح القديس روبير"، كانت هذه هى كلمات الكونت ريموند دى تولوز.

تمكن الأسقف أديمار دى مونتيل من إخفاء انزعاجه. فقد بدا له هذا التأخير الجديد مؤسفًا، بل مثير للغضب، بينما كانت الجيوش الأخرى، قد غادرت بالفعل منذ أكثر من شهر. بدأ الكنسى ريمون دى أجويلير فى تدوين كل وقائع ويوميات الحملة، لهذا أخذ يصوغ بدقة شديدة نص رسالة كونت تولوز على المخطوطة الطويلة، التى كان يعيد لفها بعناية كل يوم بعد انتهائه من التدوين بها.

- يا صاحب المعالى... لم نعد نعلم متى سنغادر. تمتم بقوله ريمون، وهو يعض على البوصة التى يكتب بها مذكراته فى ركن فمه الأيمن.

- بالفعل. اتفق معه الأسقف، وقد بدت فى عينيه الزرقاوين نظرة باردة عصبية.

ابتسم هوج الذى أعتاد خلال الشهر المنصرم حضور جلسات الأسقف أديمار، والكنسى ريمون، بما أنه كان لا يقوم بعمل أى شىء. كذلك فى هذه الفترة أحاط الأسقف أديمار الفتى الشاب چيفرى برعايته وحمايته، وكان قد هدأ منذ يوم المبارزة الشهيرة. من ناحية أخرى حكى إبل لچيفروا ظروف وتفاصيل مصرع والده:

- كنت مع رفاقى نطارد نفس غزال الأيل. ما زلت أراه فى مخيلتى، فقد كان يركض بخيلاء وقوة، وهو يقود خلفه صغيره فى سباق مجنون، لكى يفلت منا. لم نكن وحدنا فى اقتفاء أثره، حيث كنت قد لمحت رجلين على جواديهما ذات اليوم فى درب من دروب الغابة... فجأة وجدنا

أنفسنا وجهًا لوجه أمامهما. كان والدك يتبعه فقط خادمه، أما أنا فقد تهت عن باقى رفاقى. اغتنم الغزال هذه الفرصة ليهرب. استشاط غضباً وكما تعلم، فالغضب أعمى. لوحت لوالدك، مهدداً إياه، فراح يحدق فىّ، وكأنه يهزأ سعيداً بغضبى؛ بينما انتصب على كتفه صقره بافتخار. استل كلٌّ منا سيفه، وقفز من على فرسه. حاول الخادم أن يثنى والدك، ولكن بعد فوات الأوان، فكانت المبارزة شرسة. عندما سقط والدك جريحاً، هرع خادمه فقتلته بسهولة. أعترف أننى أخطأت، عندما تركت أباك، ولكننى اعتقدت أنه قد مات. أما بالنسبة للصقر، فها أنا أعيده إليك.

كان چيفروا يستمع إليه فى صمت، ثم مد يده مرتدية القفاز تجاه الصقر الذى استقر عليها. راح يملس عليه، دون أن ينبس بكلمة واحدة، فقد بدت السكينة فى عينيه أخيراً.

بعد أن تناقش هوج مع روبير، هدأ هو الآخر. قال هوج له:

– من قال لك إنك ستعود من القدس ؟ لعل عدالة السماء تقول كلمتها هناك بالفعل.

على الأقل لملم روبير استياءه وحنقه على ما يبدو، وراح يقضى معظم وقته فى دير سانت مارتن دآنى[1] حيث كان الأب جوسيران قد بدأ عملية تعمير وبناء واسعة النطاق هناك. هكذا راح النحات روبير

(١) دير مدينة ليون.

يقدم يد العون لقاطعى الحجارة والبنائين هناك. بل إنه بدأ بالفعل يتساءل عما إذا كان حقًا مضطراً للذهاب إلى القدس. إذا لم يكن قد حلف اليمين أمام تمثال القديسة مريم الرئيسى، لكان قد عاد بكل سرور إلى ورشة تماثيله فى بلدته ومسقط رأسه.

- ها هم هناك! ردد حرّاس موقع المخيمات.

فى هذا اليوم كان دور چيفروا وصديقه المخلص جيرن للقيام بالمراقبة. كان هوج ينظر إلى الفارس الشاب، الذى كان يضع يديه حول عينيه ليحميهما من أشعة الشمس، الآخذة فى الانخفاض. راح الصقر يقوقئ عند قدمى چيفروا، بعد أن قيده بحبل صغير. بعدها حول هوج ناظره إلى جيرن. يبدو أنه لن يستطيع التخلص من هذا الشعور الغريب، الذى كان يعتريه، كلما نظر إلى هذا الفتى. ففى كل مرة كان يلبس فيها جيرن سترة أجات الزرقاء، كان يتخيلها قريبة جداً منه، لدرجة تجعله يشعر أنه سيلمسها إذا مد يده. فى هذه المرة، راح يتخيل أجات أمامه فى ضوء غروب الشمس ذى الغسق الأحمر المتوهج. بالتأكيد كانت هناك نساء على قدر كبير من الجمال فى المخيم مثل ماتيلد، زوجة مرافقه راؤول، فبشعرها الكستنائى، وبشرتها الخمرية كانت تتشابه إلى حد ما مع أجات، لكنه أبداً لن يتحرك شعوره إلى هذه أو تلك. فقط جيرن هو الوحيد الذى أشعل فيه رغبته الحسية، التى اعتقد أنها انطفأت للأبد.

- هوج... هل تحلم! انظر!

على مرمى النظر، تصاعد الغبار من الطريق الذى جف؛ بسبب عدم سقوط الأمطار خلال أسابيع طويلة ماضية، وظهرت وسطه قافلة طويلة من العربات الممتدة على مسافة ما لا يقل عن أربعة كيلومترات على الأقل. فى مقدمة القافلة، ظهر الفرسان، ملوحين بالرايات البيضاء مرسوم فى وسطها الصليب الأحمر. تنبه الأسقف أديمار، وأخذ يتابع تقدم القافلة البطىء من بعيد من فوق التبة الصغيرة، التى كانت تستخدم كبرج لمراقبة الطريق.

– أخيراً! سنستطيع المغادرة. هكذا غمغم الأسقف أديمار

– نعم يا صاحب المعالى، ها هم أخيراً... لم يعد لدينا من الوقت إلا ما يكفى لتلاوة بعض صلوات العذراء.

هكذا قال الكنسى ريمون، ثم ما لبث أن نفذ ما قاله، وقد بدا وجهه محمراً أكثر من أى وقت مضى، فعقد يديه وبدأ فى تلاوة صلاة بطريقة آلية حرك فيها شفتيه بصمت، بينما فضل هوج أن يعود إلى أحلام يقظته. كان سعيداً مثل الأسقف، وهو يرى الرحيل الذى طالما طال انتظاره قد اقترب.

بعد ذلك اقترب منهم الفرسان الذين كانوا فى المقدمة. تعرَف الأسقف أديمار على ريمون، كونت دى تولوز، بملابسه المزينة باللونين الأحمر والذهبى، الذى قفز من على جواده إلى الأرض واقترب من الأسقف ليقول له:

- يا صاحب المعالى، ها أنا أمامك بكل تواضع، وعلى أبهة الاستعداد! قال ذلك، وهو يركع بركبة من ركبتيه على الأرض.

كان الكونت دى تولوز، قد تجاوز الخمسين من عمره، قصير القامة وممتلئ الجسم، تقريبًا أصلع الرأس، رغم أن شعره المتبقى ما زال أسود. كان فى السابق مكتنظ الوجه، وبفعل الزمن تراجع مكونًا انتفاخات قبيحة حول خديه. كان ريمون دى تولوز دائمًا رجلاً يحب الحياة، ويعرف كيف يستمتع بها كما يتراءى له.

على النقيض معه تمامًا أب دير شيز - ديو، ألا وهو پونس دى تورنون، الذى كان يميل للحياة المتقشفة المعذبة. فهو أقل عفوية، وأكثر تحفظًا، وهكذا حيا بشكل رسمى الأسقف الذى كان فى استقباله.

- لقد استدرجت معى الأب پونس دى تورنون. قال ريمون دى تولوز، وهو يمزح.

- رغم أنه لن يذهب معنا فى الحملة. علق أديمار ثم أكمل: ولو حدث أن لقيت حتفى فى الأراضى المقدسة، سيحتل منصبى الأسقفى بكل سرور.

شعر پونس بالحرج، فقام بإيماءة ناكرة لم تخف على أحد منهم. على الفور، وكما اعتاد أن يفعل دائمًا، جذب ريمون دى تولوز الانتباه إليه قائلاً :

- انظروا!

أخذ يفتش فى جيبه الكبير المصنوع من الجلد المدبوغ المربوط فى الجزء الخلفى لسرج جواده الجلدى الخام. راح هوج يتفحص الدقة فى تفاصيل الحقيبة، التى صنعها شخص عربى، والتى ذكرته بالرحلات العديدة للكونت لما وراء جبال البيرينيه.

- إنها كأس القديس روبير. أخيراً قال الكونت، وهو يرفع فى الهواء بلهجة انتصار كوباً متواضعاً مصنوعاً من المعدن الرمادى، ثم أكمل: لقد عهد لى به الأب، وسأضعه على قبر المسيح.

نسى الكونت دى تولوز إخبارهم بأنه قد منح الدير مبلغاً كبيراً من المال، مقابل ذلك. كان الكونت دى ليون، جييوم السابق، قد فعل الشىء نفسه تماماً، بعد أن شعر بالغيرة لفترة من ريمون.

- لقد استعرت منه أيضاً راهباً... يُدعى أربر... ها هو! وسننصبه أسقفاً، عندما نصل إلى الأراضى المقدسة!

كان الكونت ريمون دائماً متحمساً، مرحاً، يمتلك روح الدعابة، وهذا الخيال الذى اشتهر به أهالى الجنوب، والذى كان يبهر ويزعج أهالى الشمال فى آن واحد.

- وها هى إلڤير!

توقفت لتوها عربة عند سفح التبة الصغيرة، وأنزل الحوذى منها بحرص امرأة شابة. كانت ترتدى طاقم طويلاً أحمر أرجوانياً، وتضع فوقه على كتفيها، بأناقة معطفاً من الكتان الخفيف المخطط، مربوطاً عند

العنق بدبوس من الذهب والفضة. على رأسها وضعت غلالة من الحرير الفاتح، بينما صُفف شعرها فى ضفائر طويلة وقور، وظهر وجهها رقيق الملامح ولطيفًا.

كان الأسقف أديمار دى مونتيل، والذى لم يسمح بوجود نساء بين الصليبيين، قد قام بكتابة رسالة مطولة إلى البابا، ليتخذ قرارًا بشأن هذه المشكلة، ولهذا لم يجرؤ على الإعراب عن استيائه. وبالرغم من ذلك، كان لا بد من الإذعان بهذا المظهر الجذاب، حيث تعلقت جميع العيون بالكونتيسة، ووضح فيها الإعجاب الذى أثارته الأميرة الشابة، وهى الزوجة الثالثة للكونت ريمون، وابنة ملك كاستى وليون (فى إسبانيا). ظهرت من خلفها، امرأة شابة أخرى، أقصر قامة وأضعف جسدًا، شعرها أسود فاحم، وكانت تشبهها تمامًا.

- وها هى سانشا، أخت زوجتى العزيزة فى الرضاعة. استمر الكونت دى تولوز فى التقديم: زوجها، إيزيدورو سان خوان، سجين لدى الكفار منذ عامين طويلين، وقد مات ولداها. لذلك فهى ترغب فى الذهاب إلى الأراضى المقدسة، آملة فى أن تجد زوجها، وأن تنجب أطفال من جديد.

أسرع هوج بشهامة، ومد يده إلى المرأتين السمراوين الجميلتين كى يساعدهما على تسلق التبة، التى يقف عليها الأسقف. ود چيفروا أن يقوم هو الآخر بمثل هذا التصرف، بينما راح جيرن يراقب هذا المشهد بعينيه السوداوين الداكنتين.

- جيرن!

- نعم يا سيدى؟

فى الواقع لم يستطع جيفروا النوم فى هذه الليلة. ولا شك أنه كان شرب الخمر، الذى لا ينتهى للاحتفال بعيد القديس ميشيل، وكذلك وصول الكونت دى تولوز، هما السبب فى أرقه. كان المعسكر أبعد ما يكون عن استعادة الهدوء الذى كان عليه سابقًا فى الليل. فهنا وهناك، كان البعض يتسامر ويتجاذب أطراف الحديث، جالسين حول بعض النيران المتقدة وسط الخيام.

- الجو من حولنا مضىء للغاية. قال جيفروا، وهو يتأمل القمر وقد اكتمل، مزينًا بروعة ومهابة السماء وقد انتشرت فيها النجوم.

أخذ جيرن يفرك عينيه، فقد كان على عكس جيفروا، قد راح، فى سبات عميق، رغم أنه لم يشرب الخمر فى هذه الليلة، كما اعتاد كل مساء. لقد سخر منه رفاقه من جديد، لأنه نادرًا ما يشرب النبيذ القادم من التلال الصغيرة لمدينة ليون.

- لماذا لا نمتطى جوادينا؟

- فى هذه الساعة؟ بدا جيرن غير مسرور بالمرة.

- بحق القديس ميشيل، يمكننا أن نرى كما فى وضح النهار. هيا اذهب لإحضار الجوادين... ولا تضع عليهما السروج، فسوف نمتطيهما، هكذا من دون سروج!

عدل جيرن من سترته بحزامها الجلدى الرفيع، ثم توجه بخطى ثقيلة وعلى مضض، ناحية الساحة ذات السياج، والتى تقف فيها الخيول التى راحت تستقبله بالصهيل.

– إخرسى. همس فيها جيرن بعد أن هاله ضجيجها.

– من الذى هناك؟

نهض خادم راؤول فجأة أمام جيرن.

– إنه أنا... جيرن.

– وماذا تفعل هنا؟

– إن سيدى يريد التنزه بامتطاء الخيل.

– ألا يكفيه الطريق الذى سيقطعه حتى القدس؟

– لا أعتقد ذلك! رد جيرن، وهو يهز كتفيه.

امتطى چيفروا الجواد الأول، وقاده بحزم، بينما كان جيرن أخرق، بل عانى كى يسيطر على فرسه المتمردة، خاصةً أنه يمتطيها دون سرج.

– هيا! صاح چيفروا فى جواده

ارتسمت ظلالهما على تلال الدرب المؤدى إلى اتجاه الشمال بفعل ضوء القمر، فأصبحا مثل ظلال المصباح السحرى.

– فلنذهب إلى البركة لنستحم! صاح چيفروا فى جيرن ليسمعه. بعد ذلك بلحظة، كانا يركضان بجواديهما عند حافة البركة الراكدة،

تنتشر عليها بعض أعواد البوص الملونة، التى راحت تتلألأ كالمرآة. هب چيفروا نازلاً من على حصانه ، وألقى بحزامه، ثم بسترته على الأرض، وقفز غاطسًا فى الماء. بعد ذلك بلحظة، طفا من جديد على السطح، وقال لجيرن:

– هيا تعال... إن الماء ساخن، كما لو كان طبق حساء.

لم يطأ جيرن بقدمه على الأرض، بل ظل على جواده دون أن ينبس، فكرر چيفروا نداءه له قائلاً:

– هيا... تعال.

هز جيرن رأسه بالنفى فسأله چيفروا:

– ألا تعرف كيف تسبح؟

– كلا.

– تعال وسوف أعلمك.

– لا يهمنى الأمر كثيراً كما أننى أشعر بالبرد.

– يجب أن تتعلم السباحة، كى تذهب إلى القدس... هيا... تعال!

كان چيفروا عنيداً، فخرج من الماء واقترب من حصان خادمه جيرن، وأجبره على النزول منه.

– اخلع سترتك. أمره چيفروا

قبل أن يتمكن حتى من فعل أى شىء، كان جيرن قد ألقى بنفسه فى الماء بكامل ملابسه.

- أيها الأحمق! ما هذا الذى تفعله؟

فجأة مرت سحابة فى السماء، فحجبت ضوء القمر، وبالتالى حجبت رؤية الماء عن چيفروا، فنادى على جيرن متسائلاً:

- جيرن... أين أنت؟

عاد ضوء القمر مرة أخرى فجأة، فلمح ذراع جيرن ترتفع فى الهواء ثم سرعان ما اختفت. أخيراً أدرك چيفروا أن خادمه على وشك الغرق، فقفز من جديد فى الماء، وسبح فى اتجاه جيرنْ ثم قبض عليه وجذبه بصعوبة إلى الضفة. مدده على الأعشاب، ولاحظ أنه بلا حراك. تذكر چيفروا حادثة غرق أخته، وكيف راح والده ينقذها فى يوم من الأيام، ولهذا راح يهز جيرن بقوة، رافعًا ساقيه إلى أعلى. بينما بدأ الماء يتدفق من حذاء جيرن الجلدى، انبثقت أيضًا دفعة ماء كبيرة من فمه، ثم راح يتأوه، ويرتجف من البرد. مع سكون الليل، راحت أسنانه تصطك على وتيرة غير منتظمة.

شعر چيفروا بالارتياح، فراح يخلع ملابس خادمه عنه. استطاع بصعوبة بالغة أن يخلع عنه سترته المبللة، والملتصقة بجسده، ثم راح يكرر العملية نفسها مع قميصه الداخلى، اندهش عندما رأى وجود قطعة قماش أخرى، رغم الظلام، تحيط بجذعه، فراح يخلُصه منها هى أيضاً.

كانت عبارة عن رابطة كبيرة مـن النسيج ملتفة عـدة مرات حـول جذعه، لم يرها جيرن من قبل. كى يخلعه من عليه، كان عليه رفع جسده مرات عديدة. فى كل مرة، كان جيرن يتـأوه دون أن يفتح جفنيـه المغلقين. ثم، وفجأة، انزاحت أخيراً آخر لفافة من على جذع جيرن.

- يا إلهى! بحق القديس ميشيل! جيرن فتاة!

فقد برز فجـأة نهدان، بعد أن تحررا من آخر لفـافة نسيج بالفعل، وتناسقا بشكل مثير مع الجذع الهزيل، وبشرته التى راحت تسطع تحت ضوء القمر، وكأنه يهزأ، موضحاً هذه التفاصيل.

- يا إلهى... فتاة! كرر چيفروا

مذهولاً بما اكتشفه لتوه، جلس جيفروا على الأعشاب، وشعر ببرد قارص هو الآخر فجأة.

- فتاة...

- أين نحن؟ همست فجأة المخلوقة الممددة بالقرب منه.

- جيرن... أنت فتاة!

تحـركت المخلوقـة بعصبية ؛ وضـمت ذراعيـها فـجأة إلى صـدرها، وراحت بيديها ذات الأنامل الرقيقة، تحـاول إخفاء الثديين. ثم هبت واقفة بشكل مباغت، وقالت:

- چيفروا... أنقذنى، فأنا ضائعة.

– هدئى من روعك. قال لها چيفروا، وهو يناولها سترتها، فأخذتها منه بسرعة وارتدتها بعصبية، ثم راحت تجرى فى اتجاه التبة التى أتيا من ناحيتها.

فى أقل من لحظة، كان چيفروا قد لحق بها، ثم وقف أمامها، معترضاً طريقها، وراح ينظر إليها قائلاً:

– إلى أين تريدين الذهاب؟ أنا أعرف أنك...

كما لو كانت الحقيقة، قد تكشفت أمام چيفروا، فجأة فانعقد لسانه من الدهشة.

– كلا... أنت لا تعرف شيئاً. أكدت له هذه الأخرى

– بلى... أنت أجات، خادمة هوج دى روامون... لقد تعرفت عليك.

مصدومة، ألقت أجات بنفسها راكعة عند قدمى جيفروا، وهى تستعطفه قائلة:

– أتوسل إليك، لا تقل شيئاً... لا تفضح أمرى.

نظر چيفروا إليها، فوجدها فى حال مثير للشفقة، بينما كان يشعر هو بالبرد.

– لماذا كنت متخفية بهذا الشكل؟ سألها چيفروا

– إذا لم تخبر أحداً بأمرى، فسوف أحكى لك كل شىء. همست له أجات، وقد بدت خارئة القوى.

– تعالى، سوف نعود إلى المعسكر... فالطقس بارد جداً هنا، ولتحكى لى قصتك فى وقت لاحق.

أمسك بها من ذراعيها، ثم رفعها على فرسها الرمادية الصغيرة، التى كانت تنتظرهما تحت شجرة البلوط الكبيرة.

– هيا... اذهبى بها أمامى، وسأتبعك. قال لها چيفروا ذلك، وهو يراقبها تتقدم بالفرس فى خطى بطيئة.

شعر بتأثر غريب، ثم قفز على جواده هو الآخر.

فقط فى صباح اليوم التالى، سردت أجات عليه قصتها، معترفةً له بكل شىء. لم يصدق چيفروا أذنيه. ما إن أنتهت أجات من حكايتها، حتى قال لها جيفروا بلهجة ناصحة:

– عليك إذن أن تكشفى لهوج عن هويتك.

– كلا، لا أستطيع، سوف يجبرنى على العودة... أنت لا تعرفه! ردت أجات معترضة.

– إذن ما فائدة أن تأتى معنا؟ سألها چيفروا

– لا أريد أن أتركه... وهذه هى الوسيلة الوحيدة.

– ولكنك سوف تتعذبين هكذا... هل ستستطيعين فعلاً، إتمام المسيرة معنا؟

– وهل تأخرت عنك لحظة؟ هبت أجات باعتراض وغضب.

– كلا... أنا لم أقصد ذلك. قال لها چيفروا وكأنه يعتذر، وراح يملس بلا مبالاة صقره، الذى جاء ليقف على كتفه.

– هل تعتقد حقًّا أن الرجال أقوى من النساء؟ بل إن هناك بالفعل نساء معنا فى هذه الحملة.

كانت عينا أجات تلمعان، وهى تقول ذلك. فقد تعمدت أن تثير هذا النقاش، وتطوره بما يكفى من الحُجة، لكى تُذكر چيفروا، كيف كان هوج مهتمًا بشكل واضح فى اليوم السابق بزوجة الكونت، سانشا الجميلة. لقد كان هوج يشعر بالإعجاب، لهذا لم تنجذب عيناه إلا للوافدات الجدد، وعلى الأخص سانشا هذه، والتى يحكى عنها الجميع أشياء مروعة. بالطبع لم يفت ذلك عن أجات، التى كانت تقدم أطباق العشاء فى ذات العشية، وهذا يعلل الصحن الذى انقلب منها بطريقة خرقاء على سترة هوج والذى لم يكن من قبيل المصادفة.

– لكم أنت واقعة فى حبه. قال لها چيفروا، وهو ينظر لها بمزيج من الحنان والتفهم

– أكثر مما تتخيل. هل أحببت من قبل؟

شعر چيفروا بالحرج، فلم يرد على سؤالها، بل غيَّر الموضوع قائلاً:

- بخصوص النساء، لا تنسى أنهن مسافرات معنا، لكن داخل العربات.

- يا للحظى الرائع، فوضعى أنا أفضل على الحصان!

- أستحلفك بالله... تحدثى إلى هوج. راح چيفروا يكرر عليها بعناد.

- هل يثقل عليك أن تقاسمنى هذا السر؟

- لقد أقسمت بالولاء لسيدى اللورد هوج، والآن أنا أخون هذا القسم.

- أرجوك... احمنى!

توسلت له أجات بابتسامة رائعة، ذاب لها قلب چيفروا. إذا كانت أجات قد استطاعت التنكر فى هيئة شاب، بعد أن أخفت صدرها بوضع تلك الضمادات عليه، فكيف لچيفروا أن ينسى هذا المنظر الساحر الذى رآه فى الليلة السابقة. فتحت هذه السترة الملائمة بشكل رائع لهذا الجذع المسطح بالتمام والكمال، أصبح چيفروا مدركًا أكثر من اللازم للكنوز الموجودة تحته. فكيف له ألا يفكر فى ذلك أمام من سيظل يعاملها على أنها جيرن؟

- ماذا تفعلان؟ جاء هوج إليهما متسائلاً، ومندهشًا كونه لم يرهما منذ الصباح.

احمر وجه چيفروا خجلاً، وتمتم قائلاً:

- إننا لم نكد ننام هذه الليلة.

- لقد تعدت الساعة التاسعة صباحاً، وسوف يبدأ الأسقف قداس سانت ميشيل بعد قليل، وقد اتخذت الكونتيسة مكانها فى الصف الأول.

راحت أجات تنظر إلى هوج. كان يرتدى أجمل سترة لديه، وهى من الصوف الرمادى الخفيف، بينما كانت المعلقات الذهبية التى تزين صدره طويلة الأهداب بشكل خاص. لقد حلق لحيته بعناية، بينما كان شعره الكستنائى ممشطاً بعناية. تدلى من حزامه الجلدى المصقول غمد سيفه، أديل الشهير، وكان يلمع من شدة نظافته.

سريعاً ما نهشت الغيرة قلب أجات، حتى إنها وجدت صعوبة فى إخفائها، ووقفت تراقب هوج، وهو يبتعد. أحدثت خطوته السريعة خشخشة فى معلقات سترته ؛ بينما لم تخل هيئته من وقار وهمة فى آن واحد. فجأة اعترت أجات رغبة جامحة فى اللحاق بهوج والاعتراف له بكل شىء.

- نظرتك إليه بهذه الطريقة سرعان ما ستفضح أمرك. هكذا علق چيفروا بعد أن تمعن فى نظرة أجات، وهى تراقب هوج، وهو يبتعد حتى اختفى وسط الخيام.

- اسكت! هتفت أجات، ووجهها شاحب بلون القطن، ثم تهاوت ساقطة على الأرض.

- الأنكى من ذلك أن يُغشى عليك... قال لها چيفروا مازحًا، وهو يساعدها على النهوض.

فى حركة نشطة، راحت أجات تصفع نفسها مرتين على كل خد لكى يزول عنها الشحوب الذى اعتلاها.

- لقد انتهى الأمر، وأشعر بتحسن الآن.

ارتسمت على وجهها ابتسامة أعادت الطمأنينة إلى چيفروا، ولكن بالطبع لم تعد ابتسامة من جيرن، وطوال فترة القداس لم يستطع چيفروا أن يمنع نفسه عن التفكير فى ذلك الأمر.

كان هوج دى روامون جالسًا فى الصف الأول، ليس ببعيد عن كونت وكونتيسة تولوز. ثم بعد ذلك، وعلى شكل موجات عديدة، أخذ الفرسان أماكنهم، متزاحمين فى صفوف ضيقة حول المذبح، الذى تم تجهيزه على هضبة صغيرة. ارتدى الأسقف أديمار دى مونتيل ثوب الدلمطيق الكهنوتى الفاخر خصيصًا، للمناسبة وهو من الحرير المقصب، تزينه حمالاتان عريضتان من الكتفين إلى الخصر. راح يقود الصلاة بطريقة آمرة، وفرض وتيرة واحدة لتلاوة الصلوات، وترتيل رجال الدين الذين أحاطوا به، الذين ارتدوا هم أيضًا الزى الدينى المزركش أو الحريرى، وقد بدا عليهم الحبور.

- يا كبير الملائكة، أيها الأمير الساطع، فلتستقبل بكرمك وصدرك الرحب تضحيتنا من الابتهال والثناء...

رن صوت يونس دى تورنون، وترامى صداه حتى وصل إلى الوادى الصغير الذى يقف فيه باقى المصلين على مسافة أبعد.

- أيها القديس ميشيل يا كبير الملائكة... احمنا فى المعركة...

التقـط الأسـقف أديمـار دى مـونتيل عبارة لفظ الجـلالة منه، كى يبـدأ تلاوته:

- وعشية مغادرتنا. هكذا تابع الأسقف...

لا أجات ولا چيفروا كانا يصغيان إلى الصلوات، وكذلك كان هوج شـارد الذهن هو الآخر. جلس مـائلاً بشكل طفيف للأمام، لكى تظل عينه على الجميلة سانشا، التى قلبت حياته رأساً على عقب، منذ أن رآها من يومين. بل إنه لم يعد يشعر بذلك الوخز الغريب فى قلبه، يوم رأى أجات لأول مـرة. فى هـذا اليـوم، وبصـفـة اسـتـثنائيـة، لـم يسـترع جـيـرن انتباهه بالمرة.

- فلنصل إذن من أجل القديس ميشيل كبير الملائكة... تابع الأسقف أديمار دى مونتيل وقال: غداً سوف نبدأ الرحيل... إنها مشيئة الرب!

- إنها مشيئة الرب!

من حـول هوج، راح الـهـتـاف يتطاير، وكـأنه نار تشـتـعل. هـا هو أرشـامبود دى بوربون وفرسانه المتقدون بالحماس، يهتفون بـالعبـارة المقدسـة، وهم يلوحون بسيـوفـهم إلى الأمـام. ركع على الأرض بركـبـة

واحـدة الكونت جيـيــوم دوڤيرن، تلاه الكونت جيـيــوم دى ليـون. أشـار إبل دى ســوج لچيفروا أن يحتذى بهــم، فـاستجاب بتكاسل، بينمـا كـان ذهنه شارداً.

– إنها مشيئة الرب! هتف ريمـون دى تولوز، الذى كـان واقفًا إلى جانب أديمـار دى مـونتيل. رفـرفت فى الـريـاح الخفيفة الراية البـيـضـاء، التى ارتسم فى وسطها الصليب الأحمر.

– إنها مشيئة الرب! ردد الحضور فى تناغم رائع

– النصر لنا! هتف الكونت من جديد

– النصر لنا!

على الجـانب الآخـر من الوادى، وصل إلى مــســامـع رعـاة الغنم الهتاف بفعل رنين صداه.

ســارع ريمـون دى أجـويلـيـر بالانتــهـاء من مـراسم القـداس على مخطوطة، كانت ملفوفة وقال:

– لقــد قــرر أديمـار دى مـونتـيل، أن نغــادر فى يوم عـيد قـداس سانت ريمى

متـأثرتين، راحت إلڤير وسـانشـا، تنظر كلٌّ منهما إلى الأخرى، فقد انبـهرتا بالضجيج من حـولهمـا، دون أن تدركا بعد، إلى أين ستـقـودهم جميعًا هذه الدوافع. كانت كلٌّ منهما، تضع الصليب الأحمر على المعطف الذى ترتديه.

– لقد جاء ملاك يرفرف بالقرب من مذبح المعبد. هكذا أكمل ريمون دى أجويلير، وهو يحمل مبخرة من الذهب فى يده...

خيم الهدوء على المكان من جديد، وتولى الأسقف أديمار مراسم احتفال القداس مرة أخرى، وأطرق كلٌّ منهم فى حالة من التأمل والابتهال.

فى الصف الأول، كان روبير النحات يجلس منهمكًا، وقد انتهى بالفعل من رسم ذى خطوط كبيرة لفارس يلوح بحربته على مخطوطة ضيقة العرض، بدأ يرسم إلى جواره امرأة رقيقة الملامح ذات هيئة رشيقة.

– سأرسم مريم العذراء أو إحدى القديسات. همس روبير، موجهًا كلامه إلى إبل دى سوج، وهو مستمر فى رسم التفاصيل الدقيقة، وثنايا الرداء الطويل يطوقه عند الوسط حزام رفيع، جعل منطقة الصدر منتفخة إلى حد ما.

مال إبل دى سوج إلى روبير، حيث كان جالسًا إلى جواره، وراح يطالع الرسم بإعجاب وقال له:

– إنها جميلة، بل جميلة جداً. همس إبل لروبير ثم أضاف: أيمكنك أن تقابل فى يوم من الأيام امرأة بهذا الجمال؟

ابتسم روبير دون أن يرد.

على الناحية الآخرى من إبل، كانت برتيلد جالسة تنظر إليهما بشغف وودت لو أن تعرف ماذا كانا يقولان.

فى هذه اللحظة ظهر ثلاثة رجال على خيولهم، يحملون حراباً تعلو قممها رايات بيضاء، فى وسطها صلبان حمراء. فى تناغم لحظى، قفزوا من على خيولهم وتقدموا من المذبح.

– لقد أرسل بنا البابا أوربان الثانى، لنبلغكم بتحياته ومباركته الأخيرة لكم، قبل أن تغادروا. هكذا قال أول فارس منهم، وهو يناول الأسقف أديمار الرسالة المكتوبة على مخطوطة ملفوفة، وعليها ختم الشمع الأحمر.

كسر أديمار دى مونتيل الختم، ثم راح يفرد اللفة ببطء، بعدها بدأ يقرأ رسالة البابا الأخيرة بصوت جهورى.

تطاير سرب من اليمام فى قلب السماء الساطعة، ثم راح يدور فوق المذبح قبل أن يختفى فى اتجاه الشرق، حاملاً معه بعض الكلمات المتناثرة من رسالة الباب مثل "المنال" تليها كلمة "التوبة"، و"السماء" مع "الأبدية" و"الصليب" مع "الإيمان".

بعد ذلك بلحظات، أطلق چيفروا سراح صقره "الملك الجميل" بعد أن قرر إعطاءه حريته. بدا الصقر مندهشاً، ثم راح يتأرجح مرفرفاً فوق رأسه، كما لو كان يودعه، ثم حلق عالياً فى اتجاه الشمس.



١١

"بلاد قاحلة مليئة بالجبال، ليست بها طرقات ولا حيوانات. فلنشكر الرب".

هكذا حمد الرجال أنفسهم، وهم يصفون بلاد سكلاڤونى[١] أثناء عبورها، فوجدوا أنها لا تستحق كلمات أكثر من ذلك. وضع الكنسى ريمون دى أجويلير البوصة التى يكتب بها، وشعر بأصابعه، وقد تجمدت. وعلى الرغم من أنه قد لف قدميه بعناية فى قطعة قماش صوفية ناعمة، فإن الحال لم يكن أفضل بكثير، فتنهد. كانت النيران بالكاد مشتعلة بواسطة قطع الخشب الرطب، الذى تشبع بالماء من فعل الأمطار، بعد أن اقتطعوه من جذوع الأشجار فكاد ينطفئ. غالبه النعاس، ولكنه مع ذلك كان يرغب فى تأدية الصلاة قبل يغط فى سبات عميق، أنساه أخيراً البؤس والألم والتوتر من حوله.

– بحق القديس ساتورنان، لم أكن أتصور أبداً مثل هذا البرد!

---

(١) سكلاڤونى (أو سلاڤونيا أو سلوڤينيا)، هى منطقة فى بلاد البلقان تعادل شمال يوغوسلاڤيا على طول البحر الأدرياتيكى.

دخل الكونت ريمون دى تولوز لتوه فى الخيمة المخروطية الشكل، المصنوعة من الحرير الأخضر، الذى فقد لونه، وأصبح باهتًا. مثل كل مساء، كان دائمًا آخر من يخلد للنوم، هكذا فكر الكنسى ريمون بتأمل. مد الكونت يديه تجاه ألسنة النيران الضعيفة المتذبذبة، فأجابه ريمون دى أجويلير بالكاد. كان يضع على ركبتيه كتابًا صغيرًا، صفحاته مصفرة، حيث كان قد وضع علامة على الصفحة التى توقف عندها بواسطة بوصته. استطاع بعد أن تحررت يداه الباردتان أن يدسهما فى كمى سترته الصوفية.

فهم الكونت ريمون دى تولوز، من حركة شفتى الكنسى ريمون المتشققة، أنه يتلو صلواته، ومع ذلك واصل كلامه قائلاً:

– أنا أشعر بالقلق، فالصمت يسود حول المخيم بشكل مقبض... فبحق القديس ساتورنان، لم أر قط، مثل هذه الأراضى الموحشة.

– إنه اختبار أراده الرب لنا. رد الكنسى ريمون دى أجويلير بهدوء وهو يهز رأسه بتفهم.

– أراده الرب، أراده الرب... راح الكونت دى تولوز، يدق على وتيرة واحدة بحذائه ذى الجلدى ذى الرقبة على الأرض الرطبة فى محاولة لتدفئة قدميه قبل أن يكمل: إذا لم يسمح لنا الرب بالوصول إلى القدس، فلن نتمكن أبدًا من تحرير الأراضى المقدسة!

– يريد الرب أن يشهد أهالى هذه البلاد المتوحشون على فضيلة رجالنا وصبرهم... واصل الكنسى.

– بحق القديس ساتورنان، إن لصبرى حدوداً. قاطعه ريمون دى تولوز.

– بهذا الشكل سيفقد سكان هذه البلاد وحشيتهم.

هـز الكونت كتفيه بلا مبالاة، فـاندمج الكنسى ريمـون مـن جديد فى صلاته.

على بعد بضع خيام منهما، وفى وسط معسكر جيوش المسيح[1] انضم هوج لسانشا، كما تعود كل ليلة منذ مغادرتهم لمنطقة لومباردى (شمال إيطاليا). ومثل كل مساء لم يدرك هوج أو يلاحظ أنه مُراقب. كانت أجات تشعر بالحزن والوحشة والعجز، عندما شاهدته يدلف داخل الخيمة المخروطية الشكل، ذات الحرير الأحمر الملعون، ثم عادت أدراجها إلى مخيمها لتحاول النوم. كان چيفروا متفهمًا حالتها، فسمع بعض تشنجات بكائية مختنقة، بعدها سمع تنفس أجات المنتظم، ففهم أنها قد استغرقت فى النوم أخيراً.

هكذا عاش هوج وچيفروا كلٌّ منهما حسب طريقته من المشاعر المتناقضة، التى كان من الممكن أن تبدو غير مناسبة وسط هذه المجموعة الكبيرة من الرجال والنساء الذين يتعرضون لعذابات مغامرة أحيانًا غير إنسانية، نظراً للتجارب والاختبارات التى يواجهونها كل يوم، والتى

(١) جيوش الرب اسم أُعطى للحملة، والجيش هو الخدمة العسكرية الواجبة على العبد نحو سيده، وبالمعنى الواسع نحو الجيش الإقطاعى.

كانت لا تطاق. ولكن هذا المجتمع الصغير، كان ينشط بكل أنواع المشاعر، وليس لأن الحياة فيه كانت صعبة، لدرجة ألا تولد وتنمو فيه المشاعر المختلفة. لذلك كان على رجال الدين عمل الكثير، كى يعيدوا هذا أو ذاك إلى عقله.

مثل هوج، كان چيفروا واقعًا فى الحب هو الآخر. ولكن كيف له أن يعترف بذلك؟ لقد كانت أجات حبيسة حبها لهوج، بشكل كبير جدًا! وإذا كان يحاول دفعها كل يوم حتى تكشف عن هويتها الحقيقية، كى يريح ضميره، وفى الوقت ذاته لكى تتجنب الذهاب إلى الحرب، رغم ذلك كان يشك فى أنها ستطيعه. وبالفعل تساءل كيف سيكون رد فعل هوج؟ هل سينهار من جديد أمام سحر أجات؟ من الواضح أن هوج بدا منجذبًا لسانشا بشدة، ولكن حكاية أجات لم تترك أى مجال للشك حول طبيعة مشاعر سيده هوج. فهل سيتمكن من النسيان فعلاً؟

لم يعد يخفى على أحد أن اللورد هوج دى ورامون يميل بشكل خطير لسانشا. لقد كان هوج هو الفارس المتفرغ لخدمة المرأة الشابة طوال فترة عبورهم الصعبة لسلسلة جبال الألپ. بعد ذلك، وعندما مر طريق السفر بأراضٍ أقل وعورة، أصبح عبورهم بالخيل عليها أكثر سهولة، كما لو كانوا يقومون برحلات تنزه طويلة على خيولهم، وقام بتحيتهم والترحيب بهم سكان تلك المناطق المتفهمون تمامًا باحترام لأهداف الحملة الصليبية. انتهز هوج فرصة فترة الراحة هذه، وراح يلاطف وبتركيز، الجميلة السمراء سانشا ويتقرب إليها. بطبيعة الحال،

وعلى الرغم من تحذيرات الكونتيسة إلقير لها، حيث كانت غير مسرورة من هذا المنحى، الذى راحت تأخذه الأحداث، كان هوج يعود من جديد إلى خيمة سانشا. فى اللحظة التى وصلوا فيها إلى سكلاڤونى كان هوج مصاباً بالحمى ويشعر بالبرد الشديد فى الوقت نفسه، صرح لسانشا ذات مساء عن رغبته المشتعلة بطريقة ملحة، حتى إن سانشا استسلمت له فى النهاية، رغم إثارتها مرة أخرى موضوع زوجها المسكين، الذى كان أسيراً لدى الكفار.

هكذا راح هوج يخلع عنها بصبر الطبقات المتعددة من الثياب التى كانت سانشا ترتديها، ورغم أنها بدت فى البداية مترددة تتوسل إليه أن يتوقف، فإنها أذعنت فى النهاية، وقد أظهرت شبقًا شديداً، جعل هوج ينسى بها تقريباً أجات.

رغم تلك المناطق الوعرة المليئة بالمخاطر، حيث كانوا يقعون فى مآزق لا تنتهى، أحياناً يتسبب فيها سكان المنطقة، مع هذا شعر هوج بالسعادة لأول مرة. هكذا كان يذهب كل مساء إلى خيمة سانشا، ليتخلص معها من متاعب وهموم النهار.

- يا صاحب المعالى، أنت تلومنى بشدة. رد هوج على الأسقف أديمار دى مونتيل، حيث كان مستاءً وهو يرى هذا الفارس، الذى كان له الاحترام ينهار أمام سحر تلك المرأة الإسبانية. أكمل هوج: لكنك لا تتخيل الحماس الذى جلبه لى هذا الحب ليشجعنى على القتال.

بدا الأسقف أديمار عبوساً، بل متشكك، وكذلك كان الحال بالنسبة للراهب أربر، الذى كان زاهداً ومتقشفًا تمامًا مثل ريمون دى تولوز، الذى أمر بخلعه من دير شيز - ديو الذى كان يديره، ولهذا سرعان ما شعر بالضجر. على النقيض، فقد أسعد أديمار أن يتنافس ويتشاجر معه على الإصلاح الجريجورى، أو معاهدة السلام المناهضة لقتال الأهالى.

ظل چيفروا يتقلب يمينًا ويساراً على فرشته غير المريحة. لم يعرف إذا كان البرد أم مشاعره تجاه أجات هى التى سرقت النوم من عينيه.

وهكذا فى الانتظار، كان چيفروا من أوائل من استجابوا لنداءات الاستغاثة التى وجهها ريمون دى تولوز. فقد جاءهم السلوڤانيون، سكان هذه البلاد من جديد حول المخيم، وكانوا على وشك مهاجمتهم برماحهم الحادة أو بهراواتهم التى رآها چيفروا من قبل، وهى تنغرس فى العديد من رفاقه بلا هوادة.

- اللعنة على هذا الليل الشديد الظلام. صاح إبل دى سوج، وهو يجرى إلى جوار چيفروا.

فزت أجات مستيقظة من نومها، وسرعان ما وضعت صديريتها المبطنة، ووضعت عباءتها المصنوعة من السلاسل المعدنية. خرجت من الخيمة، وفى يدها رمحها القصير ذو الحربة المعدنية الطويلة، والذى أمسكت به بشكل خطأ. بالنسبة لها، فقد بدأت هذه المعركة قبل عدة أيام أمام هؤلاء الرجال المتوحشين، الذين كانوا يخورون كأبقار الخادمة

إيتينت. لكم أحست برعب شديد، وهى تقف بلا حراك وسط العراك، وقد تجمدت أصابعها القابضة بتوتر على مقبض الرمح المصنوع من خشب الزان الثقيل، فى لحظة ما، مر فوق رأسها بالكاد الرمح المعدنى الثقيل بعد أن قذفه أحدهم. وفى مرة أخرى صرخت بفزع عندما سقط فوقها أحد السلوڤانيين بمحض المصادفة بعد أن انغرس رمحها فى جسده، وكادت تموت مختنقة بفعل ثقل جثة هذا التعس فوقها لولا چيفروا، الذى لم تنزل عينه من عليها طوال الوقت، وقد هرع لإنقاذها.

فى هذه الليلة، وسط تلك العتمة الشديدة، عرف چيفروا أن هذه المعركة لن تكون بالنسبة له إلا فرصة لمراقبة أجات وحمايتها.

– من هنا، چيفروا... ماذا تفعل؟ أين جيرن؟

– هنا يا سيدى.

– وأنت يا روبير... جهز خنجرك.

بدا هوج نافد الصبر، وهو يلقى بأوامره هذه. كان قد ترك خادمه كلوڤيس بالقرب من خيمة سانشا فى حالة تأهب، بينما راح يجمع، كما كان يفعل كل مرة، أتباعه والمقربين منه. كان السلوڤانيون بارعين فى رمى النبل، وإذا كان ظلام الليل قد أخفاهم عن أنظار أعدائهم، فهذا لم يمنعهم من التصويب بأى أجسام راحت تتوالى عليها أسهمهم بغزارة. ها هما اثنان من حراس المعسكر الصليبى وقد سقطا بالفعل على الأرض.

فجأة، ووسط الصمت المثير للقلق دوى هتاف هائل، مما أعطى فكرة عن عدد المهاجمين الضخم الذى وجب عليهم صده. ثم كانت الصدمة... وسط الظلام الدامس الذى لا يكاد يرى فيه أحد شيئًا، وبينما كان الفرسان الشجعان مشهرين بسيوفهم؛ سمُعت صدمات معدنية أو جلبة شديدة، تكاد تصيب بالصمم لشخص يسقط أو الأكثر من ذلك تأوهات وصرخات آلم. جُن جنون هوج، فراح بكل قوته يضرب بسيفه الذى أصبح بالنسبة له لا يزن أكثر من عصا لا قيمة لها؛ وإلى جواره كان روبير يطعن بخنجره فى ضراوة، جعلته يعتقد أنه سيكون عاجزًا. ففى مواجهة هؤلاء البربر، وجد الفرسان النبلاء مضمونًا قديمًا للوحشية. بعد ذلك، ومثلما حدث فى الهجمات السابقة، أخذت الضوضاء تنخفض تدريجيًا، ووجد الصليبيون أنفسهم يصارعون الهواء. لقد اختفى مهاجموهم. حقًا كان لديهم فن الهجمات المفاجئة والسريعة، حيث يصعب التنبؤ بها. لقد نجحوا فى زرع الرعب بالمكان، وها هم الآن يعودون إلى جبالهم، وهم فى غاية الرضا.

- بحق القديس ساتورنان، فإننى أفضل العراك مع الكفار! قال ريمون دى تولوز، وهو يزمجر غضبًا، حيث كان قد تقاتل معهم فى إسبانيا من قبل. كان يضع على كتفه تقريبًا بإهمال مقبضًا خشبيًا عرضيًا معلقًا عليه سلاسل معدنية، تلتف حول مجموعة من أسلحته الرهيبة؛ والكرات المدببة التى تخرج من نهايتها، مازالت حمل آثار دماء.

- جيرن؟

نادى چيفروا عدة مرات دون أن يصله أى رد. من حوله، راح كلٌّ منهم يبحث ويحاول أن يجد رفاقه أو أصدقاءه.

– جيرن! كرر چيفروا مرة أخرى، قبل أن يمسك على عجل بشعلة مضاءة.

عم الخراب من حولهم.... فها هى أجساد رفقائهم من المصابين متأثرين بجروحهم، بعد أن سقطوا مكدسين فوق بعضهم البعض على الأرض التى تجمدت تحتهم بفعل الجليد، الذى يغلفها. نظر چيفروا إليهم واحداً واحداً، ولكنه لم يجد جيرن بينهم. ثم عاد المقاتلون أدراجهم إلى الخيام، فسوف يقومون بإحصاء عدد القتلى عندما يحل النهار.

– هيا يا چيفروا، علينا أن نعود إلى المخيم... وليرحم الله هذا المسكين جيرن.

"هل سيأتى اليوم الذى أخبر فيه أجات بنبأ موت أخيها"؟

– هوجو! هتفت سانشا، وهى تلقى بنفسها بين ذراعيه ما إن رأته على عتبة خيمتها، فاختفت أجات من تفكيره على الفور.

بدا چيفروا مثبط العزيمة، وهو عائد إلى خيمته. ما إن دخل حتى وجد أجات جالسة فى ركن الخيمة، تبكى، ورأسها منكس بين يديها. اندفع چيفروا نحوها، وهو يهتف قائلاً:

– الحمد والشكر للرب، أنك بخير... فقد تفحصت كل الجثث، وكاد القلق يقتلنى.

– أنا لم أعد أتحمل المزيد!

كانت أجات تضع عباءتها المعدنية عند قدميها، وما إن رأت چيفروا حتى نهضت، متجهة إليه وقد بدت على وجهها علامات الفزع الشديد. كانت عيناها جاحظتين، ولاحظ چيفروا أن ملامح وجهها قد انحفرت من الشحوب... فلم تعد بعد الآن تلك الفتاة القوية الجريئة القادمة من قرية الأخشاب... لم تعد الخادمة الرائعة الجمال بعد الآن. ركع چيفروا على ركبتيه بالقرب منها، ثم مرر ذراعه حول كتفها وضمها إليه برفق.

– أنا لا أريدك أن تذهبى للقتال بعد الآن. همس چيفروا

– ولكن جيرن يجب أن يذهب للمعركة كى يحميك... لقد كرر هوج ذلك بما فيه الكفاية.

– ولكم هذا لا يمنعه من ترك خادمه أمام خيمة سانشا. رد چيفروا بتهكم

– لا تكلمنى عن هذه المرأة.... فسوف أقتلها. هكذا قالت أجات فجأة بغضب عارم، بعد أن خرجت من حالة اكتئابها وخوفها. بعد الخوف، تحولت ملامح وجه أجات البائس الهزيل إلى الكراهية.

– لقد سألتينى فى يوم من الأيام إذا ما كنت قد أحببت من قبل أو لا، وها أنا اليوم أرد عليك: كلا لم أحب من قبل، ولكننى اليوم أقولها لك إننى أحبك...

هكذا تجرأ چيفروا وألقى بنفسه فى المياه فجأة... فلطالما فكر كثيراً فى انتهاز الفرصة واللحظة اللتين يفُصح فيهما عن مشاعره لأجات،

وهكذا قرر طرق الحديد وهو ساخن. بدت أجات كما لو كانت لم تسمع ما قاله لها.

- وماذا لو قلت لك إننى أحبك؟ كرر چيفروا سؤاله برقة

- كيف يمكنك أن تحب امرأة كاذبة؟

- ولكنها جميلة جداً!

- كيف لك أن تحب امرأة سيدك؟

- أنت لست امرأة سيدى... أنت حرة الآن يا أجات.

عادت أجات إلى البكاء، ثم تمتمت:

- كيف لك أن تكون بمثل هذه القسوة؟ أنا لست امرأته، وهذا ما يصيبنى بالغثة.

- وبالتالى لا يمكنك أن تحبيننى بما أنك تحبينه.

رفع چيفروا ذراعه من على كتفى أجات، ونهض إلى فرشته المتواضعة المؤقتة.

- الأجدر بنا أن نخلد إلى النوم.

فى صباح اليوم التالى حاصر الضباب منطقة المخيم. كان ريمون دى تولوز هو آخر من نام، ولكن كان أيضاً آخر من استيقظ، حيث راح ينظم فى الصباح الباكر جداً جمع جثث من سماهم الضحايا، وهم المقاتلون المسلحون بالخناجر، وهم الأتباع الرئيسيون للفرسان.

– هنا... وهناك. راح ريمون دى تولوز يشير لمساعديه إلى الأشجار، كى يعلقوا بها جثث الأعداء على الفور. فكما كان يحدث بعد كل هجمة، أراد الكونت ريمون دى تولوز أن تكون طريقة عرض هذه الجثث عبرة لمن لم يعتبر. اعترض على ذلك الأسقف أديمار دى مونتيل، وأيده بشدة ريتشارد، أب دير القديس ڤيكتور من مرسيليا، وكذلك رجال الدين الذين لم يعتادوا على هذه الوحشية واحتجوا عليها، ثم ما لبثوا أن أذعنوا لهذه الأساليب. هكذا أثبت ريمون أنه قائد حرب ذو حنكة. ألم يكن ذلك ضرورياً؟

فى الوقت ذاته، حاول خدام الفرسان حفر مقابر فى الأرض التى كساها الجليد، ليدفنوا فيها الصليبيين الذين لقوا حتفهم فى الليلة السابقة. فى ذلك الصباح، لم تكن حصيلة الدمار ثقيلة، كما كانت من قبل.

كانت أجات من ضمن فريق القائمين بحفر القبور. راح چيفروا يراقبها بحنان، وهى تمسك بالمجرفة، وتحاول التهرب من الأسئلة التى راح هوج يطرحها حول اختفاء جيرن فى الليلة الماضية.

– لقد تاه... هكذا رد چيفروا نيابة عن أجات، ثم قال فجأة: هيا كلٌّ منكم إلى سلاحه.

لقد لمح چيفروا لتوه ظلالاً لأشخاص ظهرت فجأة فى نهاية المخيم. فما إن عُلقت جثث الأعداء لتُعرض ودفنت الأخرى، حتى برز السلوقانيون من جديد. تخبأوا فى الضباب الذى حجب الضوضاء

أيضاً، وهاجموا من جديد الفرنجة، وهم يطلقون صرخات مودية أصابت أجات بالذعر.

- كلٌّ منكم إلى سلاحه!

- كلٌّ منكم إلى سلاحه!

متفاجئين، سرعان ما وجدت مجموعة صغيرة من الصليبيين أنفسهم محاصرين بدائرة من الأعداء. من بينهم كان الكونت ريمون دى تولوز، چيفروا وهوج. أُعلنت حالة تأهب فى جميع أنحاء المخيم. أتى كلٌّ منهم، وهو يحمل سيفه ودرعه. فى هذه اللحظة، فيما يشبه المعجزات، أخذ الضباب فى الانقشاع. تلاشى تدريجيًا طبقة وراء الأخرى مما سمح للصليبيين أن يكتشفوا عدد المهاجمين القليل. مرة أخرى، كانوا يُحدثون جلبة عالية.

- أريد منهم بعض الأحياء. صرخ الكونت دى تولوز عاليًا، وبدت قواه، وقد ازدادت حدتها بسبب الغضب.

بدأ السلوڤانيون يتقهقرون فى تجاه الطريق الذى أتوا منه. انطلق إبل دى سوج ورفاقه وراءهم لمطاردتهم. تم الإمساك بأربعة منهم واقتيدوا إلى المخيم.

- فلنفقأ لهم أعينهم! أمر الكونت ريمون دى تولوز

لم يحرك أحد منهم ساكنًا. جن جنون الكونت، وصاح مكرراً الأمر:

– فلنفقأ لهم أعينهم، وبعد ذلك اقطعوا أيديهم وأرجلهم! فإذا كانت جثث رفاقهم المعلقة لا تخيفهم، فربما هكذا سوف يفهمون فى النهاية. أنت... خذ هذه البلطة وأنت أيضاً. وجه ريمون كلامه إلى أجات "جيرن". اقتربت وقد بدا على وجهها الهلع ثم غمغمت قائلة:

– لا أستطيع!

وراء أجات وقف شابان قويا البنيان وقد بدا لا يخشيان أى شىء، وهما خادما خيول جييوم دى مونبلييه، تابع ريمون. كان كلٌّ منهما يمسك بالفعل بلطة فى يده، ثم اقتربا من السلوڤانيين وبترا ساقيهما فى لحظة. بعد ذلك أمسكا بالفئوس أعلى رأسيهما، ثم تركاهما يهويان على الأرض فى حركة عنيفة لا رجعة فيها. شوهد الدم يتدفق من ساقيهما على الأرض ذات التربة السوداء. بعدها، وبلا أى تقزز، راحا يقطعان أيديهما، فأخذ السجينان يصرخان عالياً من شدة الألم.

– إذا كنت لا تحسن استخدام البلطة، يمكنك فقأ أعينهما. قال الكونت ريمون دى تولوز، موجهاً أمره لأجات التى انتابتها رعشة لم تستطع السيطرة عليها، فأمسكت بالسيف، الذى مده لها الكونت. اقتربت من الأسيرين، وهى شاحبة الوجه، وفرائصها ترتعد.

– سوف أقوم أنا بذلك. قبض جيفروا على السيف، وبحركة سريعة مباغتة اقترب من أعين السلوڤانيين. هكذا تم كل شىء فى أقل من لحظة.

تهاوت أجات مغشياً عليها، عند أقدام ريمون دى تولوز، الذى قال بدوره إلى الأسقف إديمار:

- سوف ترى من هذه النوعية كثيراً! أليس كذلك يا صاحب المعالى؟

- أيها الكنسى، هل كنت فعلاً على حق، عندما قلت إن قواتنا هى صفوة الجيوش، بينما قوات بطرس الناسك ما هى إلا الحثالة الهشة؟ هكذا سأل الأسقف أديمار دى مونتيل، وقد بدا على وجهه الغثيان وهو يقترب من التعيسين اللذين قُتلا لتوهما ليصلى على روحهما بسرعة.

- من يرى ذلك لن ينساه أبداً. همس الكنسى، وهو يشير بعلامة الصليب على صدره هو الآخر. بدأت كثافة الضباب تزداد من جديد.

- إذا كان الرب موجوداً هناك فى السماء، فهل يمكنه ألا يرى ذلك؟! همس هوج

- هل يمكنه؟! كرر چيفروا وكأنه صدى لصوت هوج

- هل يمكنه؟! همست أجات

- أما بالنسبة لك يا جيرن، فأنا واثق أن أختك كانت ستتحلى بشجاعة أكبر، لو كانت مكانك.

- هذا غير أكيد! ردت أجات، وهى ترمى هوج بنظرة جريئة بها قسوة لا توصف.

لم يرمش هوج... وفى لحظة واحدة طارت أفكاره، وهى تعبر فراسخ بل مسافات طويلة، وشعر بنسمة منعشة تداعبه، وتراءى له من جديد الجسد النحيل يرتدى السترة الحمراء الباهتة، وعلى كتفها تحمل سطلها الخشبى. خفق قلبه بشكل أسرع قليلاً، وفى حركة بطيئة مضجرة ، رفع يده إلى وجهه، وكأنه يحاول طرد تلك الصورة من خياله.

آمل الجميع فى ترك هذا المكان الملعون، فها هى العربات قد وُضعتْ على الطريق بالفعل. سريعًا ما امتطى هوج جواده، ثم أشار لرفاقه المخلصين بتتبعه، معتقداً أنه قد محا كل الأهوال التى مروا بها، وكذلك ذكرى أجات، بل لم يعد يفكر إلا فى ركوب فرسه والركض بها إلى جوار سانشا.

فى ذلك اليوم، تقدمت القوات فى صمت ثقيل. فكل ما شاهدوه من مناظر أثناء ترحالهم منذ هذا الصباح، لم يكن كافيًا بأن ينسيهم ما حدث، بينما أطلق آخرون العنان لخيالهم، مما كان أسوأ. أضافت صرخات طيور النورس الحادة، التى كانت تحوم فوقهم وتتبعهم على طول الساحل غير الممهد، بُعداً مأساوياً لتأملاتهم. بدت لهم مدينة القدس بعيدة بشكل مخيف. بل راودهم جميعًا شعور خفى بأن مدينة القدس الفعلية يستحيل الوصول إليها، مثل ما هو معروف مع مدينة القدس السماوية. كان الأسقف أديمار دى مونتيل قد شجع القافلة لتغير اتجاهها فى اللحظة نفسها التى انطلق فيها الفرسان، والعربات والمشاة، لكونهم غير متذرعين بالقدر الكافى من الإيمان.

– لقد قال الرب: ضعوا أنفسكم على يمينى، فى اتجاه جنتى.

ومع ذلك، فقد أنهى الأسقف أديمار دى مونتيل خطبته القصيرة هكذا، قبل أن يهتف ممتطياً جواده:

– فليكن الرب فى عوننا!

لقد تعمد تبديل هذه العبارة "إنها مشيئة الرب" عندما شعر بضعف قواته. والمقصود من هذه العبارة أن يكون الرب أقل حسماً وصرامة.

– ليكن الرب فى عوننا! رد عليه الكونت دى تولوز.

لم تنطق أجات بكلمة واحدة طوال النهار. كانت عيناها مثبتتين كما لو كانت تضع نصبها شيئًا واحداً، تستطيع تمييزه، بينما ظهرت على وجهها هالات سوداء تكاد تُخفيه، وكانت تمسك بالكاد على زمام جوادها. أما قدماها فكانتا تتأرجحان ذهاباً وإياباً، فى الركاب المعدنى مع كل حركة. بدا جيفروا متوتراً، قلقًا، لا يفارقها للحظة، بل على استعداد للتدخل فى أى لحظة.

شعروا جميعاً بالإنهاك، فأوقفوا الموكب فى ضوء الغسق الذى راح يظهر ويختفى مع الضباب الذى صاحبهم طوال هذا النهار الحزين. ترامى إلى مسامعهم صوت تلاطم الأمواج وطيور النورس، التى ما زالت تصرخ، حتى إن الكثير منهم نام، وهو بالفعل يأمل أن يمحو من ذاكرته تلك المناظر الأليمة التى شاهدوها هذا الصباح. هكذا راح چيفروا،

يراقب أجات، وهى نائمة فى وقت أقل من الذى وجب فيه أن يتلو آيات دينية. أخذ يتأمل لبضع لحظات ذلك الوجه التعس الذى لا تزال ترتسم عليه بعض السمات المتأثرة بآثار الفزع، ثم خلد هو الآخر فى سبات عميق.

استيقظ چيفروا فجأة على صرخات مدوية، ففتح عينيه ليجد أجات جالسة على فرشتها تصرخ. هرع چيفروا إليها ليهدئ من روعها، فضمها إليه، وظلت هى هكذا حتى هدأت، وأصبحت أنفاسها المتقطعة المتلاحقة أكثر انتظاما. أحكم چيفروا بذراعيه حولها برقة.

- أحبنى. همست أجات برقة بالغة حتى إن چيفروا لم يفهم ما الذى تقوله.

- أحبنى. كررت له أجات.

فوجئ چيفروا، وراح ينظر إليها.

- ولماذا إذن؟

- أحبنى. قالت له أجات بإصرار ثم أضافت: فقط الحب وحده يمكنه أن يشفينى من مثل هذه الفظائع.

- وماذا عن هوج؟

- لا بد أنه الآن بين أحضان سانشا هذه... لقد ضاع منى... ألم تعد تريدنى؟

ردًا على ذلك، مال چيفروا مقتربًا من وجه أجات، وطبع على شفتيها قبلة فى منتهى الرقة. كان ذلك شيئًا جديدًا عليه، فمعرفته بهذه الأمور لم تتعد التحرش بوقاحة بفلاحات أبيه، لا أكثر ولا أقل. كانت شفتاها الرقيقتان للغاية حلوتى المذاق، لدرجة يمكنهما أن تمحوا كل المرارة واليأس. بدت أجات فجأة، وكأنها ولدت من جديد. شعرت بيديها اللتين كانتا متجمدتين منذ لحظة سابقة، أصبحتا الآن تقريبًا رطبتين كما لم يعد جسدها يرتجف من البرد والخوف، ولكن من الرغبة. وهو شعور كانت قد نسيته تمامًا، وهو الذى أيقظ داخلها حواسها الراقدة. بدأ چيفروا يخلع بلطف الملابس عن ذلك الجسد ذى الوعود المخبأة تحت ثياب فتى، والذى لم يجرؤ حتى على تخيله من قبل. فقط تعرف على الثديين اللذين كان قد لمحهما قبل بضعة أشهر تحت ضوء القمر الفاضح، وقد ذابا على مدار فترة طويلة من الحرمان. كان ذلك الجسد النحيل يثير عطف چيفروا الذى راح يتحسسه بلطف قبل أن يستولى عليه برغبة عارمة.

سوف يرافقهم الضباب الذى حل على المنطقة أثناء رحلتهم لأيام وأيام، مما سيجعل تقدمهم أكثر صعوبة، ويسهل الهجمات الفجائية من الأغراب.

كان الكونت ريمون دى تولوز، مع أنه قد قرر متابعة السير على طول ساحل البحر الأدرياتيكى، قدر إبقاء الموكب على الجانب الأيمن من ساحل البحر، الذى اكتشفه العديد من الفرسان لأول مرة، وهكذا من

حيث المبدأ، لم يعد إلا جانبهم الأيسر، ليقوموا بحمايته ضد الهجمات. حتى إنه وقع اتفاقًا مع ملك الصرب، قنسطنطين بودان، ولكن سرعان ما تكشف ذلك عن سلاح ذى وجهين. وإذا كانوا مزودين بما يكفى من زاد وطعام، كان مرافقهم الشرفى المبعوث من الملك لا يتروع عن مهاجمتهم، عندما اخترقوا الأراضى بعيدًا عن الساحل، كى يعبروا اليونان.

ما إن وصلوا إلى منطقة دورس فى ألبانيا، انعطفوا بعيدًا عن ساحل البحر لعبور بلاد اليونان، سالكين طريقًا رومانيًا قديمًا، يسمى ڤيا إجناتيا، ليصلوا إلى أوشريدا، ومن ثم إلى سالونيكى.

– بحق القديس ساتورنان... متى سنرى أسوار مدينة القسطنطينية؟ راح الكونت ريمون دى تولوز يكرر.

– نحن لسنا ببعيدين عنها، ها نحن الآن على مقربة من ساحل بحر إيجه. هكذا طمأنه الكنسى ريمون دى أجويلير بسكينة يشوبها بعض الإكراه.

– وما الذى أدراك أيها الكنسى؟

– منذ بداية رحيلنا قطعنا العديد والعديد من الفراسخ! رد الكنسى بلا مبالاة قبل أن يعود على الفور لصلواته.

– فلنتذرع بالإيمان! اكتفى بالقول الأسقف أديمار دى مونتيل.

بعد ذلك بيوم واحد، اقتنع الكونت ريمون بأن الكنسى كان على حق، عندما وصل مبعوثو الإمبراطور ألكسيس[1] و قدموا أنفسهم عند بوابة مخيم الفرنجة.

– سوف نقوم بمرافقتكم. أعلن قائد المبعوثين، وهو رجل يُدعى سيرج.

شعر الكونت ريمون بالإطراء، وشكرهم. لقد تخيل أنهم بذلك قد وضعوا نهاية لعذاباتهم. ومع ذلك كانت دهشة الصليبيين كبيرة، عندما وجدوا قوات الإمبراطور تنقلب عليهم، وتشرع فى مهاجمتهم، بل قتلت مجموعة من المتخلفين فى نهاية الموكب أو المنعزلين. الكونت ريمون دى تولوز، وهو يكتشف مصدوماً أن القوات الإمبراطورية لم تكن إلا مجرد حفنة جامحة من المرتزقة المختلطة من جميع الأعراق. وهكذا تمكن من إنقاذ الأسقف أديمار دى مونتيل من الموت فى آخر لحظة، على أيدى محاربين غرباء.

– إن عيونهم سوداء ومجذوبة إلى الأصداغ. راح هوج يشرح لرفاقه، كيف تقاتل بشراسة مع هؤلاء المحاربين الجريئين الماكرين، وهم يستخدمون بعنف سيوفًا ذات شفرة عريضة، ومنحنية عند الأطراف.

(١) ألكسيس كومنين، كان إمبراطور الشرق فى الفترة ما بين (١٠٨١-١١١٨).

– إنهم قبائل المغول[1] رد عليه سيرچ قبل أن يُكمل: وهم آتون من بعيد، حيث تشرق الشمس. ولا تتفاجأوا إذا ما قابلتم فى قواتنا بعض الكفار، وبعضاً من إخوانكم. فنحن، الفرنچة، كما يسمينا العرب، نقاتل من أجل إمبراطورنا.

قال سيرچ ذلك، وهو يضحك، كما لو كان يلقى بمزحة، ولهذا لم يصدقها لا الكونت ريمون، ولا رفاقه. ومع ذلك، فى اليوم التالى نصب لهم الفرنچة كميناً فى منعطف من طريق ملتو، فكان النصر حليفاً لهم.

– إلىّ بهم بحق القديس ساتورنان. صاح قائدهم، وهو يندفع بجواده إلى الأمام فى مقدمة الموكب بقيادة الكونت ريمون دى تولوز.

لم يستطع الكونت أن ينتهى من الإشارة إلى قديسه المفضل، حتى هامجه سيف أسقط خوذته. إلى جواره، كان هوج يحاول التشبث بسرج فرسه بعد أن اختل توازنه وفقد درعه.

– بحق القديس ساتورنان... تمسكوا بدروعكم. صرخ الكونت، بينما تهاوى هوج على الأرض، وكان جيفروا من ورائه، يسب ويسخط، حيث كان يحاول يائساً إنقاذ سيده هوج، وفى الوقت ذاته لينقذ أجات التى راحت تُدير فى الهواء مجموعة من الأسلحة، دون أن تعرف كيفية استخدامها. لهذا توجب على الكونت ريمون دى تولوز أن ينزل من على جواده هو الآخر.

---

(١) هم شعب من أصل تركى، كانوا يعيشون فى المنطقة الواقعة بين الڤولچا والأورال، وقد أُبيد جيشهم بواسطة قوات الإمبراطور ألكسيس فى عام ١٠٩١

بدا وكأن الأمر برمته قد حُسم عندما ظهر بعض الفرسان على خيولهم من خلف المهاجمين لدحرهم وقهرهم إلى الوراء. ساعدت المفاجأة على شل حركة المرتزقة، فسرعان ما تراجعوا تاركين المكان. عندما خلع هوج خوذته من على رأسه، تنبه إلى أن إبل هو الذى أنقذهم. من حوله، كان رفاق إبل المتحمسون مازالوا يبارزون بلا هوادة.

– فليشهد الرب أنك من أنقذ حياتى. قال هوج لإبل.

– تذكر أن الرب أراد لنا نحن الاثنان أن نعيش، وهذا لم يكن من قبيل الصدفة. رد عليه إبل

– بالنسبة لى فأنت أيضاً من أنقذ حياتى! عاجله چيفروا بالرد

– ها أنا ولا شك قد غسلت ذنبى.

– وبما أن السعادة لا تأتى وحدها أبداً، فها هى "الأميرة الحسناء".

التفتوا جميعاً فوجدوا الفرس عائدة بهدوء من حيث لا يعرف أحد. من دون تفكير، هرعت أجات إليها، وراحت تتحسس رقبتها بلطف وتتحدث إليها، حتى راحت الفرس تصهل.

– ماذا قلت لها؟ إنها تبدو سعيدة جداً! سأل هوج أجات عندما أعادت له فرسه.

– لا شىء. ردت الفتاة الغامضة.

راح هوج يحدق بها طويلاً، فهو ما زال يعتقد أنها جيرن. تساءل: ترى ماذا كانت أجات تفعل؟ لقد مر زمن طويل منذ آخر مرة رآها... لا بد أنها قد نسيته.



١٢

القسطنطينية!

– أو بيزنطة العتيقة. بحق القديس ساتورنان... يا لها من بلدة!

تعبيراً عن فرحه، خلع ريمون دى تولوز قبعته، وألقى بها فى الهواء. عندما سقطت، شكلت بقعة حمراء على الأعشاب الجديدة التى راحت تتخاطفها بأفواهها الطيور البحرية.

– لم أر من قبل أسوار بلدة بهذا الشكل.

– أخيراً! همس هوج[١].

جذب هوج سرج فرسه بقوة، وكذلك فعل رفاقه، لكى ينطلقوا بخيولهم. قفزت فرسه، الأميرة الحسناء، بساقيها الأماميتين وصهلت بغضب من وقع جذبه لسرجها. لقد أصبحت هذه الفرس متقلبة المزاج فى الآونة الأخيرة.

---

(١) لقد غادروا مكان تجمعهم بالقرب من مدينة ليون فى أكتوبر ١٠٩٦، ووصلوا إلى قسطنطينية فى أبريل ١٠٩٧

لم تعد تتحمل تصرفات سيدها المتهورة، وهكذا انتهت قصة الحب التى كانت بينهما على مدار هذه الرحلة الشاقة، ذات الطرق التى لا نهاية لها، وتلك المسارات الجبلية الصخرية الوعرة، سارت عليها بصعوبة وألم، حوافر الفرس الجميلة. كذلك الأجواء القاسية مثل الثلج والمطر والرياح، ناهيك عن قضاء الليل فى العراء. لم يعد إسطبل رواومون وقشه الفواح النظيف، سوى ذكرى بعيدة.

- بهدوء... بهدوء. صاح بها هوج، حيث لم يعد يعرف كيف يكلمها بهدوء، وعندما كان يضع يده على عنقها، كان يفعل ذلك بقسوة أيضاً.

إلى جواره، كان كلوقيس يرمش بعينيه، فقد سطعت الشمس بشدة فجأة وراء البلدة، مما أحدث انعكاساً مبهراً فى السماء على الجدران الضخمة، وظهرت من خلفها قباب الكنائس المستديرة، والممتدة إلى ما لا نهاية.

- انظر... إنها مدينة القسطنطينية.

رفع هوج بيده اليمنى، وأشار بإصبعه السبابة، إلى الجدار الذى بدا وكأنه خط لا ينتهى بين طرفى الأفق.

- القسطنطينية!

- القسطنطينية!

هكذا راحت الكلمة تتردد من فارس إلى آخر.

لفترة طويلة جداً، حلموا جميعًا، بل تاقوا لرؤية هذه المدينة التى طالما سمعوا عنها حكايات، كانت الأكثر إثارة وإبهاجًا للياليهم الطويلة، حتى أصبحت تلك المدينة شبه أسطورة، بخلاف مدينة القدس، التى هى الهدف الأساسى لحملتهم.

– يُقال إن هناك ملايين من الناس تعيش بها. قال چيفروا بعد أن وصل بدوره إلى الصف الأول من الفرسان.

– يا للجمال. قالت أجات

لم يستطع چيفروا أن يمنع نفسه من الالتفات إليها، فوجد أنها كانت تنظر إلى هوج على وجه التحديد. بهذا الشكل لن تُشفى منه أبدًا؟ ومع ذلك، فمنذ تلك الليلة الشهيرة التى أعقبت ضراوة وقسوة الكونت ريمون دى تولوز، أصبحت أجات تضاجعه وتعطيه جسدها بكل العاطفة والتأجج. كيف له أن يتخيل أنها تفكر فى رجل آخر، وهو يضاجعها؟ تأرجحت مشاعر چيفروا ما بين السعادة الكاملة تقريبًا وشكوكه المؤلمة. لقد كان يعانى أيضًا من إجباره على إخفاء مشاعره والتى كان يود أن يعلنها للجميع.

فى كل يوم، كان چيفروا يكتفى بحماية أجات، وتجنيبها أى مشاركة فى القتال، وعندما كان هوج يعنف الفتى المسكين جيرن، الذى كان لا يُظهر شجاعة أو إقدامًا فى المعارك، كان چيفروا يتولى الدفاع عنه بحماس، وجد صعوبة فى إخفائه.

– أرى أنك إنسان لطيف للغاية! رد هوج على چيفروا فى ليلة من الليالى ثم أكمل: ولكن فى النهاية، لم يجبره أحد على المجىء معنا.

مع ذلك ترك هوج عينيه تتفحصان الفتى الشاب جيرن، ثم اجتاحته موجة غامرة من الحنان. معنى ذلك أن سانشا لن تنسيه أجات أبداً.

– جيرن! ألم تستحق هذه الرحلة، العناء من أجلها؟

كان هوج قد استدعى مساعد چيفروا الذى يهتم بالخيول. أخذت أجات تنظر إليه بتمعن وتركيز تدفقا من عينيها السوداوين، حتى إن هوج شعر بالتحرج من الأفكار التى داهمت رأسه فأخفض عينيه.

– إلڤير، سانشا! هيا انزلا من عربتكما... ها هى مدينة القسطنطينية.

استقبل الكونت ريمون دى تولوز زوجته باحترام حميمى، كان يظهره أمام الآخرين. كانت إلڤير تضع على كتفيها معطفاً أحمر، تتناثر عليه صلبان من الذهب. كانت ترتدى هذه الألوان خصيصاً، فهى المفضلة لدى زوجها، الذى قبّل يدها بحماس. أشُيع فى المعسكر أنها كانت حاملاً. أمسك هوج بيد سانشا، لينزلها من العربة، وهو يوضح لها منظر المدينة التى ظهرت عند الأفق.

– خسارة أن الأسقف ليس معنا، ليتمتع برؤية هذا المنظر البديع! قال الكونت ريمون دى تولوز.

وفعلاً كان الفرنجة قد اضطروا إلى ترك الأسقف أديمار دى مونتيل فى سالونيكى باليونان، بعد أن أعياه التعب، فلم يستطع أن يكمل معهم الرحلة. لقد أضعفته كثيراً إصابة رأسه، والتى تسببت فيها قبائل المغول.

- فليساعدنا الرب! قال الأسقف بصوت ضعيف هش، وهو يودع أصدقاءه.

اتفق معهم أن ينضم إليهم فى وقت لاحق. أو على الأقل أعرب عن أمله فى ذلك، مثل الكونت دى تولوز، حيث كشف غيابه عن كل السلطة التى كانت لدى الأسقف، ولهذا بعد تقدمهم من منطقة سالونيكى، وجد ريمون دى سان چيل، صعوبة بالغة فى التحكم فى القوات، ومنعها من النهب يميناً أو يساراً. فى الواقع لا بد من القول بأنهم كانوا جياعًا. لقد وعدهم مبعوثو الإمبراطور ألكسيس بالمؤن والغذاء، ولكنهم ما زالوا ينتظرون.

- أيها الكنسى، فك مخطوطتك، لا بد أن لديك أموراً لتحكيها لنا. انظروا، ها هم بعض الفرسان قادمون!

لقد أخبرهم مبعوثو الإمبراطور ألكسيس أن جودفروا دى بويون، كان فى القسطنطينية منذ فترة أعياد الميلاد. لقد تتبع من فترة قليلة هوج دى فيرماندوا، شقيق ملك فرنسا.

- أنا لا أتحدث عن الحملة الشعبية لبطرس الناسك. أضاف بصوت متفهم تيودور، كبير مبعوثى الإمبراطور، وهو رجل طويل القامة أسود الشعر، ضخم الجثة، ثم أكمل: هؤلاء البرابرة المتوحشون الذين أرسلتموهم بقيادة هذا الملعون بطرس الناسك!

- لقد غادر وحده، دون أن نطلب منه شيئًا. قال الكونت ريمون دى تولوز، محتجًا

- أعلم... فقد أخبرنا جودفروا بذلك. وقد سبقكم بساعات قليلة بوهموند، أمير منطقة تارانت.

- إن الإمبراطور يرغب فى مقابلتك. قال تيودور لريمون دى تولوز، ثم أضاف: سوف نأتى لاصطحابك أنت، وحاشيتك ليلة احتفال القديس چورچ[١].

- و المؤن الغذائية التى لا بد أن يرسلها لنا الإمبراطور؟ قال الكونت دى تولوز، مطالبًا.

- أليس لديكم ما هو ضرورى؟

قال تيودور، وهو يشير إلى الأوانى المعلقة فوق النيران على عصى تستند على ثلاثة قضبان متقاطعة. بالقرب منهم، كانت هناك أيضًا خراف تُحمر مرشوقة بواسطة جذوع خشبية طويلة.

---

(١) الموافق ٢١ أبريل.

– لا أعتقد أن لديكم ما تشتكون بسببه. أكمل تيودور: لقد استقبلنا شقيق الملك فقط بملابسه التى عليه بعد أن فقد كل شىء فى البحر[1]!

– دائمًا ما يجد المرء من هو أتعس منه! رد ريمون دى تولوز، وهو يهز كتفيه باستخفاف.

– ولكن الفرنچة دائمًا متحمسون ومتهيجون، ودائمًا مفتوحو الفم أمام كل ما هو ثمين! قال تيودور وهو يضحك، ساخرًا.

بدا الكونت ريمون منزعجًا، فقد شعر بالإذلال أن يُنبذ هكذا خارج أسوار البلدة، وهو يراقب المبعوث الإمبراطورى يبتعد. ازداد حنقه، وصاح بغضب عارم:

– نحن جنود الرب، نستحق ترحيبًا أفضل من ذلك. ألم نقم لتونا بإنقاذ الأرض التى لم يكن فى مقدورهم الإبقاء عليها؟ تساءل الكونت، وهو يشير إلى أسوار وسكان المدينة التى لاحت من بعيد.

بعد ثلاثة أيام، وفى اللحظة التى بدأت تشتد فيها حرارة الشمس، ضاربة السهل الواسع، وأمام جدران مدينة القسطنطينية، ظهر مبعوثو الإمبراطور البيزنطى من جديد.

---

(١) لقد اجتاحت عاصفة هوجاء قوارب هوج دى ڤيرماندوا فى البحر الأدرياتيكى، وأغرقتها جميعًا. قام بإنقاذه چان، ابن شقيق الامبراطور، حاكم منطقة دورازو، ثم قام بتوصيله إلى مدينة القسطنطينية بوسائله الخاصة.

تقدم الكونت ريمون وحاشيته، والتى اختارها بعناية، وفى الساعة الرابعة عصراً، عبروا البوابة الذهبية، وأمامهم صفا الجدران الشهيرة التى أمر ببنائها الإمبراطور تيودور، والتى بُنيت من الأحجار والطوب تتخللها بشكل منتظم أبراج مربعة بدت مهيبة للغاية. عن كثب، كان ارتفاعها الشاهق يثير الرهبة والدهشة.

- إن ارتفاعها لا يقل عن خمسين قدمًا[١]، هكذا قدر روبير، ثم أضاف: وهى تبدو موحشة وغير مرحبة. قال روبير، وهو يتطلع إلى الجنود الذين يحملون الأقواس، وقد بدت الأسلحة المصوبة على أهبة الاستعداد للعمل لأتفه الأسباب.

بين صفى الأسوار المحصنة، امتدت أرض واسعة على شكل شريط بين الأسوار[٢].

انتزع الباب الذهبى صيحات إعجاب الفرنجة، رغم أنهم كانوا قد رأوا قوس نصر مماثلاً فى سالونيكى ذا مداخل ثلاثية مقوسة رائعة، مبنية بفن راق فى السور العظيم.

- ها هو السجن والذى به آبار الدم! أعلن تيودور، وهو يبتسم ابتسامة خفية ثم أكمل: إننا نرمى برؤوس المحكوم عليهم بالإعدام فيها، حتى تقذفهم المياه إلى البحر، رافقت كلماته لفتة غامضة فى اتجاه الغرب.

---

(١) يبلغ طول القدم ٠,٣٣ متر.

(٢) هذه الأرض السهلية على شكل شريط، وكانت تمتد ما بين ١٥ و٢٠ متراً.

اقشعر بدن روبير، ثم فضل أن يحول نظره فى اتجاه النحوت الموجودة على الباب الذهبى، وقال:

- انظروا، إنها فيلة.

بدا روبير النحات منبهراً بالنحوت البديعة، فأخرج على الفور دفتر مخطوطاته، وبدأ يرسم مقلداً شكل الحيوانات فى خطوط كبيرة.

- هيا... تعال... صاح چيفروا فى روبير ثم أكمل: سوف تتوه منا... تعال الآن ثم عد لاحقًا.

- ومن خلال هذا الباب، يعود إمبراطورنا بعد أن يحقق انتصاراته. أضاف تيودور.. ساروا مسترشدين بمبعوثى الإمبراطور، حيث كانوا يرتدون زيًا طويلاً وفوقه معاطف دائرية بيضاء مطرزة عند الأطرف بالذهب. هكذا استطاعوا أن يقتفوا أثرهم من بعيد، وهم يفرضون أنفسهم على المارة، مخترقين المدينة الصاخبة المزدحمة.

فى الشارع الرئيسى للبلدة، والذى سلكه الفرنچة، اكتشفوا حشوداً من الأهالى يرتدون ثيابًا ذات ألوان متنوعة، على ما يبدو غير منضبطين، فضوليين، منهم النشط ومنهم الكسول. راح العديد منهم يراقب عن كثب القافلة الصغيرة للزوار الجدد، وهم يتكئون بوهن على نهايات قمم الأعمدة الشاهقة والمشيدة فى صف منتظم نحو السماء، تزين قممها أوراق أشجار منحوتة.

- بحق القديسة العذراء... يا للروعة!

لم يعرف روبير إلى أين ينظر من فرط انجذابه إلى كل ما هو حوله. بدا تيودور، كبير مبعوثى البازليكين، ضاحكًا، وأخذ يشرح لروبير كيف تسببت الهزة الأرضية الأخيرة فى انهيار بعض هذه الأعمدة.

– هزة أرضية؟

– نعم... إن هذا يحدث هنا من وقت لآخر.

– وهذا يتسبب فى أنهيار مثل هذه الأعمدة؟

أصدر وقع حوافر الخيول على البلاط الحجرى الكبير الذى يرصف الطريق رنينًا ذا صدى. كان هذا شيئًا آخر جديدًا وفاخرًا تفاجأ به الصليبيون، وهم الذين اعتادوا على الشوارع المفروشة سواء بالطين أو بالكاد بطبقة من الطوب غير المنتظم.

تفرعت من الشارع الرئيسى العملاق شوارع صغيرة متعددة، تمتد بشكل غامض فى دروب ومتاهات، كاد روبير يقتله الفضول، كى يكتشفها! لمحوا بها على مرمى النظر منازل خشبية، وبعضها طينية، وكذلك مبانٍ أكبر حجمًا، مصنوعة من الحجارة والطوب. لمحوا أيضًا محالاً تجارية، تحفل بالسلع الوفيرة، تجتذب الزبائن الذين كانوا يتوقفون أيضًا أمام مناضد البائعين، ليقايضوهم على الأرانب البرية أو الأسماك. افترشت أرضية الشارع سلال كبيرة، تعج بمختلف أنواع الفواكه والخضراوات.

بعد أشهر من الحياة القاسية عانى فيها الصليبيون من الجوع ونقص الغذاء وغيرهما من الآلام، شعروا وكأنهم يدخلون الجنة. راح الأطفال يجرون ويلهون من حولهم.

- هكذا سيسيل لعابنا. همس هوج قائلاً، وهو يشير إلى سانشا، كى تنظر إلى الحوذى، الذى مر من أمامهم، وهو يقود عربة تجرها أربعة خيول بمهارة، وراح يلهبها بالسوط بحماس فى اتجاه الجدار.

بدت أمامهما واضحة، عربة خشبية فاخرة تزين مدخلها قرون العاج، وأيضًا ستائر أرجوانية مرفوعة لتكشف عن أمرأة شابة، تجلس ممددة بإغراء، وتبتسم لهوج بوقاحة، وترتدى غلالة قطنية شفافة. نفخ هوج جذعه على فرسه فى خيلاء. كان خادمه كلوڤيس قد قام بحلق ذقنه له منذ فترة قصيرة، هكذا بدا هوج فى كامل أناقته بسترته الأرجوانية، التى وضع فوقها المعطف السماوى. كانت أجات تنظر إليه بغيرة بعد أن لاحظت اهتمامه بنفسه، وبوجاهته، بل وجدته جذابًا للغاية، حتى إنها لم ترفع عينيها من على مؤخرة رقبته، حيث كانت تسير بجوادها خلفه. راحت تتمعن شعره القصير، الذى علا قفاه، وتمنت بشدة أن تلمسه وتمرر أصابعها بينه. ومع ذلك، كان عليها أن ترضخ لحقيقة أن چيفروا، وهو أصغر سنًا، كان أيضًا فارسًا وسيمًا. ففى وسط كل هؤلاء الناس ذوى البشرة الداكنة والشعر الأسود، كان چيفروا، يبدو أشقر جدًا ورقيقًا ببشرته الفاتحة.

بالرغم من ذلك، وحتى إذا كان الفرنجة فى أفضل حليهم، فقد بدوا بهيئة متواضعة للغاية، مقارنةً بكل من حولهم، والذين كانوا يرتدون معاطف من الحرير اللامع، أو من أنسجة تعج بألوان مختلفة. فقط كان الرهبان شعثًا، ويطلقون لحاهم الكثيفة وملابسهم متواضعة للغاية. كانوا يلوحون برسومات دينية فى أيديهم.

– القديس ميشيل. قال أحدهم

– القديس چورچ يقاتل معكم. قال راهب آخر

عندما عبرت القافلة الصغيرة منتدى وقلب مدينة القسطنطينية، فوجئوا جميعًا بمساحة المكان الهائلة. لم يتعود إلا القليل منهم على مثل هذه المساحات.

– إن ميداننا هيرم، يبدو صغيراً، مقارنة بهذا المكان. قال روبير، وهو يقفز نازلاً من على حصانه، لكى يذهب ليفحص الرخام السماقى الوردى اللون للأعمدة عن كثب، ويلمسه.

– هوج... انظر إلى هذه المادة... إنها ناعمة الملمس بشكل لا يصدق.

لمعت عينا روبير بالطريقة نفسها التى لمعتا بها عندما أطلع هوج على عمله النحتى لمثال حواء. هكذا نسى كل عذاباته... وهكذا لن يشعر بالمرارة بعد الآن، عندما تلتقى عيناه بعينى برتيلد. كما حياه إبل دى سوج، بطريقة ودية.

- إن الإمبراطور البازيليكى فى انتظاركم. كرر تيودور على الكونت ريمون دى تولوز، وقد بدا غير راضٍ عن تقدم القافلة البطىء، ثم أكمل: ها نحن قد وصلنا إلى القديسة صوفى، أكبر كنيسة للمسيحيين.

بكل فخر، أشار تيودور إلى مبنى ضخم، تتوجه قبة عملاقة يدعمها العديد من وصلات حجرية مقوسة الشكل.

- بحق القديس ساتورنان، فأنا لا أكاد أصدق عينيّ! قال الكونت دى تولوز، الذى كان غير آبهٍ، حتى هذه اللحظة إلى كل تلك الأجواء الترفيهية للمدينة.

- جيرن، هل كان يمكنك تخيل كل هذا؟ سأل چيفروا الذى كان يسعى طوال الرحلة إلى إشراك أجات أفراحه ودهشته.

- سيدى... أنا لا أعلم شيئًا خارج حدود قصر سيدى اللورد، وكنيسة قريتى الصغيرة. ردت عليه أجات بهدوء، حيث لم تجرؤ أن تفصح عن مدى انبهارها بالمكان. من عبارتها هذه لاحظ چيفروا فقط، كيف ضغطت أجات على كلمة "سيدى اللورد"، فشعر بوخز فى قلبه للحظة.

سارت القافلة الصغيرة بعد ذلك موازية لسور ساحة مستديرة، تشبه مضمار السباق، مما أثار فضولهم من جديد، ولم يستطع تيودور الإجابة عن كم الأسئلة التى راحوا يسألونها.

- لقد وصلنا. ها هو باب الساحة، وهو واحد من ثلاثة أبواب تؤدى إلى القصر.

وقف حراس وكأنهم يشكلون حاجزًا مزدوجًا، يرتدون زيًا أبيض ويمسكون بأقواس فى أيديهم، فى فناء بيضاوى شاسع المساحة يتوسطه حوض كبير من الرخام الوردى اللون. بعد أن تركوا خيولهم وعرباتهم فى الفناء، صعدوا درج المدخل المصنوع من الرخام الرمادى، والذى يقود إلى قاعة فسيحة، لا تقل مساحتها عن مائة خطوة طولاً وخمسين عرضًا. طُلب من الفرنجة أن يودعوا أسلحتهم ورماحهم فى مكان مخصص لها، وراحوا يملون عيونهم المنبهرة بفخامة ورحابة المكان. ظهرت القبة الذهبية المصنوعة من الفسيفساء، تدعمها أعمدة من الرخام المعرقة بالأزرق. وقف حراس ذوو بشرة سوداء هادئين، بلا حراك، مشكلين حرس شرف مبهرين بدروعهم ورماحهم الذهبية، يقودون إلى بابين، فُتحا ببطء، كما لو كانا يساعدان على الإبهار، ولكى يسلكوا منهما إلى قاعة أخرى أكثر ترفًا.

تقدم ريمون دى تولوز، وهو منبهر وإلى جانبه إلڤير، يليهما هوج وسانشا. انسدلت برقة الستائر المتعددة الألوان الأرجوانية السميكة على البلاط المزجج المماثل فى اللون، والذى كان يكسى الأرض. بدا الإمبراطور ألكسيس، جالسًا على عرشه الذهب، تحت مظلة ذهبية، ترفعها أربعة أعمدة من الفضة.

– إنه الإله على الأرض! همس ريمون أمام جلالته، والذى كان يرتدى رداء من الحرير الفضى المطرز بزهور ذهبية، بينما ترصع أطراف الرداء الأحجار الكريمة، كان من قدموا من فرنسا، حيث لا الملك ولا البابا،

وحتى إذا لم يكونوا قد التقوا بهما من قبل، لم يكن لهم أن يشاهدوا مثل هذا المنظر، ولهذا بدوا جميعًا، وكأنهم لا يصدقون أعينهم. ألم يكن هذا هو أمير السماوات، وقد نزل على الأرض فى هذه الجنة من الجمال والروعة؟

جلس الإمبراطور ألكسيس فى حالة سكون كاملة، وكأنه جماد، تغلفه غلالة تتقاطع فوق ردائه، ويسطع لون حريرها الذهبى بشدة، يضع على رأسه بزهو، تاجًا من الذهب المرصع بفصوص مستطيلة من الماس والياقوت والزمرد. يمسك فى يده بصولجان، يعلو قمته نسر منحوت من الفضة، بينما يضع يده اليسرى على الكرة المستقرة على ركبته. وأخيرًا بدت قدماه ممددتين على سجادة من ألوان متعددة، حيث ينتعل حذاء بنفسجى اللون مطعمًا بنسور ذهبية(١).

- بحق القديسة العذراء، إنه يبدو كمسيح الكاتدرائية. هتف روبير بصدق وحسن نية، ولكن سرعان ما حدجه الكونت بنظرة لوم قاسية.

و مع ذلك تحتم على الكونت دى تولوز أن يعترف بأن مسيح القديس سرنان(٢) فى بلدته الوردية الجميلة، لم يعد له وجود أو أهمية، مقارنة بالإمبراطور ألكسيس.

---

(١) كان النسر هو شعار عائلة الكومنينوس، وهى عائلة الإمبراطور.

(٢) تم نحت تمثال هذا المسيح فى ورشة النحات برنارد جيلدوين فى السنوات ١٠٨٠-١٠٩٠ و كان يُشار إليه دائمًا بالمسيح الضخم الجثة، وما زال هذا التمثال موجودًا حتى الآن فى قاعة القديس سيرنان بمدينة تولوز.

- أليست هذه هى القديسة العذراء إلى جواره؟

بدا إبل دى سوج، وكأنه لا يستطيع أن يرفع عينيه من على المرأة الشابة التى كانت تجلس بالقرب من الإمبراطور على عرش أكثر تواضعًا بقليل من عرش الإمبراطور.

- إنها الأميرة آن، الابنة البكر للإمبراطور البيزنطى. قال تيودور، محددًا على عجالة باحترام كبير[1].

"من الواضح أننى لا أحب إلا الحسناوات ذوات الشعر الداكن"، راح چيفروا يفكر، والذى كان انبهاره مباغتًا، بل كاملٌ، بهذه الأميرة ذات الجسد النحيل المغلف بالذهب والفضة، وفى رقبتها قلادة ضخمة من الأحجار الكريمة، وفى أذنيها أقراط خضراء ثقيلة. وبرغم أنها بدت غائبة عن الحضور ومتباعدة، فى الوقت نفسه بدت ذات إغراء جسدى نابض بالحياة.

بعد لحظات من الصمت الثقيل ترامت إلى مسامعهم موسيقى بعيدة. بدأت عينا صاحب الجلالة المتسلطتان ذواتا البشرة الداكنة، فى تفحص كل من هؤلاء الرجال، الذين قطعوا هذا الكم الهائل من الفراسخ

---

(١) آن كومنينوس (١٠٨٥-١١٥٣) كانت الابنة البكر للإمبراطور ألكسيس، والتى عاشت حياة ملحمية ،ألفت كتاباً عنوانه "ألكسياد"، تصف فيه بشكل مفصل الفرنجة الصليبيين وتندد بوحشيتهم، وفى الوقت ذاته تسلم بشجاعتهم ومزاياهم العسكرية.

وعانوا الكثير من المشاق والمحن. عندما جاء الدور على هوج، لم يهتز رمشٌ من عينيه الرماديتين، بل ظل ينظر بتحدٍ وجرأة إلى عينىّ الإمبراطور. بالنسبة لچيفروا فقد بدا أكثر تواضعًا، وهو الذى لفت الأنظار إليه، بسبب شعره الأشقر الغريب أمام كل هذا اللفيف من الرجال ذوى الشعر الداكن، فراحوا ينظرون إليه بفضول. أما أجات فكانت متقهقرة قليلاً إلى الخلف، ولهذا أفلتت من الاختبار.

بعد ذلك بدأ الإمبراطور فى التحرك، وكأنما كان تمثالاً، ثم دبت فيه الحياة ببطء؛ فراحت شفتاه تتحركان. بصوت هادئ، لا مبال، رحب الإمبراطور ألكسيس بالكونت ورفاقه. شكره ريمون بإيماءة من رأسه، وبانحناء ليس أكثر من اللازم.

ثم جاءت اللحظة التى حدثت فيها سلسلة من الأحداث، لن ينساها الفرنچة أبدًا، حتى ولو عاشوا لمائة عام. لقد راحت الأسود البرونزية التى تحيط بالإمبراطور تدير أعينها المصنوعة من البنور الساطع، ثم راحت تفتح أفواهها وتزأر، ولم يعرف أحد كيف تمت تلك الحيلة. ارتعبت إلڤير فتراجعت ثلاث خطوات إلى الوراء. حاول الإمبراطور ألكسيس أن يهدئ من روعة الفرنچة بإشارة واثقة من يده، ولكن لم تكن هذه هى نهاية دهشتهم. وبالفعل، بدأ العرش الإمبراطورى الذهبى، يرتفع فى الهواء فجأة، ويختفى عن أنظارهم. بدوا جميعًا مصدومين من وقع المفاجأة، ثم راحوا ينظرون إلى تيودور، الذى وقف يشير بعلامة الصليب على صدره باحترام وحماسة. اختار هوج أن يضحك على هذا المنظر،

فتشجع الآخرون على الضحك وراءه بطريقة هيستيرية، حتى صعب على المبعوث أن يوقفهم، إلى أن نزل العرش مرة أخرى فى نهاية الأمر.

أمام الفرنچة الذين كانوا مشدوهين، بسبب هذه التمثيلية التى لا تُصدق، بدأ الإمبراطور ألكسيس فى إلقاء خطبة طويلة وسط صمت ثقيل. كشف الإمبراطور فى هذه الخطبة عن مخاوفه، وشرح سبب استقبالهم بشكل متحفظ إلى حد ما. هكذا اكتشف الكونت دى تولوز، هو وأصدقاؤه عدم الثقة التى يشعر بها الإمبراطور تجاههم.

– لا ينبغى على الفرنچة أن يتخيلوا أنهم يستطيعون تجريدنا من ممتلكاتنا، نحن من تحتم علينا أن نتخلى تدريجياً عن أراضينا، ونتركها للعرب المتوحشين. إذا كان محاربوكم سيقومون باسترجاع أراضينا، فنحن ننتظر أن تعيدوها إلينا. أما بالنسبة للأراضى، التى استُعمرت حديثًا، فيجب على الفرنچة أن يُحرروها، ويتمسكوا بها نيابة عنا، وبالتالى أن يقسموا بالعهد على ذلك.

أخذ تيودور يترجم للزوار، كلمات الإمبراطور بدقة وتبجيل.

لقد كرر الإمبراطور ألكسيس كلمة "القسم" مرتين.

– مثلما فعلوا من قبلكم القادة الآخرون، جودفروا وبوهيموند وهوج دى ڤيرموندوا. هكذا قال الإمبراطور ألكسيس بإصرار، بإيماءة من رأسه، أراد بها أن يكون مقنعاً.

عندما انتهى من كلمته، دُعى الكونت ريمون للتحدث والرد على الإمبراطور. لقد فهم ريمون الآن، وعلى نحو أفضل سبب استقبال البيزنطيين الفاتر لهم. فليس فقط لم ير الإمبراطور أنهم جنود الرب والبابا، بل الأكثر من ذلك رأى أنهم غزاة حقراء. لقد كان هو من طلب منهم يد المساعدة، والآن يخشاهم. راح الكونت ريمون يفكر فى الأسقف أديمار دى مونتيل، وشعر بالأسف العميق، لعدم وجوده معهم! كان سيستطيع، ولا شك، أن يعبر عن مدى صدق وعمق نياتهم، وكان سيفرض سلطته على الإمبراطور.

بدا الكونت عصبيًا، ومتأثرًا بشكل غامض، بدأ كلمته بتوجيه الشكر إلى الإمبراطور على حسن استقباله لهم، دون أن ينسى ذكر المناغصات التى صادفوها فى رحلتهم، والتى لم تتوقف إلا عندما لمسوا حماية ودعم الإمبراطور. بل إنهم لم يكن فى وسعهم الوصول إلى مدينة القسطنطينية إلا بفضل خبرتهم وشجاعتهم. فلولا المعونات والمؤن، التى أرسلها لهم الإمبراطور، لكانوا قد ماتوا من الجوع منذ زمن طويل.

كان اللوم بالكاد غير مباشر، صادرًا من الكونت بصوت هادئ، ولهذا انعكس أثره على وجه الإمبراطور، الذى سرت قشعريرة طفيفة على وجهه، وبدا أخيرًا متأثرًا. كانت الأميرة تنظر إلى والدها. فبين الغلالة الشفافة التى تغلف جسدها، وفوق الوشاح العريض المحاك بخيوط الذهب، وترصعه الأحجار الكريمة، ظهر وجهها الرائع مجتذبًا أنظار كل الرجال. كان إبل يقف بقوة منفرج الساقين، مكتوف الذراعين،

ولم تنزل عيناه من على الأميرة آن، وكذلك چيفروا. لم يأبه أىٌّ منهما بالكلام الذى كان يقوله الكونت دى تولوز، والذى أخذ منحى أكثر جدية وخطورة الآن.

- أنا لم آت إلى هنا، لكى أدين بالعرفان للورد آخر. واصل ريمون، وهو ينظر مباشرةً فى أعين الإمبراطور بتحدٍ وجرأة: ولا لمحاربة أى كائن كان، إلا للسبب الذى تركت من أجله بلادى وممتلكاتى.

عندما ترجم تيودور هذه العبارة الأخيرة، تحرك الإمبراطور ألكسيس بارتباك واضح على عرشه. طالعته ابنته آن، وهو يناول الصولجان والكرة إلى معاونه، الذى كان يقف وراءه مباشرة، ويرتدى زيًا أزرق. هكذا وبعد أن تخلص من متعلقاته، نزل الإمبراطور من على عرشه، ثم وبعد لحظات قليلة، بدأ يتحدث من جديد بصوت محايد، ولكن سريع غاضب، كما لو كانت كلماته طلقات هادرة:

- فلتوصلوا ضيوفنا إلى دير القديس كومو. بدت العبارة الأخيرة جافة بشكل واضح.

بعد أن أحنى تيودور جذعه إلى الأمام بكل احترام وتبجيل، كعلامة على إطاعة الأمر، طلب من الفرنجة أن ينصاعوا بسرعة. فى هذه اللحظة، وقع شىء غيّر مجرى الأحداث. سُمعت صرختان فى آن واحد، كسرتا حاجز الصمت الذى خيم على المكان بعد أمر الإمبراطور.

- سانشا...

– إيزيدورو...

رأى هوج سانشا، وهي تنهار على الأرض مغشيًا عليها أمامه. أنطلق رجل داكن الشعر، ممتلئ الجسم، قصير القامة، من بين حرس البلاط الإمبراطورى، ويُدعى بوتيميد. قبل أن يتحرك هوج، كان هذا الرجل قد أحاط سانشا بين ذراعيه وحملها برفق.

– سانشا... سانشا. راح الرجل يردد، وهو يميل على المرأة الشابة التى انسدلت خصلات شعرها على القماش الحريرى الفاتح لسترته.

هم الكونت ريمون دى تولوز بالإسراع تجاه هذا الوقح، عندما أمسكت به زوجته إلڤير قائلة :

– إنه إيزيدورو، زوجها.

انهمرت ببطء دمعتان كبيرتان على وجنتى الرجل، وهو يحمل زوجته ويتقدم بها إلى أحد الأبواب. أفسح لهما الجميع الطريق، وكما هو الحال دائمًا فى هذا القصر الرائع، إنفتحت الأبواب بأعجوبة، ثم انغلقت خلفهما.

بدا هوج مذهولاً، ولم يرد أن يصدق ما سمعه، ولهذا التفت إلى إلڤير،متسائلاً فقالت له:

– أؤكد لك أنه إيزيدورو زوجها يا صديقى المسكين هوج! هكذا صاحبت إلڤير كلماتها بنبرة صوت متعاطفة.

– لا أعـرف إذا كنت مـسكينًا أم لا، ولكن ها أنـا أرمل من جـديد.
رد هوج. راح هوج يفكر فى اللعنة التى حذرته منها الخـادمـة إيتـينت والتى حلت بدورها. لقد اختفى الزوجان، واختفيا من حيث لا يعلم أحد من أى باب. من خلفه كانت أجات لا تفارقه بنظرها. اضطر چيـفـروا آسفًا أن يحيد بنظره عن الأميرة، وراح يراقب أجات وقد استبده القلق. فبعد الحلم الرائع الذى عاش فيه لبضع لحظات، بدت العودة على أرض الواقع قاسية.

عاد كلٌّ منهم إلى همومه. لقد وضع الكونت ريمون دى تولوز نفسه فى موقف لا يُحسد عليه بمعارضته رغبة الإمبراطور. لقد ضاعت من هوج المرأة التى أنسته أحـزانه خـلال الأسـابيع الماضـيـة، وبالنسـبـة لچيفروا، فبات يخشى أن تستسلم أجات من جديد أمام سـحر هوج بعد أن أصبح خاليًا. أما أجات، فلم تعد تعلم ماذا تفعل، بعد أن كانت ترغب فى الانتـقـام. وبالنسـبـة لإبل دى سـوج، فلم تعـد تسيطر عليـه إلا فكرة واحـدة: أن يغرى هـذه الأمـيرة الجميلة، ولكن لم يخف انبـهـاره المفاجئ بها على برتيلد المسكينة.

تقهقر الجميع إلى المسكن الذى حدده لهم الإمبراطور. لم يسترع انتـبـاهـهم بعـد الآن الرخـام، ولا التـرف ولا الألوان، ولا صـخب المدينة، حتى ولا اكتشاف منظر البحر الخلاب، الذى بدا وكأنه شاشة ضخمة ذات اللون اللازوردى، وقد راح يتحرك العديد من المراكب على صفحته

ذهاباً وإياباً. على الرغم من أن القليل منهم هو الذى أتيحت له الفرصة من قبل أن يتأمل مثل هذا المنظر.

فى دير كوسميديون، استقبل بوهيموند دى تارانت[1] الكونت دى تولوز بترحاب كبير. أثارت هيئته دهشتهم فهو عريض المنكبين رغم كونه أحدب بشكل طفيف، بينما بدت قامته أطول بكثير، لكونه هزيل الجسد. شعره أشقر، قصير للغاية بشكل غريب، أملس الجسد، وهو يتفحص ضيوفه بعينيه الزرقاوين التى راحتا تتحركان فى وجهه ذى الملامح القاسية.

ابتسم هوج رغم كل شىء، وهو يرى التناقض المدهش بين قائدى الجيوش. فالأول قصير القامة وممتلئ الجسم، داكن الشعر، أسود العينين، ألا وهو الكونت دى تولوز، الذى بدا على النقيض مع الأول. أثناء تناول وجبة العشاء، والتى أُرِيق بها النبيذ اليونانى السيئ المذاق، الممزوج بالمادة اللاصقة الموجودة فى جذوع الأشجار، وانضم إليهم زعماء الحملة الآخرون. فها هو جودفروا دى بويون، وكان طويل القامة هو الآخر وأشقر. اشتهر بقوته الهائلة، وقد أُعجب به الكونت ريمون دى تولوز على الفور، حيث وجد أن كلمته كانت بسيطة ومباشرة. أما هوج دى ڤيرماندوا، فقد بدا هزيلاً وضعيفاً، مقارنةً بهذين العملاقين

(١) بوهيموند دى تارانت (١٠٥١-١١١١) هو ابن دوق كالابريا دى نورمان، ويدعى روبير جيزكار. لقد شارك من قبل فى النضال مع والده ضد الإمبراطور فى ألبانيا وكان على دراية كبيرة بنظام الحكم البيزنطى.

الأشقرين. فهو ليِّن المعشر، لا يثرثر كثيراً، بل اكتفى طوال الأمسية بأن يعلق بالإيجاب فقط على ما يقوله الآخرون. لقد كان حديثهم بسيطاً، فقط، أرادوا أن يجعلوا الكونت دى تولوز أن يقسم بيمين الولاء للإمبراطور، مثلما فعلوا هم من قبل.

– سواء خطأ أو صواباً. أقر جودفروا الذى اضطر الإمبراطور أن يقطع عنه المؤن والغذاء، لكى يجبره على أن يقسم بيمين الولاء[١].

أما شقيقه الأصغر بودوان دى بولونى، لم يستطع أن يمنع نفسه من أن يقول: "هناك خطأ، أعتقد ذلك" مما أثار حفيظة البارونات الآخرين، وأبهج ريمون دى تولوز الذى لم يقرر أن يذعن.

هز بوهيموند كتفيه باستخفاف، ثم قاد الكونت ريمون إلى قاعة تحفل بالكنوز، التى منحها له الإمبراطور. كيف له ألا ينبهر بكل هذه المشغولات من الذهب والفضة اللامعة، أو بأكوام الأثواب أو الحرير الثمين ذى ألوان متعددة أو القماش الدمشقى السميك المصقول ذى الانعكاسات؟

– لقد قلت للإمبراطور: لو كنت أمتلك كل هذه الثروات، لأصبحت سيد خيرات هذه البلاد. فقال لى: كل هذا لك...

---

(١) كان جودفروا تابع الإمبراطور الألمانى هنرى الرابع، قد رفض فى البداية أن يقسم بالولاء، حسب العادات الإقطاعية، التى تمنع القسم بالولاء لسيدٍ آخر.

– ومع ذلك، فإننا لن نسمح لأحد بأن يشترينا فى الوقت الذى سنذهب فيه للقتال من أجل أنبل وأجمل سبب، يمكن أن يُتاح لنا. قال الكونت ريمون دى تولوز بصوت راعد مستاء وقد بدا أخشن من المعتاد.

– المسألة ليست أن يشترينا أحد ، ولكن ببساطة أن نقبل المساعدة فى هذا المشروع، الذى يكلفنا ثروة طائلة.

هكذا رد جودفروا بهدوء على الرغم من أنه كان قد مر بالهواجس نفسها من قبل، ثم أكمل: وبعد كل شىء، فالمدن التى نريد أن نحررها تنتمى للإمبراطور[١]، ولهذا سيتحتم علينا أن نعيدها إليه بمجرد أن نستحوذ عليها.

لم يقتنع الكونت ريمون دى تولوز. لقد بدت له دوافع هؤلاء القادة الطموحين غير مطمئنة. ألم يكن هؤلاء القادة مدفوعين بمصالحهم الشخصية؟ أليس الأحرى بهم أن يكشفوا عن روح الغزاة التى بداخلهم، والمتعارضة مع قرار البابا أوربان الثانى؟

– بحق القديس ساتورنان، فسوف أفكر فى هذا الأمر. قال الكونت ريمون لبوهيموند فى النهاية، لكى يحسم الحديث قبل أن يتركه، ويذهب إلى غرفته، وهو فى حالة مزاجية متعكرة للغاية.

---

(١) هم مدينتا نيقيه وأنطاكية والقدس بالطبع. تجدر الإشارة إلى أنه منذ واقعة هزيمة مانتزيكرت فى تركيا عام ١٠٧١، فقدت القسطنطينية كل أراضيها الآسيوية تقريباً.

كانت إلڤير نائمة منذ فترة طويلة. هدأت أعصابه وهو يتأملها بحنان. ترى أين سيولد هذا الابن الذى تنتظره؟

ذهب هوج هو الآخر إلى غرفته، وكانت غرفة تعبد راهب جُهزت كى تكون سكنًا له. على الفرشة الضيقة راح فى سبات عميق، كان من الممكن أن يفيده ويريُحه، إذا لم تظهر له صورة أجات كل لحظة، كى تؤرق مضجعه. ومع ذلك كانت هذه هى المرة الأولى منذ زمن طويل أن يحلم الفارس هوج بأجات، الفتاة حاملة الحطب. هكذا رآها، ترتدى فستانًا أحمر، أطرافه مبللة، بسبب الأعشاب الرطبة، كما رآها لأول مرة فى قرية الأخشاب.

أيضًا رأى سانشا تنزل من العربة الخشبية، التى كثيراً ما تتبعها فى الأسابيع الماضية. يسبقها فارس ذو بشرة داكنة يمسك بيدها. التفتت سانشا ناحية هوج، ومدت له يدها فى إشارة لا يمكن أن تعنى إلا شيئًا واحد ألا وهو: الوداع. مرت أمامه فى السماء فتحات عديدة فى سور قصره الجديد. بين تلك الفتحات ظهرت وجوه طفليه التوءم. ها هما لويس ومارى قد كبرا. ظهرت من خلفهما أمهما، وهى تلوح بإشارات يائسة.

بعد ذلك بيومين، دُعى الفرنجة من جديد إلى قصر الإمبراطور الذى عقد احتفالاً كبيراً. عند المدخل، لمح هوج سانشا تتقدم نحوه. كانت ترتدى رداء بيزنطيًا مؤلفًا من طبقتين من الحرير الساطع، والذى انعكس بريقه على وجهها المسمر، فأعطاه رونقًا وجمالاً أكثر. إنه لم ير أبدًا امرأة بهذا الجمال. تضع على شعرها الداكن، غلالة فضية، تزينها

نسور صغيرة، وكذلك أقراط ثقيلة تتحرك مع حركة رأسها. راح هوج ينظر بإعجاب، وتقريبًا بحرج، إلى تلك المرأة التى شاركها الفراش، وها هو القدر يسرقها منه. الآن وقد أصبح محرومًا منها، لم يشعر لا بالحزن الذى تلا وفاة مارى، ولا بالألم الداخلى الذى كان يعذبه كلما فكر فى أجات. ولكن هذه المرأة الجميلة جدًا التى لم تعد له جسمانيًا، لم يعد يبالى لها تقريبًا. كما لو كان هذان اليومان الماضيان واللذان قضاهما بعيدًا عنها فى تأمل الأحداث، قد جلبا له الخلاص.

– هوج... أرجو أن تسامحنى. قالت له سانشا، وهى تقوده إلى ركن منعزل، ثم أضافت: لا بد أنهم قد أبلغوك بأننى وجدت إيزيدورو. فبعد أن اقتاده العرب إلى القدس، هرب منهم، وعاد إلى هنا، ثم تم تعيينه كجندى مرتزقة فى الجيش الإمبراطورى.

– هل تعلمين أنه كان من الممكن أن يقتلنا؟ قال هوج، وهو يضحك ساخرًا.

– كلا... فأنا لم أشارك أبدًا فى غزوات ضد جيوش الصليبيين.

هكذا جاءهما الرد من صوت عميق قادم من وراء هوج الذى التفت مندهشًا.

– أنا إيزيدورو. أكمل الرجل وهو يحدق فى وجه هوج.

– وأنا هوج.

– أعرف.

– ألا تريد أن تتقاتل معى؟

– كلا، بل أريد أن أشكرك على رعاية زوجتى خلال تلك الرحلة الطويلة.

ابتسم هوج، بينما نظر له الرجل نظرة قاسية، وقد تجمدت ملامح وجهه.

– إن زوجتك جميلة جداً، فكيف إذن لأى رجل ألا ينهار أمامها؟ قال هوج، معتذراً.

أصبحت نظرة الرجل إليه أكثر قسوة.

– سوف أدخل جناح الإمبراطورة. أردفت سانشا، دون أن تدرك المشاعر العدائية التى تولدت بين الرجلين، ثم أكملت: لقد تأثر الإمبراطور عندما علم بقصتنا وعودتنا إلى بعضنا البعض، ولهذا قرر أن أنضم لجناح الإمبراطورة.

– أنا سعيد لذلك وسعيد أكثر لمعرفة أن الإمبراطور يمكنه أن يترك مشاعره لترق. قال هوج، وهو يضحك.

بدا إيزيدورو غير متأثر بالمرة، وترك هوج لينضم إلى جناح الجنرال بوتيميد. همست سانشا قائلة:

– إلى اللقاء! لقد كنت فى غاية السعادة معك.

تابعها هوج بعينيه. اتجهت سانشا إلى مجموعة من السيدات الشابات، ترتدين أثوابًا ذات ألوان ساحرة كألوان قوس قزح. تلمع حول أعناقهن قلادات ضخمة. لو كان فى حالة مزاجية أفضل، لكان لاحظ أن بعضهن على قدر كبير من الجمال. تفحص فقط واحدة منهن تشبه أجات. راودته فجأة رغبة شديدة فى العودة إلى بلاده.

توقفت فجأة الأحاديث التى كانت تدور من حوله. رُفعت الستائر البنفسجية من على جانبى العرش الإمبراطورى، ومثلما حدث من يومين، ظهرت الأميرة آن إلى جانب الإمبراطور. بدأت الموسيقى تعزف لترتفع تدريجيًا، وتغطى على الأصوات، وهكذا بدأت مراسم الاحتفال.

لوح تيودور بيده، فاقترب أحد المقربين المهمين للإمبراطور من القادة الفرنجة، وهو يرتدى زيًا أزرق داكنًا، تزينه مجموعة من النجوم الذهبية. لقد ارتدى الفرنجة الزى البيزنطى، هم أيضًا. ارتدى جودفروا دى بويون ثوبًا من الحرير البنفسجى اللامع، المقلم بخطوط زرقاء داكنة لا تلمع. ظهرت بشكل أفضل بشرته البيضاء وشعره المائل إلى الإحمرار. تقدم الجميع ثم انحنى راكعًا على ركبتيه أمام الإمبراطور ألكسيس الذى حياه بإيماءة خفيفة من رأسه، ثم أقسم بشكل رسمى على أن يعيد الأراضى الخاصة بالإمبراطور من الكفار. بعد ذلك جاء الدور على بوهيموند، الذى اختار أن يرتدى ثوبًا من الحرير الأزرق المزين بميداليات، مرسوم عليها أسود. أحنى قامته الطويلة، وركع بدوره، مكررًا الوعد نفسه الذى ردده جودفروا. بعده جاء الدور على

هوج دى ڤيرماندوا، الذى بدا متواضعًا، مبررًا قلة الأهمية التى أولاه بها الإمبراطور، الذى اندهش لاكتشاف هذه الشخصية الضعيفة، لشقيق ملك فرنسا. ومع ذلك فقد أدلى بالقسم بصوت واثق وواضح.

بعد ذلك التفت تيودور إلى الكونت ريمون دى تولوز، الفارس المتفاخر، الذى تعلقت به كل أنظار الفرنچة بشغف وتوتر. كالمعتاد، كان يرتدى على الطريقة الغربية سترته البنفسجية التى يزينها صليب ذهبى. تقدم على مهل ناحية الإمبراطور، ولكن دون أن يركع. وقف مشدود الجذع، حتى يعوض ضآلة قامته، ووضع يده اليمنى على المقبض الذهبى لسيفه، ثم راح يعلن بصوت واضح:

– أقسم على أن احترم حياتك وشرفك ولكننى لن أركع، حتى لو كان فى ذلك خطر على حياتى.

نظر جودفروا إلى بوهيموند، الذى كان يضع يده على كم ثوب هوج دى ڤيرماندوا.

– ها هو قائدنا أشجع الشجعان! همس بإعجاب هوج لچيفروا.

من خلفهما، لم تعرف أجات ما الذى رد چيفروا به هامسًا. الأهم بالنسبة لها، هو أن أمامها الرجلين اللذين يملأن حياتها، وهذا يكفى. فمنذ اليوم السابق، ومنذ أن استعاد هوج، على ما يبدو، حريته، راحت كل الأمور تدور فى رأسها.

إنها الآن بعيدة عن رواموں، إذن لم تعد تخشى أن تتم إعادتها إلى هناك، وهكذا راحت أجات تفكر فى إمكانية الكشف عن حقيقتها. ومع ذلك، فقد اكتشفت أيضًا أن چيفروا يهمها هو الآخر. كيف يمكنها إذن أن توفق بين هذين الحبين المختلفين تمامًا؟

ساد الصمت فى القاعة الشاسعة. اشرأبت أجات على أطراف أقدامها، لكى تتمكن من رؤية وجه الإمبراطور الذى لم يُظهر أى تعبير.

– ما الذى سيحدث؟ سأل چيفروا

– لا شىء. رد عليه هوج، قبل أن يُكمل: إن الإمبراطور فى أمس الحاجة إلينا.

كان هوج، ولا شك، على حق، حيث أمر الإمبراطور تيودور، الذى لم يجرؤ على القيام بأى حركة بعد أن ترجم كلمات ريمون دى تولوز الناكسة للوعد، أمره بأن يدعو الصليبيين لوليمة ضخمة على شرف الإمبراطور، منصوبة على مناضد مصنوعة من العاج المرصع بالأحجار الكريمة فى القاعة المجاورة. الأكثر من ذلك أن الإمبراطور ألكسيس تصرف تصرفًا إنسانيًا فجأة فترك عرشه، فترك عرشه، وذهب مباشرة إلى الكونت دى تولوز، وظل بالقرب منه. اقترب منهما خادم، وقدم لهما نبيذًا ممزوجًا بالعسل. أبدى ريمون على الفور إعجابه بطعمه اللذيذ.

فى هذه اللحظة وقع أمر جديد. استغل إبل دى سوج انهماك الجميع فى تناول الطعام، واقترب من المنصة التى كانت الأميرة، مازالت

جالسة عليها، يحيط بها العديد من الخادمات والتابعات. يا له من تدنيس للمقدسات! ففى حركة سريعة، وقبل أن يتمكن أحد من التدخل، جلس إبل دى سوج على العرش الإمبراطورى. ذُهلت الأميرة آن من جرأة ووقاحة الفارس، فنظرت إليه بحذر، ثم استغرقت فى الضحك.

– ماذا تفعل؟ انتهت الأميرة من سؤاله بالفرنسية، فراح الفارس يحدق فى وجهها بدوره، وقد بدا مندهشاً.

– لقد تعبت... فقد طال تأملنا لوالدك، وهو جالس، بينما نحن وقوف. رد عليها إبل، والابتسامة تعلو شفتيه.

لمح إبل برتيلد، واقفة إلى جانب إلڤير وما إن رأته فى مكانه هذا حتى ذعرت، وراحت تلوح له بكلتا يديها. لم يأبه لها إبل بالمرة، بل راح يطالع الأميرة، فوجدها أكثر جمالاً عن كثب. كانت طبيعة بشرتها رقيقة جداً، بينما أضاف طابع الحسن رونقًا أكثر لذقنها الدقيق، بينما ظهرت أسنانها ناصعة البياض بشكل غير عادى بين شفتيها المكتنزتين والمطليتين بلون أحمر غامق. فصل أنفها المستقيم بين عينيها لوزتى الشكل واللتين لا تطلبان من المرء إلا الابتسام والنظرة الحانية.

أدار الإمبراطور ظهره. هرول تيودور مفزوعًا ناحية إبل، متوسلاً إياه أن ينهض من على العرش.

– لقد ظل إمبراطوركم جالساً، بينما كنا نحن، الفرسان الشجعان الذين عانوا الكثير حتى يأتوا إلى هنا، واقفون. رد إبل بوقاحة على تيودور

– ليس من عادة أباطرة الرومان أن يتركوا رعاياهم يجلسون فى الوقت نفسه الذى يقفون هم فيه أيضاً. أوضحت له الأميرة آن.

بإشارة من تيودور، سارع اثنان من الحراس السود المسلحين بأدرع وحراب من الذهب، وقبضا على إبل. ندت من برتيلد صرخة، جعلت الإمبراطور ألكسيس يلتفت، فشرح له تيودور الموقف. ابتسم ألكسيس، ثم أشار للحارس أن يأخذوا الفارس الفرنچى قبل أن يهمس لريمون دى تولوز قائلاً:

– تعلم جيداً إننى لا أتقبل كل شىء... سوف يُطلق سراح هذا الفارس فى لحظة مغادرتكم.

لمعت عينا الإمبراطور بمكر. اندهش ريمون، وهو ينظر إليه، حيث وجد أنه يكن له بعض الاحترام. رفعا معًا كأسيهما الذهبيتين، وراحا يتذوقان النبيذ المزوج بالعسل على جرعات متمهلة.

١٣

لحق إبل برفاقه فى اللحظة التى كانوا يستعدون فيها لعبور ذراع القديس چورچ[١]، وذلك بعد ثلاثة أسابيع أمضوها فى القسطنطينية. هكذا كان الكونت ريمون دى تولوز وفرقته هم آخر جيش من جيوش الصليبيين المغادرة. لقد وردت أنباء فظيعة إلى القسطنطينية. يُقال إن أول الصليبيين، الذين قادهم جودفروا وبوهيموند، قد اكتشفوا مشاهد بغيضة عند منطقة نيكوميديا[٢].

– رؤوس مقطوعة وعظام مكشوفة ملقاة فى كل مكان، وعيون ما زالت جاحظة فى أماكنها من شدة الرعب. هكذا قال رسول جودفروا الشاب، ثم أضاف: من ذُبحوا هم أفراد من جيش بطرس الناسك. ولن أخبركم عن النساء اللائى تم اختطافهن؛ لتوزيعهن على الأمراء، أو للبيع كإماء.

---

(١) مضيق البوسفور.

(٢) هى مدينة أزميت (بتركيا) فى الوقت الحالى على بعد حوالى مائة كيلومتر من القسطنطينية.

في الواقع لقد أبلغ الرسول الكونت دي تولوز ما كان الجميع يعرفه في القسطنطينية. إن بطرس الناسك، أو كما كان يطلق عليه اليونانيون بسخرية (بطرس الصغير)، قد نجا بأعجوبة من هذه المجزرة، حتى إنه عندما وجد نفسه في المدينة الإمبراطورية، راح يتساءل إذا لم يكن هو نفسه السبب في جلب هذه الكوارث إلى الإمبراطور بعد أن راح يصلي ليلة كاملة وطوال نهار كامل، وهو راكع على البلاط الملون لأرضية لكاتدرائية القديسة صوفيا؟ ببساطة، لم يستطع بارونات الفرنجة أن يتخيلوا مثل هذه الفظائع.

– يمكنكم التقدم بسهولة أكبر منا. أضاف المبعوث، وكأنه يعزيهم ثم أضاف: إن دوقنا جودفروا يسعى لتوسيع الطرق المؤدية إلى القدس، وسوف تجدون صلبانًا حديدية أو خشبية، لكي تسترشدوا بها.

لقد غادر إبل زنزانته المريحة في القصر على مضض. لكم كانت أيامه بها لطيفة! تهدهدها صداقة الأميرة الرقيقة التي كانت تأتي لمرافقته في الحديقة الصغيرة الغناء التي تفوح بعبق زهور جديدة تتفتح في كل لحظة. كانت تقرأ له تاريخ حكم والدها الذي، كانت تحرص على تدوينه بانتظام. كان صوتها يعلو وينخفض وسط نبرات رقيقة، وكأنه يعيد الأحداث التي وقعت مؤخرًا.

– ما رأيك أيها الفارس الجميل؟

– إن الصورة التي تصف بها بوهيموند، تجعلني أشعر بالغيرة. علق إبل بامتعاض.

- أليس هو جميلاً، كنجم فى السماء بخصلاته الشقراء؟ أجابته ببراءة الأميرة ذات الشعر الأسود قبل أن تكمل: لم نر رجلاً مثله من قبل على أراضى الروم البيزنطيين، فسواء كان من البربر أو من اليونانيين، فإن رؤيته تثير الإعجاب واشتهر بالمهابة. واصلت الأميرة القراءة.

تحرك إبل بعصبية على حافة البئر التى كان يفضل الجلوس عليها. نظرت الأميرة إليه، ثم واصلت:

- تعبر عيناه الزرقاوان عن الشجاعة والكرامة... ويشع من هذا المحارب سحر خاص...

- أيعجبك؟ سألها إبل بسخرية

- إنه قاسٍ ومتوحش.

كان إبل قد استمع باهتمام كبير إلى قصص الفتوحات التى نتج عنها هذا السجن اللطيف.

- هل أنت متأكدة من أنك سردت أيضًا ما حدث لى؟ سألها إبل بقلق. ومع ذلك بدا راضيًا عن السمات التى استخدمتها الأميرة فى وصفه مثل: "طويل القامة، قوى، شجاع وجرىء..."

عندما أعلنت الأميرة أن بنفسها لإبل أنه سيرحل، أمسك بيدها وضمها بين يديه، ثم رفعها إلى شفتيه، فى لفتة مليئة بالعاطفة والرقة وراح يقول لها:

- لو لم تكونى أميرة، لكنت اختطفتك. قال لها إبل، وهو ينظر فى أعماق عينيها.

- هل معنى ذلك أنك قمت فعلاً بخطف زوجتك؟ ردت آن

اندهش إبل واحمر وجهه خجلاً، وتساءل: كيف للأميرة أن تعلم بذلك؟

- لم أكن أتخيل أننى سأقابلك فى يوم من الأيام. قال لها إبل بصوت لا يخلو من جرأة، وهو يضغط بيد الأميرة الرقيقة على صدره.

- يا للخسارة! قالت له الأميرة بشكل غامض، ثم راحت تضحك.

بدت هذه الخسارة كوعد سعد به إبل وأرضاه.

- هل سأراك مرة أخرى؟ سأل إبل الأميرة فى اللحظة التى ابتعدت عنه فاستدارت قائلة:

- الله وحده يعلم ذلك!

نظرت الأميرة آن للسماء، ثم اختفت وسط حفيف الأثواب الحريرية التى ترتديها وصيفاتها اللائى لا يفارقنها أبداً. انفتح الباب البورنزى الثقيل ثم انغلق مواريًا وراءه إلى الأبد الهيئة الرقيقة التى تزينها الأقمشة الثمينة البراقة. راح إبل يفكر، ولكنه وجد فرص رؤيته للأميرة آن من جديد ضئيلة للغاية، مثل فرصه لرؤية حقول القسطنطينية الغناء التى تعانق السماء الصافية عند خط الأفق.

آسفت أجات هى الأخرى لمغادرة القسطنطينية. فقد كانت تشعر فيها بالأمان، وأيضًا بالسعادة مع چيفروا فى زنزانتهما الصغيرة فى كوسميديون. وعلى الرغم من ذلك، عندما كانت تجد نفسها بين ذراعيه، كانت تحلم بهوج. ولكن كيف لها أن تخبره بأن "سيده" ما زال سيد قلبها؟ وعندما كان چيفروا يضمها بقوة بين ذراعيه المطمئنتين، كانت تشكره لتواجده دائمًا إلى جوارها، ليحميها من كل تلك المخاطر، كان يضحك ويكرر لها قائلاً:

– لا تشكرينى، فلو لم أكن هنا معك، لكنتى قد وقعت مرة أخرى منذ زمن طويل بين ذراعى هوج.

– هل كان سيرغبنى؟ هل كان سيغفر لى تنكرى؟ راحت أجات تتساءل بقلق.

– من الرجل الذى من شأنه أن يظل غير متأثر أمام كل المشاق التى تتكبدينها لملاحقته؟ رد عليها جيفروا مطمئنًا إياها.

– وبعد ذلك جاءت سانشا هذه... استمرت أجات

عندما نطقت بهذا الاسم، لمعت عيناها كما لو كانت نجمتين تتلألأن فى ظلام تلك الغرفة الصغيرة. أثارت تلك الهبة التى تمتلكها أجات رغبة چيفروا الجامحة، فراح يقبلها بشهوة، محاولاً أن يبعد أفكارها عن هوج.

الآن، شعرت أنها حُرمت من جديد من بعض الحنان الذى عاشته لفترة زمنية قصيرة للغاية، راحت تخشى من جديد المعارك المقبلة.

سيتحتم عليها أن تستمر فى لعب هذه التمثيلية التى لا تطاق. كيف لها أن تقاتل كرجل، وهى تحلم بالفساتين الحريرية الطويلة ذات الألوان الزاهية اللامعة؟ لقد اعترفت أجات ذات يوم بانجذابها إلى هذا الترف الذى اكتشفته فى البلاط الإمبراطورى. حتى إن چيفروا اشترى لها فستانًا طويلاً من الحرير الوردى مزينًا بزهور ذهبية صغيرة فى شارع صغير بالقرب من كاتدرائية القديس صوفيا. ذات مساء، ألبسها هذا الفستان وانبهر بجمالها الذى ظهرت به.

ولكن فى النهاية دخلت أجات فى جدل آخر، لكى تستمر فى التخفى فى ثياب الخادم، فقالت لچيفروا:

– أنا لا أريد أن يتم خطفى وعرضى على أحد الأمراء، مثل هؤلاء النساء البائسات...

لقد أحدثت حقًا حكايات مبعوث جودفرى دى بويون، تأثيرًا سلبيًا فى مخيلة الفرنچة!

مازالت القدس بعيدة عنهم! ومع ذلك ابتهج هوج وچيفروا ورفاقهما، فكرة الاستحواذ فى أقرب وقت ممكن على مدينة نيقييه[١] هذه المدينة المقدسة التى أُشتهرت شهرة واسعة بالمجالس الدينية التى طالما عُقدت بها.

---

(١) هى مدينة إزنيك على بعد حوالى مائتى كيلومتر من مدينة القسطنطينية.

- لقد كان مجلس عام ٣٢٥ بعد سيدنا المسيح هو الذى أعطانا عقيدتنا. قال الأسقف أديمار دى مونتيل بعينين لامعتين ومظهر نشط بعد أن تعافى وانضم أخيراً إلى الجيش.

- إن هذه المدينة لا يمكن أن تظل فى أيدى الكفار... فهذا شىء لا يطاق. هكذا أبدى الكنسى ريمون دى أجويلير رأيه.

ومع ذلك، تنبأ بسرعة شديدة، كيف أن هذا المشروع لن يكون سهلاً.

مدينة نيقييه محاطة بأسوار هائلة، محصنة بانتظام بأكثر من مائتى برج، بنيت كلها من الطوب والحجارة التى انعكس لوناها الوردى والأصفر بشكل بديع على صفحة مياه بحيرة أسكانيوس التى تطل عليها.

- نحن لسنا هنا لكى نتأمل هذا المنظر الطبيعى، فلندق خيامنا بأسرع وقت ممكن. قال الكونت ريمون دى تولوز لرجاله، الذين وقفوا مشدوهين بروعة المكان.

- يقال إن خلف تلك الأسوار، تقبع منازل بيضاء حيث الحياة الرغدة. رد هوج

لقد استقر جودفروا دى بويون وجيشه فى شرق المخيم، وزرع راياته البيضاء، ووسطها الصليب الذهبى، حيث راحت ترفرف فى الهواء العليل، بينما استقر بوهيموند وجيشه فى الشمال، ومع ذلك فقد عملوا جميعًا بكد. لقد قام مهندسون يونانيون بتشييد أبراج خشبية، وآلات حرب متحركة، تنتظر حتى يحين وقتها. عُلقت القضبان الخشبية

الضخمة للتهديد بدفع الأبواب. حتى إن بوهيموند حل مشكلة المؤن والغذاء، فأصبحت من وقتها تصلهم بالبر، وأيضًا عن طريق البحر.

ومع ذلك لم يجد الكونت دى تولوز متسعًا من الوقت، ليفكر فى تخطيط أو تكتيك، حيث تقدم السلطان الشاب كيليج أرسلان[1]، والذى اعتقد البعض أنه مشغول فى حصار مالطة (تركيا)، ونزلت قواته بسرعة المرتفعات القريبة من مدينة نيقييه، فجراليوم السادس الموافق الحادى والعشرين من شهر مايو. لن ينسى هوج ما حيا منظر الأسقف أديمار دى مونتيل، وهو يقف على صخرة ليخطب فى الصليبيين، ويحثهم على القتال قائلاً :

– أيها الشعب الذى وهب نفسه لله، فلتهاجموا دون تردد أعداء الله الحى... الله يعيننا، سيكون النصر دائمًا حليفكم... والله المعين!

غطت على كلمتى الأسقف الأخيرتين (سالڤ ريچينا) باللاتينية أبواق المهاجمين، ودق حوافر الخيل على الأرض وهى تركض مقتربة. هرول هوج، ليساعد الأسقف على الاحتماء، فى الوقت المناسب، خلف الصف الأول للفرسان الملوحين براياتهم. استطاع معاون الأسقف، حامل رايته، أن ينقذ لوحة القديسة العذراء التابعة لمدينة پووى الثمينة.

---

(١) كيليج أرسلان (ويعنى حرفيًا الأسد المسلح) هو أمير مدينة نيقيية، وهو من عشيرة أسياد مدينة القدس. وهو المسئول عن مذبحة قوات بطرس الناسك.

كانت الصدمة قاسية. فالمقاتلون الأتراك يتقدمون على خيولهم، غالبًا أقدامهم حافية، يلفون حول رؤوسهم أوشحة بيضاء، يتسمون بجرأة لا مثيل لها، ويثيرون خيولهم إلى أقصى حد، سواء بصرخاتهم أو بجذب اللجام. أمامهم، أسرع الفرنچة بتكتل، وحرابهم إلى الأمام، يردون على صرخات الآتراك بصيحات عدوانية.

هكذا التقت القوتان بشكل مفزع، ثم تحول الصدام تدريجيًا إلى مشاجرات فردية عنيفة فى ضجيج يصم الآذان، اختلطت فيه أصوات الأبواق المنفرة، وقرع الطبول الصاخب وصهيل الخيول الوحشى.

لم تتوقف المذبحة إلا مع بزوغ نهار جديد دون أن يتحقق النصر لأىٍّ منهما. لأنه إذا ترك السلطان أرسلان أرض ميدان القتال، وتقهقر فجأة ما تبقى من جيوشه، فهو ما زال يسيطر على مدينة نيقييه.

مع شروق الشمس، كان لا بد من الرضوخ للواقع ومواجهة الحقائق: لقد واصل رماة الرماح الأتراك المثابرون رشق الفرنچة بسهامهم التى قيل إنها مسمومة. ما إن استيقظا، وجد چيفروا وأجات فرس هوج، الأميرة الحسناء، تتخبط هائمة بين الجثث. كان كلوڤيس، خادم هوج، قد بحث عنها طوال الليل دون جدوى. راحت أجات تبحث عنها هى الأخرى طوال النهار، وهى تتفادى السهام المحفورة فى أكوام الجثث. كان البحث مثيرًا للاشمئزاز تحت شمش لا هوادة فيها. زاد من صعوبة البحث، أن الأتراك كانوا يربطون رماحهم بحبال طويلة،

مجهزة بسنارات فى أطرافها لانتشال الجثث واستخدامها كمقذوفات من آلات الحرب المتحركة.

- يا لها من خسة!! هتف الفرنچة

- لم أكن لأتخيل هذا أبداً. راح روبير يردد، وقد انهمرت الدموع من خلال أصابعه التى حاول بها إخفاء عينيه الزائغتين.

- مسكين روبير هذا الذى كان خطيبك! إنه حساس جداً. هكذا قال إبل لبرتيلد، التى راحت تتندم على كونها تركت حانة أبيها، بينما لم يعد لإبل حديث إلا عن أميرته الحسناء آن.

كان الكونت ريمون دى تولوز يرد على الأتراك ببشاعة أكبر، وذلك بقطع رؤوس بعض الجثث ثم يرسلها لهم مرة أخرى بقذفها عن طريق آلات الحرب من فوق الأسوار، ولكن الأتراك لم يتوقفوا عن أعمالهم المروعة. كانت خيول الصليبيين تركض هنا وهناك، وعليها رؤوس مقطوعة، مربوطة فى سروجهم، كما لو كانت جوائز، فكان ذلك يثيرهم بدلاً من أن يلقى الرعب فى قلوبهم.

انتهت أجات بالإذعان بعد أن شعرت بالإنهاك والتقزز. وجدها چيفروا تجهش بالبكاء على جيد الفرس الأميرة الحسناء. فى خيمتهما الصغيرة المثلثة الشكل، حاول أن يواسيها دون جدوى. ألن يصبح هو سيدها فى يوم من الأيام، بعد أن مات هوج؟ سأل چيفروا نفسه، بينما كانت رفيقته أجات تنتحب على صدره.

فى اليوم التالى، راح الكونت ريمون دى تولوز يجمع كل القوات الشجاعة للقيام بهجوم آخر: محاولة شجاعة: إسقاط أكبر برج من الأبراج المحيطة بأسوار المدينة. شاركت أجات فى أعمال الحفر الطويلة، خلال فترة ما بعد التاسعة صباحًا، التى أدت إلى انهيار البرج فى وسط سحابة ضخمة من الغبار. راح الفرنجة يذرفون الدمع من عيونهم المتهيجة، ويسعلون ويبصقون، معتقدين أنهم قد وصلوا أخيراً إلى نتيجة. فى اليوم التالى، كان الأتراك، الذين قد عملوا طوال الليل بكد قد نجحوا فى سد الشق مرة أخرى.

فى اليوم الموافق الثالث من يونيو، وصلت قوات تعزيزية بقيادة روبير دى نورماندى وإيتين دى بلوا[1]، ولكن سرعان ما شعروا بالإحباط.

- لا بد أن نطلب العون من الإمبراطور. ناشدهم جودفروا دى بويون.

- إنه يبعد عن هنا عدة فراسخ فقط. أوضح ببساطة الكونت روبير.

بعد أيام قليلة، شاهد الصليبيون منظراً مذهلاً. تراكت سفن يونانية على الساحل متصلة بثلاث أو أربع عربات، وفقًا لحجم كل سفينة، بأذرع الرجال. أودعت بسلاسة على ضفة بحيرة أسكانيوس أخيراً . إنها تسمح

---

(١) روبير كورتهوس، دوق نورماندى (١٠٨٧-١١٠٦) ، هو شقيق ملك إنجلترا هنرى الأول، وإيتين كونت دى بلوا ودى شارتر، وهم أقارب هوج دى فيرمادنوا، شقيق ملك فرنسا، فيليب الأول.

للفرنجة من مدينة نيقييه عن طريق البحر، فهو السبيل الوحيد المتاح.
أبدى الصليبيون إعجابهم بالسفن، وراحوا لمساعدة قوات الإمبراطور.

استيقظ هوج منتفضًا من نومه. كان النهار قد طلع بالكاد. بدا له وكأن حركة غير عادية تدب من حوله. تقلب على فرشة القش ذات الرائحة الكريهة، التى وجد نفسه عليها، ثم نهض جالسًا بشكل مباغت. تعثر فى جلسته، حيث كانت قدماه تعوقهما سلسلة معدنية قصيرة، وجنزير من الحديد يكبل كاحليه ويضغط عليه، فيجرحه. تمكن من الوقوف بشكل مؤلم، ثم بدأ يتحرك ببطء وبخطوات صغيرة. راح يعرج مستندًا على جسم صلب، ثم فقد توازنه، وسقط إلى الأمام. أخذ يسب ويسخط، ثم نهض من جديد بصعوبة. كانت يده اليسرى تنزف، فراح يمسحها بضجر بقماش سترته التى لم يعد لها أى لون.

- ماذا يحدث؟ سأل سجين آخر، وهو يفرك عينيه.

فى هذه اللحظة غادر كلٌّ من رفاق هوج فرشتهم، بعد أن أفاقوا جميعًا.

- هل ترى شيئًا؟

وقف هوج، متصلبًا أمام الشراعة المتناهية الصغر التى تسللت منها أشعة الشمس للحظة، وألقت الضوء على زنزانة السجن البائسة.

- أسمع ضجيج وهتافات... ولكننى لا أرى شيئًا. قال هوج، وقد لصق أذنه بالفجوة، ومع ذلك فمن الواضح، أن هناك شيئًا ما يحدث.

– هل استولى الفرنجة أخيراً على المدينة؟ سأل أحد المساجين، وهو صديق قديم لبطرس الناسك.

– ربما. رد هوج، وقد بدا مفكراً

لم يستطع هوج أن يحدد الوقت... فمنذ متى، وهو فى مدينة نيقييه؟ لم يكن لديه أدنى فكرة عما حدث منذ تلك المعركة الشهيرة، حيث تمكن أحد أتراك السلطان أن يلقى به على الأرض بضربة من سيفه. لم يدر كم من الوقت مر عليه وأنفه مدسوس فى الغبار الأبيض، ثم فجأة شعر بجسده يرتفع عالياً فى السماء، كما لو كان قفة مهملة، ثم يُلقى به بلا أى رحمة على كومة من الجثث داخل البلدة؟ لقد جعلته صدمة السقوط يفيق من خدره. لقد تأوه من الألم عندما جذبوه على الأرض، دون أى انتباه، فخدشت السنانير الحديدية ظهره. فاجأت تأوهاته الأتراك فتجمعوا من حوله. ركله أحدهم فقلبه على ظهره، ثم راح يفصحه. رأى هوج من عينيه نصف المفتوحتين رجلاً ذا خوذة لامعة، ودرع من السلاسل المعدنية الدقيقة تنزل عليها لحية رمادية طويلة. يتدلى من حزامه سيف كبير مقوس.

راح الرجل التركى يتحدث مع رجل آخر رآه هوج من ظهره. لم يفهم أى كلمة من حديثهما، حيث كانت لغتهم صاخبة تقريباً. فى النهاية أمسك الرجلان بهوج بلا أى اهتمام من تحت إبطيه، وحاولا أن يوقفاه على قدميه. حملته ساقاه بالكاد من فرط الوهن والضعف، ثم رأى جمهرة من المحاربين على ما يبدو فى دورية، راحوا يربطون فى

قوس ضخم من الجثث التى كانت تتطاير فى الهواء، قبل أن يرموها على الأرض بعنف، ثم يجردونهم من ملابسهم، وبالتالى يضعونها على المقاليع، ليقذفوا بها من جديد إلى ما وراء الجدران.

من الجهة المقابلة، جاءت رؤوس الأتراك المقطوعة ذات الشعر الطويل، ، تعبر الجدران، طائرة ثم تتدحرج على الأرض. فى بعض الأحيان كانت تتبعها عماماتهم، ملوثة بالدماء. بدا هوج مصدومًا، ينزف، يشعر بألم مبرح لا يطاق فى رأسه، عيناه ترمشان من الشمس، وقد تتحقق شيئًا فشيئًا من المكان الذى هو فيه.

– هل أنت من الفرنچة؟ أتى إليه أحد الأتراك يسأله، وهو منتصب للأمام يرتدى درعه الواقية المصنوعة من الرقائق المعدنية. كانت خوذته تلمع كما لو كان لم يشارك فى معركة من قبل.

– أنت فرنچى؟ كرر سؤاله عليه.

هز هوج رأسه بالإيجاب دون أن ينطق بكلمة... كانت عيناه دامعتين. هب بعض النسيم الطفيف، فأخمد دخان النيران التى كان الأتراك قد بدأوا، لتوهم، بإشعالها على الفتحات الموجودة فى الأسوار. لم يعد هوج يتذكر جيداً ما الذى حدث بعد ذلك. بعد ذلك بفترة غير قصيرة، ولا شك، وبعد أن حل الظلام الدامس، استيقظ هوج، فوجد نفسه على هذه الطبقة القشية، والتى أصبحت بمثابة فرشة له فى هذه الغرفة ذات السقف المقوس، الرطبة ذات الرائحة الكريهة. حتى هذا

الصباح، مرت الأيام بطيئة وسط رفاقه فى هذه المحنة، حيث كانوا كلهم من الفرنچة. لذلك كان لديه متسع من الوقت للتأمل. زارته مارى وأجات فى أحلامه، التى تحولت إلى كوابيس عندما عاد أخيراً إلى صوابه. هل سيحدث له أن يرى أجات فى يوم ما؟ أحياناً، كانت تظهر له محاطة بأطفال ومن ورائها، دينيس، خادمه الذى يتولى إسطبل الخيول من منطقة دورامون يضحك عليه ساخراً. فى أحيان أخرى كان بيرنييه يظهر له أيضاً فى كابوس مشوش، حيث تبدو أجات وهى تريد أن تخبره شيئا لا يفهمه.

فجأة دُفع الباب الخشبى الثقيل الذى تعززه قضبان معدنية أفقية منزلقة، فانكسر من شدة العنف. ظهر منه جنود مسلحون ببلطات ولكن لم يستطع هوج أن يميزهم بوضوح من ضوء الشمس الساطع الذى دخل معهم. من دون مقدمات وبلا أى حرص، راحوا يدفعون السجناء، وكانوا لا يزالون مكبلين بالقيود المعدنية. كان ضوء النهار مبهراً حتى إنهم لم يستطيعوا احتماله، فوضعوا جميعهم أيديهم أمام أعينهم الدامعة ليحموها.

راح هوج ينظر فقط من خلال رموشه، فلمح الراية ذات اللونين الأزرق والذهبى، وقد وضعت على برج قريب، فأدرك أن الجنود كانوا يونانيين. علا نفير الأبواق والمزامير الحلزونية، وراحت أصداؤها ترن فى مقدمة موكب الفرسان على خيولهم. تعرف هوج على القائد بوهيموند فى الصف الأول؛ رافعاً رأسه نحو السماء بزهو وفخر، هذا البيزنطى

الذى دخل المدينة منتصراً. اقشعر بدن هوج من التأثر. لا بد أن الفرنچة ليسوا ببعيدين. أسكرته الفرحة، فراح يتقدم بخطى مترنحة نحو أسوار المدينة. وقف محتمياً وراء عمود من أعمدة السور، تبين له منظر حوّل فرحته إلى قلق. كان جنود الإمبراطور يحاولون منع الفرنچة من تسلق قمة السلم المصنوع من الحبال. ما زالت قدماه مكبلتين بالقيود، راح هوج بخطوات صغيرة، يمشى فى درب ملتو متفرع من الشوارع الضيقة التى تصطف على جانبيها المنازل البيضاء، بحثًا عن بوابة المدينة. ولكن عندما تمكن فى النهاية من رؤية ممر بين برجين ضخمين، قبض عليه اثنان من الجنود. طرحاه على الأرض، ثم جراه خلال الأزقة الضيقة صاعدة لأعلى، حتى وصلا به إلى مبنى، شكله مميز عن المبانى الأخرى بواجهته الطويلة، ثم دخلا وألقيا به فى قاعة كبيرة تبدو فاخرة إلى حد ما.

أمام ستائر ثقيلة، تعرف هوج على إيزيدورو، جالسًا على مقعد خشبى مطعم بالعاج. بدا إيزيدورو، وكأنه يتولى منصبًا مهمًا، وكان يعاين ويفند مجموعة من السجناء أُحضروا إليه. فى القاعة المجاورة، سُمع صوت بكاء طفل رضيع.

عندما جاء دور هوج، راح إيزيدورو يحدق فيه بتحدٍ. كما تعرف عليه هوج دون تردد، تعرف عليه أيضًا إيزيدورو على الفور.

- هوج دى ورامون! قال إيزيدورو، وهو يضحك ساخراً.

- نحن أصبحنا أسياد مدينة نيقييه. رد عليه هوج.

– نحن؟ إن البيزنطيين هم أسياد المدينة، وليس الفرنچة الذين هم فى الخارج. هكذا صحح إيزيدورو ما قاله هوج، وهو يرافق كلماته بضحكة عالية ثم أكمل: إن قائدنا العام بوهيموند هو الذى زرع راية النصر هنا(١).

تنهد إيزيدورو، ثم أضاف ساخراً:

– إن الفرنچة فى الخارج... كرر إيزيدورو، ثم قال: أليس كذلك يا ميشيل؟

اقترب منه جندى قصير القامة، وهز رأسه فى طاعة دون أن يتكلم.

– ألسنا حلفاء؟

– ألم يرفض سيدك أن يؤدى القسم أمام الإمبراطور؟ لهذا شعر الإمبراطور بالقلق... لقد خشى أن يراكم أسياد هذه المدينة، وهى التى تبعد فقط خمسين فرسخاً من القسطنطينية.

– ألسنا نحارب جميعاً للسبب نفسه؟

– بالتأكيد... بالتأكيد. أقر إيزيدورو، ثم أضاف: ولكنكم تثيرون المخاوف، كما أن الإمبراطور يعرف أيضاً مدى حبكم للثراء. فهل كنتم ستردون لنا هذه المدينة الجميلة؟ إن المرتزقة الأتراك الذين أجرناهم، عرفوا كيف يدخلون إلى المدينة، بينما أنتم، ظللتم أمامها.

---

(١) ٢٦ يونيو ١٠٩٧ توضح هذه الواقعة ما تلا الحرب الصليبية ،حيث أصبح البارونات غزاة لحسابهم الخاص.

- لماذا إذن استدعوا الفرنجة لنجدتهم، إذا كان اليونانيون لا يحتاجون لهم؟

- أنتم متقلبون جداً وغير مستقرين! رد إيزيدورو، وهو الذى تبنى القضية البيزنطية، قد نسى أيضًا، أنه قادم من أصول غربية.

نهض إيزيدورو من مكانه، واقترب واقفًا أمام هوج مباشرة، وراح يحدق فيه بعينيه الداكنتين اللامعتين. أخذ هوج يبادله نفس نظرة الكراهية. اكتشف أنه لم يعد يفكر كثيراً فى ساشا، ولكنه سأل نفسه فجأة، كيف استطاعت أن تحب مثل هذا الرجل؟!

راح هوج يحدق فى إيزيدورو بعناد، ومع ذلك طلب منه برقة:

- أستطيع مع ذلك أن أذهب إلى عشيرتى؟

- كلا. كان الرد قاطعًا ولا يحتمل النقاش.

عاد إيزيدورو إلى مكانه من جديد.

- لقد كنت أسيراً عند الكفار. قال هوج بإصرار: ألستم أعداءهم؟

تنهد إيزيدورو، ثم راح يشرح لهوج بانزعاج:

- لقد وعدنا السلطان بالحفاظ على حياة كبار الشخصيات وعلى الأخص زوجته الشابة التى وضعت لتوها طفلاً. سوف أعود بها إلى القسطنطينية وأنت... سوف تأتى معى. فأنت الآن سجينى.

صاحبت ضحكة ساخرة جديدة كلمات إيزيدورو الأخيرة. اسودت عيناه من جديد، وهو ينظر إلى هوج الذى أدرك مدى الكراهية التى

يكنها هذا الرجل له. جاء حارسان ودفعا به إلى الخارج. بعد لحظات قليلة، وجد هوج نفسه على فرشة القش فى الزنزانة نفسها التى كان بها. ولكن هذه المرة كان وحده. لقد أطلق سراح رفاقه جميعًا، فبالتالى هم أسعد حالاً منه. فقط كانت تترامى إلى مسامعه أصداء المعارك التى تدور فى الخارج عن طريق الشراعة الموجودة فى الباب. مازال لا يصدق أن البيزنطيين قد قاموا بصد الفرنچة بهذا الشكل. حاول أن ينادى عبر الباب على أى أحد، لكن الاضطرابات والضجيج اللذين شهدتهما البلدة، جعلا من المحال أن يسمعه أحد. انخفض الضجيج بعد ذلك تدريجيًا، فلا بد أن الظلام قد هبط.

شعر هوج بوحدة شديدة... انهمرت دموعه على خديه، فتسللت داخل لحيته التى لم يحلقها منذ بداية احتجازه.

جاءه جندى، وقدم له صحنًا، به بعض الفواكه، ولكن هوج لم يكن جائعًا. كان يشعر بالإحباط فاستسلم للنوم وراح يحلم. رأى فى منامه چيفروا وجيرن آتيين لإنقاذه. كانت رأس إيزيدورو مغروسة فى سن حربة چيفروا، بينما كانت سانشا تبكى. حاول هوج أن يأخذها بين ذراعيه، ولكنها أفلتت منه، فراح يطاردها داخل القاعات ذات الأرضية الرخامية، حتى وصلا إلى حديقة اختفت فيها سانشا عن الأنظار للأبد. ثم ظهر جيرن وألقى بدرعه ورمحه على الأرض، ورمى بنفسه بين ذراعى هوج، وهو يقول له:

- أنا أجات... أنا أجات. راح جيرن يكرر

- بحق القديس ساتورنان... فليلعن الله جميع اليونانيين فى الأرض!

لم يهدأ الكونت ريمون دى تولوز من حالة الغضب التى اعترته، ولم يفلح الأسقف أديمار دى مونتيل فى وقف سيل الشتائم والسخط الذى راح الكونت ريمون يكيله عليه منذ هذا الصباح، عندما لمح أوائل الفرنچة وهم يُلقى بهم من أعلى السلالم فى الفراغ ما وراء الأسوار، بينما راحت رايات البيزنطيين ترفرف بالفعل على الجدران، وكأنها تتوجها. بات من الواضح الآن أن البيزنطيين أصبحوا مسيطرين على المدينة، بينما تم دفع الفرنچة بعيداً إلى البوابات التى وقف عندها بالفعل حراس يرتدون زيًا به ألوان شعار الإمبراطور ليقوموا بمهامهم.

- بحق القديس ساتورنان، لن تمنعنى من كراهية هذا الجنس الغادر! تابع ريمون، وقد ازداد حنقه وغضبه على مدار الساعات الأخيرة.

- إن سيدى صاحب المعالى لن يغفر لهم أبداً، رميهم لواءه نوتردام دى پووى. هكذا همس الكنسى إجويلير الذى كان حاضراً المناقشات الدائرة بين الكونت ريمون والأسقف، وراح يدون بعض الملاحظات على مخطوطة.

- بالتأكيد. أيده أديمار وقد بدا واثقًا من نفسه، وراح يرمق بحنان ووحشة صورة القديسة العذراء المرسومة على رايته التى يحملها مساعده بالقرب منه. لقد اصفر القماش الحرير،ى المصنوعة منه الراية، وبهتت الخيوط الذهبية التى تطرزها من فرط تعرضها للشمس.

قبل حلول الظلام، جاء مبعوث القائد بوتيميد مع ذلك، لينقل لهم دعوة الإمبراطور لحضور احتفال الانتصار فى پلاكان. وحتى قبل أن يرد عليهم قادة الصليبيين، كان الجنود المرافقون للمبعوث يسكبون عند أقدامهم أكواماً من العملات المعدنية الذهبية والفضية، لم يروا أبداً مثلها من قبل.

– نحن لسنا للشراء. قال الكونت ريمون دى تولوز، قبل أن يهب عائداً إلى خيمته، وقام إيتين دى بلوا بالشىء نفسه.

بشكل متعاون أكثر وعملى أكثر، فقد قبل جودفروا دى بويون وبوهيموند دى تارنت الدعوة والنقود.

– من الأفضل لكم أن تسيروا إلى أراضى القدس. هكذا قال لهم ريمون دى تولوز، وهو يراقبهم وهم يستعدون للذهاب بالملابس الرسمية لزيارة الإمبراطور.

كان چيفروا يتناول العشاء مع الكونت ريمون. فمنذ اختفاء هوج، حل محله فى معظم الأحيان سيده الكونت ريمون الذى أُعجب بالشاب چيفروا لخجله وتحفظه. كان چيفروا الذى شعر بيتمه من جديد، أعجب برابطة جأش ريمون دى تولوز وصراحته وروحه الخيرة. لكم ود لو أن يبوح له بعبئه الثقيل المتمثل فى سر أجات!

فبينما أقسمت له أجات إنها لن تبوح لأحد بهذا السر، فقد حاول هو كل يوم إقناعها بأنه من الأفضل وقف هذه الكذبة.

– لقد كنت خائفة من رد فعل هوج، الآن وبعد أن اختفى، ها أنت قد تحررت. هكذا قال چيفروا لأجات بعد أن خرجت من حالة الحزن والسبات التى بدت غارقة فيها لفترة.

– تحررت... أنت قاس جداً! ردت عليه أجات وقد احتقن خداها، كما لو كان الغضب قد لونها، بينما كانت عيناها دامعتين.

– فلنذهب إلى صاحب المعالى الأسقف أديمار، ونعترف له بكل شىء. واصل چيفروا

– لن أفعل ذلك أبداً. ردت أجات

شعر چيفروا بالإحباط واليأس، حتى إنه هددها بتركها لمصيرها الحزين. الأكثر من ذلك، أنها لم تعد ترغبه. فمنذ وفاة هوج، لم يمارسا الحب معاً. ففى كل مرة كان يحاول معها، كانت أجات تصده بقسوة.

– أنا أكرهك. قالت له

طفح كيله، ترك چيفروا الخيمة، وهو يشعر بالحزن العميق.

فى تلك الليلة ازداد حزن چيفروا. لقد أعلنت له أجات أنها لن تغادر مدينة نيقييه وكأنها تتحداه. ألم يقل مبعوث القائد بوتيميد إن من لا يريد أو من لا يستطيع الاستمرار فى رحلة الجيوش، يمكنه أن يبقى فى نيقييه؟ لقد كان هناك العديد من النساء وقد أُنهكت قواهن، وكذلك المرضى والجرحى الذين من الأفضل لهم أن يبقوا هنا.

- أنا أيضًا سوف أبقى. هكذا أعلنت له أجات وقد ضاقت عيناها، وبدت عنيدة أكثر من أى وقت مضى.

- لا تنس أنك خادمى، وعليك طاعتى. أجابها چيفروا ببرود

ظل حديثهما معلقًا عند هذا الحد. بعد أن تناول چيفروا العشاء مع الكونت ريمون، وعاد إلى الخيمة، كانت أجات قد نامت.

فى اليوم التالى، شاهد چيفروا من بعيد خروج موكب السلطانة من المدينة، يقوده بكل فخر إيزيدورو. كانت هناك عربة كبيرة تظللها خيمة لتحميها من أشعة الشمس الحارقة، جلست بها السلطانة الشابة بجمال وعلياء. تضم إلى صدرها الطفل الرضيع الذى وضعته قبل أيام قليلة. تتبعها عربات مثقلة بالحمول. كيف كان لچيفروا أن يتخيل أن فى واحدة من تلك العربات، هوج كان مُلقى بقسوة، محمومًا يهذى، ويهاجمه الذباب الذى لا يطاق من كل ناحية؟

كان محمود، وهو طبيب السلطانة، قد قال لإيزيدورو إن السجين لن يتحمل مشاق السفر. لهذا سمح الإسبانى إيزيدورو أن يُنقل هوج فى عربة. لقد أمر أيضًا محمود الطبيب أن يوليه عناية كبيرة. لم يرغب إيزيدورو أن يرى عدوه الذى يمسك به تحت رحمته يموت بهذه السرعة. راح إيزيدورو يلوح من بعيد لرايات الكونت دى تولوز، وهو يضحك ساخرًا بشكل طفيف، ثم سارع من ركوض جواده.



١٤

"لقد أمضينا مائة يوم فى عبور جبال الأناضول... ولكن ها نحن الآن فى الجنة. إن لدينا كميات من الغذاء واللحوم ما يكفى حتى أن يجعل جنودنا لا يأكلون من لحم الجاموس إلا الفخذ والجزء العلوى من الكتف".

هكذا قال ريمون دى إجويلير، وهو جالس باستمتاع وراحة على مقعد صغير، تداعبه أحلام اليقظة، وهو يحك طرف أذنه فى حركة آلية بطرف ريشته التى يكتب بها. مدد قدميه فى العشب الأخضر المنعش، وأخذ يتأمل سكون المياه فى نهر الفارفار[١] الذى بدا على بعد خطوات قليلة منه. على الجانب الآخر بدت السهول المنحدرة، وقد ظهرت عليها مزارع الكروم، وقد امتدت جذوعها فى خطوط منتظمة. لقد تم بالفعل قطف عناقيد العنب لعمل النبيذ الذى تذوقه الكنسى ريمون، وما زال طعمه اللذيذ يسرى فى فمه.

"لقد عرفنا الطريق إلى مخابئ مملوءة بالقمح، وجميع أنواع الموارد الضرورية للغذاء"، استمر الكنسى ريمون فى الكتابة، بعد أن غمر ريشته بسخاء فى دواية الحبر الصغيرة التى لا تفارقه أبداً.

---

(١) فى السابق كان يُسمى نهر الفارفار ، والآن يسمى نهر العاصى.

فى يوم عيد جميع القديسين، كان الصليبيون قد صارت لهم عشرة أيام على وصولهم إلى مرفأ السلام هذا. وهو اليوم الثانى عشر قبل اليوم الموافق الحادى والعشرين من نوفمبر، لهذا فقد حان الوقت. كانت الجيوش على وشك أن تخور قواها. فمنذ شهر يوليو، عندما غادروا مدينة نيقييه، كانت هناك أولاً معركة شرسة فى دوريليه[١]، وقد حقق الصليبيون فيها انتصاراً رائعًا، ألقى الرعب فى قلوب المسلمين، وانتقم به الصليبيون بعد خيبة أملهم فى مدينة نيقييه. ثم جاءت بعد ذلك الحرارة الخانقة، والجوع والعطش، فقد ساروا أياماً وأياماً... فإذا كانت الخيول والحمير والإبل والأغنام والماشية قد سُرقت منهم عن طريق الأعداء فى موقعة دوريليه، فأمام أعينهم قام الأتراك بحرق المحاصيل وتسميم مياه الشرب. أصبحت الرحلة كابوساً فى مشهد حزين عبارة عن صحراء قاحلة، ليست بها أوقية واحدة من الخضرة، فراحوا يتغذون على الأوتاد والأشواك الموجودة بها. نفقت الخيول، حتى إنهم وضعوا حمولهم من عتاد وأدوات على الأغنام أو الماعز. ونتيجة فقدان الخيول، فقد استبدلها بعضهم بالمواشى، وركبوها أثناء الرحلة.

ابتسم ريمون الكنسى، وهو يتذكر هذه الواقعة المضحكة. صدر تأوه ليذكره بوجود چيفروا بالقرب منه. لقد بدأ أخيراً يُشفى من الجروح التى أصابه بها دب فى غابة قريبة من أنتيوشيت. لقد أنقذه جودفروا دى

(١) الأول من شهر يوليو ١٠٩٧، دوريليه واسمها حالياً اسكيسهير (تركيا).

بوييون، الذى أُصيب هو نفسه وهو يُخرج سيفه بعد أن غرسه فى مخالب الحيوان. التأمت جراحه بفضل الرعاية الجيدة لطبيب عربى، قاموا بأسره خلال الهجوم على بلدة إيكونيوم[١].

يُدعى هذا الطبيب أيربك، وقد تمكن بدبلوماسية كبيرة أن يعارض طبيب جودفروا دى بويون، واستطاع أن يفرض طريقة علاجه، بل يُقنع أيضًا قائد الفرنچة بأن يترك له نفسه ليعالجه بأساليبه. هكذا شُفى المريضان سريعًا، واستردا عافيتهما. حتى إن جودفروا قد أصبح قويًا خلال الهجوم الأخير الذى قاموا به، وسمح لهم بالوصول لضفتى نهر الفارفار عن طريق الجسر الحديدى.

لقد استطاع چيفروا أن ينجز هذه المسيرة الطويلة فى عربة تجرها أجات بهمة. أجات التى أصبحت بلا روح، قد أذعنت فى النهاية بتتبعه، حتى ولو كانت مغادرة مدينة نيقييه بمثابة انخلاع قلبها من مكانه. لقد تخلت وللأبد عن حبيبها هوج. أما فرسه الأميرة الحسناء، فقد جعلتها فرسها وأصبحت تواسيها وتُنزل فى قلبها السكينة، أكثر من كلمات چيفروا القليلة، التى أصبحت يومًا بعد يوم متكررة، محاولاً إقناعها بالتخلى عن هويتها المزورة هذه. تسبب موت الفرس "الأميرة الحسناء" فى قلب الصحراء فى إشعال الحزن فى قلبها من جديد.

---

(١) اليوم هى بلدة كونيا فى تركيا.

بدت أجات مهزومة ومطرقة، ولكنها أتبعت سيدها كخادم نشط، واستمرت فى لعب التمثيلية التى بدأتها دون أخطاء والتى طفح كيل چيفروا الحزين منها. لقد أصبح التعايش بينهما تحت الخيمة نفسها درباً من الجحيم. فقد انجرح چيفروا من صد أجات المتكرر له، ولهذا صار له زمن طويل لم يحاول معها، حتى وقوع حادث إصابة الدب له. أود أن يبارك ويشكر هذا الدب، عندما رأى أجات تسهر بجواره وهو على فراش المرض لترعاه. لكم كانت يدها رقيقة وهى ترطب له أصداغه الملتهبة بقطعة قماش مبتلة!

- اقرأ لى ما تكتب. طلب چيفروا من الكنسى ريمون بعد أن أفاق من قيلولة قصيرة.

- ما هى إلا أشياء تعرفها أنت جيداً. قال له الكنسى، وهو ينظر إلى هذا الشاب الأشقر الذى بدأ وجهه يمتلئ شيئًا فشيئًا، ثم قال له: ها هو جيرن، وقد جاء ليرافقك فى نزهتك.

بدا جيرن فى صعود التبة الصغيرة، متقدماً نحوهما، وقد انفتحت سترته الجلدية بلا مبالاة من على صدره. ما إن لمحه چيفروا قادماً حتى ابتسم. من كان يفكر أن تحت هذه السترة المصنوعة من القماش الخشن الخام تخبأ تحتها أشياء رائعة كان يحلم باكتشافها من جديد؟! سارعت أجات من خطاها، ثم ألقت التحية على الكنسى بتبجيل واحترام، ثم اقتربت من چيفروا الذى تمكن من النهوض واقفاً وحده. فمنذ يومين وقد أصبح يمشى على قدميه تقريباً، دون أن يستند على أحد، ولكنه

لم يكن ليعطى لأحد شرف الاتكاء على أحد سوى أجات التى كانت تمنحه كتفها ليتكئ عليه، وهى راضية كل الرضا.

راحا يسيران ببطء تحت عينى الكنسى الذى أخذ يراقبهما بحنان، متجهين إلى الممر الذى يتوسط الحديقة الغناء الصغيرة القابعة أمامهما، ذات الشجيرات العبقة التى تُخفى وراءها ضفة النهر. كان روبير جالسًا هناك، يحاول اصطياد الأسماك، التى كان يقول إنه شعر بتمردها، كلما حاول صيدها، ولهذا كان يعود صفر اليدين مساء كل يومين. بالقرب منه، جلس الطبيب أيريك يمزج الأعشاب فى وعاء صغير مصنوع من البرونز. لقد نمت صداقة بين الرجلين. ما إن لمحا چيفروا وأجات حتى لوحا لهما بشكل ودى. ليس بعيدًا عنهما، تعرفا على بطرس الناسك بهيئته الضئيلة التى ليس لها مثيل. كان يقف منهمكًا فى النقاش مع الراهب أربر دى شيز - ديو، وراح يلوح بيديه بطريقته المعهودة المتحمسة. فبعد أن وجد نفسه تحت أسوار بلدة أنطاكية مع من تبقى من أفراد فرقته الغوغائية، فقد ارتاب فيه الجميع، فما كان منه إلا أن فضل الاختفاء فى الظل بعيدًا عن الأعين.

لاحت لهم بلدة أنطاكية من بعيد ومن وراء المخيم، ومن خلال أوراق الأشجار التى ندرت بعد أن تساقط معظمها بفعل فصل الخريف هذا.

- يا لها من مدينة! يبدو أن علينا المشى حوالى ثلاثة فراسخ حتى نصل إلى أسوارها. لقد قال لى روبير إن هناك ثلثمائة وستين برجًا تحيط بها على ثلاثة مستويات مختلفة من الأسوار. هكذا قال چيفروا

وهو يحـاول التـمـيـيـز بين باب الكلب وباب الدوق، اللذين كـان يخـيم أمامهما جودفروا دى بويون والكونت دى تولوز.

– وعندما نستولى على المدينة، كم سيتساقط منا من الموتى؟ سألت أجات، وهى عابسة.

– لا تكن بهذه المرارة. فالحصار سيستمر لفترة طويلة، والأتراك سيكونون أضعف.

– إنهم يراقبوننا من فوق قمة القلعة.

– لقد استعلمنا جيداً عن كل شىء.

كان چيفروا يشـير إلى أن الأمـير قد قـام بطرد المسيـحيـين منذ الأيام الأولى، خوفًا من خـيانتـهم. فـهؤلاء الروم[١]، كمـا يطلق عليـهم الأتراك، كانوا ذوى قيمة كبيرة.

بدت أجـات مـتـشككة، ولكنهـا هزت رأسـها بـالإيجـاب. فـمن خلف أسوار المدينة، راحت أجات تراقب ما وراء الجدران المشيدة من الحجارة والطوب، مثل تلك الموجودة فى القسطنطينية مـآذن المساجد، وقد احمرت جدرانها من فعل الشمس، لا سيمـا تلك الفيـلات، وكأنهـا جزء لا يتجزأ من المنحدرات المزروعة بالأشجار. قيل أيضًا إن هناك ثلثمائة كنيسة فى المدينة.

---

(١) الرومى هو البيزنطى المسيحى الذى يتعايش دائمًا مع المسلمين فى المدن التى يستولى عليها إمبراطور القسطنطينية.

- لقد قال لى فيروز إن المدينة مليئة بالحقول وبساتين الفواكه، ولهذا لن يتعرضوا للجوع.

- فيروز.. من فيروز؟ سألها جيفروا، وقد بدا متفاجئًا، ومنزعجاً، وقد شعر برعشة خفيفة من نسمة هواء باردة هبت على المكان.

- إنه صانع للدروع[١].

- هل هو رومى؟ أين قابلتينه؟

وجد چيفروا صعوبة فى إخفاء غيرته.

- إنه ليس رومياً، بل مسلم يعمل فى حراسة أبراج المدينة.

- وأين ألتقيت به؟

- وأنا أتنزه.

- أنت مجنونة.

بدا چيفروا مصعوقًا من فكرة تمكن أجات من تكوين علاقة مع عدو.

- إنه لطيف ومضحك جداً وله لحية تلمع بالكامل.

- ولكننى أمنعك... أنت خادمى وينبغى عليك طاعتى.

---

(١) هو نوع من السترات الجلدية أو من القماش السميك، عليه حلقات من الحديد.

– ماذا تعتقد؟ إن فيروز صديق... ولا يُعقل حقًا أن تغار منه!

تقهقر چيفروا إلى الوراء قليلاً، وقد بدا عابسًا. كانت ساقه ما زالت تؤلمه، ولكنه كان يرغب فى النظر إلى أجات. مد يده، وراح يداعب خدها ذا البشرة الرقيقة. لم تحرك أجات ساكنًا.

اقترب چيفروا منها. كانا وحدهما، وكانت الشمس قد انخفضت فى تواؤم شبه مثالى مع النهر، الذى راحت مياهه تتلألأ فى تموجات متقاربة شيئًا فشيئًا.

– أجات... أنا أحبك. همس لها چيفروا.

بدت أجات شاحبة فجأة، وراحت تنظر بعينيها السوداويين فى عينىّ جيفروا الأفتح.

– لا يمكننا أن نستمر فى إخفاء الأمر أكثر من ذلك. واصل چيفروا، وقد تجرأ؛ بسبب صمت الشابة أجات، التى لاذت بالصمت.

– أجات، أتريدين أن تتزوجينى؟

تعالت صرخات طيور النورس الحادة فجأة، فكسرت الصمت الذى أعقب كلمات چيفروا، الذى انحنى بعد مجهود، والتقط حجرًا صغيرًا ألقى به فى مياه النهر.

– هيا نعود!

كان أمر چيفروا مختصراً ولكنه حتمى. لقد أذعن للأمر دون جدال. ترامت إلى مسامعهما أصوات المؤذنين، وهم ينادون إلى الصلاة من الجانب الآخر لأسوار المدينة. تعالت أصواتهم الرتيبة، والتى حملها إليهم الريح.

ما لبث الهدوء الذى ساد فى ذلك اليوم أن انكسر. لقد اندهش ياغى سيان، أمير مدينة أنطاكية لعدم قيام الصليبيين بأى مبادرة، رغم السمعة التى اكتسبوها من كثرة هجماتهم المريعة من قبل فى مدينة دوريليه، ولهذا قرر أن تبدأ قواته سلسلة من الطلعات مباغتة، وكذلك الهجومية القاتلة.

بسرعة كبيرة، داهمهم فصل الشتاء بأمطاره الشديدة البرودة والتى لا تتوقف، وهكذا وجد الصليبيون أنفسهم يدخلون فى مناخ ينعدم فيه الأمن بشكل مستمر. وكما أصبحوا لا يستطيعون مغادرة المخيمات حتى لا يتعرضوا للمخاطر، راح الجوع يقرص بطونهم من جديد. وشيئًا فشيئًا، تحولت الجنة التى اعتقدوا أنفسهم فيها إلى جحيم.

بعد أن شُفى چيفروا بالكامل، اقتصر بقاؤه هو وأجات معظم الوقت فى خيمتهما المتواضعة، التى أصبحت تقاوم بصعوبة هجمات الريح المستعرة، ولكنهما لم يتوقفا عن الشجار. فمرة أخرى ارتعبت أجات؛ بسبب بعض المواجهات مع العرب، ولهذا قررت ألا تبرح درعها المعدنية، وفضلت أن تظل قابعة تحت هذه الخيمة، ذات الرائحة الكريهة.

أما چيفروا، ففضل أن يمضى معظم فترة بعد الظهر فى لعب النرد. كان إبل دى سوج هو رفيقه المفضل فى اللعب، وكانت الأشواط التى يلعبانها تنتهى أحيانًا بشرب الخمر حتى الثمالة فى حال عدم انضمامهم إلى باقى ساقطات المخيم. كانت أجات حزينة، وكذلك كان حال برتيلد والتى أكتشفت أن زوجها غير مخلص، بعد الفترة التى قضاها فى سجن القسطنطينية.

هكذا وجدت أجات نفسها وحيدة فى أول ليلة تحدث فيها هزة أرضية. لهذا كانت دهشتها كبيرة، عندما اكتشفت فى صباح اليوم التالى الفجوة التى أحدثها الزلزال على بعد خطوتين من فرشتها.

– بحق القديس ساتورنان، إننا لملعونون! راح الكونت ريمون دى تولوز يقول بين كل سُعلتين راحتا تهزان كرشه الكبير الذى ربطها بحزام جلدى.

– نعم... سنكون ملعونين إذا لم نغير من عاداتنا. رد الأسقف أديمار دى مونتيل.

كان أسقف پووى لا يزال يتألم من مصرع چيل، حامل رايته، خلال هجوم مباغت من العدو، ولكن ما أثر فى الأسقف أكثر من وفاة چيل هو الإهانة التى لا تمحى عندما رأى رايته الشهيرة ترفرف على قمة أحد أسوار المدينة، وصورة العذراء بها مقلوبة رأسًا على عقب. هذه النهاية المخزية لشعاره الثمين، لم يكف عن تعذيبه. وحتى

تانكريد الشجاع[1] حاول الانتقام بذبح وتقطيع جثث سبعمائة مسلم، ومن خلال التبرع للأسقف بضريبة عشر المحصول بطريقة دموية، وهى جلب رؤوس سبعين من الأعداء، فى مقابل أن يعطى الأسقف أديمار العدد نفسه من الماركات الفضية[2].

وبالرغم من كل هذا، فقد اعتبره الأسقف تدنيسًا لا يمحى ولا يُغتفر.

عندما وقعت هزة أرضية جديدة، تلاها ضوء غريب، تسمر الجيش بسببه من فرط الخوف[3]، فاستدعى الأسقف أديمار الفرسان، وراح يقول لهم بصوت أقل وثوقًا من المعتاد:

- صلوا يا أصدقائى. كانت قدماه غائصتين فى الوحل، وراح يرتجف من البرد، ثم أكمل: علينا أن نصلح من سلوكنا... توقفوا عن لعبكم النرد، وعن مطاردة النساء الساقطات والفتيات، وحياة الرذيلة وعيشوا حياة أكثر تمشيًا مع خطتنا ومصيرنا. إننى أعلن لكم أن أى شخص منكم يثبت ذنبه بارتكاب الزنا أو الفاحشة سوف تُقطع رأسه. إنها مشيئة الرب!

---

(١) هو أمير جزيرة صقلية وابن شقيق بوهيموند دى تارانت.

(٢) وحدة للوزن للمعادن الثمينة (٥ , ٢٢٤) جرام، وكل قطعة عملة تزن هذا الوزن.

(٣) هو ضوء الشفق قبل الفجر مباشرة.

- إنها مشيئة الرب!

لكز إبل دى سوج چيفروا بكوعه، عندما وقعت عليه عينا الأسقف فى نظرة باردة، ولكن فى أقل من ثانية.

- إنها مشيئة الرب!

راح الصليبيون يهتفون فى تناغم ونشاط، ذكرهم بأن تأججهم وقت خطبة البابا الشهيرة فى مدينة كليرمون، ما زال موجوداً، ولكن ليس نفس الحماسة البريئة.

- إن صاحب المعالى على حق، يجب علينا إصلاح حياتنا. هكذا قال چيفروا، مؤيداً وهو يدخل خيمته، ويلقى بخوذته على عجالة لتقع منضمة لمجموعة الأسلحة الملقاة فى مكانها هناك، دون استعمال أو فائدة تذكر منذ عدة أشهر.

- إذن لن تلعب المزيد من النرد، ولن تذهب لرؤية العاهرات بعد الآن؟ سألته أجات

- إذا ما اعترفت بحقيقتك، ستتزوجان، ولن أذهب بعد الآن للعاهرات، كما قال صاحب المعالى. قال چيفروا، وهو يخلع غطاء رأسه القشى والذى تلبد تحته شعره الأشقر.

عبست أجات، وهزت كتفيها بتجاهل. ومع ذلك، ففى وسط المخاطر الكثيرة التى مرا بها، بدا چيفروا وقد أحكم المزيد من قبضته عليها.

بعد أسبوع، وبالتحديد فى التاسع من فبراير ١٠٩٨، أعلن الحراس مراقبو المواقع عن وصول جيش من بعيد.

– إنه رضوان، ملك حلب[١]، الذى تزوج ابنة أمير أنطاكية... وقد جاء لتخليصه! أكدت أجات على الفور، وقد أبلغها فيروز بذلك بعد أن ألتقت به من جديد، لتثير بذلك استياء چيفروا الشديد منها.

ما هى إلا بضع ساعات قليلة حتى انقلب المكان إلى مجزرة حقيقية. تهاوت الخيول، وانداس الرجال، وعمت فوضى لا توصف على طول نهر الفارفار.

بعد معركة شرسة، تناحرت فيها الأجساد وسقط العديد منها، تقهقر فى النهاية جنود ملك حلب، ودق أمير أنطاكية، ياغى سيان، ناقوس الخطر للانسحاب، فقد كان يخشى خروج بعض القوات[٢].

---

(١) إن أتراك السيجوسيد، وهم الذين تغلبوا على إمبراطور القسطنطينية فى مدينة مانتزيكيرت فى عام ١٠٧١، أصبحوا أسياد مدينة القدس، ولكنهم فشلوا فى محاولة توحيد الأراضى التى استولوا عليها. تجزأت الإمبراطورية الضخمة التى تتشكل من (إيران والأناضول والشرق الأدنى، باستثناء مصر التى ظلت فى أيدى الفاطميين، الذين اشتهر عنهم أصولهم من الرسول محمد صلى الله عليه وسلم). فى المدن الكبرى مثل دمشق وحلب، استقرت إمارات ذات حكم ذاتى بالفعل.

(٢) بالرغم من أن حلب لا تبعد إلا بمسيرة ثلاثة أيام فقط عن أنطاكية، ومع أن رضوان هو زوج أخت أمير أنطاكية، فقد كانت العلاقات بين الرجلين سيئة. لقد هرب رضوان بلا عودة.

كانت أجات قد حضرت المعركة من بعيد، حيث رأت چيفروا يعود منها منهك القوى. كانت خوذته متحطمة، وسيفه ورمحه ملطخين بالدم، مما يدل على شراسة القتال. تتدلى من سرج جواده رأسان من رؤوس الأعداء مشوهتان بشكل شنيع، وما لبث أن وضعهما على المقاليع، ثم حرك الآلة كى يقذف بهما إلى ما وراء أسوار المدينة، وهو يطلق ضحكة عصبية. من خلفه، كان إبل دى سوج يفعل الشىء نفسه. خيم صمت الموت على أرجاء المدينة.

عندما عاد چيفروا إلى الخيمة، وهو فى حالة سكر، راحت أجات تنظر إليه برثاء. لكم تغير! كيف يمكن له أن يسعد بمثل كل تلك الفظائع؟

- هل تعتقدين أن سيدى هوج كان من الممكن أن يفعل مثل تلك الأشياء؟ سألها چيفروا بصوت كما لو كان سكرانًا.

- لا يمكن لهوج أن يفعل مثل هذه الأشياء أبدًا. ردت أجات

قالت أجات هذه العبارة بنبرة صوت آمرة، رافقتها بنظرة ازدراء سوداء، فأعادت چيفروا إلى الواقع فقال لها:

- أجات... سامحينى، فأنا لست جديرًا بالاحترام.

قال ذلك، ثم ألقى بنفسه عند قدميها، ووضع رأسه على ركبتيها، فلم تصده هى أو تتحرك. اهتز قماش الخيمة، فلا بد أن الرياح قد نشطت فجأة، إلا إذا كانت هذه هزة جديدة من الهزات الأرضية اللعينة.

راحت أجات تملس على خده الخشن، وعلى لحيته الشقراء التى نبتت من اليوم السابق فقط. أمسك چيفروا بيدها التى بدت له ناعمة للغاية وقبلها بشغف. شعر برأسه، وقد أصبح أكثر ثقلاً على ركبتى أجات.

- أنا أريدك يا أجات. همس لها چيفروا

- تعال إذن. ردت أجات ببساطة

فى صباح اليوم التالى اكتشفوا فرار الفرقة البيزنطية الصغيرة، التى أمر تاتيكيوس "ذو الأنف الذهبى كما كان يُسمى"(١) والمتحمس للغاية، وكلفها بأن تعسكر فى الجزء الخلفى من مخيم الكونت ريمون دى تولوز. هكذا لن يروا بعد الآن هؤلاء الجنود الذين كانوا يستعرضون أنفسهم بغطرسة وخيلاء، مرتدين الزى الجميل ذا اللونين الذهبى والأبيض.

- آوه، يمكن لهؤلاء اليونانيين المخنثين أن يحتقرونا ويتهمونا بالتقلب وعدم الاستقرار. هكذا راح الأسقف أديمار دى مونتيل يندب الحظ، وهو يخشى وقوع ضربة أخرى جديدة، مثلما حدث فى بلدة نيقييه.

كانت لدى چيفروا مخاوف أخرى! فرغم أنه كرر على أجات طلب الزواج، فإنه لم يحصل على أى جواب. لم تغير تلك الليلة من شىء، فقد انغلقت أجات على نفسها من جديد، وفضلت العزلة. كما فضل

---

(١) وفقًا لما كتب المؤرخ جيبرت دى نوجن، فقد قُطع أنف تاتيكيوس وركب له أنف من الذهب.

چيفروا الانهماك فى المشاركة فى المهمة، التى قررها القادة، وكانت عبارة عن بناء قلعة على الضفة المقابلة لنهر فارفار، أمام بوابة الجسر. فى الواقع لقد كان جسراً رومانيًا قديمًا لتسهيل خروج المحاصرين. كان لا بد من تحاشيه. كان هناك محجر على مقربة من النهر، به مجموعة كبيرة جميلة من الأحجار، مختلفة الأحجام حول النهر المختلطة بما يشبه الأسمنت.

مع حلول شهر مارس، خفف الربيع من برودة الطقس، رغم أن الأمطار كانت لا تزال متكررة الهطول. أطلقوا على القصر اسم المحمدى؛ بسبب المسجد القديم الذى كان موجوداً فى الموقع نفسه، وسريعًا ما بدأت تظهر معالم القصر، وكان چيفروا هو واحد من الخمسمائة فارس الذين سيقيمون به، بناءً على أوامر الكونت ريمون دى تولوز الذى تعافى مؤخراً من حمى الشتاء.

و هنا ذهبت أجات فى إحدى الأمسيات، لتخبر الكونت ريمون بأن ياغى سيان، أمير أنطاكية قد استدعى كاربوكا، أمير الموصل[١]، ليشق طريقه إلى أنطاكية.

---

(١) على حسب قول أمير حلب، كاربوكا كان مثالاً جديداً على تجزئة السلطة، كان الأمير كاربوكا متسلطًا ومدينته على بعد خمسة عشر يوماً من أنطاكية. شعر كاربوكا بقلة الحيلة والخوف بعد محاولة رضوان الفاشلة، ولهذا استدعاه أمير أنطاكية، وهكذا غادر كاربوكا الموصل فى نهاية شهر أبريل، ومعه جيش لا يُستهان به (قيل إن تعداده ٣٠٠٠٠ رجل؟).

– من أين أتيت بذلك الخبر؟ هكذا سألها الكونت ريمون دى تولوز بوقاحة، وهو جالس فى آخر القاعة، تحيط به مجموعة من فرسانه. ثم نظر چيفروا إليها بدهشة كبيرة وقال الكونت ريمون:

– يا چيفروا دى سيفيراك... أليس هذا هو خادمك؟ أيمكننى الوثوق به؟

شعر چيفروا بتحرج شديد، وتصاعد الدم إلى وجنتيه؛ بسبب شعوره تجاه أجات، والذى يحاول احتواءه بصعوبة، تقدم من الكونت وقال له:

– لقد تقابل جيرن مع رجل يُدعى فيروز، وهو مسلم، ويبدو أنه يريد لنا الخير، فهو يكره أمير البلاد الذى يبدو أنه تسبب فى مشاكل عديدة له.

عقد الكونت ريمون دى تولوز حاجبيه، ثم راح يفكر للحظة قبل أن يقول:

– إذا كان مُبلغك هذا يقول الحقيقة، فيجب علينا أن نجهز أنفسنا... حاول يا جيرن أن تعرف المزيد.

– يقول فيروز إن الأمير عنيد، كالتيس. أضافت أجات

بعد ذلك اتجهت أجات ببطء إلى الباب الذى تعلوه طبقة كبيرة من الحجارة غير المنتظمة، مما يشير إلى أن البناء قد تم على عجالة. راقبها چيفروا، وهى تبتعد بتمعن. مما لا شك فيه أنها كانت دائمًا تدهشه، وما إن استأنف ريمون دى تولوز حواره مع الأسقف أديمار دى

مونتيل، حتى انتهز چيفروا الفرصة، وخرج بدوره. لم تكن أجات بعيدة، بل كانت واقفة تتأمل مشهد غروب الشمس على أسوار المدينة، حيث راح المؤذنون يرفعون الأذان للمرة قبل الأخيرة فى هذا اليوم. اقترب چيفروا منها. ارتجفت أجات فى مكانها فى اللحظة، التى ألصق چيفروا كتفه بكتفها بلا مبالاة فقالت له:

– أنا أنتظر طفلاً. غمغمت أجات

لم يسمعها چيفروا، فقد غطت أصوات المؤذنين على كلمات أجات.

– أنا أنتظر طفلاً. كررت أجات على مسامعه

كان صوتها أجش أكثر من المعتاد.

نظر چيفروا إليها وبدا وكأنه لا يفهم حقًا ما قالته، ثم فجأة فز فى مكانه كما البرق، وقال:

– سيكون لدينا طفل! قال چيفروا، وقد بدت السعادة على وجهه.

ارتجف چيفروا، وودَّ لو أن يضمها بين ذراعيه، ولكنهما لم يكونا وحدهما.

– سأتمكن بفضل فيروز من دخول المدينة وسأختفى هناك إلى الأبد.

استدرات أجات فى اتجاه المدينة، بينما لم يتحرك چيفروا من مكانه.

- ولكن لماذا تفعلين ذلك؟ سألها چيفروا ثم أكمل: هناك العديد من النساء الأخريات وسط الصليبيين لديهن أطفال. إلڤير، زوجة الكونت دى تولوز، سيكون لديها طفل فى القريب العاجل. وبرتيلد حامل فى شهرها الأخير، حتى إنها تجر بطنها بالكاد أمامها!

- ولكننى لست زوجة أحد.

- يمكنك أن تصبحى زوجتى من الغد. سوف أتحدث فى الأمر مع سيدى اللورد.

- أنا أمنعك.

ارتفعت نبرة صوتها الأجش أكثر.

- سأقتلك إذا ما فتحت فمك بكلمة... الوداع.

بدا چيفروا وكأن حركته قد شُلت ولم يستطع اللحاق بها، فقد خاف من ردود أفعالها المباغتة غير المتوقعة. شاهدها وهى تنزل بعض الدرجات، ثم وهى تمر من عتبة القصر. مال إلى الأمام، فتمكن من رؤيتها، وهى تتجه ببطء نحو بوابة الجسر. لمح رجلاً بدا، وكأنه ينتظرها، ثم شاهدها، وهى تختفى عن الأنظار.

انتهى المؤذنون من نداء الصلاة وراح ضوء الغسق يهبط ببطء على أسوار المدينة. سمع كلبًا ينبح، ثم ساد الصمت تدريجيًا مع حلول الظلام. ظل چيفروا واقفًا فى مكانه بلا حراك. تملكته الرغبة فى البكاء. فكر فجأة فى أمه وإخوته وأخواته. وجد صعوبة فى تذكر وجوههم.

عندما جاء إليه إبل دى سوج، ليعرض عليه لعب دور من النرد، رفض بشدة. اندهش الفارس إبل، وراح يطالعه للحظة، ثم تركه وغادر المكان. كان الظلام قد هبط تقريباً.

بعد عدة أيام قليلة لاحقة، جاءهم مبعوث من بودوان دى بولونى، شقيق جودفروا دى بويون، المقيم فى بلدة إديس، التى تقع فى اتجاه الشمال، ليؤكد ما قالته أجات. لقد ترك كاربوكا الموصل، ولكنه ظل لبعض الوقت فى بلدة إديس فى مواجهة بودوان، الذى كان يأمل فى المقاومة لأطول وقت ممكن، فلم يكن خافيًا على أحد أنه تحتمت عليه مواصلة السير إلى أنطاكية.

- هل أنت چيفروا؟

كان چيفروا قد راح يتسكع هذا الصباح فى اتجاه الجنوب، خلف ضفة النهر، حيث المياه التى يعكرها الطين، حين لمحه رجل ذو لحية ملبدة، فقال له:

- أنا فيروز... خذنى إلى رؤسائك.

- فيروز؟ كرر چيفروا متسائلاً: وكيف حال جيرن؟

- تقصد أجات.

ابتسمت عيناه السوداوان الصغيرتان فارتسمت حولها تجاعيد فى وجه الرجل، موضحة سنه الكبيرة.

- إذن فقد قالت لك...

– نعم... إنها بخير أيضًا... ولكن الآن خذنى إلى قادتك.

أصبح وجهه جادًا مرة أخرى.

قاد چيفروا الرجل إلى قصر المحمدى، حيث كان كلٌّ من الكونت ريمون دى تولوز والأسقف أديمار دى مونتيل، وبوهيموند دى تارنت وجودفروا دى بويون، يتحدثون معًا فى القاعة الكبرى، عندما وصلا، فتفاجأوا من ظلالهما القادمة من الخارج، حيث سطعت الشمس فى مطلع هذا الشهر من يونيو على الجدران الفاتحة اللون. على طول الجدار الذى وراءهم، اصطفت دروعهم الملونة، جنبًا إلى جنب مع الرماح ذات المقابض الداكنة.

تقدم چيفروا داخلاً، يتبعه فيروز.

توقف الأسقف أديمار دى مونتيل عن الكلام، وقال:

– من هذا؟ سأل الأسقف چيفروا

– أنا فيروز. سارع بالرد الرجل القصير القامة ذو الشعر الرمادى الطويل.

– فيروز؟

– نعم. الذى كان يُطلع خادمى جيرن على المعلومات.

– والذى اختفى...

– نعم. أقر چيفروا.

- وماذا تريد منا؟

- أستطيع أن أساعدكم على دخول المدينة.

- كيف؟

سأله بوهيموند، وقد مال للأمام، فبدا التناقض مثيراً للدهشة بين هذا العملاق الأشقر، وفيروز الرجل الضئيل الذى لم تبد عليه أى دهشة أو استغراب، بل رد فى هدوء:

- أنا الذى أسيطر على نافذة برج الأختان، وأستطيع أن أجعلكم تمرون من هناك.

- ولماذا تفعل ذلك؟

- أنا على نزاع مع الأمير، وأريد الانتقام.

قال ذلك، وقد عبست ملامحه بعد أن كانت ضاحكة.

- أيمكننا أن نصدقك؟ سأله الكونت ريمون دى تولوز، الذى ظل جالساً بالقرب من أسقف پووى.

- سوف أترك لكم ابنى كرهينة.

- وماذا تطلب منا نظير ذلك؟

هكذا سأله جودفروا دى بويون، بعد أن نهض بدوره، فلاحظ چيفروا أن لحيته الشقراء قد امتلأت بالعديد من الشعرات البيضاء. لكم شاخ الجميع فى هذه الأشهر القليلة الماضية!

- الذهب والأراضى. قال فيروز فى لفتة صريحة، وهو يفتح كلتا يديه.

- ومتى نستطيع التحرك؟ سأله بوهيموند من جديد.

- غداً إذا شئتم.

عندما عاد فيروز أدراجه، يصاحبه چيفروا، بعد أن ناقشوا تفاصيل الهجوم، نهض الأسقف أديمار دى مونتيل، ودعا أصدقاءه للصلاة قائلاً:

- إذا حلت بركة الرب وأصبحت فى صالحنا، فسوف تكون أنطاكية فى أيدينا ومُحررة قريباً... يا إلهى، ظلل برحمتك على فرسانك...

فى الخارج، حمت أشعة الشمس، وصارت فى ذروتها، وأصبح الحر منهكاً.

- أخبر أجات بأننى لم أنسها. همس چيفروا قائلاً للرجل العربى، قبل أن يتركه مبتعداً.

فى صباح اليوم التالى، الذى كان موافقاً الثالث من يونيو[١]، اقترب فتى مراهق من باب قصر المحمدى، وقال مقدماً نفسه:

- أنا على ابن فيروز، وقد أرسلنى أبى.

كان الفتى بالكاد فى نفس طول قامة أبيه، ولكنه كان أنحف كثيراً... شعره أسود طويل يصل إلى كتفيه، يحيط بوجهه الضاحك أيضاً.

---

(١) عام ١٠٩٨.

– إن فيروز رجل ذو كلمة، وأنا أحب ذلك. قال بوهيموند، مؤكداً كان أمير تارنت قد أخذ زمام المبادرة فى العمليات التى ستتم أثناء الليل، وبالتحديد فى الساعة الرابعة صباحًا، أى قبل أن يبدأ ضوء الفجر فى البزوغ التدريجى. اختير ستون رجلاً للاستطلاع، وكان چيفروا واحداً منهم. حتى يحين الموعد المحدد، مرت الساعات طويلة.

لهذا ذهب چيفروا حوالى الساعة الرابعة عصراً لزيارة ابن فيروز.

– هل تعرف أجات؟

– نعم. أجابه الصبى، وقد احمر وجهه خجلاً ثم قال: إنها جميلة جداً.

– عندما ندخل إلى المدينة، هل تستطيع أن تأخذنى إليها؟

– كنت أعتقد ألاّ أحد يعرف أنها امرأة.

– نعم، فأنا فقط الذى كنت أحمل هذا السر. هل يمكنك أن تأخذنى إليها؟

– لا أعرف، يجب أن تسأل والدى. رد على، ابن فيروز بحذر.

لمعت عيناه البنيتان بلون البندق، وكانت نظرته صادقة. ود چيفروا أن يكون صديقه. رآه يدير ناظره فى اتجاه الشمس الغاربة، ويركع بركبتيه على السجادة الصغيرة، التى كان يحملها، لكى يلبى نداء المؤذن الرتيب على الصلاة بحماس. حسده چيفروا، كونه يعرف كيف يصلى لرب لا بد أنه لا يختلف كثيراً عن ربه.

وقع چيفروا بعلامة الصليب على صدره هو الآخر، وهمس بالكلمات الأولى من الصلوات، ولكن كان ذهنه مشغولاً جداً بأجات. ومع ذلك واصل صلاته القصيرة بالصيغة، التى طالما رددها عليهم الأسقف أديمار دى مونتيل:

– الله المعين!

– الله المعين! كرر إبل دى سوج الذى اقترب منه ثم قال: ها نحن نضع أيدينا على أنطاكية، وقريباً سنكون فى القدس!

– إلى القدس!

أشار چيفروا بيده فى اتجاه الجنوب الذى يتحتم عليهم سلوكه، لكى يصلوا فى النهاية إلى المدينة المقدسة التى ظلوا يحلمون بها منذ فترة طويلة جداً.

– قريباً سنكون هناك. فلنصل.

انضم إليهم الأسقف أديمار دى مونتيل والكنسى دى أجويلير. لم يستطع الأسقف أن يمنع نفسه عن إشعال الحماسة التى تولدت فى كليرمون أثناء خطاب البابا الشهير، والتى شعر فى بعض الأيام باليأس فى استعادتها لدى هؤلاء الرجال، الذين استنفدت قواهم. غداً سيتقدمون خطوة كبيرة نحو المدينة المقدسة. أغمض الكنسى ريمون دى أجويلير عينيه، وراح فى خشوع عميق. بينما أخذ الأسقف يمعن النظر فى سور المدينة، كما لو كان يأمل حدوث معجزة. شعر چيفروا أخيراً بسلام نفسى كبير.

طلع النهار، وبدأ الانتظار... أنصتوا لأقل ضوضاء تحدث، ووقف چيفروا يرصد ويراقب الموقف، دُعى الستون رجلاً المنتخبون للتقدم فى صمت، حتى وصلوا إلى قاعدة برج الأخَتان، وهناك لم ينتظروا طويلاً. تدلى لهم سلم من الحبال على طول جدار السور الذى احتفظت حجارته طوال الليل بدفء حرارة الشمس من الصباح السابق. كان چيفروا هو أول من تسلق السلم الحبلى، بتأنٍ ولكن ببراعة. وقف فيروز فوق السور يراقب من الفتحة المستطيلة لأعلاه.

- إن عددكم ليس بكبير! قال فيروز.

ما إن وصل چيفروا إلى أعلى السور حتى مرر بسرعة إشارة مفادها أن يسارع بوهيموند والكونت ريمون دى تولوز بحشد قوات أخرى التى سرعان ما هتفت بأعلى صوت: "إنها مشيئة الرب" مع بزوغ الفجر. ذاع أخيراً السر الذى كان يحتفظ به معظهم مع طلوع النهار. هرولوا جميعًا، خارجين من خيامهم والخوذات على رؤوسهم، والدروع متأهبة، والرماح فى أيديهم ملوحة إلى الأمام، تستقبلهم الأبواق التى راحت بالفعل تطلق نفير الانتصار، وهكذا وصل العديد داخل المدينة، بينما انتصبت راية بوهيموند ذات اللونين الأبيض والأخضر، مرفرفة فوق السور. تدريجيًا، تمت السيطرة على جميع الحراس، دون أن يشاركوا حتى فى أى قتال، وعندما استيقظت المدينة اكتشفت رايات العدو ترفرف، وقد عمت الفوضى فى الشوارع، التى عجت بالفرنچة وسط ذعر السكان الذين راحوا يجرون فى جميع الاتجاهات. سيطرت

على المكان حالة من الهلع، حتى إن الأمير ياغى سيان قفز على ظهر جواده، ليفر مثله مثل الآخرين. رآه چيفروا، وهو يخرج بالقرب من بوابة الدوق التى ظل واقفًا عندها منذ الفجر. راح جواد الأمير الأبيض الرائع يصهل ويقفز لأعلى، كما لو كانت عصبية راكبه قد انتقلت إليه هو الآخر. جذب منظره انتباه ثلاثة نصارى من سكان المدينة؛ فهرعوا إليه وطرحوه أرضًا، وفى تناغم، راحوا يقتلونه بحد سيوفهم الثلاثة التى راحت تنغرس بوحشية، كما لو كانت تحمل معها كل الضغائن الممكنة. بعد ذلك، أطلقوا صيحات الانتصار، وقطعوا رأس الأمير، وراحوا يجوبون بها على طول أسوار المدينة متباهين بانتصارهم.

كان چيفروا متعبًا لكن سعيد، مثل رفاقه، حيث اكتشفوا أخيرًا هذه المدينة، التى كانت محور اهتمامهم منذ أشهر عديدة، وراح يتمشى، وكأنه نائم فى الأسواق التى تعج بكل ما لذ وطاب من بضائع ثمينة؛ فها هى الأوانى الزجاجية الشفافة المتعددة الألوان، وكذلك الفخار والخزف المصنوع بلونى الطين الأصفر والأخضر، والأقمشة العديدة المعروضة أمام المنتصرين على أكشاك بارزة. انفتحت المنازل البيضاء فى الشوارع الملتوية، والتى طالما تخيلوها، وها هو الواقع قد تجاوز الحلم: الحدائق فى كل مكان تزينها أشجار تزخر بالفواكه وأحواض الزهور. بدت الحياة، وكأنها تجرى كما يحدث بشكل يومى، وكما لو كانت بوابات المدينة لم يحاصرها أعداء، عُرف عنهم قلة الصبر والتهور وأنهم على وشك غزوها.

هكذا وقعت المدينة فى أيدى الصليبيين الذين تركوا المسلمين يفرون منها، فى حين راح السكان النصارى[1] يستقبلون محرريهم بأذرع مفتوحة.

فى وسط هذه الفرحة التى لم تستطع محو مشاهد القسوة تماماً، نسى چيفروا تقريبًا أجات. كما أنه لم يكن يعلم بمكان فيروز. كلما تقدموا نحو الربوة المرتفعة فى المدينة، حيث تتربع القلعة التى زينتها من الآن رايات جيوش الصليبيين، حول منعطف، دُعى چيفروا لدخول أحد المنازل البيضاء المرحبة للغاية. مر چيفروا من المدخل المرسوم تحت قوس جميل على شكل حدوة حصان مرصع بالأرابيسك، ثم وجد نفسه فى قاعة ضخمة مفتوحة على مجموعة من الممرات، تزينها أعمدة تنفتح بدورها على حديقة غناء رائعة. لم ير چيفروا أبداً مثل هذا الكم من الورد البلدى ذى الألوان الوردية والبيضاء والحمراء والصفراء التى تحفها الخطوط البرتقالية، وأيضًا البنفسجية. إنها بهجة تسر العين والأنف. كانت هناك قناة صغيرة تقطر ماء ينعش الجو، وتصب فى جدول. جلس چيفروا القرفصاء، وجمع بين يديه رشفة من الماء المنعش. بعد ذلك دُعى لدخول قاعة أخرى، حيث اكتشفت عيناه تحت إضاءة الشفق الخافتة بعض الأطباق الشهية. فى عمق المكان وأمام جدار

(١) فى جميع هذه المدن التى كانت داخل الإمبراطورية البيزنطية بقيت مستعمرات مهمة من السكان النصارى، والروم، اعتادوا على التعايش السلمى مع المسلمين.

أبيض، سُمعت أصوات الدفوف والأعواد، وكانت هناك نساء يرقصن بحركات لينة مغرية. انجذبت إليهن تدريجيًا عيون الفرسان، وأصبحت مثبتة ومليئة بالشهوة على بطون الراقصات ذوات البشرة الخمرية اللامعة الناعمة الملمس كالساتان، وقد فُرش من تحتهن على الأرضية سجاد وثير ملون. بعد أن أكلوا وشربوا (من النبيذ القادم من قبرص والذى كان حقًا رائع المذاق)، هكذا لعب الخمر برأس چيفروا. وعندما مدت له إحدى هؤلاء النساء يدها، وكانت أكثر واحدة انجذبت عيناه إليها، لم يعد سيد الموقف، ولا أحد المنتصرين فى هذا اليوم التاريخى، بل أصبح حقًا رجلاً مهزومًا. داخل غرفة صغيرة دهنت جدرانها بالجير، وغُطت أرضيتها بالسجاد، تعرف چيفروا على متعة جسدية وشهوات لم يكن يتخيلها أبدًا. كانت أجات بعيدة... أما أنطاكية، فقد وقعت فى أيديهم، ولكن لم يكن الحال مماثلاً بالنسبة للقدس.

استيقظ فى الفجر بشكل مباغت. لقد اختفت المرأة الشابة التى أمضى معها ليلته واختفى معها سيفه أيضًا. عبر چيفروا نفس الحديقة الغناء التى مر منها مساء الليلة السابقة، ولكن شذى الزهور كان قد بلغ ذروته، حتى إنه كاد يختنق من قوة عبقه. ظهرت أمامه شجرة تتدلى منها ثمار فاكهة برتقالية اللون. اقتطف چيفروا واحدة منها وتحت ضغط أصابعه الخرقاء، سال من قشرتها المخملية عصير مسكر. قضمها چيفروا بأسنانه وتذوق نكهة لم يستطع وصفها من فرط لذتها. فى قلب الثمرة، وجد چيفروا نواة، فأخذها ورماها فى القناة الصغيرة.

- انظر!

قال له طفل صغير، وهو يقترب منه. كان يمسك بنواة أخرى بين أصابعه، بينما فى يده الأخرى حجر صغير كسر به النواة، وقدم لچيفروا اللوزة الموجودة داخلها.

قضمها چيفروا، فمرارتها جعلته يجفل ويعبس بوجهه، فراح الطفل يضحك عليه. بدأ چيفروا يستعيد وعيه تدريجيًا، وهو يمر من جديد بالقاعة الكبيرة، دون أن تسترعى انتباهه بقايا سهرة الليلة السابقة، ثم دلف منها إلى الشارع. من الهدوء التام ارتفع تدريجيًا ضجيج أصم. لمح چيفروا روبير النحات، فاقترب منه وقال له مبتسماً :

- لقد عرفت ليلة أمس امرأة رائعة.

- أيها الفرنچة الحجاج، الأفضل لكم أن تستيقظوا. صاح إبل دى سوج من أحد أركان الشارع، ثم أضاف محذراً: إن قوات أمير الموصل هنا... أما كاربوكا، فقد ظهر لتوه هو وقواته عند الأفق... ها نحن وقد حوصرنا فى المدينة.

رأى چيفروا رجلين يحملان نقالة خشبية، وتعرف على الرجل المحمول، فإذا به بوهيموند يتأوه من الألم. من خلفهم، سار رجلان منهمكان فى نقاش حاد.

– أعتقد أن علينا بتر ساقه باستخدام بلطة حادة جداً. قال الرجل الأول ويدعى كوم، وهو طبيب الأمير دى تارانت.

– أعتقد أننى أستطيع أن أجذب السهم دون أضرار. رد الرجل الآخر، وهو أيربك، الطبيب الذى عالج چيفروا.

– أليس من الأفضل له أن يعيش بساق واحدة، بدلاً من أن يموت بالاثنتين ؟ تساءل كوم.

– افعل ما يقوله أيربك. أمره بوهيموند باقتضاب وسط آلامه وقد استقرت حالته إلى حد ما. كان بنطاله قد احمر لونه من كثرة الدم الذى تدفق من ساقه.



١٥

ابتسم هوج، وسجانه يجلب له وجبة الصباح. ترددت شائعات قوية بشكل خاص فى أنحاء المدينة، فى حين كانت الساعة لا تتعدى التاسعة صباحًا.

– ما هذا الصخب؟ سأل هوج السجان بعد أن نهض من فرشته القشية، لكى يتناول الساطانية الصغيرة المصنوعة من السيراميك الفاتح.

– إنه ميدان السباق. سوف تحتفل القسطنطينية بالاستيلاء على أنطاكية[١].

– الاستيلاء على أنطاكية... كرر هوج مندهشًا، ثم أضاف سائلاً: وهل الفرسان الفرنچة هم من قاموا بذلك؟

– نعم... ولا شك. وما أدرانى؟ إن الإمبراطور غير موجود فى القسطنطينية. ولكن مع حلول عيد ميدان السباق[٢]، ستكون هناك ثمانية

---

(١) بعد نيقييه، كانت أنطاكية إحدى كبرى المدن التى تركها بيزنطيو القسطنطينية للعرب. ولا شك كان الاستيلاء عليها من جديد من قبل الفرنجة حدثًا كبيرًا.

(٢) فى الحادى عشر من شهر مايو.

سباقات، مقسمة إلى أربع عربات، كل واحدة ذات أربعة خيول: أربعة هذا الصباح، وأربعة بعد الظهر.

- وفى أى يوم نحن؟ لقد أقيم هذا الاحتفال منذ أكثر من شهر.

- أعتقد ذلك. ها هى قائمة الأيام الأولى من شهر يوليو.

- وهكذا فقد صار لى عامٌ، وأنا قابع هنا.

- ربما.

- كيف ربما؟

- أنا لم أبدأ العمل هنا والاعتناء بك، إلا منذ أيام قليلة. أوضح ميشيل السجان المسكين.

هدأ هوج وقال:

- هذا صحيح، إن الأمر لا يعنيك فى شىء، ولكننى سأفقد صوابى هنا. إنك أول حارس يوجه لى الكلام هنا. هل القدس بعيدة عن أنطاكية؟

عبس ميشيل، وقال بصوت متشكك:

- أنا لم أعبر مضيق البوسفور إلا مرة واحدة، أما عن القدس...

رفع ميشيل ذراعيه إلى السماء، وعبر بوجهه تعبيراً غريباً، أضحك هوج الذى قال:

- لكم أتمنى أن أكون مع رفاقى! قال وهو يتنهد.

– إننى أتساءل إذا ما كنت هنا فى حال أفضل. رد الحارس ميشيل وهو يهز رأسه إيجاباً ثم أضاف: يقال إنهم لا يجدون طعاماً ليأكلوه. أليس الحساء الذى تتناوله هنا أفضل من نباتات الأشواك والفئران؟ حتى إنه يقال إنهم يأكلون جلد الجرذان.

هم ميشيل بالانصراف، وهو يضع قبضتيه على أردافه. من خلال الباب المفتوح، تسربت أشعة الشمس إلى الغرفة الصغيرة، المقببة السقف ذات الجدران التى أصبح لونها رمادياً من فعل تسرب المياه إليها.

– بالتحديد أود أن أعرف إلى متى سوف أبقى هنا؟

– رغم كل شىء، فما زال لدى خبر لك... ولكننى لا أعرف إذا كان لا بد أن أقوله لك. أضاف السجان على عجالة، وهو يتلفت خلفه بعين متشككة، كما لو كان قد أسف على قول أكثر من اللازم.

– تكلم!

اقترب ميشيل من هوج، وهو ينظر فى اتجاه الباب، تحسباً لوجود أحد يتصنت خلفه. تقدم هوج منه بثلاث خطوات إلى الأمام فأحدثت القيود المعدنية التى تكبله صريراً.

– ما الخبر؟ تكلم! كرر هوج وهو يضع يده على كتف الآخر الذى كان أقصر منه بكثير.

– لقد غادر إيزيدورو القسطنطينية، ليلحق بالإمبراطور.

– وماذا يغير ذلك بالنسبة لى؟ سأله هوج بصوت ملىء بالضجر.

– لقد أقسم إيزيدورو أن يقطع رأس من يفشى بوجودك هنا... الآن وقد غادر، سوف تتطاول الألسنة...

– وماذا سيغير ذلك؟ كرر هوج بإصرار.

لم يرد ميشيل عليه. كان بالفعل قد خرج، وراح يغلق الباب خلفه وسمع هوج جلبة المفاتيح فيه. ثم سمع وقع قدميه تبتعدان على الممر الواسع، الذى لم يعد يتذكر منه إلا ذكريات مبهمة.

سُمع هدير المشجعين من خلف مضمار السباق[1]. تحتم على ميشيل الذهاب من أجل تشجيع فريقه المفضل ألا وهو الأخضر. بالطبع لم يحضر هوج من قبل هذه السباقات، ولكن تصادف أن جاءه زميل فى السجن خلال بضعة أسابيع. هو رجل يُدعى تيودور طويل القامة، ويتحدث بصوت عال، ويضحك كثيراً. هكذا شرح لهوج كل شىء بالتفصيل. أُلقى به فى السجن لعدم احترامه قواعد مضمار السباق، فهو لا يعرف شيئًا سوى الحديث عن الخيول والسباقات.

– لا يمكنك أن تتخيل ماذا يحدث! كرر تيودور على هوج، وهو يضغط على كلماته هذه، وبدأ يشرح له: يصل الإمبراطور مباشرة من القصر، ويستقر جالساً فى مكانه المخصص لمشاهدة مضمار السباق. وهناك ترى ما يلى: رخام فى كل مكان، وعرش مُغطى بالوسائد الحمراء

---

(١) تم بناء مضمار السباق فى أوائل القرن الثالث، ويبلغ طوله ٤٥٠ متراً، وعرضه ١٢٠ متراً.

والذهب. من حوله، تلتف جميع شخصيات البلاط الإمبراطورى البارزين، وهم يرتدون الملابس الحريرية الفاخرة؛ ذات ألوان مثل ألوان قوس قزح؛ أما الذهب... فلك أن تتخيل. بعضهم يرتدون اللوروس...

– وما هو اللوروس؟ سأله هوج.

– إنها قلادة كبيرة من الذهب والفضة.

لم يول تيودور اهتمامًا كبيرًا على مثل هذه التفاصيل، بل استمر فى سرد المزيد من التفاصيل الأخرى بطريقة مسلية قائلاً:

– على اليمين، يوجد الفريق الأزرق، وعلى اليسار الفريق الأخضر. فى البداية يحيى الإمبراطور الفريق الأزرق الأكثر وقارًا، حيث دائمًا ما يكون الفريق الأخضر أكثر اضطرابًا، وأكثر تعارضًا مع البلاط الإمبراطورى. تحتشد الجماهير فى كل مكان... يقال إن هناك حوالى ثلاثين ألفًا، وربما أكثر فى المدرجات... تصور؟ يجب أن تمشى على الأقل خمسمائة خطوة، لكى تذهب من طرف المسار رقم ١ إلى طرفه الآخر.

هز هوج رأسه بالإيجاب. لقد استطاع أن يتخيل، إلى حد ما، المشهد بما لديه من ذاكرة عن مشاهد الحشود: مثل تجمع الجماهير حول البابا أوربان الثانى فى مدينة كليرمون، أو عند تجمع الصليبيين بالقرب من ليون قبل الرحيل الأكبر. ولكنه لم يقل شيئًا، حيث كان تيودور، مأخوذًا ومنهمكًا فى موضوعه، حتى إنه لم يسمح له بالتكلم أو التعليق على ما يقوله، أكمل تيودور:

– فى مرة من المرات، عندما كان الإمبراطور لا يزال ثريًا، فى فترة جوستنين العظيم، كان يوزع الغذاء على الجميع. حول جميع أطراف مضمار السباق كان الحوذيون الفائزون يقفون بعرباتهم على أهبة الاستعداد بفخر، يمسكون بزمام خيولهم فى أيديهم إلى الأمام. فمن يفزْ فى مضمار السباق، يعتبر بطلاً!

فى منتصف المسار، وأمام المساحة الشاسعة، انتصب عمود قنسطنطين، وهو ضخم تعلو قمته مزهرية من الذهب[١]. يتحرك ظل العمود ببطء على المدرجات تبعًا لحركة الشمس ويتعامد على ظلال العمود الملفوف بثعابينه الحجرية الثلاثة المتداخلة، وعمود ثيودوسيوس الضخم[٢].

– والسباق؟

– الرباعى...

– الرباعى؟

أمام وجه هوج المتسائل، راح تيودور يشرح له بصبر:

---

(١) بعد قراءة الشرح المحفور فى قاعدة عمود قنسطنطين، تمت مقارنته بالعمود العملاق الموجود فى جزيرة رودس.

(٢) هى مسلة منحوت عليها رسومات بارزة تظهر ثيودوسيوس وعائلته، جالسين فى مدرجات مضمار السباق.

– تتقدم عربة كبيرة ذات عجلات صغيرة تجرها أربعة خيول يقودها حوذى يقف وفى يده سوط كبير. عامةً، تتسابق أربع عربات من هذا النوع، وتدور حول المضمار سبع دورات.

ترامى إليهما ضجيج هتاف المشجعين من جديد فى الخارج، ففهم هوج أن ذلك دليل على نهاية السباق الأول. على الأقل تخلل يومه هذا بعض الأحداث، منها الهتافات العالية المتحمسة أو صرخات التذمر وخيبة أمل مشجعى الفريق المنهزم، وأيضاً الشائعات. فعل الأقل سيمر الوقت، الوقت الذى شعر بأنه لا ينتهى فى هذه الزنزانة المشينة.

بعد أن فرغ من تناول العصيدة اللعينة، نهض هوج من على فرشته، وراح يتمشى لبضع لحظات. فبخلاف القيود المعدنية التى تكبل وتعوق حركته، شعر بألم طفيف فى مكان إصابته فى قدمه اليسرى، يعود تاريخها إلى العام السابق. كانت خطواته القليلة هذه ذهاباً وإياباً هى التمرين الوحيد الذى يستطيع ممارسته. ترى ما هو لون السماء؟ راح هوج يتساءل، وهو يجلس من جديد على فرشة القش غير المريحة، مستنداً بظهره على الجدار. لقد مرت عليه أربعة فصول منذ بداية أسره ورغم ذلك، وجد صعوبة فى تحديد فصل الشتاء، حيث درجة الحرارة تقريباً ثابتة فى هذه الزنزانة، كما لو كانت كهفاً، فقد شعر فقط بقليل من البرودة.

– لقد رحل إيزيدورو... قال هوج فجأة بصوت عالٍ.

ولكن ما الذى يمكن أن يتغير بشأن ذلك؟ من الذى يمكن أن يهمه أمره؟ لم يكن يعرف أحد. إلا إذا...

- سانشا...

هكذا نطق اسمها بأعلى صوته. أصبح يكلم نفسه بأعلى صوته بشكل متزايد، خاصة عندما كان يستعرض ذكرياته أمام عينيه، فكان يقلد بعض الحوارات التى دارت فيها. كان هذا يجعل وقته يمر بشكل أسرع، حتى ولو كان يجد مزيداً من الصعوبات فى استرجاع الصور فى مخيلته. حتى إنه قام برسم قصره الجديد بطريقة متعثرة على أرضية الزنزانة الرملية غير المستوية، وهو يتخيل بصعوبة كبيرة موقع البناء. راح يؤلف حوارات بينه وبين بيجون، رئيس العمال فى موقع بناء القصر. كان يحلم بلقاء أطفاله، وراح يفكر فجأة فى طفليه التوءم اللذين عرفهما بالكاد، ولا بد أنهما قد تعلما المشى الآن. ألم تسمهما برتراد المرضعة «كنوزى» الثمينة؟ وتييرى؟ وإليانور؟ ترى هل سيتذكراه إذا ما حالفه الحظ، وعاد يوماً إلى بلاده؟

ولكن بخلاف أطفاله، كان يفكر أيضاً فى مارى، ويجد نفسه يصلى من أجلها بسرعة، ودائماً فى نهاية المطاف كانت صورة أجات تفرض نفسها على مخيلته. تلك الفتاة الشابة التى تحمل عصا الدلوين، كانت تزوره فى أحلامه، أحلت محلها فتاة ترتدى السترة الزرقاء التى أعطتها مارى لها، وهى راكبة على فرسه، الأميرة الحسناء. أو يرى أجات فى

وسط الأعشاب والشجيرات، أجات وهى تضحك، وهى تجرى، وأخيراً أجات بين ذراعيه. هذا الجسد البض الطرى، الجميل جداً، الذى يجعله يشعر بأنها جواره، وأنه على وشك أن يلمسها فى اللحظة التى يدرك فيها فى النهاية، وقد أنهكه التعب، أن كل هذا كان هباءً. شاعراً بالإحباط واليأس، كان ينكب على فرشته القشية وينخرط فى البكاء. عندما كان سجانوه الذين قد توالوا عليه يكتشفونه فى هذه اللحظات، كانوا يهزون أكتافهم بتجاهل. هذا هو كل ما كان يتوقعه منهم. أخرجته من تأملاته وأحلامه هذه هتافات المشجعين من جديد يصرخ. لم يقم هوج بإحصاء دورات السباق.

– سانشا... كرر هوج بأعلى صوته.

ما إن وصل إلى قصر بوكوليون الكبير، حاول أن يتكلم معها، ولكنه تخلى عن الفكرة أمام أول الحراس الذين لم يوجهوا إليه أى كلمة. جعلته زيارات إيزيدورو المنتظمة لها يحجم تماماً عن الفكرة أيضاً. فكلماته القاسية المريرة، التى تُنفس عن كراهية شديدة، جعلت هوج يتوخى الحذر.

– سانشا... ماذا سأفعل إذا ما خرجت من هنا؟ كيف سأتمكن من اللحاق برفاقى؟ راح هوج يتساءل بحيرة.

ألم يحمل الصليب بغرض الذهاب إلى القدس؟ إن ترك هذا المكان سيكون مخالفاً لأمنيته. ومع ذلك، عندما كانت صورة أجات تسيطر على

مخيلته، كان لا يحلم إلا بالعودة، حتى ولو كان هذا المشروع يقوم هو به وحده، ويشكل مغامرة محفوفة بالمخاطر، مثلها مثل الذهاب للحاق بالفرنچة عند أبواب المدينة المقدسة.

- بما أن إيزيدورو قد رحل، فلا بد أن ميشيل قادر على مساعدتى.

لم تمر فترة طويلة على عمل هذا الحارس هنا وتفقد هوج. لقد حرص إيزيدورو على تبديل السجانين بصفة مستمرة، حتى يتجنب بكل الطرق حدوث ألفة وصداقة بينهم وبين السجين. ولكنه فى الوقت ذاته، جازف بتفشى سر وجود سجينه هوج بين العديد من الرجال. إن طبيعته القاسية تسمح له بفرض الصمت، دون الندم عليه.

لقد كان السجان ميشيل هو أول من كسر العزلة التامة المفروضة على السجين هوج بالتواصل معه. كان هو الذى أخبره بأن سانشا وضعت طفلاً، وأنها كادت تموت أثناء الولادة، ولهذا بقى إيزيدورو معها رغم أنه كان ينبغى عليه أن ينضم إلى الإمبراطور ورئيسه بوتيميد منذ فترة طويلة.

فتح باب الزنزانة، بينما كانت الهتافات على أشدها.

- إنه السباق الأخير! أعلن له ميشيل ثم أضاف: لقد فاز الفريق الأخضر بأربع دورات متتالية حتى الآن.

- لا بد أنك مسرور. علق هوج بلا مبالاة، وهو يتناول منه السلطانية.

أجابه ميشيل بابتسامة عريضة، علت وجهه، وكشفت عن أسنانه الصفراء غير المتساوية النامية بشكل سيئ.

- لقد قلت لى إن إيزيدورو قد رحل، أليس كذلك؟

- نعم وما كان علىَّ أن أفعل... لا بد أن هذا جعلك تحلم.

- هل تستطيع أن تخبر سانشا، زوجته، بأنى موجود هنا؟

عبس ميشيل، وهو يقول له:

- أنت تعلم أن هذا سيجلب لى المشكلات؟

- أعلم... ولكننى لن أعانى قابعًا هنا طوال حياتى. فأنا لدى أطفال وزوجة...

ابتسم هوج... كانت هذه هى المرة الأولى التى يتحدث فيها عن أجات، كما لو أنها زوجته. نعم لقد اتخذ قراره، إذا ما عاد إلى بلاده فسوف يتزوجها. سيقوم القسيس أرنو بمباركة هذا الزواج، وسيقيم هوج احتفالاً كبيراً لذلك. أغرورقت عيناه بالدموع.

- اسمع، سأحاول، ولكننى لن أعدك بشىء. قال ميشيل فى النهاية، حيث لم يستطع أن يمنع شعوره بالشفقة على هذا الرجل، الطويل القامة التعيس جداً.

شعر هوج بموجة من السعادة غمرته، فراح يدندن بنشيد أديمار دى مونتيل اللاتينى:

- سالف ريچينا ماتر يا رحيم...

– الأسـقـف، الكنسى، الكونت ريمـون... ترى أين هـم الآن؟ مـاذا يفعلون؟ القدس...

راح هوج يغمغم، متسائلاً.

و لكن مرت أيام عديدة، دون أن يتكلم مـعه ميشـيل عن أى شىء. فـبـعـد لحظة النشـوة التى مـر بهـا هـوج، غـرق مـن جـديد فى مـزيد من اليأس. كـلا... يبدو أنه لن يخرج من هذا المكان أبداً. فمن الذى يمكنه أن يهتم بمصيره؟ حتى أصدقائه اعتقدوا أنه قد لقى حتفه.

ثم حـدث ذات مـسـاء، أن فُـتح باب الزنزانة على مـهل، وظـهـر من خلاله ظل شخص ملثم. سرعان ما تعرف هـوج على صوت سانشا.

– هـوج... أهذا أنت هنا؟

– نعم، والفضل يرجع لزوجك.

– لقد جاءنى حارسك منذ بضعة أيام، ولكننى ترددت كثيراً قبل أن آتى لزيارتك، إن إيزيدورو يخيفنى كثيراً.

– لن يقوم بقطع رأس زوجتـه رغم كل شىء. قـال لها هوج سـاخـراً ثم أضاف: يبدو أنه قد سافر.

– هذا صـحـيح، ولكنـه قـادر على القـدوم بين لحظة وأخـرى. كـان صوت سـانشـا به نبـرة رقيقة، طالما سـحـرت هـوج وجـذبته، أمـا اليوم فقد خانتـها هذه النبرة، وراح صـوتها يرتعش من فـرط الذعر، حتى إنه شعر

بالأسى من أجلها. ومع ذلك، فهو لا يمتلك الوقت الكافى، كى يشفق على مصير هذه المرأة التى كان يحبها ذات يوم، ولكن لم تعد تمثل له أى شىء، سوى بريق من الأمل فى الحرية.

- هل تستطيعين إخراجى من هنا؟ سألها هوج بشىء من الوقاحة.

- ليست لدى أى سلطة، يا عزيزى هوج المسكين. ناشدته سانشا.

- ألست داخل بلاط الأميرة آن؟ تحدثى معها!

- أتعتقد ذلك؟ سألته سانشا بصوت، تزايد ذعره والأكثر أنه جاء مكتوماً من خلف الغشاوة، التى احتفظت بها على وجهها.

- قولى لها. كرر لها هوج

كانت نبرة صوته آمره. تقدم هوج ثلاث خطوات إلى الأمام نحو سانشا، التى رجعت إلى الوراء على الفور.

- أنا أخيفك... فبلحيتى هذه أبدو كناسك طاعن فى السن، ولا بد أن رائحتى نتنة. هكذا قال لها هوج بصوت عاصف، قبل أن يرق من جديد. ففى النهاية، ألم تكن سانشا حليفته الوحيدة؟ لم يكن عليه أن يخيفها. قال لها: ألم تحبينى؟ لو لم تعثرى على إيزيدورو، ألا كنت تتبعيننى؟

- بلى، وكنت سأصبح أكثر سعادة، مما أنا عليه الآن.

كان كلامها وكأنه صرخة نابعة من القلب. تلفتت سانشا حولها، كما لو كانت تخشى وجود شخص خفى فى المكان ثم أضافت:

– لقد أصبح إيزيدورو يعاملنى بقسوة شديدة... ولن يغفر لى أبداً أننى أحببتك.

– إذن؟ سألها هوج وقد نفد صبره أمام فرصته الوحيدة.

– سوف أرى ما يمكن عمله...

قالت سانشا ذلك، ثم اختفى ظلها وسط حفيف حرير ردائها، وفى لحظات تلاشت فى الظلام. ما إن استيقظ هوج فى صباح اليوم التالى حتى راح يتساءل إذا ما كان يحلم. ولكن ميشيل أثبت له العكس، عندما جاءه وقت العصر، ليحلق له ذقنه، وكان يحمل جرة كبيرة من الماء المعطر، حتى يغتسل فيه. لم يشعر هوج من قبل بمثل هذه اللذة، وهو يعتنى بجسده، وعندما جاءه ميشيل بقميص وبنطال نظيفين من النوع اللاصق الذى يرتديه اليونانيون، وكذلك سترتان من الحرير الأخضر والأصفر الذهبى لوضعهما الواحدة فوق الأخرى على الطريقة القسطنطينية، وحذاء ذو رقبة من الجلد الأحمر الناعم، فى هذه اللحظة فقط، دب الأمل أخيراً فى صدر هوج. يبدو أن الحياة قد بدأت تستيقظ بداخله من جديد. فهل كانت هذه العلامات الأولى لإفراج مقبل؟ لم يكن ميشيل على علم بشىء. ومع ذلك ففى المساء ذاته، جاءه ميشيل من جديد عند باب الزنزانة، ووقف يتطلع إلى هوج، وقد بدا متفاجئًا تقريباً، وهو يرى سجينه رائعًا فى ثيابه الجديدة.

– اتبعنى! هكذا قال ميشيل له بعد أن فك قيوده المعدنية التى كانت تكبل ساقيه. بدا له الممر بلا نهاية، تضيئه مصابيح خافتة. تخيل هوج

السجناء القابعين خلف هذه الأبواب، مثله، منذ زمن طويل ولا شك. سقطت قطرة ماء من سقف القبو على طاقمه الأنيق، فأزاحها بحركة سريعة من يده اليمنى، التى أصبحت أخيراً نظيفة. شعر بألم فى ساقه.

– إلى أين نحن ذاهبان؟ همس هوج، وهو يسأل ميشيل، عندما دخلا إلى قاعة كبيرة يجلس فيها حراس يلعبون النرد. عبر هوج وميشيل القاعة دون أن يبالى بهما أحد البتة، حتى وصلا إلى حديقة. كانت هذه هى المرة الأولى منذ عام مضى، يستنشق فيها هوج الهواء الطلق. كانت السماء صافية إلا من بعض غيوم الحر؛ وراحت الورود تتفتح وتنفث عبيرها. نفخ هوج رئتيه ليملأهما قدر المستطاع من هذا الهواء المنعش، قبل أن يدلفا داخل ممرات أخرى لا نهاية لها.

– ولكن إلى أين تقودنى؟ سأل هوج ميشيل، وقد زاد فضوله وتساؤله.

– كن صبوراً! أمره ميشيل

كان هوج متعباً، وشعر بألم ساقه يزداد.

– ها نحن قد وصلنا. أخيراً أعلن له ميشيل، وهو يقف أمام باب يحرسه عبدان أسودان، أفسحا لهما الطريق، لكى يدخلا إلى قاعة صغيرة يغطى جدرانها القماش الحريرى الأحمر. كانت هناك سيدتان جالستان. إلى جانب سانشا، التى تعرّف هوج على وجهها فوراً، جلست امرأة شابة ذات وجه نحيل سرعان ما عرفها هوج، وهى الأميرة آن التى نهضت لاستقباله.

- أيها الفارس... لقد قصت عليّ سانشا مغامراتك... لقد كنت مع هذا الكونت الشجاع دى تولوز... وكان هناك أيضًا ذاك من يُدعى إبل دى سوج، الذى تحدى والدى.

تذكر هوج حكايات إبل المتملقة عن الأميرة، عندما انضم من جديد إلى جيش الصليبيين بعد فترة أسره القصيرة فى قصر الإمبراطور.

تأمل هوج الأميرة... كانت تقف مفرودة القامة تمامًا، وترتدى فستانًا طويلاً من الحرير الأخضر، مربوطًا أعلى الوسط بحزام، وينفتح إلى أسفل كاشفًا عن تنورة أخرى، مطرزة بشكل رائع بالذهب واللؤلؤ.

- نعم يا أميرتى. اكتفى هوج بهذه الكلمة، وهو ينظر بإعجاب إلى هذه المرأة الشابة، التى بدت أكثر جمالاً فى هذا الرداء البسيط، مقارنة بالزى الإمبراطورى الهائل الذى كانت ترتديه على العرش إلى جانب والدها.

- أيها الفارس... أنت من الآن حر طليق. قالت له الأميرة بسرعة، وهى تضغط على كلماتها بنظرة بها رقة. وقبل أن يرد هوج أو يقول أى شىء، أضافت الأميرة قائلة:

- ما الذى تنوى فعله؟

- سأنضم إلى رفاقى... ربما أتمكن من الوصول إلى القدس فى الوقت المحدد.

رافقت كلمات هوج نفحة من الحماس والنشاط، جعلت الأميرة تبتسم. لقد كان هذه الفرنچى خير مثال على ما كتبته هى بخصوص مواصفات أجداد الفرنچة عن "الحماسة والتأجج، حقًا بدافع الرغبة فى تبجيل ضريح المسيح..."

– أتمنى لك ذلك... لقد احتفلنا بالاستحواذ على أنطاكية، التى من ناحية أخرى، يبدو أن أصدقاءك لا يرغبون فى تسليمها إلى أبى! إن أمير تارانت الوسيم يريد الاحتفاظ بها! يا لها من وقاحة! رغم أنه قد حلف اليمين، ولكن كلامه كان محسوبًا وغامضًا. وبعد... ألا يود كل فارس أن يتفوق على الآخرين؟

ابتسم هوج بسخرية، فقد كانت هذه المشاحنات تبدو له غريبة. فما الذى سيعود عليه من التنافس بين بوهيموند وجودفروا أو ريمون؟ وما الذى سيعود عليه من غضب الإمبراطور؟ لقد أخذ النصارى أنطاكية، مما يمهد الطريق إلى القدس. إن تحريرها كان بمثابة هدية غير متوقعة، لهذا فهو لا يطرح على نفسه المزيد من الأسئلة. هدفه الآن هو أن يستأنف حمله الصليب، وأن يذهب هو أيضًا إلى القدس. لم يكن يعرف كيف سيفعل ذلك، ولكن كانت هذه هى الفكرة الوحيدة التى تسيطر على رأسه. إنه مثل جيش المسيح، لن يوقفه أى شىء. داعبت مخيلته للحظة صورة أجات، سوف تنتظر.

– هل تستطيعين مساعدتى؟ أنا أحتاج إلى حصان وإلى مرشد.

– إن هؤلاء الفرسان متشابهون فى كل شىء!

رافقت الأميرة آن جملتها هذه بضحكة رنانة، فضحك هوج بدوره وقد أعجبته تسمية "الفرسان"، التى يحرص على ترديديها البيزنطيون. كانت سانشا جالسة، وقد بدت شاردة التفكير تماماً، ولهذا لم تشترك معهما فى الحوار.

– إن طلباتهم كثيرة أيضاً! تابعت الأميرة آن، وهى تلوح بيديها بطريقة معبرة ثم نادت: بازيل!

فُتح الباب، وكأنما بفعل السحر، ثم ظهر على عتبته فتى طويل القامة ضخم الجثة، فقالت له الأميرة:

– بازيل، سوف تغادر غداً إلى القدس مع الفارس هوج دى رامون... أنا أعهد به إليك. اختر له حصاناً، وأجلب له سيفاً.

أدرك هوج فى هذه اللحظة أنه فقد سيفه المخلص أديل للأبد، سلاحه الذى ورثه عن أسلافه. كما تذكر أيضاً فرسه، الأميرة الحسناء.

– أنا أشعر بألفة أكبر مع الفرس. قال هوج مبتسماً

– إن الفارس يطلب فرساً، أتسمع يا بازيل؟ قالت الأميرة، وهى تضحك بتهكم.

– أجل يا أميرتى. قال بازيل، وهو ينحنى بتذلل واضح، أثار حفيظة هوج.

– أيها الفارس، هل تعلم أنه إذا كان الفرسان تأخذهم الحماسة بشكل لا يقاوم فى هجماتهم الأولى، فإنه من السهل جداً هزيمتهم بعد ذلك؛ بسبب طابع تصرفاتهم المتسرعة غير الحكيمة؟

– هذا لا يمنع من تحقيقنا بعض الانتصارات! ألم نستحوذ على مدينة أنطاكية؟ رد هوج بنبرة لا تخلو من الغطرسة.

لم يدرك هوج أنه قد وقع فى فخ الأميرة، التى لم تتوقف عن كتابة عبارات قاسية جداً، فى وقائع ويوميات عهد والدها[1]، عن هذه العيوب الرهيبة لهؤلاء الذين اعتبرتهم هى همجيين وعديمى الضمير...

– أنت لا تحبين الفرنچة. أكد هوج

– لقد أحببت واحداً منهم كثيراً... إذا رأيت إبل دى سوج مرة أخرى، قل له إننى لم أنسه، وسوف يسرنى لو أراه من جديد، إذا حدث وعاد يوماً إلى القسطنطينية.

قالت الأميرة آن كومنين ذلك، وهى تتجه ناحية الباب.

– وداعاً أيها الفارس.

– شكراً يا أميرتى.

أحدث فتح قفل الترباس صريراً مزعجاً.

– لم يتبق لى إلا أن أقول لك وداعاً يا سانشا.

---

(١) كتاب "ألكسياد" أو حياة ألكسيس كومنين، والتى تقدم آن كومنين فيها اعتذاراً للبيزنطيين، كما توجد به أيضاً تفاصيل مثيرة عن الحملة الصليبية الأولى.

قال هوج ذلك بصوت محايد، فنظرت له سانشا برقة. بدا وجهها شاحبًا وهزيلاً على عكس هالته المضيئة المعتادة، فأبرز عينيها الرماديتين جداً، والكبيرتين جداً، مما أضفى عليها سحراً جديداً.

– لقد دبرت لتجهيز بعض أطباق الطعام... عليك أن تستعيد قواك قبل الرحيل.

في الغرفة المجاورة ذات الجدران المغطاة بالفسيفساء الذهبية والتي راحت تلمع في ضوء المشاعل المتوهجة بوهن، نُصبت منضدة على أطباق من اللحوم المقددة، وكؤوس كبيرة تزخر بالفواكه. راحت سانشا تسكب له بنفسها محتوى مشروب كحولي رقيق، كان موضوعاً في كوب زجاجي شفاف داخل إبريق من الفخار المذهب. راح هوج يطالعها، وهي مقبلة ومدبرة أثناء تذوقه باستمتاع المشروب ذي نكهة الفواكه.

– كل! فمازالت لدينا ليلة بأكملها أمامنا.

كانت هناك نافذة صغيرة في الغرفة تطل على حديقة، بدا منها الظلام، وقد هبط بعد ضوء غسق الغروب. لم تأت أي ضوضاء من القصر. شعر هوج بقلق طفيف غامض، ومع ذلك بدأ هوج يستطعم من هنا قطعة طرية من لحم الخروف، ومن هناك ثمرة فاكهة. راحت سانشا تنظر إليه في صمت. ساد جو من التوتر الخفيف على الغرفة الصغيرة التي يكسو جدرانها الحرير الرصاصي، تزينه نسور ضخمة، وهي تنقض بمخالبها على فرائس من الغزلان.

- هوج. قالت له سانشا، وهى تناوله قارورة فخارية أخرى من هذا النبيذ اليونانى الممتزج بثمرة شجرة المطاط والراتنج : هوج.... هل تريدنى للمرة الأخيرة نودع فيها بعضنا البعض؟

توقف هوج عن الحركة، وكانت فوهة القارورة على طرف شفتيه، بينما تلونت وجنتاه باللون الزهرى.

- ماذا تقولين؟ سألها هوج بصوت أصم.

- سأمنحك نفسى لليلة أخيرة... فأنا فى حاجة إلى ذلك بشدة... لكم فكرت فيك كثيراً خلال هذه الأشهر الطويلة، التى أمضيتها مع إيزيدورو، أنا تعيسة للغاية!

انهمرت الدموع على طول خدى سانشا، حتى نزلت على الحرير البرتقالى لردائها. بحركة سريعة من ظهر يدها، مسحت سانشا دموعها بكم ردائها.

- هل تريدين موتى؟ ألا تعتقدين أننى دفعت بما فيه الكفاية؟ كلا، اتركينى. صاح بها هوج، هادراً دون أن ينظر لها.

- لن يعلم أحد بذلك. توسلت سانشا إليه، وهى تجهش بالبكاء، ثم أضافت: إن إيزيدورو بعيد جداً عنا فى هذه اللحظة.

- هذا الرجل يكرهنى.

تضاعفت دموع سانشا المنهمرة، ثم قالت له:

- إذن خذنى معك!

- إلى القدس؟

- كلا... إلى مملكة فرنسا... هكذا لن يستطيع أن يجدنا أبداً.

- هذا مستحيل.

- هل لديك هناك امرأة أخرى؟

- ربما... ولكن الأهم أننى تعهدت بالذهاب إلى القدس.

راح هوج يحتسى النبيذ على جرعات صغيرة من القارورة التى كانت تلمع على ضوء المشاعل المُقادة فى أنحاء متفرقة من الغرفة الصغيرة. كانت سانشا جالسة بالقرب منه، وراحت تضغط على كتفه الملاصق لكتفها فشعرت بدغدغة لذيذة. تذكر هوج إمدادات ماء الورد التى كانت تأتى محملة على عربة ثقيلة بها أغراض سانشا وإلڤير، كونتيسة تولوز.

- المرة الأخيرة. هكذا قالت سانشا بإصرار، وهى تضع رأسها على كتف هوج.

أزاحها هوج عنه برقة، ولكن الإغراء كان كبيراً.

- تعال!

قبضت سانشا على يده بيدها ثم نهضت واقفة. شعر هوج بأنه قد هُزم بالفعل، وهكذا تتبعها. فتحت سانشا باباً كان مختفياً وراء الستائر

الحريرية الرقيقة، التى تغطى الجدران. فى الداخل كانت هناك فرشة طبقة لينة، ومريحة فى انتظارهما، تحيط بها ستائر مطرزة على طبقة إضافية. غمرتهما بالفعل موجة من اللذة والسعادة. وإذا كان هوج قد راود مخيلته حقًا صوت إيزيدورو، الذى لاح وجهه مرتسمًا على الجدران، فقد اتخذ قراره فجأة بالانتقام لهذا العام الذى عاشه من المعاناة. فلماذا إذن يحرم نفسه من الانتقام المعروض عليه، على شكل متعة حسية رقيقة؟

عندما جاءه حارس ليوقظه فى صباح اليوم التالى، كانت سانشا قد اختفت. لم يتبقى من أثرها سوى الوشاح الطويل المزركش الذى كانت تضعه على كتفيها. راح هوج يتشمم العطر الثمين الذى يفوح من وشاحها هذا، ثم وضعه مرة أخرى فى مكانه. كان بازيل ينتظره فى الساحة الصغيرة المجاورة، بينما كانت الشمس تسلط أشعتها الملتهبة فى هذا الصباح. ناوله سيفًا طويلاً ذا سطح عريض وشفرة أحادية، كما كان له مقبض جميل الشكل مرشق بالأحجار الكريمة. راح هوج يتطلع إلى الخيوط الذهبية التى كانت ترتسم على المقبض المصنوع من الأرابيسك، ثم أمسك السيف بأكمله ليزنه فى يده بعين خبيرة.

– إنه هدية من الأميرة آن. قال بازيل، وهو يبتسم، بينما برزت فى عنقه تفاحة آدم واضحة.

– إنه رائع، ولكنه لا يمكن أن يُنسينى سيف أجدادى. رد هوج وهو يثبت السيف فى حزامه.

فى هذه اللحظة التفت هوج، فاكتشف مهرة فى انتظاره.

– إنها فرس كما طلبت. قال بازيل، بينما راحت تفاحة آدم تتحرك بعصبية.

– يا لها من فرس جميلة!

سطع ضوء أشعة الشمس على بشرة الفرس الذهبية.

– إنها مثل الذهب! قال هوج، وهو يملس بحب على بشرة الفرس الذهبية الرائعة اللون، ثم أكمل: الأميرة الحسناء... ستكونين أنت أميرتى الحسناء الجديدة.

أدارت الفرس رأسها ناحيته، وراحت تنظر إليه بعينين حانيتين. كان شعر جيدها الأشقر قد مُشط بعناية فائقة، بينما أنحدرت بقعة بيضاء كبيرة حتى فمها. انتصبت أذناها إلى أعلى، مصغية له عندما همس هوج لها قائلاً:

– إلى القدس!

قفز هوج، جالسًا على سرجها الجلدى ذى اللون الذهبى أيضًا، حتى ينسجم تمامًا مع بشرة الفرس. استقر هوج فى مكانه بين مقدمة السرج المدبب لأعلى ومؤخرته، وكرر قائلاً:

– إلى القدس! إنها مشيئة الرب وليعيننا!

شعر هوج بسعادة كبيرة، عندما لمح سانشا واقفة وراء نافذة صغيرة ترسل له قبلة الوداع، بينما امتلأت عيناها بالدموع.

١٦

أخذ چيفروا يمضغ بحماس شيئًا، على ما يبدو أنه فردة حذاء. كشفت طريقة مضغه القوية عن مزيد من عظام وجهه النحيف. لقد تمت محاصرة الصليبيين فى مدينة أنطاكية، التى ما زالت تحت هيمنة كاربوكا، أمير الموصل، الذى فاجأهم فى ذات اليوم التالى لاستيلائهم على المدينة. سريعًا ما استنفدوا آخر مخزونهم من الغذاء، الذى كانوا قد تحصلوا عليه أثناء الغزوات السابقة، وهكذا انخفض معدل غذائهم وأصبحوا يأكلون أى شىء. حتى أشجار البساتين، فقد نهبوها خلال بضعة أيام، فلم تعد عليها فواكه.

لقد مضت عليهم خمسة عشر يومًا منذ دخولهم مدينة أنطاكية، وها هو چيفروا لا يفعل شيئًا، بل يشعر بالوحشة والكآبة، وهو جالس على درجات كاتدرائية القديس پيير، التى بُنيت بشكل مدهش فى تجويف حُفر عند سفح القلعة. بالقرب منه، كان روبير جالسًا، وقد انهمك فى نحت كتلة صغيرة من الحجر الأشقر، قرر أن يحولها إلى ملاك. هو الآخر كان يمضغ بطريقة آلية قطعة من نعل حذاء. راح على بن فيروز، يراقبه بتمعن، وهو جالس وذقنه بين يديه.

– أما نحن، فربنا لا يريدنا أن نصنع كائنات حية... فلا الرسامون أو النحاتون يستطيعون أن يصنعوا مثل هذه الأشياء.

من داخل الكنيسة، تناثرت على الأرضية حفنات من القش هنا وهناك، تشير إلى أن الأتراك قد استخدموها كإسطبل للخيول، ترامى إلى مسامعهم ضجيج معاول ومجارف. خرج الكنسى ريمون دى أجويلير من باب الكنيسة، وقد بدا عابس الوجه، فسأله چيفروا:

– ماذا هناك؟

– لا شيء. رد الكنسى بيأس

لم تعد تتدلى من حزامه دواة الحبر، التى كان لا يستغنى عنها، فقد ضاعت منه أثناء غزو المدينة. ولهذا فقد صار له خمسة عشر يومًا لم يكتب خلالها سطرًا واحدًا.

فى صباح اليوم ذاته، كانوا قد بدأوا عمليات البحث عن الحربة المقدسة. قاد هذه العمليات پيير بارتيليمى، وهو رجل من جنوب فرنسا، وبالتحديد منطقة پروفنس، قصير القامة وعصبى، تختلج عضلات وجهه بتشنج لا إرادى. كان هذا الرجل قد حكى الرؤى التى رآها فى أحلامه مرارًا وتكرارًا خلال فصل الشتاء إلى أسقف پووى وريمون دى تولوز :

– إذا ما دخلت إلى مدينة أنطاكية، هكذا قال لى الرسول أندريه، فلتذهب مباشرةً إلى كنيسة سانت پيير، واحفر على يمين المذبح. ستجد هناك الرمح الذى أُصيب به سيدنا المسيح.

و بعد أن حكى الرجل حكايته الأولى هذه، وقع زلزال مروع فى اليوم التالى، أصاب الجميع بالذعر، وكثير منهم انبهروا بما حدث، وارتسم الشك والحيرة على وجوههم.

فى اليوم التالى لغزو الصليبيين مدينة أنطاكية، وعندما لاحت قوات الأمير كاربوكا فى الأفق، أضاف هذا الرجل الراوى أمام رجلى الدين:

- يا صاحبى المعالى: إذا وجدتما أننى كاذب، فأحرقانى حيًا فى نار، تعطينى فكرة عن ماهية الجحيم الذى لن أستطيع الفرار منه.

كان الرجل يتحدث بحماس محموم مقنع. وكما حدث مع بطرس الناسك الذى زعم أنه رأى أحلامًا غريبة زاره فيها قسيس يُدعى إيتين ڤالنتن، قد حكى له أيضًا، أن المسيح سيظهر مع وعد بالإغاثة فى غضون خمسة أيام، وهكذا أذعن ريمون دى تولوز وأديمار دى مونتيل أخيرًا بالموافقة على السعى فى هذه المغامرة. ألم يكن ذلك بمثابة تغيير رائع، فى حين كان الموقف معلقًا بالكامل؟

هكذا بدأوا عملية الحفر والتجريف من الفجر على يمين المذبح فى تلك الكنيسة الكبيرة، التى بُنيت خصيصًا مهداة إلى روح القديس بطرس. لم يعير چيفروا أى اهتمام إلى هذا الموضوع، بل راح ينظر من دون اكتراث إلى روبير، الذى كان مقصه ينقش برقة على الحجر، فأخذ يتداعى إلى شظايا صغيرة. فبالنسبة لچيفروا لم يكن يعرف الشىء الكثير فى استخدام أصابعه، غير التعامل مع السيف أو الحربة، لهذا

كان معجبًا بروبير. لهذا شعر بالضجر وأنه شخص غير نافع. كان يستيقظ فى كل ليلة على تقلصات مريعة فى معدته، ثم يعود إلى النوم مرة أخرى ليحلم بوالدته، محاطة بأخوته وأخواته، وهى تستقبله عند سفح قصر والده. ومنذ صباح هذا اليوم بالتحديد، وهو يشعر بغصة فى قلبه، وبوحشة شديدة. لقد راودته من جديد فكرة الذهاب، والدق على باب فيروز، ولكنه قاوم تلك الرغبة. فما الجدوى فى ذلك؟ إن أجات لم تعد ترغب فى رؤيته بالمرة. هذا ما أخبره به فيروز مرارًا وتكرارًا. جعله ذات يوم ينتظر لفترة طويلة على الحجر الموجود فى الشارع، على الجانب المقابل للبوابة الكبيرة المصبوغة باللون الأزرق، فى وسط جدار عالٍ مبيض بالطباشير.

– إنها لا ترغب فى رؤيتك فاتركها... يجب أن ندعها وشأنها الآن وربما عندما تلد طفلها، قد تغير رأيها.

– نعم ولكن ربما حينئذ أكون قد وصلت إلى القدس... أو على الأقل آمل ذلك.

– إلا إذا اضطررت للبقاء هنا فى مواجهة كاربوكا. أجابه فيروز بحكمة، كما لو كان فيلسوفًا.

– إذن سنكون وقتها جميعًا قد متنا جوعا.

– الله أكبر! هكذا استخلص فيروز الحوار، وهو يلوح بيده فى إيماءة متفردة، تُعنى أنهم قليلو الحيرة.

فعند أسوار المدينة، لا يوجد تقريبًا شىء يدعو للتفاؤل. ها هى قوات كاربوكا، تخيم هناك بأعداد ضخمة على مرمى النظر. فهذا الأمير كاربوكا، والذى كان يُقال إنه متعجرف وأجوف، ولكنه كان أيضًا جبانًا وغير كفء. ففى غضون ساعات، اقتحم الجسر الحديدى، ثم أشعل النار فى قصر المحمدى، ثم لم يحدث أى شىء بعد ذلك. وقد حُكى أنه يمضى أيامه فى لعب الشطرنج!

– الحربة! الحربة...

رن صدى الصرخة آتيًا من أسفل السقف المستدير لجوقة الكنيسة.

عادةً ما يتمهل ريمون دى أجويلير فى تحركاته، ولكنه فى هذه اللحظة هرول، يليه چيفروا ثم روبير. مد پيير بارتيليمى يده بحربة لها مقبض ملتو وحديدها صدأ، فلم يجرؤ ريمون دى تولوز على تناولها منه.

– إنها الحربة المقدسة! قال الأسقف أديمار، وهو يركع على ركبتيه، وقام الكنسى ريمون دى أجويلير بعمل الشىء نفسه.

– الحربة المقدسة! كرر بطرس الناسك، وهو يوقع بعلامة الصليب على صدره، ثم ألقى بنفسه، ممدداً على بطنه على أرضية الكنيسة أمام المذبح متضرعًا، فى واحدة من حركاته المسرحية التى اعتاد الصليبيون على رؤيتها منه.

– الحربة المقدسة...

تطاير الخبر من شارع إلى شارع، ومن منزل إلى منزل، وتوافد الجميع على الكنيسة، حيث وُضعت الحربة الثمينة فوق المذبح.

– هل تصدق أنت قصة هذه الحربة المقدسة؟

لكزه روبير بكوعه، وهو ينظر إليه نظرة مشكوك فيها، ثم التفت لينهمك من جديد فى قطعة الحجر التى ينحتها. لم يعرف چيفروا ماذا يفعل سوى أن يفكر فى هذا الموضوع. ولم لا! إذا كان موضوع الحربة هذا سيجلب شيئًا من البهجة عليهم. وضع أصابع خنصريه فى حزامه، وهى حركته المفضلة، وراح يصفر، وهو يتمشى فى الشارع الصغير الذى يحده شمال كنيسة سانت بيير، ثم دلف إلى اليسار فى حارة أكثر ضيقًا، ودق على باب ثالث منزل. فتحت له سارة.

كان چيفروا قد وجد سريعًا هذه الفتاة التى أعطته نفسها بطريقة شهوانية للغاية، منذ الليلة الأولى لوصولهم إلى مدينة أنطاكية. حتى إنها أعادت له سيفه. بل إن سيفه هو الذى جعله يتعرف عليها مرة أخرى حيث إنه رآها بالكاد فى الليلة الأولى التى منحته فيها نفسها بهياج لا يُنسى. فباستثناء أجات، عرفت سارة كيف تجلب له بعض اللحظات العابرة من السعادة. وبين ذراعيها، نسى چيفروا الحربة المقدسة، والجوع، وأسرته، وعلى الأخص نسى أجات.

بعد أسبوع، كان الصليبيون ما زالوا يحتفلون بالاكتشاف. لقد استغل أديمار دى مونتيل الفرصة، وأقام سلسلة من الاحتفالات فى

محاولة لإعادة الأمل إلى جيشه، الذى انخفضت معنوياته، حتى إنه قرر فرض ثلاثة أيام من الصوم، مما لم يضايقهم بالكاد فى ظل المجاعة التى كان يعيشها سكان المدينة، كما شارك چيفروا مثله مثل الآخرين فى مواكب دينية يومية لإجبارهم على الصلاة بلا انقطاع. قام رجال الدين، وعلى رأسهم الأسقف، باستخراج أزياء جميلة، خاصة بالطقوس الدينية من حقائبهم، وصلوا بها بأعجوبة عند غزوهم المدينة. كان كل زى دينى له ياقة مقواة تحت الرداء، مطرزة بقطعة مربعة أو بيضاوية من الكتان، تغطى منطقة الرقبة والأكتاف، تجذب العين من وميض ألوانه البراقة. كانت الشالات والشرائط الحريرية المطرزة تعطى رونقًا إضافيًا على هذه الأزياء. وحتى لو بدا كل هذا سخيفًا فى هذه المدينة المعزولة عن العالم؛ بسبب أهواء دموية لذلك الأمير، فقد تخيل الصليبيون أنفسهم وهم يسترجعون ولائمهم وحفلاتهم الفاخرة التى اعتادوا عليها فى بلادهم الأصلية.

هكذا وعلى معدة فارغة، ولكن روح معنوية عالية، دب الأمل من جديد والإيمان فى المستقبل فى قلوب قادة الجيش، وكذلك رفاقهم.

- فلننه الأمر مع كاربوكا. هكذا هتف جودفروا دى بويون، أثناء اجتماع كبير مع قادة الجيش، وكان لم يعد له حتى حصان.

- فلننه الأمر! ردد وراءه كالجوقة بوهيموند، الذى لا يزال يعرج، وريمون دى تولوز.

– نعم... فلقد تأخرنا كثيراً... والله المعين!

كان الأسقف أديمار دى مونتيل سعيداً. راح يتأمل بين لحظة وأخرى الحربة المقدسة. كيف يمكن ألا يعترف بحقيقة أن اكتشافها هو الذى جدد الحماس فى قلب الجيش؟ ومع ذلك، لم يستطع أن يمنع شعوره بالشك فى هذه الحربة المقدسة. إن تصريحه بعكس ذلك سيضايق ذلك الرجل المخلص.

– الله المعين! هكذا ردد الأسقف أديمار، كى يطرد من رأسه تلك الأفكار التى كان يخجل منها.

كان چيفروا نائمًا مع سارة، عندما سمع فى الفجر نداءات الانضمام إلى لواء الأمير التابع له. لقد كان عيد قداس القديس بطرس[1]. فى اليوم السابق، كان بطرس الناسك، قد حاول عقد مقابلة مع كاربوكا الذى رفض بسبب عناده الواضح، ولهذا السبب لم يذهب بطرس الناسك لرؤيته.

قبض چيفروا على سيفه، وجذب نفسه من بين ذراعى سارة، وهرع إلى الخارج. رأى أمامه الكنسى دى أجويلير يسرع فى خطاه، وهو يلوح بالحربة المقدسة فى يده ويهتف قائلاً: "الله المعين!". كان ينبغى تحفيز هذه المجموعة من الرجال الذين أُنهكت قواهم فى الفترة الأخيرة.

---

(١) الموافق ٢٨ يونيو ١٠٩٨

وبالرغم من إنهاكهم هذا، كان هجوهم مباغتًا ووحشيًا، حتى إن كاربوكا فوجئ هو وقواته، فبدأ فى التقهقر من الساعات الأولى للصباح.

بعد ذلك، وعندما علت الشمس فى السماء، وبلغت ذروتها، ورغم أن الاشتباك قد بدا فوضويًا وغير منظم، فقد أذعن العدو فجأة فى تدافع جماعى إلى الوراء، تاركًا المخيم وكل ما به من أشياء ثمينة. كان چيفروا بين أول من دخلوا إلى خيمة الأمير، التى وصفها بطرس الناسك بإعجاب قائلاً:

- إنها مدينة حقيقية! تحيط بها الأبراج والأسوار، كما أنها مغُطاة بالستائر الحريرية من جميع الألوان.

استولى چيفروا بسعادة وشوق على رقعة شطرنج مصنوعة من العاج تُركت مع كومة من الأشياء النفيسة داخل خيمة الزعيم التركى.

- خذه معك، وسوف نلعب به الليلة! هتف إبل دى سوج، قائلاً لچيفروا فى لفافة قماشية كانت مُلقاة على سجادة للصلاة، راح چيفروا يلتقط قطع الشطرنج العاجية قطعة وراء الأخرى، حيث كانت متناثرة وسط حطام من الأكواب الزجاجية المكسورة. تأمل چيفروا قطعة شطرنج الوزير التى كانت منحوتة بشكل دقيق ورائع. لف إبل السجادة ووضعها تحت إبطه، قبل أن يقفز على ظهر حصان وجده هناك وهو حصان داكن اللون الأسود كان هائمًا بعد أن تركه أصحابه. هكذا أصبح للفرنچة جواد، حيث صار لهم فترة طويلة لم يتمكنوا خلالها من ركوب الخيل.

و لكن سرعان ما خبت فرحة الانتصار وبهجتها، فما إن غربت الشمس حتى أعلن بوهيموند أنه سيد المدينة، وصاحب رايتها ذات اللون الفضى، وفى وسطها شعار نبات السرخس الأخضر، والتى راحت ترفرف فوق أعلى سور من أسوار قلعة المدينة.

– لا أرى سببًا لضرورة عودة مدينة أنطاكية إلى أيدى الإمبراطور البيزنطى. هكذا قال ريمون دى تولوز بصوت غاضب وخشن أكثر من أى وقت مضى، وقد هزه سعال جاف عاوده من جديد، فجعله ينحنى إلى أسفل فى كل مرة يسعل فيها.

– أنت من لم يرغب فى حلف القسم والولاء للإمبراطور، تقول هذا الآن؟ قاطعه بوهيموند بصوت راعد قبل أن يضيف: ولا تنس أيضًا أن من يمثل الإمبراطور قد لاذ بالفرار، كما أنه لم يرسل لنا أى إغاثة.

– إن مدينة أنطاكية المسيحية هى التى اتخذ فيها لأول مرة أتباع المسيح لقب النصارى(١). هكذا راح يذكرهم بدبلوماسية أديمار دى مونتيل، ليخفى استياءه، ثم أضاف: ولا يُعقل الآن أن تتعاركا على من يصبح ملكًا!

كيف لهؤلاء الرجال الرائعين والمتكاتفين أمام المخاطر، أن يتركوا غرائز الجشع والسلطة الكامنة بداخلهم تتحكم بهم، بينما هم يحتفلون

---

(١) كانت مدينة أنطاكية هى بالفعل أول مدينة تُطبق فيها تعاليم الإنجيل.

معًا بالنصر؟ أخذ الأسقف أديمار يفكر، وقد أنهكه الضجر واليأس... ففجأة بدت له القدس بعيدة وصعبة المنال!

هكذا دخلوا فى جدال بلا نهاية، لم يستخلصوا منه إلا بقرار إرسال هوج دى ڤيرماندوا وبودوين دى هاينوت إلى جوار الإمبراطور. لقد قرروا أيضًا تأجيل بدء الرحيل إلى القدس موسم عيد القديسين. فلا يمكنهم المجازفة بعبور بلد ليس به مياه فى عز فصل الصيف.

– ها هو عام قد مر علينا منذ أن غادرنا مدينة نيقييه... فمتى سنصل إذن إلى القدس؟ قال بأسى الأسقف أديمار دى مونتيل.

على الرغم من ذلك، كان قائد الجيش يدرك تمامًا مدى إنهاك جموعه. ولكن هل ستكفى فرحة ونشوى النصر والغنائم والفتح لإسكات البارونات بشكل نهائى؟ راح أديمار يفكر من جديد فى الحماس، الذى بثه البابا فى قلوبهم أثناء خطبته الشهيرة فى مدينة كليرمون. فهل كان البابا أوربان الثانى مدركًا لجميع المخاطر التى سيمر بها مبعثوه؟ كلا، هكذا استنتج الأسقف أديمار من تفكيره التشاؤمى الذى احتل مخيلته، بأن تلك المخاطر قد تجاوزت كل ما يمكن أن يتصوره أحد.

لقد لاءم قرار البقاء لمزيد من الوقت فى أنطاكية أمور چيفروا على أمل الانتظار هناك حتى ولادة طفله. فربما يتوصل إلى إقناع أجات بالذهاب معه إلى القدس. هكذا دب الأمل فى صدر الجميع أن يلمسوا من جديد النعيم الذى وجدوه فى الأيام الأولى لدى وصولهم إلى مدينة

أنطاكية والمناطق المحيطة بها. عاد روبير إلى هواية صيد الأسماك، وهناك كان يفكر متأملاً موضوع وفاة برتيلد التى لم تتمكن من البقاء على قيد الحياة عند ولادة طفلها چاك الصغير، الذى سُمى على اسم جده. وهكذا فقد حُسمت جميع الأمور بالنسبة له. سوف يذهب إلى القدس، ثم يعود إلى كليرمون حيث يتوق إلى ورشة النحت الخاصة به.لقد نضج روبير وتعلم من الحياة الكثير. سيستطيع أن يُطلق لخياله العنان فى إبداع أعمال جديدة ألهمها بقوة كل ما رآه ومر به خلال سنوات السفر هذه. لم يستطع إبل دى سوج أن يخفى صدمته بوفاة برتيلد رغم محاولاته. بات طفله يشكل له إحراجًا. ولهذا تم استدعاء مُرضعة إليه، أتت من فرقة بطرس الناسك البائسة، حيث نجت من الموت بأعجوبة بعد أن مرت بعديد من المخاطر، وقامت بتبنى الطفل الذى كان سقيمًا وضعيفًا. رغم أن وفاة برتيلد كانت بمثابة أمر شائع فى حياة تلك النساء المساكين، اللائى قُدن من مرحلة إلى أخرى فى ظل رعاية صحية سيئة، ورغم هذا فقد صدمهن ذلك الخبر. حتى كونتيسة تولوز، وهى نفسها حامل، قد انهمرت دموعها حزنًا على برتيلد. دون شك كانت تبكى على حالها، ومصيرها بشكل خاص. لقد أعربت عن حزنها المرير لغياب سانشا، صديقتها الحميمة.

كان زوجها يرفع ذراعيه إلى السماء، عندما كانت تُشبعه لومًا وتأنيبًا على الحالة التى وضعها فيها، ثم انغلقت على نفسها تحت خيمتها وانخرطت فى حالة حزن شديدة لا إرادية من الوحشة.

كاد چيفروا يجن من القلق على أجات. لم يكن ليدرك أبداً هذا الكم من النساء اللائى تُزهق أرواحهن وهن يضعن. حتى إنه فكر فى مارى، زوجة سيده اللورد، والتى رآها مرة واحدة فقط أثناء تعميده فارساً.

من ناحية أخرى، تفشى المرض فى العديد من الرجال والنساء فراحوا يتساقطون موتى يوماً بعد يوم. فى أحد تلك الأيام المشتعلة من الحر القائظ، الذى ليس له مثيل، حاول الجميع اللوذ بالفرار على ضفاف نهر الفارفار المظللة، يومها وافت المنية الأسقف أديمار. لقد قضا عليه الإرهاق والقلق(١). كان ذلك اليوم يوافق الأول من أغسطس، وفى الصباح ذاته، ورغم أن الأسقف كان يشعر بضعف شديد، فقد أقام قداساً؛ تكريماً لروح الأشقاء السبعة الشهداء، وكان من المعتاد الاحتفال بهم سابقاً فى مدينة أنطاكية، ولكن نُقلت رفاتهم حالياً إلى روما.

بدا الأسقف أديمار لاهث النفس، يتحدث بصوت واهن، وغير واثق على خلاف ما اعتاد منه الآخرون من نبرة صوت قوية ومتسلطة فى الأيام الأولى للحملة. على الرغم من ذلك تحامل الأسقف أديمار على نفسه، ليلقى بهذه الكلمات:

– أيها الأخوة النصارى الصالحون، وأنتم أيها الفرسان الفرنجة البارونيون، وحتى ولو أن عددكم لا يتخطى المائة من أبناء سيدنا

---

(١) قيل إن هذه الفترة عمَّ فيها وباء الطاعون.

المسيح، فلسوف تتمكنون من الاستحواذ على مدينة القدس بحماس وتعيشون هذه اللحظة من السعادة. أما الآن، فقد حانت اللحظة التى سنفترق فيها...

نظر جودفروا دى بويون إلى بوهيموند، وقد أبدى الاثنان دهشتهما من كلمات الأسقف. أما چيفروا فكان واقفًا بين إبل دى سوج وروبير، وراح يهز رأسه فى حيرة. استمر القداس، وقد ساد المكان صمت ثقيل. فى مساء اليوم ذاته، وعندما علم الجميع بوفاته، اقتنعوا بأن كلمة الأسقف أديمار هذه كانت بمثابة وصيته الأخيرة. فكر الكونت ريمون دى تولوز فى الأب پونس دى تورنون، رئيس دير شيز - ديو. هل سيصبح خليفة للأسقف على عرش أساقفة پووى، كما تنبأ بذلك الأسقف أديمار دى مونتيل منذ عامين؟

شعر الجميع بأنهم أيتام فى هذه اللحظة. راح چيفروا يبكى بين ذراعى عشيقته سارة، التى أخذت تطالع هذا الفتى الطويل القامة الذى غمره الحزن بعينيها الواسعتين كأعين الغزلان.

- أنطاكية!

هتف بازيل، وهو يجذب لجام جواده المصنوع من الجلد الخام. توقف حصانه الجميل وهو فحل قوى وجامح، لونه بنى يميل إلى الحُمرة. أظهر البخر الخارج من فتحتى أنف الجواد عن مدى السرعة الكبيرة التى كان يرمح بها. أما هوج فأوقف هو الآخر فرسه، الأميرة الحسناء

الجديدة، التى بدت وكأنها تنتقم بقفزها الغاضب. لقد اتضح لهوج أن فرسه الجميلة هذه كانت ذات مزاج متقلب، وحتى بعد حوالى شهر من ممارسة ركوبها يومياً أثناء الرحيل، وجد هوج صعوبة فى أغلب الأحيان أن يكبح أو يحتوى تقلباتها وغضبها الجامح.

لقد قطعا معًا مسافة مائتى فرسخ، وهى المسافة الفاصلة بين أنطاكية والقسطنطينية دون توقف، وقد مرا بحرص حدود موقع فيلومديون، الذى يرابض به الإمبراطور بحذر على بعد مسافة قليلة من الفرنچة. بالطبع حرص هوج ألا يقع فى مرمى بصر إيزيدورو.

ذات مساء، وقعا فى كمين، نصبه جنود الإمبراطور ألكسيس، فراح هوج يدافع عن نفسه بضراوة، وكذلك فعل بازيل. الحقيقة أن هوج اكتشف أن مرافقه بازيل كان يكن هو الآخر كراهية دفينة تجاه إيزيدورو. ولا شك فقد عرفت الأميرة آن كيف تختاره بحكمة.

- إلى أنطاكية. كرر بازيل

تلون شاربه ولحيته المشذبة بعناية باللون الرمادى؛ بسبب الغبار الذى علاهما. ارتسمت هالة فاتحة اللون حول حاجبيه الكثيفين متناقضة مع عينيه السوداوين، وبشرته السمراء. فى حركة آلية، ضرب هوج على صدره، فتناثرت منه سحابة الغبار الفاتح، سقطت على جيد فرسه الأميرة الحسناء، التى لم تعد بشرتها لامعة كما كانت. كان هذا الغبار الناعم، الخفيف للغاية، يخترق حتى الملابس، واصلاً إلى القمصان

الداخلية. رغم أنهما قد استحما فى الصباح ذاته، داخل بحيرة، حيث تمددا بعد الاستحمام على ضفتها. لكم كانت المياه لذيذة ومنعشة، كما استمتع بها جوادهما فى هذه الاستراحة!

وضع هوج يديه حول عينيه فى محاولة منه لرؤية هذه المدينة التى بدت أسوارها ممتدة بلا نهاية. شعر بالتهاب فى عينيه؛ بسبب الهواء والشمس فلم ير ما هو بعيد عن مرمى البصر. أما بازيل فقد كان نافد الصبر أكثر منه، ولهذا لكز جواده بطرف حذائه المعدنى فتقدم به، مسرعًا إلى الأمام. سرعان ما ركضا بجواديهما بشكل شبه متهور، وراحا ينهبان الطريق المؤدى إلى النهر، ثم ركضا بمحاذاة بقايا قصر المحمدى، الذى أمر بحرقه قبل بضعة أسابيع الأمير كاربوكا، حتى اجتازا فى النهاية بوابة الجسر. كانت الشمس قد سلطت أشعتها، منتصرة على بعض غلال السحب التى انقشعت، تاركة الشمس لتهيمن على السماء، كما لو كانت قفزة مباغتة قبل ساعة الغسق.

كان مستوى مياه النهر منخفضًا، فودَّ هوج أن يغوص بها للاستحمام عن طيب خاطر، قبل أن يعبر الجسر، لكى ينفض عن جسده آثار رحلتهما الشاقة. هل هذه هى آخر متعة لذيذة، أو كان يريد التأخر قبل أن يلتقى من جديد بأصدقائه؟ لكم كان يحلم بمثل هذه اللحظات! فجأة بدأ قلبه يدق بشدة. لقد التقى ببعض الفرنجة على طريق مدينة القسطنطينية، وكانوا عمومًا فى حالة يرثى لها، وغير قادرين على الإدلاء

بأى أخبار عن أى شىء كان. حتى إن البعض منهم يتذكرون بالكاد أسماءهم، ولا يعرفون من أين جاءوا ولا إلى أين هم ذاهبون. كشفت أعينهم الزائغة عن مدى فداحة ما مروا به من أحداث مروعة. وصولاً إلى الهدف الذى من أجله كان هوج يسأل عن باقى الفرنجة، فقد تخيل أن جميع أصدقائه من الممكن أن يكونوا قد ماتوا.

المعلومة الوحيدة المتاحة لدى المسافرين فى خلال الأيام القليلة الفائتة هى أن الفرنجة ما زالوا موجودين فى أنطاكية، حيث أصبحوا أخيراً أسيادها دون منازع. عندما اقتربا من أسوار المدينة، تعرف هوج بالفعل على رايات زعماء الحملة. ها هى الراية ذات اللونين الأبيض والأخضر، التابعة لبوهيموند، تهيمن على المدينة مرفرفة على قمة القلعة. إذن لقد كانت الأميرة آن على حق... ألم تتحدث معه عن أمير تارنت وطموحاته؟

بدت الحيرة واضحة على وجه الرجلين وهما مشدوهان من ذلك الهدوء الغريب الذى بدا مسيطراً على المدينة. ها هى البلدة، وكأنها تغط فى النوم. لم يُسمع إلا صدى رنين حديد حدوات الخيول فى الشوارع الخالية من المارة، حيث بدت المنازل البيضاء، وكأنها مغلقة بالكامل. تقدم الرجلان فى الشوارع بحرص وتوجس. كانت الشمس مائلة للغروب، ولهذا لم تتمكن أشعتها من اختراق الطرق الضيقة، فأصبحت تقريباً مظلمة ومثيرة للقلق. ثم فجأة، وعند منعطف زقاق، وجدا حشداً من الناس يؤدون الصلاة. تجمع رجال ونساء وأطفال حول الكنيسة،

التى انعكست أشعة الشمس الآخذة فى النزول على واجهتها البيضاء. راح زجاج الفتحات الصغيرة للطابق العلوى لها، يرسل انعكاسات ضوئية حاجبة للرؤية. فى وسط هذه الجمهرة، استطاع هوج وبازيل أن يتعرفا على رجال الدين، وقد بدوا مميزين من الصلبان التى يمسكون بها بشكل مستقيم، أو بالمباخر التى كان بعضهم يهزها بحماس، بينما البعض الآخر يحركها بوهن.

المدهش فى الأمر، الخشوع الصامت الذى كان عليه الحشد الواقف بألوانه الغريبة المتعددة حتى الصف الأخير منهم، ثم سأل هوج أقرب رجل كان يقف إلى جواره، حاملاً طفلاً على ذراعه:

– هل يمكن أن تقول لى ما الذى يحدث؟

– بحق القديس پول، إننا ندفن الأسقف أديمار! رد عليه الرجل وهو يرسم على صدره علامة الصليب بسرعة.

– الأسقف أديمار؟ ردد هوج، وكأنه لا يصدق من هول المفاجأة. صدمه هذا الخبر الأول، والذى من الممكن أنه نذير لأخبار أخرى سيئة، وهو الذى كان يخشى ألا يجد أصدقاءه. بعد أن رسم علامة الصليب على صدره بحماس، وبجفون نصف مغلقة، انخرط هوج فى صلاة سرعان ما تحولت إلى تأمل عميق، لم يخرج منه إلا على صوت من حوله وهم يهتفون فى نغمة واحدة قائلين:

– إنها مشيئة الرب!

لو كان أطلق هذه الصيحة أمام الفرنچة الذين التقى بهم خلال الأسابيع الأخيرة الماضية، لما كان سيسمع رداً عليها بهذه القوة والحماسة. بعد كل هذه الأشهر من العزلة، راوده شعور بالانتماء من جديد إلى هذا المجتمع، حتى ولو أنه لا يتعرف للآن على أى وجه من الوجوه التى اعتاد عليها. شعر بالتأثر الشديد حتى إن رعشة سرت فى جسده. ثم، فجأة، بدت الطقوس وقد انتهت. بدأت الحشود الساكنة من حوله فى التحرك يميناً ويساراً. رفع هوج ناظره تجاه واجهة الكنيسة فلمح الكنسى ريمون دى أجويلير.

– ها هو على الأقل واحد من الناجين! همس هوج لنفسه.

كان الكنسى يلوح بيديه فى محاولة يائسة، لتنظيم المرور الحساس لحركة المصلين الذين ظلوا خارج الكنيسة، والتقوا بأولئك الذين كانت لديهم فرصة حضور القداس فى الداخل. ترامى إلى مسامع هوج من بعيد النشيد الدينى (سالف ريچينا) والذى راحت الحشود تهتف به شيئًا فشيئًا. إلى جانب الكنسى، ظهر كلٌّ من ريمون دى تولوز وبوهيموند وجودفروا. ارتسم الحزن والجدية على جميع الوجوه، التى لمحها هوج من بين الساعين للدخول، متقدمين فى موكب ليصلوا أمام قبر الأسقف.

– لقد دفُن الأسقف فى نفس مكان الحربة المقدسة. قال الرجل الواقف إلى جوار هوج.

– الحربة المقدسة؟

راح الرجل يحدق فى وجه هوج، مندهشاً ثم هتف قائلاً:

- بحق القديس پول...ها هو واحد لا يعرف ما هى الحربة المقدسة!

سرت موجة من الاستنكار والهمهمة بين الصفوف الجموع الأقرب لهوج، الذى بدا عليه التحرج فقال مفسراً:

- لقد وصلت لتوى من السفر.

فى هذه اللحظة بدا طابور الجموع العملاق، وقد انتظم فى تحركه تجاه مدخل الكنيسة. تقدم هوج وبازيل بضع خطوات إلى الأمام. حمل الرجل الذى كان يقف إلى جوارهما ولده بين ذراعيه، وتقدم هو الآخر، ثم سأل هوج بنبرة صوت متشككة:

- ومن أين أتيت أنت... قادماً فى آخر لحظة هكذا؟

- من القسطنطينية، حيث كنت سجيناً هناك.

راح الرجل ينظر إلى هوج متأملاً.

- وأنت؟ سارع هوج يسأل بدوره، وقد بدا غاضباً.

- أنا؟ أنا هنا منذ زمن طويل... لقد أتيت مع بطرس.

- بطرس الناسك؟

لم يعد هوج يستمع إلى أى كلمة من كلام الرجل إليه، فقد ظهر فى هذه اللحظة چيفروا تحت باب الكنيسة المقوس. ما إن لمحه هوج

حتى شعر بسعادة شبه أبوية تجاهه. ظهر إبل دى سوج خلف چيفروا. هكذا سيستطيع هوج أن يبلغه برسالة الأميرة آن. فجأة تطايرت مشاعر فرحة اللقاء تحت وطأة أجواء الحزن. عندما خرج روبير هو الآخر من باب الكنيسة، يليه تابعاه راؤول وفولبر، ابتسم هوج برضا. لقد انمحت مدة الاعتقال فى لحظة.

- أشكرك يا رب. راح هوج يهمس على عجالة

ثم راح يتقدم ببطء وراء حركة الجموع فى اتجاه باب الكنيسة، حيث عقد العزم على ضرورة الصلاة وإلقاء النظرة الأخيرة على جثمان الأسقف قبل أى شىء. ما إن تقدم بضع خطوات حتى سمع صوتًا مألوفًا عليه ينادى قائلاً:

- سيدى!

استدار هوج، فإذا بخادمه كلوفيس أمامه، يبكى ويقول:

- سيدى... أنت لم تمت؟

انفجر هوج ضاحكًا ضحكة عالية، وهو يقول:

- كلا... فأنا كما ترى! تعال فى حضنى أيها الرجل الطيب.

احتضن هوج خادمه كلوفيس، وقد بدا عليه التأثر الشديد صَعُبَ عليه احتواءه.

- ولكن كيف أمكنك التعرف علىَّ وسط هذا الزحام؟

– لم تعد عيناى ترى الكثير من الناس... فقد صارت شديدة الالتهاب من كثرة الغبار والشمس. عندما رأيتك اعتقدت لأول وهلة أننى أهزى... فالحر شديد كما ترى!

أخذ كلوقيس يمسح جبهته، التى راحت قطرات العرق تتلألأ عليها تحت شعره الآخذ فى الشيب.

فى هذه اللحظة بدأت المسيرة تتحرك بشكل أسرع قليلاً.

– ما أخبار الجميع؟ لقد لمحت منذ قليل چيفروا وفولبر وراؤول وروبير وإبل دى سوج.

– لقد حل الخراب بمجموعتنا... اختفى جيرن فى ذات مساء دخولنا المدينة ؛ وماتت برتيلد، وهى تضع رضيعها جاك. أما جييوم ابن بيرنييه، فقد قُتل، وهو يتوغل فى هذه المدينة الملعونة. الكونت دى تولوز أصابه سعال مزمن مثير للشفقة، والآن ها هو الأسقف المسكين... يُقال إن الشؤم يتربص بنا ويحوم من حولنا.

هز هوج رأسه فى صمت، ومع ذلك، فلم يتركه كلوقيس وحده، كى يستغرق فى تأملاته المليئة بالوحشة والحنين، والتى اعتاد عليها أثناء فترة الاعتقال من العزلة. فها هو يقوده بالفعل إلى متاهة ملتوية من الأزقة والممرات، كان هوج سيضل طريقه، إذا ما كان مر خلالها وحده، وبصحبة بازيل فقط. وصلوا فى النهاية عند سفح القلعة، دفع كلوقيس الخادم وقلبه يدق بشدة، باب ثقيل، تزينه بعض الرسومات، ودخل منه

إلى المنزل ووراءه هوج وبازيل. ملأت أنوفهم فجأة رائحة قوية لخراف مشوية. عبروا قاعة كبيرة تؤدى إلى حديقة مسورة نُصبت فيها بعض موائد الطعام.

- لقد عاد سيدى. أعلن كلوڤيس على الحضور بلهجة المنتصرين.

جلس الحضور حول المائدة، ووراءهم خلفية من أوراق نبات اللورو الخضراء، تزينها زهور ذابلة، ها هو الكونت ريمون دى تولوز، وقد نظم وليمة، تكريمًا لجنازة الأسقف. فمنذ أن قاموا بطرد الأمير كاربوكا وعمليات السلب والنهب تجلب لهم ما لذ وطاب على موائد طعامهم. كما جلبت لهم أيضًا البساتين والحدائق المزروعة على طول النهر كل ما هو كافٍ لإطعامهم، بل لتخزين ما تبقى، حتى ولو كان العرب قد مارسوا سياسة حرق الأراضى، وهم يفرون.

- لقد عاد سيدى! قال كلوڤيس مكررًا.

فى هذه المرة توقف الجميع عن الكلام أخيرًا. أول رد فعل كان لراؤول، تابع هوج، الذى كان جالسًا عند طرف المائدة على سجادة كثيفة ذات لون أرجوانى. عند الطرف الآخر من المائدة، كان چيفروا منهمكًا فى النقاش مع روبير ولهذا لم ينتبه لحضور هوج إلا عندما نهض الكونت ريمون دى تولوز فى مكانه بصعوبة، ليهتف بصوت عالٍ، موجهًا كلامه إلى هوج العائد قائلاً:

- هوج دى ورامون! يا للمفاجأة! أنت إذن لم تمت فى مدينة نيقيه؟

اقترب كلوڤيس من هوج، الذى وقف مشدوهًا وقال له:

- إنه هو بشحمه ولحمه... لقد تحدثت معه.

ولكن چيفروا لم يحرك ساكنًا، بل شعر بأنه يحلم. كان رد فعل روبير أسرع، فنهض بالفعل، متوجهًا نحو هوج، وناوله قارورة مشروبه الزجاجية الملونة.

- إنها لمعجزة. همس چيفروا قائلاً، وقد احمر وجهه، وبدا عليه التأثر، ثم نهض بدوره.

- بل إنها معجزة يسُهل تصديقها، مقارنةً بقصة الحربة المقدسة. قال فولبر، تابع آخر لهوج، متجهًا هو الآخر ناحية هوج، والذى بالفعل لم يصدق أبدًا قصة اكتشاف تلك الحربة الثمينة.

- أود أن أعلم قصة الحربة هذه، التى يتحدث عنها الجميع. سأل هوج وهو ينضم إليهم آخذًا مكانه الذى أشار الكونت ريمون دى تولوز بينه وبين الكنسى ريمون دى أجويلير.

- سوف نحكيها لك. رد الكونت، وهو يبتسم ثم أكمل: أليس كذلك أيها الأسقف؟

لقد وجه الكونت ريمون دى تولوز كلامه إلى أرنو مالكورن، القس التابع لكونت دى نورماندى، الذى كان الأسقف أديمار قد عينه خليفة له.

هز أرنو رأسه بالإيجاب، وهمَّ بالكلام، ولكن ريمون لم يعطه الفرصة لذلك، فقد كان لا يحترمه كثيراً، كما أنه لم يكن يهتم به بالمرة.

– أخبرنا أنت أولاً من أين أتيت ؟ أضاف الكونت ريمون، وهو يميل تجاه هوج.

لاحقًا، وعندما ذهب چيفروا إلى سارة، وقع فريسة لمشاعر متناقضة. إذا كانت عودة هوج تشكل فرحة كبيرة له، فهى لا تقلل من شعوره بالقلق إزاء تصور ما يترتب عليه من عواقب حول علاقته مع أجات. أيضًا، عندما أثار هوج موضوع اختفاء جيرن، كان يتحدث بشكل حيادى. أما بالنسبة لأجات، فسيستحيل أن يدعها تعلم بخبر عودة سيده. راح يتخيل أيضًا بشكل مبالغ فيه ردود فعل أجات العاطفية، لو علمت بالخبر، ولكم سيكون ذلك محبطًا له، بل سيكون نهاية لكل آماله فى الزواج من هذه الفتاة!

لم يكن ليشك أنه، وفى اللحظة نفسها التى كان يشعر فيها بالإحباط والتوتر، وهو يحاول أن ينسى مخاوفه وهمومه فى ممارسة الحب مع سارة، فى اللحظة ذاتها كان ابن فيروز يحكى لأجات أحداث اليوم، مثلما كان يفعل كل مساء تقريبًا، منذ وصول أجات إلى المدينة.

– احكِ لى عن جنازة هذا الأسقف المسكين.

راح على بن فيروز، يصف لها مراسم الجنازة بحزافيرها. كانت أجات تعلم أن ريمون دى تولوز يرتدى سترته الأبدية ذات اللونين الأرجوانى والذهبى، ومن فوقها معطف من اللون نفسه، ولكنه كان باليًا من كثرة الاستخدام، حتى إنه فقد بريقه. علمت أجات أيضًا أن

بوهيموند قد تنازع معه على المكان الأقرب من نعش الأسقف، والذى رأى أنه من الواجب أن يحتله هو بصفته رئيس المدينة.

– أين تم دفن الأسقف؟

– فى الحفرة نفسها، التى عثروا فيها على الحربة المقدسة.

– وماذا يفعل چيفروا الليلة؟

– لقد تناول العشاء عند الكونت ريمون... ولكن قطع الوجبة وصول رجل نادوه باسم هوج، وقد بدوا جميعًا، وكأنهم يلتقون به بعد غياب طويل جداً... حتى إن البعض قالوا: إنها لمعجزة.

– أنت متأكد أنه يُدعى هوج؟

– نعم.

– وكيف يبدو هوج هذا؟

راحت أجات تفرك يديها الرطبتين فى حركة عصبية، وقد شعرت ببعض حبات العرق، وقد بدأت تتصبب من صدغيها.

– لم أره جيداً... ولكنه طويل القامة إلى حد ما...

– أنت ترى الجميع طوال القامة! قالت له أجات، مازحة ثم أضافت: فدائمًا ما تكرر لى هذه الصفة فى حكايات على. قصير، أو قصير جداً مثل والده، هكذا كان على بن فيروز، الصديق الأمين لأجات، يجد بالفعل أن الآخرين أطول منه.

ابتسم على بن فيروز، ثم واصل قائلاً:

- إنه طويل إلى حد ما، ويرتدى ملابس يونانية، كما أن شعره آخذ فى الشيب...

- وماذا بعد؟ سألته أجات بتلهف

- لا أعلم أى شىء آخر.

- ومن كان مع هذا الرجل؟

- كان برفقته رجل يونانى لا أعرف اسمه...

- غداً، يجب أن تعرف من هو هذا الرجل. قالت له أجات بلهجة آمرة.

اندهش على، وراح يطالعها. لقد لمعت عينا أجات بشكل أكثر مما اعتاد منها، مما أعطاها رونقًا وجمالاً، فبدت أكثر إثارة. كانت ممددة برقة على أريكة ضيقة تستند على الحائط، وهى تضع يديها على بطنها البارزة. اتجه على بمضض إلى ممر صغير، تفترشه قطعة قماش كبيرة ذات ألوان متعددة. كان الظلام حالكًا فى الخارج، فجلس على للحظة بالقرب من حوض للورد البلدى، كانت زهوره متفتحة، وتفوح برائحة عطرة منعشة. بدا المنزل غارقًا فى صمت عميق، فوالده وشقيقاته نائمون منذ فترة طويلة. رفع على رأسه متطلعًا إلى السماء، فلمح نجمة مذنبة، فتمنى أمنية:

- يارب احفظ أجات دائمًا! هكذا همس قبل أن ينهض، متجهًا إلى الغرفة التى يشاركه فيها خادمان.

١٧

– چيفروا...

مسترقًا النظر من فتحة فى بوابة القديس پول، راح چيفروا يجول بعينيه تجاه انحدار جبل سيلبيوس، حيث أستطاع أن يخمن رؤية البروزات الصخرية خلال رذاذ خفيف من المطر. كانت السماء تمطر رذاذًا، وبعد أسبوع من الأمطار، عرف چيفروا ورفاقه لماذا يسمى العرب مدينة أنطاكية "المترشحة". فكما حدث فى فصل الشتاء السابق، ومع بداية شهر نوفمبر هذا، كانت الرطوبة فى كل مكان. ارتعد چيفروا من البرد رغم أنه كان يرتدى قميصًا من القماش السميك، وسترة، ودرعًا واقية للصدر، ومعطفًا من الصوف، ومع ذلك فشل فى تدفئة نفسه. لحسن الحظ، فى الساعة التاسعة صباحًا، سيتبدل فريق التناوب، لهذا راح يحلم بطبق من الحساء تتصاعد منه الأبخرة، سيستطيع تذوقه فى منزل سارة.

– چيفروا...

انتفض چيفروا فى مكانه، وقد تجمدت أصابعه القابضة بقوة على الرمح، وراح يتلفت حوله، باحثًا عمن ينادى عليه، ثم اكتشف أنه فيروز، الذى كان على بضع خطوات منه.

– فيروز! ماذا تريد؟

اقترب الرجل الضئيل منه، وتلفت يميناً ويساراً، حريصاً على ألا يسمعه أيٌّ من الحراس الآخرين، ثم قال له هامساً، من خلال لحيته ذات الشعر الملبد :

– لقد رُزقت بصبى.

فغر چيفروا فمه فخرج من شفتيه الغليظتين بخر؛ نتيجة الطقس البارد.

– وكيف حال أجات؟ سأله چيفروا بلهفة، وقد تسارعت ضربات قلبه.

– إنها بخير... بخير جداً... الله أكبر!

ضغط فيروز على الكلمتين الأخيرتين وهو يرفع بكفيه فى اتجاه السماء بطريقة معبرة للغاية. شعر چيفروا بالارتياح... بل بالتأثر الشديد، وقال لفيروز، وهو يحاول أن يتمالك نفسه ليدارى تأثره:

– أريد أن أرى أبنى.

– إذا ما رغبت أجات فى ذلك، فليس لدى أى مانع.

هم الرجل الضئيل بالانصراف، وهو فاتح ذراعيه عند مستوى وسطه، ومشى بطريقته المعتادة المتفردة. راح چيفروا يتأمله، وهو يصعد التبة من جديد بالفعل بخطوة منتظمة وبساق بعد ساق بإيقاع راقص. كانت السترتان اليونانيتان اللتان يضعهما على كتفيه قصيرتين للغاية،

حتى إنهما كشفتا عن بنطاله من القماش المقلم، وكأنهما أنبوبتان قصيرتان، تعلوان حذاءه المصنوع من الجلد الأحمر. هكذا راقبه چيفروا، وهو يبتعد فى الممر الضيق بين المنازل، حتى اختفى خياله الصامت الهارب.

– صبى... هتف چيفروا، متأملاً، ثم سأل نفسه: هل هو ضئيل الحجم كابن إبل؟

تذكر جيداً كيف ضحكت عليه الخادمة، وهى تستقبله وقد علت وجهه الدهشة عندما رأى چاك الصغير محمولاً بين يدى والده الكبيرتين. راح چيفروا ينظر إلى يديه، وهو يتساءل: هل ستحمل يداه هذا الطفل؟

– أنت يا چيفروا... استيقظ! لقد انتهت دوريتك.

لم يتنبه چيفروا إلى وصول الحراس الجدد، الذين سيحلون محله فى حراسة بوابة المدينة. راح المطر يهطل بقوة أكبر، فهرول چيفروا بخطى واسعة، حتى وصل إلى منزل سارة، حيث كان التعب قد أعياه فتهاوى على الفرشة التى يشاركها إياها. طالعته الفتاة بحنان وهو نائم، بعد أن خلعت عنه برقة، حذاءه الملطخ بالوحل.

فى ساعة العصارى، وحين بدأ يخيم ضوء الغسق على أرجاء البلدة، مما أضاف مزيداً من الغموض على الأزقة الملتوية الرطبة، دخل چيفروا إلى منزل فيروز، حيث استقبله على ابنه.

– أريد أن أرى أجات وابنى. قال چيفروا بنبرة صوت بها شىء من الغطرسة، مما ضايق الفتى المراهق.

ومع ذلك، فقد كان چيفروا صديقه، أو بمثابة أخيه الأكبر. فلطالما جابا شوارع أنطاكية معًا، ولعبا لعبة النرد أو الشطرنج، أو تسابقا فى ركوب الخيل على طول نهر الفارفار، مما كان يسعد على كثيرًا. ولكنه الآن فى منزله، أصبح چيفروا شخصًا يهدد بأخذ أجات، وهو شىء لم يستطع على بن فيروز احتماله.

ظهر فيروز، وهو يدفع ستارة أرجوانية اللون كثيفة، عليها رسومات بخطوط فاتحة اللون لفيلة تغطى ظهورها أقمشة.

– لقد أتيت، كى أرى ابنى. قال له چيفروا

– إن أجات مجهدة، وهى نائمة الآن، ولكننى أستطيع أن أُريك الطفل. اتبعنى!

قاد الرجل العربى چيفروا الفرنچى خلفه داخل قاعات عديدة، الواحدة تلو الأخرى، تضيئها فقط مشاعل تتوهج خافتة، معلقة بالجدارن. عندما وصلا إلى آخر غرفة، رأى چيفروا خادمة ترعى طفله، وعلى وجهها غلالة رقيقة من القطن الخفيف، وأمامها الرضيع يرقد ملفوفًا فى غطاء سرير أبيض صغير، وقد بدا ضئيل الحجم كابن إبل.

– ها هو ابنك. قال فيروز، وهو يضحك، مشيرًا إلى فروة شعر الرضيع الخفيفة النابتة التى غطت جمجمته، ثم أضاف: أنا لم أر هذا من قبل!

ابتسم چيفروا، فقد ذكره المولود بشقيقه الأصغر، والذى كان عمره أربعة أعوام فقط لحظة رحيله.

- قل لأجات إننى أود أن أسميه أموند مثل أبى... وقل لها مرة أخرى إننى أرغب فى رؤيتها!

بعد ذلك بيومان، أعلن هوج، وهو خارج من اجتماع رؤساء مضن، أنه قد تقرر أخيراً أن يرحلوا. أمام الحربة المقدسة، وهى الرمز الذى راح يحوم أعلاه ظل الأسقف أديمار، وقف ريمون دى تولوز، وكأنه الزعيم الحقيقى للجيوش. بدا محتداً وسريع الغضب أكثر من أى وقت مضى، وقد اعترته موجات سعال عنيفة، لا يمكن كبتها، ثم انخرط فى نقاش حاد مع بوهيموند.

- لقد أقسمت بالولاء للإمبراطور. قال ريمون، مذكراً بوهيموند، ثم أضاف: لذا ينبغى عليك أن تُعيد إليه المدينة التى استولينا عليها نحن.

ضاغطاً على كلمة "نحن"، حيث كان الكونت ريمون يفضل إعادة مدينة أنطاكية إلى الإمبراطور، على أن يراها فى أيدى بوهيموند. رفع الكونت دى تولوز ذراعيه عالياً نحو السماء، عندما صرح بوهيموند بأنه إذا كان بالفعل قد أقسم بالولاء للإمبراطور، فهو فى الحقيقة لم يكن فى نيته الالتزام بذلك.

- هذا أسوأ! هكذا صاح الكونت ريمون بصوت مدوى، فتردد صدى صوته تحت قبة القاعة الكبرى للقلعة، التى انعقد فيها الاجتماع.

احمرت جبهته من فرط العصبية، وكذلك طرفا فتحات أنفه، بشكل بدا، وكأنه لا يمكن أن يتلاشى. راح الأسقف أرنو يهز رأسه لُيبدى موافقته على كلام الكونت دى تولوز، وهو الذى لم يُظهر أبداً أى سلطة. ومع ذلك فقد كان رأيه لا يهم أحداً بالمرة، وهكذا استمر بوهيموند فى ادعاءاته وكذبه حول استيلائه على المدينة. لحسن الحظ أن هذا لا يمنع الآخرين من ترك المكان فى نهاية الأمر.

- الله المعين! هذا ما همس به الأسقف أرنو فقط.

- إننا لراحلون! إنها مشيئة الرب! هكذا هلل هوج، وهو يعلن لتابعيه. كان يفتقد الحركة والنشاط... فبعد الفترة التى قضاها فى السجن، مرت عليه الأشهر الثلاثة تلك فى أنطاكية، وهو فى حال متقاعس وواهن، مما أثقل عليه، ولهذا كان يتوق للرحيل بنفاد صبر شديد.

- إننا راحلون؟ ردد چيفروا وراءه وهو لا يصدق.

- نعم أخيراً سنرحل إلى القدس! إنها مشيئة الرب! ألم يمر علينا أكثر من عامين الآن، منذ أن غادرنا الوطن؟ إنك لا تبدو متحمساً بدرجة كبيرة؟ هكذا علق هوج، وهو يقول لچيفروا ثم أضاف: أحضر سارة معك!

ابتسم چيفروا ولم يرد. آه لو عرف هوج ما الذى يجعله متمسكاً بأنطاكية! هكذا راح چيفروا، يفكر بعد ذلك الاجتماع بلحظات، وهو يتقدم تجاه منزل فيروز، حيث دق الباب بحماس شديد باستخدام المطرقة الحديدية المعلقة به.

- لا بد أن أرى أجات بأى شكل. قال چيفروا لفيروز

- هل أنت راحل؟

- أعلمت بالخبر بالفعل؟

- فيروز يعرف كل شىء. ادخل!

بعد فترة طويلة عاد فيروز، بائع الملابس الجلدية والسميكة والمطرزة بحلقات الحديد، عاد أخيراً ليدعو چيفروا كى يتبعه. داخل غرفة صغيرة، يتسلل إليها بصيص من الضوء عبر نافذة ضيقة، زجاجها ملون، كانت أجات ترقد بوهن على بعض الوسائد، متعددة الألوان. توقف چيفروا عند عتبة الباب. كان قد نسى تقريبًا كم كانت أجات جميلة! كانت ترتدى رداء بنفسجيًا من الحرير المطرز، أظهر بوضوح بشرتها البرونزية، وشعرها الداكن المتناسق مع الوشاح الحريرى المحيط برأسها. بالقرب منها مهد صغير به رضيع يئن وهو يفرك وجهه بأصابع يديه الدقيقة. سألته أجات قائلة:

- إذن ما رأيك فى أموند الصغير؟

شعر چيفروا بالسرور، كيف استجابت أجات لرغبته. لم يرد على سؤالها، حتى لا يغير الهدف الذى جاء من أجله، بل أعلن لها بهدوء، رغم أن قلبه كان يدق بعض الشىء من الانفعال:

- أجات... أنا راحل... إن جيوش الله على وشك الرحيل، أخيراً إلى القدس... ولا أعرف متى سنرى بعضنا البعض من جديد. للمرة

الأخيرة، هل تريدين أن تتزوجينى؟ من السهل علىَ العثور على رجل دين كى يزوجنا قبل الرحيل.

– كلا يا چيفروا... لا أريد.

كان الرد قاطعًا، لا يحتمل النقاش. دل على ذلك صوت أجات الأجش المصمم. وحيث بدت علامات الاستفهام على وجه چيفروا، فقد واصلت أجات قائلة:

– الآن وقد عاد هوج، فسوف أنتظره؟

بدا چيفروا مذهولاً، فراح يجول بنظرات زائغة على بعض الأشياء فى الغرفة. كان هناك مشط كبير من العاج، وحذاء رقيق من الجلد الخام معه أربطة، وكذلك سوار سميك من البرونز...

– هوج؟! أخيراً همس چيفروا بنبرة صوت متفاجئة.

– لا تعذب نفسك بهذا الشكل، فأنا أعلم أن هوج هنا فى أنطاكية منذ أسابيع عديدة. لقد أخبرنى بذلك على بن فيروز... بالطبع لم تكن أنت من سيخبرنى بذلك!

– أنت لم ترغبى فى مقابلتى. صرح لها چيفروا، ويلقى بنفسه على وسادة جلدية كبيرة موضوعة عند أقدام السرير.

– كما أعلم أيضًا أنك تسكن مع شابة تُدعى سارة. هكذا قالت أجات بلا مبالاة

تنهد چيفروا. إذن، فقد كانت أجات على علم بكل شىء.

راحت أجات تراقب وجهه بشكل جانبى. لكم تغير منذ اليوم الذى عُمد فيه كفارس فى الكنيسة الصغيرة لمنطقة ورامون. حينئذ كان فتى مراهقًا هزيلاً ذا قامة طويلة نحيلة. لقد اكتسب جسده ما يكفى من الصلابة، وكذلك نضج عقله. فالشعر الأشقر لحبيبها الرقيق الذى طالما سلمت فى عقلها الباطن أنها مغرمة به، كان يؤثر فيها كنظرة سماء الصيف. ولكن هذا الرجل الجالس عند أقدامها، فقد افترضت له صورة أخرى لرجل آخر، شكلته فى مخيلتها بصبر بعد أن ضاع منها على مر تلك الأيام الطويلة، حيث اعتقدت أن كل شىء قد انتهى الى الأبد. فبعد أن رسخ بقوة جبارة فى ذكرياتها ومخيلتها، فقد استطاعت تدريجيًا أن تتخيل ملامح هذا الرجل، الذى لم تكف يومًا واحداً عن حبه. كانت عيناه الرماديتان هما أول ما تخيلته، ثم ذلك الشعر الأشقر الذى قال لها على بن فيروز، إنه آخذ فى الشيب، ثم لحيته المشذبة بعناية، ثم أنفه المدبب كمنقار النسر، وأخيراً، فمه ذو الشفتين الحمراوين المرسومتين بدقة. وأخيراً قامته الطويلة ، وخطوته الخفيفة، وحتى نبرة صوته الموسيقية الواثقة فى الوقت ذاته. كل ذلك كان حاضراً بوضوح فى ذهنها، كما لو كانت قد تركته فى اليوم السابق فقط.

قبع جيفروا فى مكانه بلا حراك... لم يكن يتصور أن أجات ستستغنى عنه بهوج، بل إنها ظلت تحلم خلال الأشهر الثلاثة الماضية بأنها ستراه واقفًا على باب منزل فيروز. كانت أجات تدرك أنها ما إن تتعافى من الوضع، ستترك مدينة أنطاكية، لتنضم إلى جيوش الحملة

الصليبية، وهكذا تلتقى من جديد بالرجل الذى لم تكف عن حبه يومًا واحدًا. كان چيفروا، مدركًا بذلك الأمر أيضا، ولهذا كان يائسًا إلى درجة جعلته يكره هوج.

- وأموند ابننا، ما الذى سيحدث له؟ سألها چيفروا فجأة، بعد فترة طويلة من التأمل والصمت.

لم ترد أجات عليه.

- سوف آخذه معى. قال چيفروا، وهو يهرول ناحية الطفل الذى راح يصرخ ما إن حمله.

فوجئ چيفروا بذلك، فوضعه بسرعة مرة أخرى فى مكانه.

- سوف أقرر ذلك فى وقت لاحق! دع لى فرصة كى ألتقى بهوج... حتى الآن، أموند فى حال أفضل معى فى منزل فيروز! اذهب إلى حالك!

ابتعد چيفروا ثلاث خطوات نحو الممر الصغير ذى السقف المقوس، والذى يؤدى إلى الغرفة المجاورة، ثم عاد مرة أخرى، وقال لأجات:

- سوف أخبر، هوج بكل شىء! كان صوته باردًا، وقد تجمدت عيناه الزرقاوان فى وجهه، الذى تقلصت عضلاته من التوتر.

- لا أسمح لك بذلك!

بالكاد سمع چيفروا كلمات أجات الأخيرة، فقد تلاشت بين ثنايا ستائر المنزل السميكة، وهو يبتعد. عندما وصل چيفروا إلى الشارع كان جسده ينتفض من العصبية. ما إن مشى قليلاً فى الحارة المجاورة، لم يعد متأكداً أنه سيكون من الحكمة أن يخبر هوج بكل شىء. أليس من الأفضل أن يترك الأمر للزمن، وربما للظروف؟ شعر ببعض من الخزى، وهو يتخيل إمكانية موت هوج فى القدس، وهذه المرة ستكون لأسباب وجيهة. قبل عودته إلى منزل سارة، توقف چيفروا عند كاتدرائية القديس بطرس للصلاة، ولكى يبيح بهمومه وبما يؤرقه لأول قسيس يقابله فى الداخل. شعر بسكينة وهدوء أكبر، فقد فكر فى أنه من الممكن جداً أيضًا أن يموت هو الآخر، وبالتالى يكون كل ذلك بلا أى أهمية.

فى اليوم التالى، كان چيفروا قد شعر بسلام نفسى، أو على الأقل بخشوع، وهكذا اتخذ مكانه إلى جوار هوج وتابعيه الآخرين. كان ذلك اليوم هو عيد القديس كليمون الموافق الثالث والعشرين من شهر نوفمبر عام ١٠٩٨ . ها هو چيفروا الفارس الشاب، يرتدى بزهو سترة رائعة من السلاسل المعدنية، كان فيروز قد أحضرها له فى منزل سارة، ويركب حصاناً كان قد اختاره من وسط قطيع مكون من أكثر من ألف دابة، تم جمعها خلال عمليات النهب المختلفة. كان هذا الحصان مفعماً بالحيوية والعصبية، وهو ما لا يمكن أن يجلب له إلا المتعة فى ركوبه. لم ينبس چيفروا بكلمة، عندما سأله هوج عن وداعه سارة، وما إذا كان ذلك مؤلمًا. بدوره صرح روبير بأنه سيفتقد ليلى صديقته، وأنه سيعود عن طيب خاطر إلى مدينة أنطاكية فى طريق عودته إلى الوطن ليراها مجدداً.

أما عـن سـارة، فكانت تبكي وكشـفـت عـن أنها تـنتظـر طفلاً. كان ذلك خبر لم يتوقعــه چيفروا بالمـرة، ولكنه جـدد مخاوفه وهمومه. يوم الرحيل تتبعته سارة إلى مكان تجمع الجيوش ما بين بوابة الكلب وبوابة القديس پول، حيث يبدأ من ورائه الطريق المؤدى إلى مدينة حلب. وعدته بصوت حزين أن تراقب رحيله مع الجيوش من فوق أسوار المدينة، بل قالت له إنها ستنتظره. لهذا لم يجد چيفروا الجرأة أن يصرح لها بأنه إذا ما عـاد في يوم مـن الأيام إلى مـدينـة أنطاكـيـة، فلن يكون بغرض رؤيتها.

ومع ذلك، غاص قلب چيفروا، وهو يستدير خلسة ليلقى نظرة وداع أخيرة على المدينة التى لم يعد يظهر منها من بعيد سوى القلعة، وقد بدت مهيمنة على المكان فى ضوء الظهيرة. لقد ترك بها أعز الناس إلى قلبه، أجات وابنه، ولا يمكنه أن يبيح لأحد بهمومه هذه. فى هذه اللحظة كان قد نسى سارة، بل خرجت من فكره تمامًا. شعر بالارتباك، بل بالخزى كونه ناكراً للجميل إلى هذه الدرجة. على قمة أسوار المدينة، رفرفت راية بوهيموند، وعليها ورقة نبات السرخس الخضراء، والتى ذكرت چيفروا بغابات منطقة أوڤيرنى فى الوطن. هكذا بدت الراية، وكأنها ترفرف بلا أهمية حسب قوة الريح، لتحدد أراضى بوهيموند أمير تارانت. أما الكونت ريمون دى تولوز، فقد فضل عدم الالتفات إلى الوراء والتركيز على الرايات البيضاء، التى يتوسطها الصليب الأحمر، وهو الشعار الذى تحمله رايات جيوش الله.

ها هو الآن موكب الجيوش يتقدم بمحاذاة نهر الفارفار الذى ارتفع مستوى المياه فيه؛ بسبب الأمطار. على رأس الموكب، الكونت دى تولوز يحيط به أتباعه، ثم من ورائه يأتى هوج ورفاقه، وقد بدوا غارقين وسط أعداد كبيرة من الريفيين على خيولهم، وبينهم كان بطرس بارتيليمى، الذى ذاع صيته، حيث كان وراء اكتشاف الحربة المقدسة. كان الكونت ريمون دو تولوز يمسك بالحربة التى أصبحت رمزًا لتشجيع الجموع، مثلما كانت الكلمة السحرية "مشيئة الرب" من قبل، والتى مل الكثير منهم من تكرارها منذ زمن طويل.

أما چيفروا فالتفت مرة أخرى ليتطلع إلى أقصى ما يمكن رؤيته إلى الوراء، فهاله أن يكتشف إلى أى مدى تقلص طابور الجيوش منذ أن غادروا مدينة القسطنطينية.

فقد مات المئات من الفرسان، بينما تُرك البعض الآخر[١]. الدليل على ذلك جاء على لسان كبار القادة، عندما حكوا كيف أن بطرس الناسك نفسه، قد هجر مجاميعه، ولاذ بالفرار عند مشارف مدينة أنطاكية

---

(١) فلنتذكر الصعوبات التى واجهت مشكلة تحديد أعداد الجيوش؛ بسبب الأرقام الخيالية التى دونها المؤرخون. فالتقديرات تقول ٥٠٠٠٠ رجل منذ نقطة بداية الرحيل لجميع القوات، وهو ما يبدو رقمًا معقولاً عشره من الفرسان، بالإضافة إلى النساء والأطفال ورجال الدين... إذن كم تبقى منهم بعد معركة أنطاكية؟ قيل حوالى ١٢٠٠ فارس و١٢٠٠٠ من المشاة، وذلك وقت حصار القدس، بالإضافة إلى بضعة آلاف من غير المقاتلين.

فى فصل الشتاء الماضى، حتى أعاده بالقوة تانكرد، ابن شقيق بوهيموند، وكذلك تاتيكيوس الخائن، مندوب الإمبراطور، الذى كان قد هرب بخسة مع فرقته، بالإضافة إلى الكونت إيتين دو بلوا العاطفى، الذى عاد إلى فرنسا من أجل زوجته[1].

تفاجأ هوج من الإحباط الذى بدا مهيمنًا على أفراد الجيوش حيث لم يعد يُظهر قادته حماسهم أو شحذهم للهمم، بل أظهروا بعض المشاحنات الخفية التى لم يفهم أسبابها أو مغزاها، معظم المحاربين المتواضعين[2] والذين أصبح يُطلق عليهم الآن المتسكعون. بل راحت تتناقل فيما بينهم أكثر من قصص عديدة عن مغامرات وغزوات هذا أو ذاك من الفرسان.

- بضربة واحدة ذات قوة غاشمة من سيفى، كانت كفيلة بشق ذلك التركى من رأسه، حتى فخذيه. هكذا راح إبل دو سوج يحكى وقد لمعت عيناه بتلك الصورة التى لن تنمحى أبدًا من مخيلته.

---

(١) عاد إلى فرنسا، ثم أرسلت به من جديد زوجته أديل إلى الأراضى المقدسة، حيث مات هناك.

(٢) هم من يمكننا أن نطلق عليهم (المتسكعين)، أو من يعيشون حياتهم فى تشرد... هكذا كتب جيبرت دى نوجن (وهو راهب عاش فى الفترة ١٠٥٣-١١٢٥). فى حوالى عام ١١١٤، فى كتابه " فى حياته " يحكى عن الحملة الصليبية الأولى، من خلال تجميع شهادات عيان مختلفة.

طفح كيل هوج من هذه القصص، بحيث سرعان ما تحولت هذه المغامرات والفتوحات، خلال هذا العام من المحن، إلى أساطير. لقد أثبت إبل دو سوج أنه واحد من أفضل قصاصى هذه الحكايات. فمنذ أن أبلغه هوج برسالة الأميرة آن، والفارس المتقد بالحماس يزداد تقربًا منه، على قدر أصدقائه الكثيرين الذين فقدهم أثناء حصار أنطاكية. هكذا أتخذت ذكرياته شكلاً مثاليًا خلال هذا العام المنصرم، وانتعشت وتجددت، حتى إنه بات يحلم بالعودة مرة أخرى إلى القسطنطينية. طالما اقتحم مخيلته ذلك الوجه ذو الملامح الرقيقة ، وتلك الهيئة الفخور، وذلك الصوت الناعم والمتسلط فى آن واحد. ومع ذلك كان إبل يشعر أحيانًا بشىء من الغصة والندم، عندما يرى ابنه الرضيع بين أيدى مرضعته، التى ترعاه، حيث لم يعد يفكر فى زوجته المسكينة برتيلد، التى قد تخلى عنها بعد أن دفُنت فى قبر فى مدينة أنطاكية.

من بين هؤلاء الفرسان المتقدين بالحماس وقد نفذ صبرهم، شعر الكونت ريمون دى تولوز بالوحدة. لقد أصبح يفتقد الأسقف أديمار دى مونتيل أكثر من أى وقت مضى، وعلى الأخص نصائحه وقراراته السديدة، وشخصيته المتفردة. بالطبع لم يكن أرنو بديلاً جيداً للأسقف أديمار، والذى كان من الممكن أن يلعب دوراً حقيقيًا بشخصيته الفوضوية الضعيفة. كان يجب رؤيته وهو على ظهر جواده... لم يكن البطريرك يقوم بشىء رائع، غير كونه استطاع الجمع ما بين مهامه الدينية، وتلك كقائد لجيوش الحملة الصليبية. ولكن هل كان الأسقف

أديمار دى مونتيل سيستطيع الحصول على ما نبذه بوهيموند فى مدينة أنطاكية؟ هذا ما لم يكن الكونت ريمون متأكداً منه.

كيف لا يمكنه أن يشعر بالقلق، وما يحدث أنه بالإضافة إلى أمير تارانت الذى بقى فى أنطاكية، وبودوان دو بولونى[١] الذى لم يفكر هو الآخر فى ترك مدينة إديس، التى كان قد استولى عليها، وأنشأ بها مقاطعة فرنچية. أما هوج دو ڤيرماندوا[٢] فقد ذهب إلى الإمبراطور، وحتى جودفروا دى بويون، فقد بدا أنه فضل البقاء فى الظل. وهذا على الرغم من السمعة التى كان يتمتع بها وفى ظل هذه الظروف، يبدو أن الاستمرار فى الذهاب إلى القدس ما هو إلا ضربٌ من الجنون. ومع ذلك لم يفكر ريمون دى تولوز أبداً فى التقهقر أو الإذعان.

و مع هذا لن يكون للفرسان ولا للمشاة، الكثير من الوقت، حتى يعربوا عما يجول فى صدورهم. فبعد أن قطعوا حوالى خمسة وعشرين فرسخًا فقط، ابتعدوا فيها تدريجيًا عن مجرى نهر الفافار المتعرج، اتخذوا الطريق الجنوبى لمدينة أنطاكية، كى يتجهوا شرقًا، مبتعدين عن مرتفعات جبل الأنصارية. هناك بدأت تشغل بالهم مخاوف جديدة لدى اقترابهم من بلدة معرة النعمان[٣]. مع أن العديد من سكان هذه البلدة،

---

(١) شقيق جودفروا دى بويون.

(٢) شقيق ملك فرنسا، فيليب الأول.

(٣) بلدة معرة النعمان فى سوريا.

قد هجروها، توخياً للحذر بعد أن سقطت أنطاكية فى أيدى الفرنجة. فى بلدة معرة النعمان، لم يكن هناك أى أفراد جيش، ولكن من تبقى من سكانها المحاصرين، تحدوا الفرنجة.

- لماذا لا نتركهم وشأنهم، ونمضى نحن فى طريقنا؟ تساءل الكنسى ريمون دى إجويلير، وهو ينظر بعين مستاءة إلى جيوش الحملة، وقد توجس خيفة من طموحاتهم وأطماعهم الكبيرة، إذا وصلوا إلى بلدة من البلدان، وقد كانت معرة النعمان بلدة غنية بالخيرات.

"ما إن نصل إلى بلدة ما، حتى يسيل لعاب قادتنا عليها وتتملكهم رغبة فى اقتحامها" هكذا راح الكنسى ريمون دى أجويلير، يكتب فى مذكراته فى أول ليلة لوصولهم هناك، وهو يتأمل أسوار البلدة المواجهة ونظرات الصليبيين المليئة بالرغبة فيها.

و مع ذلك لم يمنع لوم الكنسى ريمون الحانق فى الوقت ذاته من فرحة هوج للقتال مجدداً، ولا من لهفة رفاقه إلى بناء البرج الخشبى ذى العجلات، والذى يساعدهم على اقتحام البلدة. هكذا قاموا باقتحام البلدة تقريباً بسهولة، فى اليوم الموافق لقداس داماس[١].

لأول مرة يكتشف هوج متعة النهب والسلب. ما إن علم بوهيموند الجالس فى قلعة مدينة أنطاكية، حتى قفز على جواده، قاطعاً الخمسة وعشرين فرسخاً

---

(١) الموافق الحادى عشر من ديسمبر.

بأقصى سرعة، ليلحق بالفرنجة ويأخذ نصيبه هو الآخر من الوليمة! ولكن سرعان ما فسدت تلك المتعة، وتلاشت عندما تيقن هوج أن تلك الحكايات المشئومة التى سمع عنها فى مدينة أنطاكية، لم تكن، ولا شك، مبالغًا فيها. كانت البداية حدوث مجزرة كما لم يحدث مثلها من قبل.

فعلى مدار ثلاثة أيام، لم يكف الفرسان عن ذبح الأعداء بسيوفهم بينما راح المتسكعون ينهالون عليهم بالعصى الخشبية، والتى كانت سلاحهم الوحيد. بعد ذلك عندما اجتاحت المجاعة جيوش الحملة، لم يتردد بعضهم عن أكل اللحم البشرى، سواء مسلوقًا أو مشويًا. وإذا كان البعض الآخر، مثل هوج، قد راح يهتف من الخزى والعار لأفعالهم هذه، ففى نهاية المطاف أذعنوا هم أيضًا للقيام بالشىء نفسه. أما عن چيفروا وروبير وغيرهما، فقد شاركوا أيضًا فى تدمير أسوار البلدة حجرًا حجرًا، قبل أن يُضرموا فى النهاية النار فى جميع أنحاء البلدة.

هكذا وضعت النيران المستعرة حدًا لخلافات القادة حول أحقية الاستيلاء على البلدة. تعالت ألسنة اللهب فى كل مكان، حتى إن المتسكعين جابوا شوارع البلدة، وهم يمسكون بالمشاعل فى أيديهم ويهتفون بحماس:

- إنها مشيئة الرب!

حتى إن البعض منهم أعرب عن أسفه لعدم إشعال النار فى مدينة أنطاكية.

ومع ذلك، فقد ظل جموع الصليبيين متمسكين بوفاء وبشدة على عهدهم بالذهاب إلى القدس، حتى لا يتأخرون أكثر من ذلك! وهكذا حتى صباح اليوم التالى، الذى كان موافقًا الثالث عشر من شهر يناير، كانت النيران مازالت منضرمة فى أرجاء البلدة، حتى إن دخانها تصاعد عاليًا، ليحجب السماء التى ظل لونها ورديًا طوال الليل. توجه وفد إلى الكونت ريمون دى تولوز، يطلب منه بتوسل أن يرحلوا عن البلدة. ترأس الوفد أسقف بلدة ناربون (بلدة فى منطقة لانجدوك فى جنوب فرنسا) ويُدعى بطرس:

- ينبغى علينا أن نستأنف طريقنا إلى القدس! قال الأسقف

- نحن لا نريد مزيداً من مشاحناتكم، كما حدث فى أنطاكية! هتف قائلاً رجل ضخم الجثة أسمر البشرة، حتى إنه أطول قامة من أمير تارانت.

حدجه بوهيموند بنظرة طويلة من عينيه الزرقاوين، ولكن المتسكع لم يخف أو يهتز. كما أنه لم يشعر بالمهابة أمام هذا الحضور من الفرسان. كان بوهيموند قد ردد مراراً وتكراراً على قادة الحملة منذ وصوله إليهم قوله: "يجب أن ترضخوا جميعًا بأن مدينة أنطاكية ملكى". كان أول من تفهم للخطر هو الكونت ريمون دى تولوز.

أمام أعين الجميع المذهولة، سقط الكونت دى تولوز راكعًا على ركبتيه يصلى لفترة طويلة. لم يجرؤ أحد على مقاطعة فترة خشوعه هذه.

وقف الكونت على قدميه من جديد، وخلع حذاءه وألقى به على مقربة منه، ثم همس ببضع كلمات فى أذن الكنسى ريمون دى أجويلير، خرج على إثرها من أمام اللفيف المعتاد، وهنا خلع الكونت سيفه وسترته الأرجوانية وقال:

- ها أنا!

عاد الكنسى ريمون دى أجويلير، ومعه رداء طويل من الكتان البنى الخشن، ارتداه الكونت دى تولوز بمساعدة خادمه، ولف حول خاصره حزامًا رفيعًا من الجلد، كان يستخدمه فوق سترته. فى النهاية، تناول الكونت الحربة المقدسة، ثم راح يمشى، وهو حافى القدمين.

- إنها مشيئة الرب! إلى الأمام يا فرسان السيد المسيح، والله المعين!

هكذا استخدم الكونت الصيغة المعتادة للأسقف أديمار.

- إنها مشيئة الرب! هتف وراءه الفرسان والمشاة.

اتبعهم تانكريد، بعد أن حيا عمه بوهيموند، الذى فضل العودة إلى أنطاكية.

راح الجميع يجرى كما المتسكعين المتقدين بالحماس فى جميع الاتجاهات فى فوضى عارمة، وقد خلع هوج وچيفروا أحذيتهما هما الآخران أيضا، ورافقا الكونت ريمون دى تولوز الذى أصبح من الواضح ودون أى شك أنه قائد الحملة.

ها هى إلڤير، زوجة الكونت ريمون، تحتضن رضيعها الصغير ألفونس، الذى كان قد ولد فى أنطاكية، وتنظر إليه والدموع فى عينيها. كانت تسير وراء زوجها، كما كان يفعل الجميع، مهرولين. لقد أُنقذت الحملة. بالقرب منها، بوهيموند يغمغم متذمراً ببضع كلمات، منتقداً أخلاق هؤلاء الجنوبيين، الذين كانوا يعرفون كيف يجدوا الإيماءات المقنعة. لم تعد إلڤير تسمعه فقد تقدمت عربتها عنه، فهى أيضاً ذاهبة معهم إلى القدس.

هكذا تواصلت الرحلة الطويلة على ظهر الخيول، والتى كان للفرسان خلالها متسع من الوقت للتأمل والتفكير. بعد وقت قصير من إيماءته التى حفزت القوات من جديد، ركب الكونت ريمون دى تولوز على فرسه الرمادية الجميلة من جديد، حيث كان السفر لأيام سواء على ظهر الخيول، أو سيراً على الأقدام، يبدو بلا نهاية. بعد أن تركوا وادى نهر الفارفار الوعر، تقدموا بعد ذلك إلى مشارف مدينة حمص، ثم ساروا بمحاذاة الساحل الجنوبية لجبل الأنصارية. ها هم الآن على الطريق الجديد الذى يفصل بين البحر فى اتجاه الغرب، ومرتفعات جبل لبنان.

لم يتبق أكثر من مائة فرسخ[١]، عليهم قطعها للوصول إلى القدس. وإذا كانت بشاير فصل الربيع، قد هلت فى البساتين والحدائق من خلال بعض الفواكه والخضراوات اللذيذة، قد تحتم عليهم اقتطافها من هنا

---

(١) حوالى ٤٠٠ كيلو متر.

وهناك فى هجمات متفرقة، بل نهبها. كانت المدن التى يمرون عليها بعضها ذات طبيعة جميلة والبعض الآخر عاديًا، أو على الأقل كانوا يتفاوضون مع سكانها، الذين كانوا على علم تام بمدى وحشية وقسوة الفرنجة. أيضًا كان سكان هذه المدن غالبًا ما يفضلون، من أنفسهم، تقديم الطعام، والذهب، أو الخيول وذلك حتى يسلموا من شرهم ويتخلصوا منهم فى سلام. فبعد أن مر الصليبيون بمدينتى طرطوس وماراكيه مرور الكرام، غير أنهم تمهلوا عند مشارف بلدة عرقا، بالقرب من مدينة طرابلس، ولكن دون نجاح يذكر، حيث طالعوا المدينة القوية بنهم، وراح مبعوثو الكونت ريمون دى تولوز يزهون، وهم يتشممون روائح البساتين المزدهرة، وبالتحديد خيراتها. لم يجدوا ما يكفى من الكلمات ليصفوا بها سوق المشغولات الذهبية. وإذا كان حاكم مدينة طرابلس قد فضل أن يعرض على الصليبيين تحالفه، فهو لم يترك أى مجال للشك، عندما أمر بجلب كل ما هو لازم لدعم أسوار المدينة وتحصينها ضد محاولة أى اقتحام.

ولكن أمام بلدة عرقا، عجز الفرنجة عن اقتحامها، مما أنهكهم ذلك للغاية، ولهذا أحيانًا ما كانوا يتحولون عن الهدف الذى جاءوا من أجله بالانهماك فى مناسبات أخرى. وهكذا طفت على السطح من جديد القصة الغريبة التى تورط فيها مكتشف الحربة المقدسة. فى خضم اندماجهم وحماسهم فى الأسبوع المقدس الذى ودَّ الكثيرون منهم لو أن يقضوه فى القدس، ها هو المسكين بطرس بارتيليمى يتعرض للسخرية

من أولئك الذين لا يصدقون بالمرة قصة تلك الحربة، حتى إنه انتهى بطلب حكم إلهى بالنار.

– أتوسل إليكم أن تشعلوا النار فى رقعة كبيرة، ولسوف أعبرها حاملاً الحربة... إذا كانت حقًا هى حربة سيدنا المسيح، سوف أخرج من النار سالمًا معافى.

هكذا قام چيفروا وروبير بإعداد محرقة ضخمة، مكونة من أفرع شجرة زيتون كبيرة، ارتفاعها أكثر من عشرة أقدام.

– لقد جهزنا ممرًا وسط الأفرع، كى يستطيع بطرس الدخول منه. أخذ چيفروا يوضح لهوج عشية الحدث.

– إن ذلك لضرب من الجنون. علق روبير وهو يقوم بتشذيب قطع صغيرة من الخشب من فرع شجرة زيتون على شكل صليب صغير.

فى اليوم التالى، وهو يوم الجمعة العظيمة الموافق للثامن من أبريل ١٠٩٩، وبينما كان هوج وإبل دى سوج، يسهران على حراسة المخيم من فوق تل مجاور، لمحا تجمعًا ضخمًا، لم يسبق لهما رؤية مثيل له، منذ جنازة الأسقف أديمار. ها هم رجال الدين، حفاة الأقدام، يرتدون زى الكهنة الخاص بالمناسبات، وقد شكلوا دائرة أولى حول الكونت ريمون دى تولوز الذى بدا مميزًا بسترته الأرجوانية، التى يخططها اللون الذهبى. فى الدائرة الثانية جاء الفرسان، وهم يمسكون بالرماح، المعلقة فى رؤوسها رايات صغيرة بيضاء، يخططها الصليب الأحمر، فشكلت مثل

الشعلة لتكمل حاملى الرايات ذوى الأعلام المتعددة الألوان. بعد ذلك، توالت الدوائر العديدة، وبها تراوحت صفوف الأفراد البسطاء من الأهالى المشاركين فى الحملة.

وقف الأسقف أرنو مالكورن، مرتدياً زى الكاهن الأكبر المزركش باللونين الذهبى والأرجوانى، يساعده ريمون دى أجويلير، ثم انشق من بين الحشود، وبدأ يلقى كلمة قصيرة لم يسمع هوج منها إلا الكلمات الأولى فقط:

– إذا كان الله سبحانه وتعالى...

هبت نفحة من الهواء البارد، فهزت فروع أشجار الزيتون المتسلقة للتل، فتوهجت النار التى كانت ألسنتها ترتفع بالفعل نحو السماء. فهم هوج وإبل أن الأسقف قد انتهى من خطابه، عندما شاهدا الحشود وقد ركع بركبة واحدة على الأرض فى انسجام رائع، ووصلت إليهما صيحتهم الراعدة "إنها مشيئة الرب".

ثم ظهر بطرس بارتيليمى، وكأنه بقعة صغيرة ولكن واضحة وسهل التعرف عليها من سترته المتواضعة المصنوعة من الصوف الخام، وتحدث بدوره، وبعد ذلك أمسك بالحربة التى ناوله إياها الكونت دى تولوز، ثم دخل إلى النار. عم الجميع صمت ثقيل، تتخلله ببساطة صيحات طائر النورس، الذى راح يحوم حول النار، وقد أخافه وهج النيران المستعر. حبس الجميع أنفاسه... حتى إن الرياح قد هدأت.

- إنه لجنون. همس هوج.

ثم فجأة سمعا همهمة وضجيجاً بين الحشود.

- لقد خرج! هتف إبل دى سوج، قائلاً وهو يجفف بيده جبهته الرطبة من تحت الخوذة التى يرتديها على رأسه.

- هل أنت متأكد من ذلك؟ سأله هوج، وهو يحملق بعينيه.

- نعم. أكد له إبل

و لكن أسفل التل، ساد نوع من الفوضى. ها هى الحشود التى كانت هادئة للغاية منذ لحظات قليلة، تموج من الفوضى، متكالبين على بطرس المسكين الذى راح يصرخ طالباً النجدة دون جدوى:

- أغيثونى!

فى ساعة العصارى، شاهد هوج وإبل الكنسى ريمون دى أجويلير يخرج منطلقاً من الدرب الصغير، الذى جُهز مسبقاً وسط كومة من أشجار الزيتون الضخمة المشتعلة. كان متقطع الأنفاس، كما عجز لسانه عن الكلام من فرط صدمته وتأثره بما حدث، وهو عادةً ثرثار أكثر من اللازم، ثم بقى لفترة طويلة، وعيناه شاخصتان، وجسده بلا حراك قبل أن يحكى فى النهاية أحداث ذلك الصباح:

- إن المسكين بطرس بارتيليمى لم يحترق كثيراً، إنها لمعجزة حقيقية، ولكن دهسته الحشود. إن الطبيب أيربك يعالجه الآن فى خيمة الكونت.

بعد أيام قليلة لاحقة، توفى بطرس بارتيليمى وتمنى الجميع نسيان قصة تلك الحربة المقدسة. خلال مراسم جنازته، ألقى الكونت ريمون دى تولوز كلمة قصيرة، حيّا فيها شجاعة بطرس بارتيليمى، مما كان له أثر كبير فى إعادة الثقة من جديد فى قلوب أفراد جيوش الصليبيين الذين أصبحوا قريبين للغاية من هدفهم. كانت صيحة "أنها مشيئة الرب" المتكررة تحثهم وتساعد على تشجيعهم أكثر. لقد حلم أفراد الجيوش من الأهالى البسطاء كثيراً بمدينة القدس، حتى إنهم محوا بسرعة هذه الحادثة من ذاكرتهم. كان هوج يوافقهم الرأى نفسه. كان لا بد أن تصل تلك المهمة إلى نهاية إذا ما كان يرغب فى يوم ما أن يرى قصره الجديد، وقد انتهى بناؤه!

١٨

- لن نعرف حقيقة ما حدث أبداً. هكذا علق إبل، وهو عائد من فوق الهضبة الصغيرة، التى دُفن بها بطرس بارتيليمى فى رقعة بين أربع أشجار زيتون، وسط مراسم جنائزية مهيبة. وضع روبير فوق قبره أحد الصلبان، التى كان قد نحتها لتمرين أصابعه على مهنته المحببة.

- أبداً. أكد هوج قوله، ثم عبس بحاجبيه فجأة، وهو يلمح شيئًا قادماً من بعيد.

لقد كانت فرقة صغيرة من الفرسان على خيولهم يتقدمون من مدخل المخيم.

- إنهم يحملون الرايات الإمبراطورية. همس چيفروا

- إيزيدورو!

هكذا هتف هوج بعد أن تعرف عليه، مقبلاً على جواده متقدماً بضعة فرسان، يمسكون برماح راحت ترفرف فى مقدمتها رايات عليها الشعار الإمبراطورى ذو اللونين الأزرق والذهبى... ها هو إيزيدورو زوج سانشا. ولكن قبل أن يأتى هوج بأدنى حركة أو بادرة، تسمر فى مكانه.

– أجات! أجات! راح هوج يكرر وقد وضع يده عند مستوى عينيه ليرى جيداً، بينما شعر بالأرض تميد من تحت قدميه، بينما راح قلبه يدق بشدة فى صدره، بينما تسللت آلام مبرحة حول صدغيه من فرط التوتر.

– اقبضوا على هذا الرجل! صاح إيزيدورو.

تهاوى هوج ساقطًا على الأرض المليئة بالغبار. من حوله، سرعان ما أشهر كلٌّ من إبل وچيفروا سيفيهما فى وجه إيزيدورو ورجاله.

– أمسكوا بهذا الرجل. كرر إيزيدورو، آمرًا الجنديين اللذين معه وقد بدا مترددين، قبل أن يضيف: إن هذا الرجل سجينى.

– هذا الرجل هو قائدنا، وقد قمت بسجنه لدافع انتقام شخصى. صاح به چيفروا، وهو مازال مشهراً سيفه فى وجه واحد من الجنديين، بينما أشهر إبل خنجره المدبب فى وجه الآخر.

– إيزيدورو... يا لها من مفاجأة!

هكذا هتف الكونت ريمون دى تولوز، وهو يشق طريقه، متجهًا إلى التجمع الواقف، يليه الكنسى ريمون دى أجوييلير.

– مرحبًا بك فى مخيمنا، ولتترك رجالى فى سلام من فضلك! الأحرى بك أن تأتى لتحيى إلڤير، وتقول لها أخبار سانشا.

– بل الأحرى بك أن تسأل هذا الرجل! قال إيزيدورو، بصوت راعد من الغضب: لقد غادر مدينة القسطنطينية بعدى، وقد ساعدته سانشا

هى وتلك الأميرة اللعينة... بل إننى على علم بأنه قد أمضى معها ليلته الأخيرة هناك.

اقترب إيزيدورو من هوج الذى كان قد نهض من جديد، وأشار إليه بإصبع الاتهام قائلاً:

- انكر أنك قد قضيت ليلتك الأخيرة هناك معها! لقد حكى لى بازيل كل شىء.

اكتشف هوج أن من كان واقفًا وراء إيزيدورو، هو بازيل الذى رافقه السفر من قبل وأدرك أنه قد خانه.

- أنا أعرف كيف أجعل الرجال يتكلمون! قال إيزيدورو بنبرة صوت هازئة، وهو فى الوقت نفسه يهز كيس نقوده الجلدى المعلق فى حزامه، ثم وهو يشير إلى الندبة الموجودة فى وجه بازيل على خده، بدءًا من أعلى صدغه إلى ذقنه.

فى هذه اللحظة كان إبل وتابعا هيوج: فولبرت وراؤول، يحيطون به.

- لا أعلم ما الذى أعترانى... ولكن خُيل لى أننى رأيت شخصًا ما. قال هوج

- هل تعتقد نفسك مثل بطرس بارتيليمى؟ قال راؤول مازحًا وهو يراقب فى الوقت نفسه بحذر الجنديين التابعين لإيزيدورو.

أقترب منهم أيربك، الطبيب العربى الذى طالما عالج العديد من الفرنجة، وقال بأسلوبه الهادئ المعهود، والذى دائمًا ما يطمئن مرضاه:

- هذا يحدث أحيانًا عندما يمر المرء بتأثر عاطفى شديد.

هز هوج رأسه، مؤيداً لكلامه. لقد كان الطقس شديد الحرارة، ولكنه كان على يقين مما رآه بعينيه. بل إنه صارت له أسابيع عدة لم يحلم بأجات... كما أنه لم يعد يفكر بها كثيراً أثناء النهار ، كما لو كانت جيوش الحملة قد تخطت بشكل نهائى همومه الشخصية، خاصة مع ابتعادهم الكبير هذا عن الوطن. لكم كانت مقاطعة روامون بعيدة عنه الآن! حتى إنه لم يعد يتخيل ما يمكن أن يكون عليه الآن قصره الجديد!

شعر هوج بالضجر، بل بالقلق، ولهذا لجأ إلى خيمته، حيث استلقى على فرشته، ووضع إلى جواره بحرص سيفه الجميل الذى أهدته إياه الأميرة آن.

- أنت مجنونة!

لم يكف چيفروا عن ترديد هذه العبارة، منذ البلبلة العامة التى تلت وصول وتدخل الكونت ريمون دى تولوز بعد الوعكة التى ألمت بهوج، وهكذا قاد چيفروا أجات ليختلى بها بهدوء بعيداً عن الأنظار. فقط كانت أشجار الزيتون العتيقة، والتى تمتد أعمارها إلى مئات السنين هى الشهود الوحيدة على الموضوع الذى كان چيفروا يحبذ ألا يتناثر أو يسمعه أحد.

لم يكن چيفروا يصدق نفسه. لقد نجحت أجات فى إقناع إيزيدورو خلال زيارته العابرة لأنطاكية، وقد تأثر بقصتها.

– لقد قلت له إننى يجب علىّ اللحاق بزوجى، وكان فيروز شهمًا معى! حتى إنه سمح لابنه على أن يأتى معى. سوف تصل سارة عن قريب، ومعها الصغير أموند.

– سارة؟!

– لقد فقدت جنينها الذى كانت تحمله منك ومن وقتها انجذبت بعاطفة أمومة جياشة تجاه ابنك. راحت أجات توضح له ببساطة، وكما لو كان كل هذا أمرًا طبيعيًا.

بدا چيفروا مصدومًا، مما يسمعه ثم سألها:

– وماذا أنت فاعلة الآن؟

– سوف أذهب للقاء هوج وأخبره بكل شىء.

– أخيرًا! ونستطيع حينئذ الزواج!

اكتفت أجات بهز كتفيها باستخفاف، ثم قالت له:

– فقط من أجل هوج، وفقط من أجله. هكذا أكدت أجات بنبرة صوت مصممة.

مع ذلك، فقد شعر چيفروا بالارتياح، كونه خرج من هذا المأزق الملىء بالكذب، ظل خلاله متوترًا خشية رد فعل هوج، ولى أمره والذى خدعه هو على مدار أشهر.

لم ينضم هوج إلى مائدة طعام الكونت دى تولوز، حيث أمر بإعداد وليمة كبيرة على شرف وفد الإمبراطور. تناول المدعوون الوجبة وسط أجواء مشحونة ومشاعر غامضة. وبرغم الخراف المشوية الشهية المذاق، والفواكه الآتية من حدائق وبساتين مدينة طرابلس، والتى كانت تزفر بأطيب الروائح، فإن الجو كان متوتراً.

بعد أن علم الكونت ريمون دى تولوز بأن إيتيان دى بلوا، الذى ظل مقيماً إلى جوار الإمبراطور ألكسيس، قد عاد سالكاً الطريق إلى مملكة فرنسا، ولذلك تنهد قائلاً:

- بدلاً من أن يقاتل، راح يكتب رسائل إلى زوجته المحبوبة أديل. وماذا عن هوج دى ڤيرماندوا ؟

- إن شقيق ملك فرنسا لا يبدو مكترثاً بالمرة للانضمام من جديد إلى جيوشكم. قال إيزيدورو بنبرة صوت شخص مهم.

- إنه لين ومتردد!

هز إيزيدورو رأسه بالإيجاب. إلى جواره، جلست إلڤير زوجة الكونت ريمون لتشاركهم الوجبة رغماً عنها. إن ما حكاه لها هوج بشأن إيزيدورو وسانشا، جعلها تغير مشاعرها تجاه محبة زوج شقيقتها فى الرضاعة. رغم أن إيزيدورو راح يغدق عليها بلفتات عارمة من اللطف والمحبة، وهو يلبى كل ما ترغبه من طعام على المائدة، فها هو يناولها ذلك الطبق أو تلك الثمرة من الفواكه. ولكن إلڤير ظلت متحفظة تجاهه.

– إيزيدورو، بالطبع أنت لم تأت إلى هنا فقط لتطلعنا عن أخبار رفاقنا الذين لم يعودوا أفضل أفراد جيوشنا؟ هكذا سأله الكونت ريمون دى تولوز، وهو يتذوق باستمتاع ثمرة مشمش، راح عصيرها ينسال على لحيته القصيرة الآخذة فى الشيب.

لم يرد عليه المبعوث الإمبراطورى فى الحال، بل أخذ وقته فى مضغ شريحة صغيرة من اللحم المشوى كان يُمسك بها بين أصابعه الغليظة ذات الأظافر الداكنة.

– كلا يا عزيزى الكونت. هكذا نطق إيزيدورو أخيراً، وهو ينظر إلى محدِّثه من فوق كتف إلڤير التى كانت ترتدى رداءً من الحرير الأحمر، ثم أضاف: إن الإمبراطور يرغب فى مرافقتكم إلى القدس.

كان للعبارة وقع جاف، وساعد على ذلك صوت الرجل الأجش، الذى راح يحدق بنظرات سريعة لكلٍ من حول المائدة. سكت الجميع عن الكلام. وضع جودفروا دى بويون يده اليسرى تحت ذقنه، وبدا مستغرقًا فى التفكير، بينما راح يدير بعصبية بيده الأخرى خنجره الصغيرة الذى لا يفارقه أبدًا. تحرك الكونت ريمون دى تولوز على مقعده ليمدد ساقيه، حيث كان يشعر بألم بهما منذ ذلك الصباح. عند طرف المائدة، كان الكنسى ريمون دى أجويلير جالسًا يكتب بضع كلمات على لفافة من مخطوطة، ثبتها مفرودة بوضع قارورة مملوءة بالماء عند نهايتها. راح چيفروا ينظر إليه من دون تركيز، فقد كان يفكر فى أجات.

- عليكم فقط أن تنتظروه حتى موعد عيد القديس چان. قال إيزيدورو، كاسراً الصمت الثقيل الذى عم المكان.

- القديس چان؟ ردد الكونت ريمون دى تولوز الكلمة.

- سيكون ذلك خلال شهرين؟ تساءل الكنسى بعد أن وضع الريشة التى يكتب بها جانباً.

- سوف نتناقش أنا وأصدقائى فى هذا الشأن، ثم نبلغكم بردنا فى وقت لاحق. هكذا رد أخيراً الكونت دى تولوز على إيزيدورو، الذى بدا قلقاً إلى حد ما من صدى رسالته.

لقد حرص إيزيدورو على عدم التفوه بما صرح به الإمبراطور للمبعوث الخاص بالأمير الأفضل، حاكم مصر، والذى كان آخر حاكم للقدس، إنه ليست لديه أى سيطرة على هؤلاء الفرنچة الملاعين. مثل هذا التصريح، كان يدل على الروابط الخفية إلى حد ما، والتى وطدها الإمبراطور مع العرب من وراء ظهر الفرنچة. كان الأمير الأفضل هو الذى استولى على مدينة القدس، وطرد الأتراك السيچوسيد، فى الصيف الماضى، وبهذا انتقم لجد الإمبراطور ألكسيس، المسكين رومان الرابع، الذى هُزم هزيمة مريرة فى موقعة مانتزيكرت على أيدى هؤلاء السيچوسيد المتوحشين، وذلك من ثلاثة عقود سابقة، وبالتحديد عام ١٠٧١ . لذا ساور القلق الأمير الأفضل[1] إزاء ما حدث من الفرنچة عندما استولوا

(١) الأمير الأفضل كان حاكم مصر فى ذلك الوقت وهو فاطمى ومن نسل الرسول محمد صلى الله عليه وسلم.

على مدينة أنطاكية، ووضعوا يدهم عليها، وفى الحقيقة فقد أراد أن يستعرض قوته وسلطاته.

بدا كلٌّ من جودفرا دى بويون وتانكريد مستغرقين فى التفكير، وكان تانكريد قد أصبح خلال الأسابيع الأخيرة يتبع دوق منطقة لوتارينجى (فى فرنسا) كظله، وراحا يمضغان أعواد قصب السكر الذى اكتشفه الفرنچة بسعادة فى وسط حقول وزراعات الكفار العديدة.

ساد الهدوء أرجاء المخيم، بعد أن غاص قرص الشمس مرة أخرى عند خط أفق هذا البحر، مُحدثًا تأثيرات ضوئية، بهرت هوج وهو يتأمل ساعة المغيب. وقف كلوڤيس يحرس خيمة سيده هوج. كان متوترًا ويشعر بالخطر يحوم حول المكان منذ وصول ذلك الرجل هذا الصباح. فقد نبهت كلوڤيس نظرة الكراهية التى رآها فى عينى إيزيدورو، فراح يمضى وقته فى تنظيف حربة هوج بها طوال الوقت.

استرعى انتباهه ظل شخص عابر بسرعة بين الخيام المجاورة فأشهر الحربة إلى الأمام، وراح ينتظر. لكن شيئًا لم يتحرك.

لا بد أن الوليمة التى أقامها الكونت دى تولوز قد أوشكت على الانتهاء. سمع كلوڤيس وقع أقدام تقترب. لوح له راؤول بمودة قبل أن يدخل إلى مأواه، الذى علق على قمته المدببة العلامة الزرقاء. وصل إبل دى سوج بدوره، ودخل إلى خيمته، وهو يترنح فى خطوته. ابتسم كلوڤيس، وهو يراقبه. لا بد أن الفارس الهمام قد بالغ فى شرب الكحول أثناء الوجبة.

انعكس ضوء القمر على قمم الخيام فحددها، وكذلك ارتسم على التلال المملوءة بالشجيرات العشوائية المحيطة بالمخيم. تثاءب كلوڤيس، فقد غالبه النعاس، خاصة وقد ساد المكان هدوء مطبق.

- هوج! هوج...

فز هوج جالسًا فى فرشته. لقد تم الانتهاء من بناء قصره. ها هو بيجون، رئيس البنائين يقوم بغرس رايته على قمة السور المتعرج الذى يتوج أعلى جدار القصر.

- سوف تقتلعه الرياح. صاح به هوج، وكان واقفًا أسفل القصر ورأسه منطرحًا إلى الوراء وقد بدا عليه التأثر، وهو يتأمل الجدران التى شُيدت فى أثناء غيابه.

- لقد تم الانتهاء من بناء قصَرى. أخذ هوج يكرر، ثم قال: أجات... انظرى! كانت أجات تقف إلى جواره وترتدى رداء من الحرير الأزرق ذى وسط عال، مثل الذى ترتديه الأميرة آن. يتدلى من الكمين الواسعين، كمان آخران أضيق، يحدهما عند المعصمين تطريز بحبات اللؤلؤ. ابتسمت أجات وعقدت قدمها على الأخرى بلا مبالاة. كانت تنتعل حذاء من الجلد الأحمر. مد هوج يده ناحيتها، فراح وشاحها الشفاف يتطاير بفعل الريح التى راحت تزداد بشكل أعنف. أفلتت خصلة شعر من ضفائرها الكستنائية فأعادتها إلى الخلف فى حركة رقيقة.

- أجات. همس هوج

- أنا هنا معك! ردت عليه أجات

ابتسم هوج بسعادة وجذبها إليه.

- هل عرفتيننى بسهولة؟ هل لاحظت شعرى الأبيض؟

أنطلقت أجات، ضاحكة... كانت تحتضنه، بينما هو يستنشق عبق رائحتها العطرة.

تلاشى القصر فجأة.

- بيجون.. قصرى؟! صاح هوج، ثم كممت شفتيه فجأة يد ناعمة.

- هوج. همس أحدهم بصوت أجش

- أجات؟ لحسن الحظ أنك هنا.

هدأ هوج... أحاطها بقوة بين ذراعيه، ووضعت هى يديها على مؤخرة رأسه.

- لقد اختفى قصرى. كرر هوج مع ذلك بصوت حزين شكاء.

- استيقظ!

تحرك هوج فى فرشته... فتح عينيه... كان الظلام دامساً... كم من الوقت نام؟

جلس فى فرشته.

- هوج...

انتفض فى مكانه، مذعوراً.

- هوج... كرر الصوت الأجش.

- هوج... أنا هنا.

- أجات...

راح هوج يفرك عينيه.

- إذن أنت حقًا من رأيت على ذلك الحصان وراء إيزيدورو؟ أنت وراء عدوى اللدود؟ تساءل هوج وهو متشكك: أنا أحلم!

مرر هوج يده أمام عينيه.

- أنت لا تحلم.

وضعت أجات راحة كفها على وجهه، وراحت تحدد شكله البيضاوى وكأنها ترسمه بإصبعها. ابتسم هوج، فقد كانت أجات تفعل ذلك أيضًا، عندما كانا معًا على حافة بركة ورامونت، وسط أعواد البوص. توقف إصبعها على شفتيه فودَّ هو لو أن يعضه ولكنه لم يجرؤ... آه لو كان ذلك وهماً!

- هوج.

تردد صدى الصوت الأجش فى أرجاء الخيمة. كلا، لم يعد ذلك إذن حلمًا. فهو بالفعل يشعر بحضور شخص معه... يسمع أنفاسه. فى النهاية، تجرأ ومد يده فلمست لحمًا طريًا ناعمًا راح يتحسسه بإصبعه. ثم تحمس واهتاج فاحتوى ذلك الوجه بين راحتى يديه وجذبه إليه. شعر بالشفاه التى كانت عذبة، بينما كانت شفاهه هو ملتهبة.

سمع الصوت الأجش يهمس فى أذنه قائلاً :

- خذنى... لقد صار لى زمن طويل وأنا أنتظر.

كانت الشمس قد ارتفعت بالفعل، عندما استيقظ هوج. كان كلوقيس موجوداً معه فى الخيمة، بعد أن وضع الحربة مستندة على قماش الخيمة، فراحت تلمع فى ضوء الشمس بالقرب من الدرع المستطيلة التى كان نتؤها النحاسى الكبير يلمع هو الآخر.

- سيدى... لقد نمت كثيراً! قال له خادمه كلوقيس.

كان كلوقيس قد قام بإعداد ملابس هوج الذى، ومنذ إقامته فى القسطنطينية، أصبح يرتدى الملابس اليونانية والمكونة من سترتين قصيرتين يضعهما الواحدة فوق الأخرى. كان يفضل فقط البنطال العادى على البنطال اللاصق، والذى يجده الفرنچة نسائيًا للغاية.

أخذ هوج يطالع كلوقيس... كانت أفكاره مشوشة، ثم فجأة توالت كل أحداث الليلة الماضية، أمام عينيه.

– هل إيزيدورو ما زال موجوداً؟ سأله هوج بقلق وهو يعدل من الحزام الجلدى الرقيق، والذى كان قد اشتراه من تاجر فى مدينة طرابلس.

– نعم! كما أن الكونت دى تولوز قد وجه النداء لجميع الفرسان، كى يناقشوا رسالة الإمبراطور.

وضع هوج سيفه بعناية فى حزامه، ثم تناول رغيفاً من الخبز، كان كلوفيس قد جهزه على كرسى خشبى صغير، إلى جانب قدر فخارى من المياه العذبة، فغطس هوج وجهه به ليغسله.

فى الخارج كانت الشمس ساطعة للغاية. لا بد أن الوقت قد تخطى الثانية عشرة ظهراً.

– إنه فخ!

عندما دخل هوج إلى دائرة الفرسان، كان جودفروا واقفاً... هذا الأشقر العملاق الذى ظل على عهده بسترته الشهيرة، ذات اللونين الأبيض يقطعه الذهبى. كان عارى الرأس، شعره مصفف ومقصوص بانتظام حتى الرقبة. بشرته البيضاء كبشرة رجال الشمال، قد أصبحت برونزية مع الوقت. وقف بصلابة على ساقيه المنفرجتين قليلاً، ويده اليمنى لا تفارق مقبض سيفه، المرصع بالذهب والفضة. هذا السيف الذى كان قادراً من ضربة واحدة على شق رأس أقوى جمل، هكذا راح يفكر بإعجاب الكنسى ريمون دى أجوييلير.

– إنه فخ. كرر هوج، والذى كانت كلمته تأخذ دائمًا منحى جادًا ومسموعًا من الآخرين.

– أنا لست متأكدًا من ذلك. هكذا قال الكونت، ريمون دى تولوز، وهو يتقدم بحذر، وقد بدا قصير القامة وممتلئ الجسم، مقارنة بدوق لوتارينجى.

– إن ألكسيس هذا يريد أن يستغلنا... فهو يريد أن يشاركنا فى أمجادنا عند دخول القدس. قال تانكريد بتشكك واضح

– سوف نساعده على دخول القدس، وبعد ذلك يطردنا هو منها. قال إبل دى سوج بغضب وسخط، وهو يفكر كما كان يفكر الجميع فيما حدث فى مدينة نيقييه.

– إنه يريد أن يسرق انتصارنا.

حيث، وكما دوّن الكنسى ريمون دى أجويلير، لا يمكن أن يوجد احتمال آخر غير النصر فى القدس. "وكما أن إيمان هؤلاء الرجال لا يزال كامنًا داخلهم" هكذا فكر الكنسى بارتياح، وأيضا بتأمل وخشوع مُهدى إلى روح الأسقف أديمار دى مونتيل.

– لماذا لا ننتظر موسم جمع المحاصيل، وفى الوقت نفسه ننتظر الإمبراطور؟ تساءل مع ذلك ريمون دى تولوز بلهجة متشككة، وقد بدا غير مقتنع تمامًا بمجادلات أصدقائه.

– الانتظار... دائمًا الانتظار. تنهد أرنو مالكورن، وهو يقول وقد عقد يديه الطويلتين على بطنه بوداعة تمسكهما أصابعه المنعقدة بين بعضها البعض.

تجاهله الكونت ريمون، وهز كتفيه، فقد كان لا يهتم بآراء الأسقف، خليفة أديمار الضعيف للغاية.

راح كلٌّ منهم يفكر. لقد زرع الكونت دى تولوز الشك داخلهم، ولكن قلة قليلة منهم، هم الذين فهموا شغفه المفاجئ بالإمبراطور.

– فلنرحل بأسرع وقت ممكن! ومع ذلك هتف جودفروا بحماس، حتى يشجع الآخرين على اتخاذ هذا القرار.

– وعرقا؟ تساءل چيفروا

– فلنرحل من هذه المدينة، ونأخذ طريقنا إلى القدس! قال الكنسى ريمون دى أجويلير، بصوت واضح وصريح.

– فليكن. أقر بأسف الكونت ريمون دى تولوز، وقد بدا عابسًا.

ارتسمت ابتسامة ارتياح على وجه ريمون... حقًا، فقد كان من الصعب تفهم دوافع هؤلاء الفرسان.

لم يطرح هوج أى أسئلة... فى الحقيقة لم يكن ينصت إلى ما يقولونه. كان لا يزال هائمًا فى أحلامه... فجأة تذكر كل شىء... لم تعد القدس تهمه... بل كانت أجات هى التى تهمه. بمزيد من الدهشة والقلق، أخذ

چيفروا يراقب هوج، وهو يغادر اجتماع الفرسان. كان شارد الذهن حتى إنه لم ير إيزيدورو الذى استدعاه الكونت ريمون دى تولوز حتى يخبره بقرارهم. راح إيزيدورو، المرتزقة البيزنطى، يحدج بنظرات نارية هوج، الذى لم يأبه به بالمرة. مستغرقًا فى التفكير، مشى هوج بعينين زائغتين بالقرب من المخيم، متجهًا إلى الركن الذى عسكر فيه وفد الإمبراطور خيامهم، حيث راحت رايات ألكسيس ترفرف بفعل نسمة هواء عليلة.

– أنت يا هذا... ألم تأت معكم امرأة شابة؟ سأل هوج أول رجل رآه هناك، كان منهمكًا بإحياء النيران، التى كادت تخمد، وقد فاحت من حولها روائح شحوم.

لم يرد عليه الرجل، فكرر هوج سؤاله لرجل آخر، ولكنه على ما يبدو غير ثرثار بالمرة. أُصيب هوج بخيبة أمل، فراح يجول بناظره فى المخيم الذى توسطته خيمة ضخمة لا بد أنها كانت مقر إيزيدورو. إما أن هؤلاء الجنود الفلاحين، وهو ما كان نمطيًا فى جيش الإمبراطور، قد تعرفوا عليه، فهو الفرنچى الذى أراد إيزيدورو أن يقبض عليه فى اليوم السابق، وإما أن زعيمهم الحذر جدًا قد نبه عليهم ألا يتحدثوا إلى أحد؟ فلكم كانت سمعة الفرنچة سيئة!

– أى أمرأة؟

جاءه على بن فيروز، وتسمر أمامه، فراح هوج يطالعه من أعلى، حيث كان أطول منه بكثير.

– امرأة شابة جميلة ذات شعر داكن، كانت تتبع إيزيدورو. راح هوج يشرح له

– لم تكن هناك نساء. قال له على بن فيروز، وهو يثبت عينيه السمراوين اللامعتين فى عينى هوج الرماديتين.

بدا هوج نصف مقتنع، ولكنه كان يشعر بتخبط بائس بين الحلم والواقع، وراح يجول فى جميع أنحاء المخيم. ولكن عندما أعيا الإرهاق والضجر جسده وعقله، عاد إلى خيمته. أخذ كلوقيس ينظر إليه... لكم تغير سيده!... فظهره أصبح مقوسًا وذراعاه تتخطبتان ووجهه المنهزم، كل هذا لا يشبه قط ما كان عليه سيده هوج من قبل.

ومع ذلك، فقد قال كلوقيس لنفسه بتفاءل "سوف يصبح الحال أفضل غداً". كان يلعب لعبة النرد مع خادم إبل دى سوج.

– يبدو أننا سوف نغادر قريباً، قال رفيقه، وهو يحرك بعصبية قطع الزهر التى تناثرت فوق الرقعة الموضوعة على الأرضية الرملية.

– هذا أفضل، فقد ظللنا هنا لفترة طويلة. قال كلوقيس، وهو يبتسم ابتسامة سعيدة أمام النتيجة السيئة للزهر الذى ألقاه صديقه.

– بل كنا فى أحسن حال هنا. علق صديقه

– هل يمكننى أن ألعب معكما؟ قال على بن فيروز بعد أن اقترب وجلس بالقرب منهما. طالعه الآخران، كلوقيس وصديقه بأعين متوجسة.

- أنا على بن فيروز. قال الفتى العربى

هز كلوقيس ورفيقه رأسيهما، فقد كان كلوقيس يعرف فيروز جيداً، فبفضله تمكن الفرنچة من دخول مدينة أنطاكية.

كان هوج نائمًا... والجو حاراً داخل الخيمة رغم أن قماشها القلعى مهوى من خلال ثقوب عديدة. كان هوج قد استولى عليها خلال عمليات نهب بلدة معرة النعمان. أحب لون قماشها الأرجوانى، خاصة عندما كان لونها يتحول إلى لون الدم نهاراً، هى والأشياء القليلة الموجودة داخلها. كذلك كان القمر يلقى بانعكاساته الضوئية عليها، ولكن بشكل أكثر خفية. تقلب هوج فى فرشته، وراحت شفتاه ترتعشان فوق لحيته المائلة إلى الحمرة قائلاً:

- أجات... أجات...

بالقرب منه، ارتسم ظل شخص واقف، وقال بصوت أجش:

- أنا هنا.

مال الظل عليه، ولكن هوج هب جالساً فى مكانه فجأة وهتف:

- من أنت؟! كلا... لا تقتلنى!

امتدت يده فلمست ذراعه، فقبض بقوة على المعصم الرقيق، حيث شعر بسوار برزت منه نتوءات معدنية آلمته، بشدة فى راحة يده.

- هوج... اتركنى، أنا أجات.

– كلوڤيس! صاح هوج ثم أكمل: ناد على أيربك، الطبيب العربى، فأنا مريض.

دخل كلوڤيس إلى الخيمة، وراح يفرك عينيه. استطاع أن يخمن فى الظلام الدامس ذلك الشبح، ومن وراء سيده هوج. سريعًا ما أمسك بالخنجر الصغير المعلق بالحبل المزدوج الملفوف حول خاصرته، والذى يستخدمه أيضًا كحزام واندفع، مهاجمًا الخيال.

– كلوڤيس... ألا تستطيع التعرف علىَّ؟ أنا أجات. قال له الصوت الأجش

– أجات! من أجات؟ سألها كلوڤيس بعد أن توقف بشكل مباغت.

– أجات من قرية الأخشاب... عند سفح قصر روامون.

– أجات من قرية الأخشاب؟ كرر كلوڤيس وراءها وهو لا يصدق. فى الظلام الدامس، أمسك هوج بيد أجات.

– كلوڤيس... نحن لا نحلم. انتهى هوج قائلاً، وقلبه يدق بشدة: اتركنا!

بدا كلوڤيس حذراً، ثم تقهقر إلى الوراء. لم تتمكن عيناه من تمييز ملامح وجه الشبح، وظل ممسكًا بالخنجر فى يده. ما إن خرج حتى جلس وراح ينظر للقمر. داخل الخيمة، سمع همسات، لكنه لم يتمكن من تمييز الكلمات. غالبه النعاس فاستلقى، ممدداً على المعطف الذى كان يستخدمه كفراش أيضاً. هو أيضاً راح يحلم بأجات.

خرج هوج بدوره هو الآخر من الخيمة، ساحبًا فى يده الفتاة الشابة. كان يريد أن يراها فى ضوء القمر الذى كان بدرًا مكتملاً بشكل رائع. استسلمت له أجات، وتركته يطالعها. كانت يدها ما زالت فى قبضة يد هوج الذى كان يشد عليه، وهو فى أشد الحاجة لهذا الاتصال الجسدى، كى يصدق وجودها الحقيقى.

- إذن ها أنت فعلاً. قال لها هوج بعد لحظات طويلة من التأمل، ثم سألها: ولكن ما الذى تفعلينه هنا؟

- أنت حقًا غريب! ردت أجات بطريقة غامضة، قبل أن تعود مرة أخرى داخل الخيمة، ثم أضافت: الأحرى بك أن تمارس معى الحب، فأنا فى أشد الاحتياج إلى ذلك!

ألقت أجات بنفسها بين ذراعيه... فلماذا يقاوم إذن؟ لقد كان يرغبها بشدة هو الآخر. أحاط بذراعيه الجسد، الذى طالما عشقه وحلم به، وكانت شهوته كبيرة بقدر ذكرياته وانتظاره لها.

فى الخارج، ومن بعيد، وقف على بن فيروز يراقب المشهد بلا حراك، وقبضتا يديه مطبقتان إلى درجة جعلت أظافره تكاد تخترق جلد راحتيه. فى الليلة الماضية، قادته أجات بالفعل، ودون أن يعلم، إلى هذه الخيمة البنفسجية.

- ملعون أنت أيها الفرنجى القذر! غمغم على، ثم بصق على الأرض قبل أن يعود إلى مخيمه.

عندما استيقظ كلوڤيس فى الصباح، سرعان ما تذكر الأحداث التى وقعت ليلة أمس. تردد قبل أن يدخل إلى خيمة هوج، ثم قرر أن يدخل فى النهاية. وجد سيده جالسًا على المقعد الخشبى الصغير، وهو قطعة الأثاث الوحيدة الموجودة داخل الخيمة. نظر إليه بسرعة... كان وحده.

- هيا يا كلوڤيس... سوف نذهب لنتحمم فى البحر، قال له هوج، وهو يرشق سيفه الجميل، الذى أهدته إياه الأميرة آن فى حزامه، ثم أضاف: اذهب لاستدعاء چيفروا! فسوف يأتى معنا.

بعد لحظات لاحقة كان چيفروا، تابع هوج أمامه. أشار له هوج أن يتبعه دون أن يوجه له أى كلام. سرعان ما كانوا ثلاثتهم، هوج وكلوڤيس وچيفروا، يعبرون على خيولهم فى خفة حدود المخيم، ثم زادوا من سرعة خيولهم. لمحهم إبل دى سوج، ووراءهم سحابة من الغبار راحت تتلاشى تدريجيًا عن مرمى نظره. واقفة فى ظل شجرة زيتون، راقبتهم أجات هى الأخرى بعينين قلقتين. بالقرب منها، كان روبير يقف هو الآخر منهمكًا، فى رسم وجه القديسة مارى، مُحيطًا رقبتها بقلادة من تلك القلادات الضخمة، تشبه ياقة عالية من الذهب، تطابق اللائى طالما أثاروا إعجابه وبهره فى ملابس النساء بمدينة القسطنطينية.

- أنا لم أرك من قبل قط! قال روبير لأجات بعد أن جذبت انتباهه ضفائرها البنية المنسدلة على ردائها الحريرى الأحمر الطويل.

– لقد وصلت مع مبعوث الإمبراطور، وسوف أغادر معه. قالت له أجات ببساطة.

لم يلحظ روبير أن عينيها كانتا محتقنتين وأن دموعها كانت تلمع بين رموشها الطويلة.

– يا للخسارة! كنت ستصبحين قديسة جميلة. هكذا قال لها روبير، وهو يحرك بمهارة قطعة الفحم الصغيرة المستقطعة من الأشجار، والتى كان يرسم بها فى خطوط واسعة رداء السيدة العذراء.

– كما أن لدى طفلاً ليحل محل يسوع. قالت له أجات، وهى تبتسم قبل أن تغادر ثم أضافت: أنا أعلم أنك تعرف جيداً اللورد هوج دو روامون وچيفروا... فلتنقل لهم تحياتى ووداعى.

راح روبير يراقبها، وهى تمشى ببطء وبلا مبالاة بين أشجار الزيتون، وقد أمسكت بين يديها بفرع صغير من الأشجار، به أوراق مفضضة، بينما راحت أردافها تتمايل مع مشيتها فى حركة متناغمة تابعها روبير إلى أقصى ما استطاع بصره.

– ألا تريدين البقاء؟ صاح بها روبير، ولكنها لم تسمعه، فقد كانت قد ابتعدت كثيراً.

كانت المياه منعشة... رغم أنه لم تكن هناك نسمة هواء، مما يدل على أن النهار سيكون ساخناً. تكسرت الأمواج بوداعة ورقة على الرمال. راح الرجال الثلاثة يسبحون بمرح، ولكن چيفروا كان قلقاً. فهو لم ير أجات مجدداً، كما أن هوج يبدو صارماً وشارد الذهن.

– چيفروا... أخيراً وجه هوج إليه الكلام، وهو كان يرتدى سترته الثانية القصيرة، فى حين كان كلوڤيس يناوله بنطاله، تابع: لا بد أن نتحدث... لقد أخبرتنى أجات بكل شىء... لقد كنت كاذباً بارعاً!

رغم أن هوج بدا هادئًا جداً، فإن نبرة صوته ارتفعت فجأة. قرر چيفروا أن يتخذ موقف مَنْ يطلب المغفرة.

– سيدى اللورد... ألن تغفر لنا أبداً؟

– لقد كنت مهووسًا بهذه المرأة، حتى إننى كنت قادراً على التخلى عن عهدى بالذهاب إلى القدس... وكنت سأضحى بجيوش الله من أجلها. هكذا صرح هوج، دون أن يرد على سؤال تابعه الشاب.

ومع هذا، فقد التقت عينا هوج الرماديتان دون أن تحملا أى عداء بعينى چيفروا الزرقاوين كما البحر.

– سوف أكون موجزاً معك... تابع هوج: لقد أصبحت امرأتك، وإذا كانت قد منحتنى جسدها بالأمس والليلة قبل أمس، فقد ضاجعتها وأنا أجهل كل ذلك، أما أنت، فكنت تعرف كل شىء...

– هل تريدنا أن نضع أنفسنا أمام حكم الله؟ سأله چيفروا، وقد انبهر بأسلوب هوج المتقن.

فى الواقع لم يختلج چيفروا، عندما صرح له هوج بأن أجات قد عاشرته فى الليلة السابقة... بالطبع أن هذا يؤلم مشاعره، رغم أنه كان مستعداً لهذا الاحتمال، الذى كان يعلم أنه لا مفر منه.

– لا تقاطعنى! رد هوج بلهجة آمرة، ذكرت چيفروا بسيده اللورد أثناء مراسم تعميده فارساً.

– سوف تتزوجها... لا بد أن يجد أموند الصغير أبًا له... سوف يقوم الكنسى أجويلير بمباركتكما، وسأتولى أنا مسئولية ذلك.

– وإذا لم ترغب، هى فى ذلك؟

– سوف ترغب... لا بد ألا تنسى أنها ما زالت فى خدمتى! لقد أعتقت شقيقها جيرن، وأعطيته حريته.

– ولكنها تحبك أنت. قال چيفروا، وهو يشكك من جديد فى أساس قرار هوج.

– سوف تتزوجك! سوف آمرها بذلك... ولن تكون أول امرأة تتزوج، وهى تحب رجلاً آخر.

قال هوج ذلك، وهو يلوح بيد فى لفتة مصيرية فى اتجاه البحر الذى كان لا يزال هادئًا للغاية.

– إذا كنت واثقًا إلى هذه الدرجة، من أنها تحبنى، فلماذا خنتنى إذن؟ سأله هوج، وهو يفسح لچيفروا أخيراً مجالاً للرد، ولكنه سرعان ما تجاهل هذا العرض، وهو يتوجه إلى فرسه دون أن يتوقع أو يأبه بالرد.

وضع هوج قدمه على الركاب المعدنى، ثم أردف قائلاً :

– بعد وفاة مارى، أخذت عهداً على نفسى بالابتعاد عن أجات... وقد كدت أفعل... إن الحج إلى القدس، لن يكون كافياً لغسل ذنوبى!

امتطى هوج فرسه بخفة، وجلس على السرج المصنوع من الجلد الخام المتمشى لونه بانسجام وأناقة مع لون جلد فرسه الأميرة الحسناء. استقر هوج على السرج منتصب الظهر، ثم لكز الركاب اللامع، ففزت فرسه بحماس إلى الأمام، يتبعه كلوڤيس الذى ضرب جواده هو الآخر ببعض ضربات من سوطه المتسلط. راح چيفروا يتأملهما وهما يبتعدان، بينما جلس على الرمال الفاتحة اللون. لم يكن يعرف إذا كان سعيداً أم تعيساً.

هدهدت رتابة الأمواج أشجانه ووحشته. توافق إيقاع ضجيج تكسرها على الرمال موجة تلى الأخرى فى تدفق مطرد ومرتد مع أفكاره المشوشة. راح يداعب الرمال بلا كلل، فأخذت تتسرب حبيباتها بين أصابعه، مما أعطاه ذلك شعوراً بالخلود. لم يعر أى انتباه لتحليق طيور النورس المستثارة من فوقه، ولا الغاقات، تلك الطيور السوداء التى راحت تطلق صرخاتها، وهى تحلق مقتربة من صفحة المياه، قبل أن تستأنف رحلاتها إلى أماكن أخرى.

راح جواد چيفروا يصهل بشكل غاضب ومتزايد، حتى أخرجه فى النهاية من استغراقه، والتى زادها حدة أشعة شمس الظهيرة، ذات الحرارة الملتهبة. كان جواده الجميل يقفز ويرفص بساقيه الخلفيتين فى تفاخر، وهو ما لم يكن چيفروا معتاداً عليه. بدا چيفروا مندهشاً من رد فعل جواده هذا، فامتطاه، وراح يركض به على طول الشاطئ فى الاتجاه

الذى سلكه هوج. عندما وصل إلى جواره، فهم سبب استثارة جواده. لم يذهب هوج بعيداً. كان هناك كمين قد تم إعداده له. لقد حاصره أربعة رجال هو وخادمه كلوقيس، وقد راح كلٌّ منهما يحرك سيفه فى الهواء على غير هدى.

أسرع چيفروا ناحيتهما، حيث كان، مثله مثل هوج، بلا خوذة أو درع ؛ وأشهر سيفه فى الهواء ، وفاجأ اثنين من الرجال الأربعة حيث كانا يقفان وظهرهما إلى الشاطئ. تلقى أحدهما ضربة قوية فى كتفه، تهاوى ساقطًا على إثرها وقد تدفق الدم على ردائه. تواجه الآخر مع چيفروا بعد أن تفادى ببراعة شفرة سيفه، الذى كاد يضربه به على رأسه. من فرط قوة اندفاع المهاجم، انغرس سيفه فى جذع شجرة زيتون وظل معلقًا به. استدار الرجل مذعوراً، حيث لم يعد لديه سلاح يحميه إلا الدرع التى يرتديها. انزلقت شفرة سيف چيفروا من على درع مهاجمه المستطيل والتى صبغها باللون الأحمر، يتقاطع معه اللون الذهبى. اختل توازنه، فتقهقر مرتمياً إلى الشجرة، التى انغرس فى جذعها سيفه، فاستند عليه عند مستوى صدره. أصبح تحت رحمة چيفروا. ترامت إلى مسامعه فى الخلف أصوات المعركة الدائرة بين هوج وكلوقيس ضد عدويهما. كما لو كانوا على وتيرة واحدة، راح وقع الرنين المعدنى للسيوف يرد على أصوات الدروع. ثم فجأة سُمع صوت تأوه، يليه استرحام. سقط عند أقدام چيفروا أحد الرجلين اللذين كانا يتصارعان مع هوج وكلوقيس، وفى جانبه جرح كبير وسيفه إلى جواره.

تعرف چيفروا عليه، فهو بازيل. قبع هوج فوقه، وقد لامس طرف سيفه المدبب رقبة الرجل إلى درجة قصوى من الألم.

– الرحمة! غمغم الرجل، وهو يصارع حشرجة الموت، قبل أن تنفصل رأسه بضربة سيف قوية وقصيرة، ثم تدلت فجأة على كتفه.

غاب مهاجم چيفروا للحظة عن ناظره، تمكن خلالها أن يفلت من مكانه المُحاصر، وأن يلتقط السيف المُلقى على الأرض، ليواجهه به مرة أخرى. ولكن هوج كان أسرع منه فاستطاع أن يمنع الضربة القاتلة التى كان الرجل على وشك أن يسددها فى ظهر چيفروا. هكذا وجد الرجل نفسه مرة أخرى من دون سلاح، كما أنه كان قد فقد درعه التى كان يرتديها.

– سيدى... لقد مات!

هكذا قال كلوڤيس لهوج، بعد أن قضى على منافسه الذى سقط على الرمال، غارقًا فى دمائه.

– وهذا أيضًا!

بعد لحظة من التردد، استجمع فيها هوج قواه، وقضى على مهاجمهم الأخير.

– والآن الأمر بينى وبينك يا إيزيدورو! هتف هوج، وهو يقفز ممتطيًا فرسه، الأميرة الحسناء، ثم أكمل: ولتذهب للجحيم قصصنا مع النساء!

بعد ذلك بلحظة، ذهل كلٌّ من چيفروا وكلوڤيس، وهما يراقبان هوج وقد استدار عائداً إلى موقع القتال، ثم قفز من على فرسه وأشهر سيفه، وضرب به على جثة أحد الرجال الأربعة الممددين على الرمال، وأخيراً أمسك برأس أحدهم من شعره، وراح يلوح بها. تعرف چيفروا على الرأس، كانت لبازيل.

تفاجأ چيفروا من أسلوب هوج المنتصر هذا، وتذكر اعتراض أجات وتوبيخها له، عندما كانا عند أبواب مدينة أنطاكية، وكان هو يلهو بقذف رؤوس الكفار إلى ما وراء الجدران باستخدام المقاليع.

– لم يكن هوج ليفعل شيئًا من هذا القبيل أبداً. كانت أجات تقول له ذلك بثقة.



١٩

شاهد حراس المخيم ثلاثة رجال على خيولهم، مقبلين على عجالة، بينما يتدلى رأس رجل مقطوع تسيل منه الدماء، وهو معلق فى سرج جواد أحدهم. كان هذا المشهد ليس بجديد عليهم. ولكن الكنسى ريمون دى أجويلير، لم يقبل أبداً مثل هذه الأعمال الوحشية، ولهذا عندما رمى به هوج على الأرض فتدحرج أمام أقدام الكونت دى تولوز، الذى كان يتحدث إليه، أصيب الكنسى بالغثيان، وهتف قائلاً:

– بحق القديس ساتورنان، من أين أنت آت يا هوج؟

– ألم تتعرف عليه؟ إنه بازيل، رفيق إيزيدورو الملعون؟ لقد أراد قتلى... كانوا أربعة رجال... لهذا فأنا أطالب بأحقيتى فى التقاتل مع هذا الرجل.

– سيكون ذلك أمراً صعباً... لقد رحل، عائداً. رد بهدوء الكونت ريمون دى تولوز.

– لا بد أنه ليس بعيداً عن هنا... اسمح لى إذن باللحاق به!

– كلا! إن الفرسان الفرنچة لديهم ما هو أهم من التقاتل من أجل حكايات عشيقاتهم.

- سوف أقتله... لقد أقسمت على ذلك.

مد هوج يده أمامه، وهو يقسم.

- إن الكراهية مشاعر بغيضة، وليست من الشيم النبيلة لفارس من فرسان جيوش الله. همس الكنسي.

كان هوج قد انصرف مبتعداً، وعندما وصل أمام خيمته، التقى روبير.

- امرأة شابة جميلة جداً ذات ضفائر سوداء، مثال للقديسة مارى، طلبت منى أن أقول لك، وداعًا أنت وچيفروا. لقد ظهرت بشكل غامض للغاية، ثم رحلت مع فرقة مبعوثى الإمبراطور.

تبادل هوج وچيفروا النظرات. هل وقع روبير هو الآخر فى غرام أجات؟

- أجات! همس چيفروا، وقد بدا غير مصدق.

شعر هوج تقريبًا بالارتياح. فالموقف الذى فرضه على تابعه الشاب، چيفروا، كان من الممكن أن يكون بمثابة اختبار، لم يكن متأكداً أنه هو نفسه سيستطيع أن يتحمله. لقد حل رحيل أجات المشكلة. وإذا كان سيستشعر من جديد ذلك الإحساس بالفراغ، مثل الذى مر به قبل مغادرة روامون مباشرة، فسوف يتمسك الآن وأكثر من أى وقت مضى بهدفه، الذى أصبح وشيكًا من القدس.

– الله المعين! هتف هوج، وهو يوجه نظره لأعلى، حيث حلقت بعض طيور النورس فى السماء الصافية.

راح اسم المدينة المقدسة يتردد على كل لسان، فقد بات الرحيل وشيكًا. ولكن قبل أن يحدث ذلك، حدث ما أخر رحيلهم، مع وصول وفد جديد.

– بعد ألكسيس المخادع، ها هم الكفار. هكذا علق جودفروا دى بويون، وهو يراقب موكب الجمال القادم فى سلام بألوانه المتعددة، والتى دلت ظهورهم العالية على أحمالهم الثقيلة.

إن حاكم القاهرة، الأمير الأفضل، الذى كان قد احتل مدينة القدس وطرد الأتراك منها فى الصيف الماضى، وقد تتبع وصول الفرنچة بتوجس وقلق. لقد حان الوقت بما فى الكفاية لإجراء محادثات معهم. أراد الأمير تدعيم محادثاته هذه مع الفرنچة بالهدايا، التى ولا شك سيكون لها أثر كبير عليهم، بعدما عُرف عنهم جشعهم الذى لا يقل شدة عن ضراوتهم فى القتال.

تقدم الموكب ببطء، تصاحبه نغمات آلة الربابة، التى راحت أوتارها تُحدث رنينًا تحت ضغط الأوتار الرقيقة، يرافقها قرع الطبول الأصم بواسطة أصابع رشيقة متمرنة.

انسجم الفرنچة مع هذه الألحان الشرقية التى جعلتهم فى حالة حالمة، وهم يكتشفون تلك الهدايا الثمينة التى راح مبعوثو الأمير يحل أربطتها أمامهم بفن وحنكة.

– ها هو قماش المستعلى بالله[1]. هكذا قال مالك، قائد المبعوثين، وهو يبتسم ابتسامة مبهجة، وقد بدت عليه مهارات تاجر فى السوق.

وحتى يُبقى المتفرجين مبهورى الأنفس، راح مالك الماكر يفرط ثوبًا من الحرير الرائع مطرز بطوسان متشابكة أمام الفرسان الذين ما يلبثون أن ينتهوا من انبهارهم واندهاشهم، حتى يسترعى انتباههم أعجوبة أخرى من تلك العجائب الرائعة.

– وهذه قطعة قماش نادرة من نوعية التيراز، مصنوعة من الكتان والحرير، وقد صُممت خصيصًا لنفس الخليفة (المستعلى بالله). هكذا قال مالك، متباهيًا وقد لمعت عيناه المستديرتان مثل حجر العقيق.

تلقى الكونت ريمون دى تولوز قرطًا هدية لزوجته، على شكل هلال من الذهب المضفر. لمعت عينا جودفروا دى بويون أمام تماثيل غزلان الأيل المصنوعة من البرونز، والتى بدت حقيقية، حتى إنه كان على وشك أن يرشقها برمحه، متخيلاً نفسه، وقد عاد إلى غابات بلاده الكثيفة. لكم كان سعيدًا فى اليوم الذى لمح فيه تلك الطيور البيضاء الغريبة ذات المنقار الأحمر، محلقة فى سماء زرقاء داكنة فى ليلة من ليالى فصل الربيع، والتى اعتبرها طيور اللقالق، فهتف قائلاً:

– إنهم ذاهبون إلى بلادى!

---

(١) فى هذا الوقت كانت أثواب القماش تحمل أسماء الحكام – أحدهم هو المستعلى بالله، خليفة مصر الفاطمى (١٠٩٤-١١٠١)؛ مثل هذا القماش موجود فى كنز كاتدرائية القديس سرنين فى مدينة تولوز بفرنسا.

ولكن أشياء أخرى عديدة، مازالت تخرج من أكياس جلدية لا تنتهى، معلقة فى أسنام الجمال. فها هى مشغولات من الزجاج والسيراميك والمجوهرات والأسلحة، تشكل بضائع أخرى لا حصر لها. لكم كان لمالك هذا من الأساليب المغرية!

– لا يمكننا قبول هذه الهدايا دون معرفة الأسباب والدوافع التى وراءها. مع ذلك قال جودفروا ببرود، بعد أن انبهر أنبهار طفل بكل تلك الهدايا الثمينة، وهو يلهو بكأس بين أصابعه مُزينة بنسر وأسد ناوله لتوه إياها مالك العربى بابتسامة مرحبة.

عقد مالك حاجبيه عابسًا؛ وفجأة توقف السحر المتدفق عبر هداياه وأشيائه الباذخة التى جلبها من جماله.

– بحق القديس ساتورنين، بالأحرى بك أن تقول لنا ما الذى يريده سيدك. قال له الكونت ريمون دى تولوز بدوره، وهو يعيد إليه الأقراط.

تقدم عمر مقتربًا منهم بعظمة... لم يكن تاجر سوق مثل مالك. كانت بشرته أكثر سمارًا من بشرة مالك، بينما دل سمك وارتفاع عمامته البيضاء، التى لُفت بأناقة فوق شعره الكثيف المجعد، على رتبته الكبيرة وأهميته.

فى يده اليسرى الموضوعة على صدره وضع خاتمًا كبيرًا يزينه فص حجر نفيس أزرق، ثم انحنى بكل احترام، وبدأ كلمته بتوجيه الشكر إلى حسن استضافة الفرنچة لهم. تحرك جودفروا فى مكانه، وقد تشبثت يده

أكثر من أى وقت مضى بسيفه، كما لو كان يذكر نفسه بأنه جاء إلى هذا المكان للحرب، وليس للنقاش مع العدو. بالقرب منه، جلس تانكريد وهو يضع ساقًا على ساق، وراح يهز إحداهما بعصبية شديدة.

– سيدى، إن مولاى القائد العام الأمير الأفضل، سوف يحترم حرية عبادتكم فى المدينة المقدسة. جميع الحجاج الراغبون فى ذلك سيستطيعون زيارة المدينة بشرط ألا يكونوا مسلحين.

كان رد الفعل فوريًا وبالإجماع. أطاح الفرسان بجميع الهدايا، وهتفوا قائلين:

– نحن ذاهبون جميعًا ومعًا إلى القدس من أجل المعركة، ورماحنا مرفوعة إلى أعلى!

– إنها مشيئة الرب!

لوح كلٌّ من عمر ومالك فى لفتة حتمية. يبدو أن كل شىء قد قيل، ولكن عمر انحنى مرة أخرى أمام جودفروا، الذى راح يحدجه بخيلاء وغضب.

– هل أستطيع أن أطلب منكم شيئًا... سأله الرجل العربى بتواضع.

– يمكنك! رد عليه جودفروا، وقد خفت حدة غضبه.

– إذا أحضرت لك جملاً، هل تستطيع أن تقطع رقبته بضربة واحدة من سيفك؟ هذا هو ما يتحدثون عنه فى الصحراء.

- نعم... إذا ما رغبت. قال جودفروا بهدوء

أشار عمر بيده واقترب جودفروا من الجمل الذى قاده له أحد العبيد. أشهر سيفه فى الهواء ونزل بقوة على رقبة الجمل، فتدفق منه الدم وسقطت رقبته، متدحرجة على الرمال.

انحنى عمر مرة أخرى، ويده على صدره، فلمع الحجر الكريم فى فص خاتم إصبعه.

- لقد قمت بذلك، كما لو كنت تذبح أوزة... إن مولاى الأمير كان على حق فى رغبته أن يكون صديقك.

تهادى موكب الجمال، راحلاً بالفعل، محملاً بكنوزه مرة أخرى، بينما راح حراس المخيم يراقبونه لفترة طويلة، مبتعداً ببطء فى اتجاه الأفق.

وصلت سارة قبل رحيل جيوش الحملة بساعات قليلة. ناولت چيفروا بين ذراعيه طفله الأشقر، الذى بدا مثل كرة صغيرة تلتف حولها بإحكام لفائف من الكتان الأبيض. هذه الهدية الصغيرة المعوقة، كانت آخر ما تبقى له من أجات. ولكن عندما، رفعه فى الهواء على أطراف يديه، مقلداً والده بهذه الحركة التى كان أحياناً يقوم بها مع إخوانه وأخواته الصغار، كانت دهشته كبيرة، عندما اكتشف والدته وراء الطفل.

تقدمت أجات منه بسرعة، ووراءها على، الذى كان هناك أيضاً.

قالت أجات لچيفروا:

– عندما رأيت أموند يبتعد بين ذراعى سارة ربما إلى الأبد، لم أستطع أن أتخلى عنه... ولهذا بقيت.

كانت أجات قد التقت سارة فى مدينة طرطوس، حيث خيم إيزيدورو هناك لليلة مع فرقته.

– كما أن على بن فيروز، لم يرغب فى تركى وحدى. أضافت أجات التى تجاوزت قامتها تقريبًا رأس الفتى التركى.

– سوف نستطيع أن نلعب الزهر معًا. قال له چيفروا تقريبًا بمرح، وهو لا يزال يحمل أموند الصغير بين ذراعيه.

– وأنا الذى سوف يفوز. رد عليه على ببرود، وهو يثبت عينيه الداكنتين الغاضبتين فى عينى چيفروا الزرقاوين الفاتحتين.

ازدادت عيناه قتامة، عندما لمح هوج بعد ذلك بلحظات قليلة. كان هوج مارًا خلال الممر الضيق، الذى يحد الخيام، عندما توقف فجأة لرؤيته أجات أمامه. تأملها من جديد تحت الشمس الساطعة، كما تقابل معها فى مخيم إيزيدورو. ألن تكف أبدًا عن الظهور والاختفاء من حياته؟

– هنا أنا قد عدت. قالت له أجات بهدوء، قبل أن تضيف: وكما هى رغبتك، سوف أتزوج من چيفروا.

تململ على ابن فيروز فى وقفته، من العصبية، وراح يتحسس خنجره الصغير الذى خبأه ملاصقًا لجسده، تحت درعه الصدرية. كانت يده متشبثة بالقوس الملتصق على جانب صدره. على ظهره برزت

السهام الشائكة، مدببة وعريضة، فبدا شكلها عدوانياً. جال بنظره على أجات، حتى توقفت عيناه على القلادة التى اشتراها لها فى سوق طرطوس، وأهداها فى صباح اليوم ذاته، والتى قبلتها بابتسامة مشرقة، حتى إن على اعتقد فى تلك اللحظة أنها أصبحت ملكه. أما الآن فهذان الرجلان على وشك أن يحولا حياته إلى جحيم.

- وهذا هو ما أريده فعلاً. رد عليها هوج دون أن يفكر

- بل سأذهب فى التو واللحظة لأبلغ الكنسى، كى يزوجكما على الفور. أضاف هوج الذى أخذ على بن فيروز، يطالعه مشدوهاً بشكل مصيرى، وراقبه وهو يبتعد.

كان هوج فى قمة ارتباكه، ووجد صعوبة فى السيطرة على مشاعره، حتى إنه تعثر عدة مرات، وهو فى الطريق الضيق المؤدى إلى الكنسى ريمون دى أجويلير. عندما وصل هوج فى الكشك الصغير الواقع بين شجرتى زيتون، حيث اعتاد الكنسى أن يجلس هناك للكتابة أو لتلاوة صلواته، فى هذه اللحظة وجد هوج صعوبة بالغة فى إخفاء تأثره.

وعلى الرغم من ذلك، لم يلحظ انزعاج هوج هذا، بل ضايقه خبر هذا الزواج المتعجل.

- زواج؟ نقيم مراسم زواج اليوم ونحن فى عشية رحيلنا؟ راح الكنسى يردد، وهو يهز رأسه بتعجب، وقد بدا على وجهه تجهم المتشككين قبل أن يسأل: ألا يمكن تأجيل ذلك؟

– كلا أيها الكنسى! أليس ذلك حدثًا سعيدًا؟

– أجل. وافقه ريمون ثم أكمل: ولكن بحق القديس ميشيل، ألا يمكننا أن نصبر قليلاً حتى نصل القدس.

– كلا!

استعاد هوج هدوءه. كان الكنسى يتحسس بين أصابعه بعصبية مطواة صغيرة، يستخدمها هى ومكشطة فى تصحيح ما يكتبه، فأذعن فى نهاية الأمر أمام تصميم الفارس هوج، وقال له:

– حسنًا، فلتأتوا لى بالخطيبين والشهود! ولكن هل هما مخطوبان؟

– وما أدرانى! سوف سنقوم على الفور بعقد الزواج بناءً على هذه الكلمات!

بعد ساعة لاحقة، كان چيفروا وأجات جالسين أمام الكنسى. من خلفهما وقف الشهود، هوج والكونتيسة إلڤير التى أختارت بعناية من بين كنوز الكونت ريمون، خاتمين ثمينين وضعتهما بنفسها على قطعة من القماش الأبيض فى وسط المذبح المقام على حاملين مهتزين.

ارتدى الكنسى سترة من الكتان الخفيف، تزينها شرائط أرجوانية، وفوقها الدلمطيق، وهو ثوب كهنوتى أصفر، تزينه فى الصدارة أنواط فاتحة، بينما طُرز من أسفل على شكل خط. أما الوشاح الذى يلفه حول رقبته وفى نهاية الأكمام، فكان من اللون البنفسجى.

حضر بعض الصليبيين مراسم الزفاف، ومن بينهم روبير الذى لم يكن قد أفاق بعد، من هول المفاجأة. كيف تمكن چيفروا من الزواج بهذه القديسة، التى ظهرت فقط منذ أيام قليلة سابقة؟ إذا كان إبل دى سوج قد وجد عروسًا جميلة جدًا هو الآخر، فقد ظل تابعا هوج: فلوبر وراؤول فى حيرة من أمر تلك الخادمة الصغيرة التى كانت تعمل فى مزرعة روامون، وفجأة أصبحت فى فلسطين. وكذلك بدت الحالة المزاجية لهوج لا تشجعهم على طرح أسئلة عليه، وهذه الحالة لم تسترع انتباه الكنسى، الذى كان منهمكًا فى تأدية طقوسه. لم تفارق عينا هوج دى روامون العروس التى كانت ترتدى رداءً أرجوانى اللون ذا وسط عال جدًا، مما أظهر قوامها المتفاخر. بالقرب منه، كانت الكونتيسة إلڤير فى حالة خشوع تام، ترتدى ثوبًا أزرق مطرزًا بالذهب، تصلى، ويداها متشابكتان. وعندما تناول چيفروا الخاتم، سرت قشعريرة فى جسد هوج، رغم حرارة الجو.

– بهذا الخاتم... أتزوجك.

نطق چيفروا هذه العبارة بصوت صارم، وقد ارتدى السترة البنفسجية نفسها، التى كان قد ارتداها فى حفل تعميده فارسًا. كرر هوج فى سره، وكأنه يحل محل چيفروا العبارة السحرية نفسها، والتى كان يتمنى أن يرددها بصوت عال. ولكن عندما جاء الدور على أجات شعر هوج بحرارة شديدة على جبهته، بينما تشبثت يده بمقبض سيفه، حتى لا يُظهر ارتجافها. مع ذلك كان صوت أجات مترددًا. فأمام نظرة

چيفروا الملحة القلقة، بدت أجات شاحبة جداً، ورغم كل شىء نجحت فى نطق الصيغة حتى نهايتها. هكذا قيل كل شىء... بعدها لم يعد هوج يستمع بتركيز إلى ما كان الكنسى يلقيه من كلمات السر المقدس بجدية، بل راح يهيم بنظراته. هبت نسمة هواء طفيفة، حركت القمم المخروطية لشجر الأرز، والتى شكلت فيما يشبه خطًا فى اتجاه البحر.

- هوج! بماذا أنت هائما؟

شعر بيد رقيقة توضع فوق يده. كانت هذه هى يد إلڤير، التى راحت تنظر إليه بعينيها الملائكيتين. راحا قرطا أذنيها يترنحان ببطء، وهما بشكل مضفر رقيق، تزينهما أجنحة نسرين محلقين، ينزل منهما شكل بيضاوى منمق.

- إلى أين ذهب بك التفكير؟ لقد تزوجا!

- نعم... تزوجا. هكذا كرر هوج.

لقد تزوجت أجات. فيما يشبه الغيم، تبادل هوج مع الكونتيسة لمسة حانية من أطراف الأصابع، وطدت إلى حد ما تذكار رابطة الصداقة بينهما. هذا الحدث الذى ودّ لو أن ينساه بالفعل!

راح أموند الصغير، يبكى بين ذراعى سارة، مما شتت من تركيز الكنسى ريمون، فتلعثم فى كلمة من الصلاة التى كان يتلوها رغم دقته المعتادة. أثار ذلك ضحك إبل دى سوج، فراح يبتسم إلى كلٍّ من سارة وروبير.

فى وقت لاحق، وحتى لا ينسى الكنسى ريمون دى أجويلير أى طقس من طقوس الزواج، فقد ذهب إلى خيمة چيفروا، ليبارك العروسين. فى تلك الأثناء، كان هوج منطلقًا إلى أبعد ما يمكن عن المخيم على فرسه التى راحت ترمح به بجنون، حتى وصلت به إلى شاطئ البحر. كان سيهدأ لو كان عرف أن أجات قد صدت چيفروا، عندما قالت له ما إن انفرد بها:

- لم أكن لأتزوجك أبدًا. هكذا قالت أجات بالضراوة نفسها التى عهدها منها چيفروا، حتى إنها أصبحت محببة إلى قلبه كثيرًا، قبل أن تضيف: لقد تزوجت منك، حيث إن هذه هى رغبة هوج، ولكننى سأظل دائما وأبدًا زوجته، مهما حدث.

كان العريس الشاب چيفروا قد قدم فقط لأجات سوارًا من الفضة على شكل أوراق شجر منقوشة بأسلوب منمق، كان قد وجدها بالمصادفة داخل منزل فى بلدة معرة النعمان بسوريا. بعد ذلك خرج وأمضى ليلته خارج خيمتها، وهو يغلى من الغضب. تسلل على بن فيروز بخفة، مقتربًا منه، وقال له:

- هل تريد أن تلعب معى شوطًا من لعبة الزهر[1]؟ هكذا عرض عليه، وهو يحرك أمام عينيه قطع الزهر المصنوعة من العاج المصفر.

- ولِمَ لا؟ رد عليه چيفروا.

---

(١) الزهر: هذه الكلمة التى اقتبسها الفرنجة من العرب، ليس فقط لمسمى اللعبة نفسها، ولكن أيضًا لكلمة (le hasard) بمعنى المصادفة.

ظلت أجات تسمع طقطقة قطع الزهر طوال الليل، يصاحبها أحيانًا صياح الشابين أثناء اللعب. بعد ذلك اختفت أصواتهما، وساد الصمت على أعتاب الخيمة. هكذا عاد على إلى خيمته، وهو سعيد، فقد فاز على چيفروا الذى منحه قطعة نقود ذهبية، حيث إنه لاعب جيد. كان چيفروا يجهل أن على قد أخذ عهداً على نفسه بأن يمتلك أجات إذا ما أتت نتيجة المباراة فى صالحه... وبهذا الفأل السعيد، تبدى له أن هذين الفارسين الفرنچيين لم يعدا يشكلان أى عقبات مستعصية أمامه. حتماً سيجد وسيلة ما... هكذا قال لنفسه، وهو يخلد للنوم، بينما وضع يده على الخنجر الصغير الذى أعطاه إياه أبوه عشية رحيله.

- الله أكبر! همس على، قبل أن يستغرقه النوم، حيث داعبته أحلام رائعة، منحت فيها أجات نفسها له أخيراً.

بالقرب منه كان يضع قوسه وبعض السهام.

بدأت الجيوش الصليبية فى التحرك، وذلك فى اليوم الموافق الحادى عشر من شهر مايو ١٠٩٩ . على الطريق سمع الصليبون هتافات سكان بلدة عرقا المبتهجة من فوق أسوارها. فقد راحوا يراقبون بفرحة رحيل محاصريهم. حتى إن البعض منهم من فرط سعادته، كان يلقى بعمامته لتسقط متبعثرة تحتهم ببضع أقدام، وكأنها بقع بيضاء بريئة على العشب المصفر. لم يأبه الفرنچة لهم بالمرة، فبلدة عرقا لم تعد مشكلتهم بعد الآن.

- إلى الأمام يا فرسان المسيح! صاح الكونت ريمون دى تولوز، مشهراً حربته التى راحت ترفرف على طرفها المدبب الراية البيضاء، يقطعها الصليب الأحمر، ثم صاح مجدداً: الله المعين!

بعد لحظات من التردد، سمع الفرنچة قائدهم، وهو يعطى أوامره.

- إنها مشيئة الرب! هكذا رد عليه جودفروا دى بويون وتانكريد المتحمس دائماً.

سُمع نفير الأبواق الطويلة بدورها، وكأنها تُعلن بسعادة بدء الرحيل، وانطلق كل فارس على جواده، رافعًا بدوره حربته، وهو يهتف "إنها مشيئة الرب". من الوراء تعالت هتافات عامة الشعب المنضم إلى جيوش الصليبيين، محُدثة صدى واسع النطاق.

- إلى القدس!

- وأخيراً القدس!

انضمت أجات إلى موكب الرحلة، ولكن هذه المرة فى واحدة من عربات مخصصة للنساء. لقد احتضنتها الكونتيسة إلڤير تحت حمايتها هى وسارة التى أبدت رغبتها فى مواصلة الرحلة معهم. لقد كان أموند تقريبًا فى عمر ابن إلڤير، ألفونس الصغير. امتطى على بن فيروز جواده، وسار بمحاذاة عربة النساء كما لو كان ظلهن. انتصب بظهره على سرج جواده، بحيث لا يفقد قدمًا واحداً من قامته القصيرة. كان ممتطيًا نشطًا، وقد تمشى جسده مع حصانه الفتى، المائل لونه إلى

اللون الأسود. تدلت من سرجه بعض الطبول الصغيرة، راح على يدق عليها، وهو يطلق صيحات مبتهجة. الجدير بالقول إن على كان الوحيد الذى يعرف كيف يرسم الابتسامة على شفتى أجات. لقد كان يفضل صحبة النساء، وهكذا عاش معهن فترة من معاناة الانتظار، عندما توقفت جيوش الصليبيين على مسافة ثلاثة أيام من مدينة طرابلس، والتى لم يستطع أميرها إلا أن يكون لطيفًا مع الفرنچة كى يجارى الأمور.

- ألن نرحل من هنا أبدًا؟ كان بعضهم يعصف، متسائلاً من الغضب.

- لسنا إلا على مسافة ثلاثة أيام فقط... بينما قريبًا ستمر ثلاثة أعوام تقريبًا على تركى والدى وموقع بناء كاتدرائية القديسة مارى الرئيسية! هكذا قال روبير متنهداً، وقد راح يرسم فى خطوط واسعة على قطعة مخطوطة فارسًا يرتدى درعًا صدرية من السلاسل المعدنية.

بعد أن تركوا مدينة طرابلس وراءهم، أصبح الشريط الساحلى ضيقًا وحادًا، وقد هيمنت عليه مرتفعات جبل لبنان. عندما أصبحوا على مسافة أربع ساعات من نهر الكلب، وجدوا وفدًا من الأهالى يقف فى انتظارهم على أبواب بيروت، ومعهم هدايا من الذهب والمؤن الغذائية وحتى بعض المرشدين، شريطةً ألاَّ يمسوا حصاد محاصيلهم الزراعية. تصالح قادة الفرنچة معهم، بل كانوا مسالمين، خاصةً أنهم كانوا متلهفين تحثهم قواتهم المتعطشة لاستكمال الرحلة، وهكذا واصلوا طريقهم فى اتجاه صيدا، ثم صور وعكا. ما زاد فقط هو أن قافلة الجيوش قد ازدادت ثراءً فأصبحت تحفل بالجمال، فاتخذت تدريجيًا

طابعًا شرقيًا، يختلف تمامًا عما كان عليه فى بداية رحلة موكب الفرسان الفرنچة الفخورين، فكان بدائيًا.

قبل يومان من بداية شهر يونيو، وبالتحديد فى التاسع والعشرين من مايو، وفى مدينة قيسارية، تم الاحتفال بعيد العنصرة فى قداس مهيب، أقامه الكنسى ريمون دى أجويلير مع الراهب أربر أمام حشد ضخم من الصليبيين، كما كان يحب الأسقف الراحل أديمار دى مونتيل.

- سوف تقودنا الروح الطاهرة إلى القدس.

- القدس! إنها مشيئة الرب! ردد الحشد بأعلى صوته.

- لو رآنا سيدنا المسيح الآن فلابد أنه سيكون راضيًا عنا. أضاف الكنسى، بينما ارتفع نفير الأبواق، مدويًا احتفالاً بالحدث.

فى الثانى من شهر يونيو، وعند مرتفعات مدينة يافا، اتخذ موكب جيوش الصليبيين الجانب الأيسر داخل الأراضى، مبتعداً بذلك عن الساحل. كان لون السماء باهتًا، والبحر رماديًا بشكل غير معتاد.

- لقد أصبحنا على مسيرة أربعة أيام من القدس. هكذا صرح المرشدون الذين قادوا موكبهم، بدءًا من بيروت. كانت الطبيعة تتغير من حولهم تدريجيًا، كلما اقتربوا من المدينة المقدسة. سلطت الشمس أشعتها الحارقة بشكل لا يرحم، وبدت تلال يهودا الرقيقة محمرة اللون، تحت وطأتها. وعند كل منعطف للطريق، كانوا يسرعون فى خطاهم،

على الرغم من إنهاكهم، أملاً فى رؤية مدينة القدس على مرمى البصر. ولكن توقعهم هذا دائمًا ما كان مخيبًا للآمال، على الأخص بالنسبة لهوج الذى لم يعد يطيق رؤية الزوجين الملعونين چيفروا وأجات فى كل توقف، كان الموكب يقوم به ليستأنف رحلته من جديد. لم تعد أجات توجه له أى كلام، حتى إنه كان يشعر فى بعض الأحيان بنظراتها إليه كالجمر، تحرقه على نار هادئة. فهل سيظل يعشقها هكذا كالمجنون إلى الأبد؟

– لا تشربوا!

هكذا صاحت امرأة، وهى تهرع أمام هوج، الذى كان على رأس مجموعة صغيرة غادروا فى الفجر لتفقد المكان. ففى تلك المنطقة القاحلة المليئة بالغبار، وجد الفرسان منحدراً عميقًا على هذه الطريق الضيقة، وكانوا على وشك الموت عطشًا. راح هوج يجول بناظره باحثًا، حتى وقعت عينه أخيراً على نبع ماء فى تجويف صغير أعلى الطريق، الذى امتلأ بتعرجات لا تنتهى. وبالفعل، جمع بين يديه رشفة من هذا السائل الثمين، الذى كان الجميع يحلم به منذ الصباح، ولكنه فوجئ عندما سمع صوت هذه المرأة، يصرخ فى اللحظة التى كادت فيها الماء تلامس شفتيه:

– لا تشربوا. كررت المرأة، ثم أضافت: انظروا!

من حولهم، تمددت العديد من الجثث بين الصخور.

– لقد ماتوا جميعًا! غمغمت المرأة، وهى تحتضن بين ذراعيها طفلاً وطفلة صغيرين.

سكب هوج فجأة رشفة الماء التى كانت فى راحتى كفيه، فسرعان ما تحولت إلى بقعة بنية، ما إن امتصتها الرمال. راح هوج ينظر إلى الطفلين... لا بد أنهما فى عمر لويس ومارى طفليه.

– لقد ألقى الكفار أعشاباً ضارة بها. فسرت له المرأة الشابة التى كشف وجهها الملطخ، عن ملامح رقيقة.

– لقد أنقذت حياتى. أجزم هوج، وهو يقترب من المرأة الملفعة بالثياب الرثة وسألها: من أنت؟

– أنا نصرانية من القدس. تعال!

تتبعها هوج، فلاحظ أنها كانت تعرج وقدماها تنزفان. انتهى الدرب الذى تغطى أرضه الحصى فجأة بهضبة صخرية صغيرة، فقالت له:

– انظر... ها هى القدس!

أغرورقت عينا هوج بالدموع، وراح قلبه يدق بشدة. فى حركة لا إرادية، وضع يده على كتف المرأة التى كانت تبتسم، وهتف قائلاً:

– القدس!

انضم إليه كلٌّ من چيفروا وروبير وإبل وفولبر وراؤول، وهتفوا جميعاً قائلين:

– القدس!

– القدس! فليكن الرب حليفنا!

قاموا برسم علامة الصليب على صدورهم، ثم ألقى كلٌّ منهم بنفسه، راكعًا على ركبتيه، وانحنوا مقبلين الأرض الرملية، فالتصقت بشفاههم الجافة. راح هوج ينظر إليهم. كانوا قد ألقوا بألجمة خيولهم حول أعناقها فى استراحة التوقف من عناء الرحلة، فإذا بها تصهل، متذمرة بعد أن هاجمتها حشرات تطن. ولكن هذا لم يهم الفرنچة الذين اتسعت أعينهم، وهم يحاولون التحديق لتمييز تفاصيل هذه المدينة القابعة بين أحضان جدران ضخمة، برزت من جوانبها بعض أبراج لأجراس الكنائس والمآذن والقباب الذهبية. مالت الشمس من خلفهم، راميةً بأضواء منخفضة، جعلت الوادى القابع ما وراء المدينة والغارق فى هالة من الضباب، يعطى المدينة مظهرًا شبه خيالى تقريبًا، على الرغم من أسوارها الشامخة، والتى كانت تؤكد حقيقتها التى لا تدع مجالاً للشك.

– رغم أنها أصغر من أنطاكية، فإن أسوارها هائلة! هكذا علق إبل دى سوج، الذى كان أول من يفيق من وجومه عائدًا إلى أرض الواقع وأول من توقع أن الاستحواذ على المدينة المقدسة لن يكون بالأمر السهل.

بعد أن راقبتهم المرأة النصرانية فى صمت، أشارت لهم بيدها، كى يتبعونها. تغلغلوا وسط بعض الشجيرات الشائكة، ثم توقفوا فجأة وكأنهم وصلوا إلى منطقة محظورة. لقد اكتشفوا مخيمًا كبيرًا معلقًا فوق التل. تقدم فى تجاههم رجال ونساء يمدون يد الحاجة قائلين:

– نتوسل إليكم... أعطونا بعض الطعام والشراب!

خرج رجل من تلك المجموعة، وقال لهم:

– نحن نصـارى... لقد ألقى بنا أفتخـار الدولة[١] خـارج المدينة. ذهب البعض من مجموعتنا تجاه بلدة بيت لحم، والبعض الآخر يرغب فى الذهاب إلى بلدة رامية أو عسقلان... أما نحن فنريد العودة معكم إلى القدس! لقد قام أفتخار الدولة بإصلاح الأضرار التى لحقت بسور المدينة فى الصيف الماضى، عندما اقتحم الفاطميون[٢] المدينة، بل قام بتجميع وتخزين كميات ضخمة من المؤن الغذائية، ولهذا سيستطيعون البقاء فى المدينة زمنًا طويلاً... بل زمن طويل جداً. أما نحن فقد تركنا كل شىء وراءنا... أنا اسمى بولس، وأعمل كرجل دين فى كنيسة صعود المسيح، هناك على قمة جبل أشجار الزيتون.

ثم رفع الرجل يديه إلى السماء، فى لفتة غامضة، وهو يقول:

– أيمكنكم إعادتنا إلى مدينتنا؟! ألستم أقوياء جداً؟ أضاف الرجل وهو يرمش بجفنيه بطريقة ساخرة.

أما أنا فأُدعى چوستين. قالت امرأة شابة قبل أن تكمل: لقد قتل أفتخار زوجى، بسهم فتاك وأريد الانتقام له!

---

(١) أفتخار الدولة، هو القائد العام لفرقة من الجيوش المصرية الحامية للقدس، والتى تحكم المدينة منذ الصيف الماضى (وقتها).

(٢) الفاطميون كانوا حكام مصر فى تلك الفترة، وهم من نسل فاطمة، ابنة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم.

راح هوج ينظر إليها، فقد ذكرته نظرتها الشرسة بأجات.

فجأة، ترامى إلى مسامعهم أصوات هتافات فرحة آتية من خلفهم. لقد أدرك الجزء الأكبر من القوات أنهم وصلوا إلى المدينة المقدسة. ركع العديد منهم، وأولهم ريمون دى تولوز وجودفروا دى بويون على هذه الأرض الموعودة، فى حين نسى البعض الآخر العطش والتعب، وراح ينهل الأراضى المنحدرة الموحشة المليئة بعليق الأشواك والأرض القاحلة، متشبثين بجذع شجرة زيتون مائل، أو ممسكين بأفرع شجر السرو (من فصائل الصنوبر) تناطح قممه السماء. أتبعهم الفرسان الراكبون على خيولهم إلى الدرب، متوخين الحذر، شادين على ألجمة خيولهم، التى راحت حدواتها تنزلق على التربة المغطاة بالزلط وقطع الحجارة الناعمة.

ظل هوج يراقب من حوله، يجول بناظره دون كلل بين مئات الفرنجة، الذين راحوا يهتفون فى هذه الأرض المنحدرة المحفوفة بالمخاطر، وراح يستمع إلى صيحاتهم الفرحة. بعد لحظات قفز چيفروا وغيره من الفرسان على خيولهم من جديد.

– سوف نطلق على هذه الربوة، ربوة السعادة. همس الكنسى ريمون دى أجويلير، وهو يقف إلى جوار هوج، ثم أخرج ريشته، وراح يكتب على عجالة بعض الكلمات، ثم أضاف: إننى أباركك أيتها الربوة!

– إنها لفكرة جيدة، أيها الكنسى.

أخذ هوج ينظر أيضًا إلى چوستين وطفليها اللذين اندفعا متراميين بلهفة على بعض المواد الغذائية التى تبدت خارجة من الصناديق المفتوحة لإحدى عربات الموكب، وصلت لتوها.

- يا للجمال!

استدار هوج، فوجد أجات واقفة إلى جواره تتأمل المدينة أسفل الربوة. أرتمت فى أحضانه، حيث كان الكنسى ريمون هو الشاهد الوحيد وقالت هامسة لهوج:

- لم أكن لأرى هذا المشهد أبدًا من دونك.

- هل هى زوجتك؟ سألته چوستين.

- كلا. رد هوج بأسى، ثم وجه كلامه إلى ريمون الكنسى قائلاً: أيها الكنسى... لقد حان وقت الذهاب وإلا سنكون الأخيرين.

- هل ستأخذنى معك؟ سألته چوستين بعينين متوسلتين.

- اركبى! مد هوج لها يده

- ولكن يجب أن آخذ طفلى معى. ردت چوستين

- سوف يحضرهما كلوڤيس. أجابها هوج، وهو يرفعها، كى تستقر أمامه على مقدمة سرج فرسه فتدلت قدماها البائستان اللتان تنزفان دمًا.

التقت عيناه بعينى أجات، التى راحت تراقب الموقف، مشدوهة. لقد تبخر الفرح من قلبها، ولم يتبق به سوى الحنق، الذى رافقها على

طول الدرب المنحدر، حيث انطلقت تجرى فيه، غير آبهة بالأخطار التى تحفه. استعادت إلى ذاكرتها متعة التنزه، كفتاة برية فى غابات روامون. الفارق أن الطقس هنا كان أكثر حرارة بكثير من هناك، وراحت شفتاها المتشققتان تألماها بشدة من فرط الجفاف! ولكن قبلة واحدة فقط من هوج كانت كفيلاً بإطفاء ظمئها. سلكت منحنى متعرجاً عن الطريق، فإذا بها تصادف من جديد سيدها اللورد، الذى كان يركض بفرسه وأمامه چوستين تمسك لجامها ببراعة، بينما على شفتى هوج ابتسامة غريبة جرحتها بشدة. من ورائهما، كان الكنسى ريمون متشبثًا بسرج جواده، وهو يقوده بحذر كبير.

على مقربة منهم، ظهر على بن فيروز يركض بجواده بجرأة أكبر، وقد توقف بشكل خفيف داخل الركاب المعدنى، تاركًا جواده، وقد راحت حوافره تنزلق على الأراضى الصخرية. عندما وصل إلى المكان الذى كانت تجرى فيه أجات، أوقف جواده بجذبة لجام قوية ومتسلطة.

- تعالى! قال على، وهو يمد يده لأجات التى قفزت مستقرة بخفة خلفه على مؤخرة سرج جواده.

- تشبثى بى جيداً ولا تخافى! قال لها على، وهو يلكز جانبى حصانه الداكن اللون لكزة قصيرة من ركابه المعدنى.

وضعت أجات ذراعيها حول خاصره على، بينما راحت كتفاها تداعبان مؤخرة رقبته مع كل هزة، يُحدثها ركض الحصان الذى

أصبحت سرعته الآن كبيرة على الأراضي الوعرة. بالفعل لحقا بفرس هوج الذي يقودها بحذر وعندما اقترب وجه حصان على من مؤخرة فرس هوج الفاتحة اللون، ضربها على ضربة خفيفة بسوط لجامه. أصبح الجوادان جنبًا إلى جنب، ثم تجاوز حصان على فرس هوج قليلاً، ثم شيئًا فشيئًا أصبح هو في المقدمة. راح على يضحك ساخرًا، بينما بدت أجات غير مدركة لما يحدث، وزادت من إحكام قبضتها حول خاصرته.

- ليس بهذه السرعة! قالت له أجات بصوت متهدج.

و لكن على لم يعد يصغى لها، فقد راح حصانه الجامح ينزلق على الأرض الحجرية وعندما وجد أمامه فجأة منعطفًا ضيقًا للغاية، لم يستطع التعامل معه، فتغلغل وسط الشجيرات وقفز على قائمتيه الخلفيتين مذعورًا. تشبثت أجات للحظة بتلابيب كمى قميص على، ولكنها ما لبثت أن خارت قواها فسقطت بكل ثقلها على الأرض.

قفز على بخفة ومهارة بدوره. تمددت أجات وسط الحجارة وقد بدأ الدم يتدفق من صدغها.

- أوه... أوه!

برز هوج بفرسه فى اللحظة التى كان على ينحنى فوق أجات، محاولاً أن يرفعها. فى قفزة واحدة كان هوج واضعًا أقدامه على الأرض وصرخ فى وجه على مزمجرًا:

- اتركها أيها الحقير القذر... اغرب عن وجهى!

وبالفعل، فى لحظة كان هوج يضع ذراعه تحت رأس أجات التى تبعثرت خصلات شعرها راسمة مروحة داكنة اللون على التربة الفاتحة.

- أجات! أتوسل إليك.

ركع هوج على ركبتيه، ووضع برفق سترته الأرجوانية تحت رأسها.

- أجات!

لامس وجهه خدها الناعم فاجتاحته موجة من السعادة، قلبت حاله ومحت فى لحظة قلقه الجنونى لرؤيتها هكذا بلا حراك. ضمها إليه بقوة وطبع قبلة على فمها الذى تسرب من جانبه خيط رفيع من الدم. لم يعد يشعر بشىء من حوله.... فلا على الذى كان يحاول جاهداً أن يحتوى غضبه وكرهه له، ولا چوستين التى مازالت جالسة على فرسه الأميرة الحسناء، تتأمل من فوقها جنون هذا الرجل، ولا حتى كلوڤيس. لم يعد يشعر من حوله إلا بالصيف الرائع الجميل، الرقيق الزاهى بلونه الأخضر، كما كان على حافة بركة روامون، وها هى أجات ملكه هو وحده.

- هوج دو روامون... ماذا أنت فاعل؟

سأله الكنسى ريمون دى أجويلير، الذى وصل هو الآخر إلى مكان الحادث. تفاجأ لعدم رد الفارس هوج، فكرر عليه السؤال. التفت هوج إليه وقد بدا مذهولاً، ثم راح يهمس ليجيبه، ولكن صوته كان منخفضاً لدرجة أن الكنسى لم يسمعه:

- أحبها.

و بالفعل، قام هوج بحمل جسد أجات المصابة، وسار بخطوات صغيرة حذرة على المنحدر فى اتجاه المدينة.

راقب الكنسى ظهر هوج العريض أمامه، وهو يختفى تدريجيًا على المنخفض الحاد، ومن ورائه تقدمت چوستين ببطء فوق فرسه الأميرة الحسناء.

– مسكين هذا الرجل المجنون. قال الكنسى لنفسه وهو يرسم على صدره علامة الصليب.

تقريبًا ودون أن يعى، راح الكنسى يرتل صلاة بشفتيه. سمعت فرسه هذه الكلمات، ففهمتها على أنها كلمات تشجيع، فراحت بدورها تسير خلف الموكب المتباطئ. قفز على فوق جواده، ورفع قبضته فى الهواء ليتابع سباقه المجنون.

فى أسفل التل المنحدر، كان الكثيرون منهم وقد وصلوا بالفعل إلى سفح جدران المدينة الهائلة. مالت الشمس للمغيب، ومن حولهم بدا المنظر مؤسفًا وحزينًا. ها هى الكنائس، وقد تحولت إلى أنقاض، بل يتصاعد من بعضها الدخان، وهناك الآبار التى أُعدمت، وبالتالى لم يعد هناك أمل فى استخراج قطرة ماء منها، وحتى ينابيع وعيون المياه، التى سرعان ما كانت تُصيب من يشرب منها بالآلام معدية رهيبة.

وضع هوج أجات عند قدمى چيفروا، وكانت لا تزال غائبة عن الوعى.

– لقد أسقطها هذا الأحمق على الأرض. قال هوج لچيفروا، وهو يشير إلى على، الذى كان يراقب الموقف.

- قل لأيربك أن يقوم بمعالجتها. أضاف هوج، وقد أمسك بلجام فرسه الأميرة الحسناء، ليستعد لركوبها من جديد.

- ناموا!

نفخت أبواق الفرنجة برفق، فقد حان الوقت كى ينسوا أفراحهم وأحزانهم، ليخلدوا إلى نوم عميق.

- ناموا... وسوف نرى ما سنفعله غداً. هكذا أمرهم القادة. بدا كل شىء فى البلدة قابعًا فى سكون. فقط تطايرت بعض السهام المتفرقة من فوق الجدران، بعدها هدأ كل شىء.

- لم يحن الوقت بعد، للمواجهة. هكذا قال الكونت ريمون دى تولوز لنفسه، بعد أن ركض على جواده لفترة طويلة، حتى يتفقد المخيم الذى تم نصبه على عجالة، قبل أن يذهب للنوم، ويكون كالمعتاد الأخير الذى يفعل ذلك، أو تقريباً.

لم يداعب النوم بعد جفنى الكنسى ريمون دى أجويلير، فراح يكتب بعض ملاحظته على قطعة بائسة من مخطوطة، وضعها على ركبتيه.

"إننا فى اليوم الذى يسبق الثلاثاء الموافق السابع من يونيو عام ١٠٩٩ بستة أيام، وها هى القدس أمام أعيننا. فكيف لنا أن نصدق ذلك؟ بحق القديس ميشيل، وكبير أساقفنا أديمار، يا إلهى ساعدنا... فهذه الجدران عالية للغاية!"

٢٠

عندما استيقظ هوج فى صباح اليوم التالى، فوجئ بچوستين، نائمة بين أحضانه. راح يتأملها دون أن يجرؤ على التحرك. ليس ببعيد عنها كان طفلاها نائمين بجوار كلوڤيس، الذى كان يغط بصوت عالٍ ورتيب. خلص هوج نفسه، مبتعداً عنها برفق. راح يعدل من درعه الطويلة ذات السلاسل المعدنية، حيث كانت خوذته، قد تدلت بشكل بائس على كتفه، ثم وقف.

انتصب أمامه بناء ضخم مختبأً فى الظل، وقد أطلقت عليه چوستين برج داوود، وبوابته كأنها الحارس العدوانى التى سُميت على اسم راعيها الخاص، مثل التى موجودة فى يافا، وقد بدت مغلقة بإحكام منذ زمن طويل. من حولهم بدت الأسوار الشاهقة الارتفاع، وكأنها تتحدى المهاجمين بقوتها المتغطرسة. ومن الخلف بدأت المدينة تفيق من نعاسها الليلى، عندما راح المؤذنون يرفعون الأذان.

لمح هوج على والمرشدين القادمين من بيروت مع جيوشهم، وقد بدأوا يفردون سجاجيد للصلاة، متوجهين إلى اتجاه الشرق، وهم يسجدون ويرتلون صلواتهم بتبجيل وخشوع. بالرغم من ذلك، لم يكن كل

الأهالى مشغولين بطقوس الصلاة، والدليل على ذلك أن هوج عندما دقق النظر بعينين نصف مغلقتين؛ بسبب قوة الشمس، استطاع أن يجزم على حالة الهدوء النسبى الموجودة، كما لاحظ وجود الحراس المتمركزين على طول الجدران المحصنة، يمسكون بأقواسهم، وهم على أهبة الاستعداد لإطلاق أسهمهم. تصاعدت سحابة من الدخان الأسود من وراء القلعة لتنبئ بأن الكفار، قد حافظوا على تلك النيران القاتلة متقدة، والتى كانوا متخصصين فيها[١].

من بعيد إلى أبعد، سُمع طنين الأبواق، لتوقظ، شيئًا فشيئًا، الصليبيين، الذين ما زالوا يعانون من العطش.

لقد فتح أعداؤهم بغدر الخزانات، التى تتجمع فيها مياه الأمطار، ونضب معينها منذ فترة طويلة، ولم تتبق منها إلا بقايا بعض المزاريب الجافة، وحتى الماء المنسكب منها فى عدد ضئيل من الينابيع، كانت له هيئة مقززة، حتى إن عدداً قليلاً جداً منهم، هو الذى حاول أن يرتشف منها.

لمح هوج الكونت ريمون دى تولوز يتحرك بعصبية فوق حصانه، الذى كان يحاول قضم بعض الأعشاب الضئيلة المصفرة. أعطى ريمون أوامره التى من شأنها تجميع المقربين منه فى جنوب المدينة، قبالة باب صهيون على سفوح التل، الذى يحمل الاسم نفسه، وقد شيد عليه بعض

---

(١) النيران الجرجورية: هى خليط من الكبريت، والمادة اللاصقة والملح الصخرى.

المبانى الأثرية، ومنها قصر سياف[1] و مزار كنسى، وقد تحول إلى أنقاض، رسمت چوستين علامة الصليب على صدرها، عندما مرت أمامه وقالت:

- إنها كنيسة القديسة والدة الرب، وبها احتفل سيدنا بالعشاء الأخير.

التقيا بالصليبيين التابعين لفرقة روبير دى نورماندى، والتى كانت على وشك أن تأخذ مكانها فى الاتجاه المعاكس بين بوابة سانت لازار وبرج طيور اللقالق، يسبقهم رجال جودفرى دى بويون، وكذلك رجال تانكريد، الذين تمركزوا منذ غروب الشمس عند سفح برج داوود. مع شروق الشمس، لم تطأ أقدامهم وادى سيدرون[2]، الذى يفصل المدينة عن جبل أشجار الزيتون، حيث كان الوصول إلى المدينة من خلاله مستحيلاً.

هكذا استطاع كلٌّ منهم تنظيم نفسه قبل الهجوم الذى راح يحلم به الجميع، أكثر من أى وقت مضى. لهذا نصب الكونت دى تولوز مخيم فرقته فى المنطقة المنخفضة من المدينة، بجوار بعض الأنقاض، حيث ما زالت هناك بعض المنازل. داخل أحد هذه المنازل استدعى الكونت ريموند دى تولوز الفرسان، لإجراء اجتماع عاجل. كان من الضرورى وضع خطة للهجوم على المدينة، التى أذهلتهم جدرانها الشاهقة بشكل كبير. إذا كانوا قد اقتربوا من هدفهم، فهم لا يعرفون الشىء الكثير، عن كيفية

---

(١) كاهن يهودى كبير، وهو الذى نصح بصلب المسيح.

(٢) أو كان يُدعى چوسفات.

الاستيلاء عليه، وهنا أدركوا أن الاستحواذ على كل مدينة، كان وما زال دائمًا، مشكلة جديدة لا يمكن حلها بالرجوع فقط إلى المعارك التى خاضوها سابقًا.

شعر هوج بالأسف لاضطراره للتخلى عن بحثه عن خيمة چيفروا، لكى ينضم لرفاقه لحضور الاجتماع.

– لقد شربت ولم أمت! صاح كلوڤيس، عندما رأى هوج خارجًا مع هبوط الليل من اجتماع عاصف، أعربوا فيه عن آراء متناقضة أثارت مناقشات ساخنة.

كان خادمه كلوڤيس يمسك بيديه طفلى چوستين، چوليان وإيلين، اللذين راحا يطالعان هوج، وهما يضحكان، بينما كانت أمهما تقف وراءهما.

– وأين شربت؟ سأله هوج، وقد تذكر فجأة كم كان ظمآنًا!

– هناك عند ينبوع سيلويه أعلى التل... الماء لا تنساب فيه بقوة، ولكنها صافية. أتريد أن تأتى؟ ولكن يجب أن تدفع...

قاطعت فجأة عبارة چوستين ضجة كبيرة... تعالت صيحات وضوضاء ركوض خيل، واصلةً إليهم من الأخدود، وحتى سفح تلك الأسوار العالية.

– يا لهم من مجانين! من قال لهم أن يقاتلوا؟

خرج الكونت ريمون دى تولوز من المنزل ذى الحجارة الفاتحة اللون والذى عقد فيه اجتماع الفرسان. بدا غاضباً، وراح يعدل خوذته على رأسه بيد، وباليد الأخرى تشبث بقوة على مقبض سيفه. ولكن فجأة خيم الصمت من جديد، فى حين التف الفرسان حول الكونت، وأخذوا ينظرون إلى بعضهم البعض بحيرة وتساؤل، بينما ظهر چيفروا خارجاً من ممر ضيق.

- لقد أصُيب إبل دى سوج بجروح. صاح چيفروا متقطع الأنفاس، وقد سال الدم من جرح طويل فى خده اليمنى، نازلاً على درعه المعدنية الطويلة.

من ورائه ظهر روبير وفولبر، يجرجران إبل، الذى راحت ساقاه تترنحان يميناً ويساراً بشكل مؤسف. تدفق الدم من صدره بانتظام، ومع كل قفزة أو حركة يخطوها.

- أيربك... أيمكنك عمل شىء؟ سأله چيفروا

قام الطبيب العربى، الذى اشتهر بصنع المعجزات، بتمديد المصاب على الأرض. بدا نزيف الدم، وكأنه قد توقف. راح الطبيب أيربك يخلع خوذة إبل عنه بحرص، ثم درعه المعدنية، وبعد ذلك أخذ يفك السترة الجلدية المبطنة، التى تحمى صدره، ليكتشف بقعة الدم الحمراء الكبيرة تحتها.

- سوف أموت. هتف إبل متأوهاً، وقد بدا وجهه شاحباً.

– لن أدخل إلى القدس أبداً... أضاف إبل بنفس متقطع، قبل أن يغيب عن الوعى، وجفناه نصف مغلقتين.

– لن أستطيع عمل شىء. همس الطبيب أيريك بصوت يائس وآسف، اعتاد الرجال أن يسمعوه، عندما كانت تصادفه حالات إصابة مستعصية، تفوق قدراته كطبيب.

استدعى چيفروا الكنسى ريمون دى أجويلير، الذى جاء يحمل علبة صغيرة من النحاس، الضارب لونه إلى الحمرة، وبه طقوس الموت. ركع على ركبتيه بجوار المصاب الذى التف من حوله أصدقاؤه، وراح يتلو صلاة الموتى بصوت غير مسموع، محركًا شفتيه فقط. فى هذه اللحظة بدا إبل، وكأنه استرد وعيه، وقال:

– القدس... إنها مشيئة الرب!

استغل الكنسى الفرصة، وزلق قطعة من اللقمة المقدسة بين شفتيه. أكمل إبل بوهن:

– روبير...

اقترب النحات الشاب منه، وانحنى بدوره، فقال إبل له:

– روبير... فلتأخذ چاك الصغير إلى جده، ولكن الأهم من ذلك ألا تقل له أن أبوه كان مجنونًا! إننى أعتذر للجميع... إنها مشيئة الرب! هوج... إذا رأيت الأميرة مجدداً...

ترنح رأسه للحظة، ثم عرف الجميع أنه قد أسلم الروح.

- لماذا؟! هتف الكونت ريمون دى تولوز بصوت عاصف، وهو يكاد يختنق من الحنق لرؤية هذا الطابور من الجرحى والقتلى، الذين راح زملاؤهم يدفنونهم على عجالة.

- لقد كنا نجلب بعض الخيول. شرح له چيفروا على استحياء

- يا فرسان المسيح... بحق القديس ساتورنان... تمهلوا أرجوكم...

استعاد الكونت ريمون دى تولوز هدوءه تدريجيًا، فأضاف قائلاً:

- الأحرى بكم أن تسمعونى، بدلاً من أن تقاتلوا كيفما اتفق!

بدا الكونت ضئيل الحجم للغاية إلى جوار جودفروا وتانكرد، ولهذا اضطر لرفع صوته، بينما كان الجميع من حوله صامتين.

- ينبغى علينا أولاً أن نبنى أبراجًا خشبية وسلالم. هل رأيتم ارتفاع هذه الأسوار؟ بدلاً من أن تتقاتلوا، اذهبوا لجلب الأخشاب! أما بالنسبة للنساء، فسوف يقمن بحياكة جلود الجاموس، لصنع حاويات تصلح لنقل المياه التى لا بد أنها موجودة على مسافة فرسخ على الأقل، حتى نستطيع العثور عليها. لهذا ستغادر قافلة منا فى اتجاه نهر الأردن للبحث عن الماء.

رفع الكونت ريمون دى تولوز صوته، عندما تعالت بعض الهمهمات، معلقةً على تصريحاته:

– فى النهاية، وكما يردد دائمًا قسيسنا بعبارته العطرة: يجب علينا ألاَّ نفكر فقط فى بطوننا وأفواهنا. فقبل أن ندخل إلى المدينة المقدسة، سيكون لدينا متسع من الوقت، كى نطهر أنفسنا. فبعد فترة من الصيام، سوف نمضى فى مسيرة حول المدينة...

تعالت بعض الهمهمات فى الجانب الأيسر من الحضور:

– أليس الأحرى بنا أن نقاتل بدلاً من أن ننتظر مكانًا لنصلى فيه؟ سأله تانكرد بصوت عدوانى.

– من دون الأبراج الخشبية لن نتوصل إلى شىء. رد عليه جاستون دى بيرن، الذى كان قد أشتُهر بالفعل بمهارته فى بناء آلات الحرب تلك.

– وماذا عن قوتنا إذا ما صمنا؟

هكذا قال چيفروا، معبراً عن آراء الكثيرين الذين هللوا مؤيدينه بصوت عال.

– إن الله هو الذى سيأخذ المدينة وليس نحن. رد الكنسى بصوت مسموع، قبل أن يضيف قائلاً: ألسنا نحن إسرائيل شعب الله المختار؟ إذن لسوف يساعدنا على هدم الأسوار.

– هذا أمر مشكوك فيه! لقد ترك الله الكفار يستولون على المدينة. غمغم هوج من بين أسنانه، والذى ظل منتقداً لقرارات القادة، بل تشكك فى المساعدة الإلهية، التى راح الكنسى ريمون يدعو مع ذلك إليها بصدق وإيمان مثيرين للدهشة.

– ينبغى علينا أن نؤمن بحدوث معجزة. قال الكنسى ريمون دى أجويلير بإصرار، بينما أيده رجال الدين الذين التفوا حوله فى مواجهة الفرسان.

و لكن هوج لم يعد يستمع إليه، بل اقترب من چيفروا، وقال له يلومه:

– بدلاً من أن تقاتل كيفما اتفق، الأحرى بك أن ترعى زوجتك.

– ولكن زوجته على خير ما يرام. رد الطبيب أيربك، وهو يبتسم قبل أن يكمل: أرغب فى الضحك، كلما تذكرت كيف أن الطبيب كوم ادعى أن هناك شيطانًا فى رأسها، ولا بد من حلاقة شعرها، وعمل فتحة فى جمجمتها، حتى نجعله يخرج!

– حلاقة رأسها؟ وهل قصصتم شعرها؟ سأل هوج

– لقد منعت كوم فى الوقت المناسب، وحسنًا فعلت. فى هذا الصباح أصبحت زوجة چيفروا على أحسن ما يكون.

اقترب منهم كوم، وهو الطبيب الفرنچى الذى لم يكف أيربك عن السخرية منه.

– إننا فى غاية الجهل. اعترف كوم، وهو يهز كتفيه قبل أن يضيف: لقد تعلمت الكثير والكثير مع أيربك. آمل من الله أن يعيدنى سالمًا إلى بلدى، كى أطبق بدورى كل هذه الوصفات الطبية الجيدة، وأنقلها إلى غيرى.

رسم كوم علامة الصليب على صدره بشكل جاد، فوضع أيربك يده على كتفه، وقال له:

– ولا أنا يا كوم... لن أنساك أبدًا.

- تعال... سأصطحبك إلى ينبوع سيلويه.

هكذا قالت چوستين لهوج، ثم مررت ذراعها تحت ذراعه لتتأبطه فلم يقاومها. لقد شعر بالاطمئنان على حالة أجات، فسار معها فى هدوء. فى طريقهما مرا أمام على، فضحك ساخراً.

راحا يصعدان التل معًا بخطى بطيئة، وعندما ملأ هوج خوذته بالماء الثمين، وشرب منه، شعر، وكأنه قد وُلد من جديد. كان مذاق الماء حلواً وعذبًا.

- يا له من ماء عذب! قال هوج، وهو يمرر لسانه على شفتيه المتشققتين.

- لقد أشفى سيدنا المسيح عينى رجل أعمى، حيث أمره أن يغسل عينيه بهذا الماء. هكذا قالت چوستين عن إيمان واضح.

- إن له نفس طعم ماء بلدى. قال لها هوج

- بلدك؟ حدثنى عن بلدك!

جلست چوستين فوق صخرة صغيرة، برزت من حولها بكثافة بعض أفرع من النباتات المزهرة، لونها أصفر، ولها رائحة عبقة. اقتطفت چوستين واحدة منها بين أصابعها، وسحقتها لتتشمم عطرها الفواح. أمامهما، ظهرت مدينة القدس قابعة فى سبات وقت العصارى.

- قل لى من أين أنت آت؟ كررت چوستين بإصرار، وهى ترمق هوج بنظرة مريرة، بعد أن جلس هو بدوره أمامها واستغرقه تفكير ملىء بالحنين والوحشة.

راح يفكر فى إبل الذى لن يدخل إلى القــدس أبداً... هل وضـع البابا أوربان الثانى فى حسبانه أو قَاسَ حجم التضحيات الهائلة التى قاموا بها؟ هل كان من الممكن أن يتصور معاناتهم؟ لقد أحزنته وفاة إبل حزنًا عميقًا.

- أتيت من مملكة فرنسا، بعيداً فى اتجاه مغيب الشمس. رد عليها أخيراً بعد أن تنبه إلى نظرة چوستين المصرة، التى راحت تحدجه بها.

أشار بإيماءة خاطفة تجاه الشمس التى كانت تميل للغروب من ورائهما.

- وهل هى بعيدة؟

- بعيدة جداً... ها قد صار لى ثلاث سنوات منذ أن تركت قصرى.

- قصرك؟

- لقد بدأت فى بناء قصر حجرى، قد يبدو لك لو رأيته متواضعاً، مقارنة ببرج داوود... ولكنه يعنى الشىء الكثير بالنسبة لى.

أثارت چوستين بسؤالها هذا شلالاً من الذكريات، فانخرط هوج يبيح لها بحكايات وأسرار لا حصر لها. هكذا استمر فى سرد حكايات لا تنتهى عن أراضيه وغاباته وبركها ورحلات صيده.

لم تجرؤ چوستين على مقاطعته. هبط ضوء الغسق، منحدراً بلطف على التل، وفجأة بدا الهواء أكثر برودة.

– وعندما تدخل إلى مدينتنا... هل ستبقى؟

– كلا... سأعود إلى بلادى... وهكذا أكون قد أتممت مهمتى ونفذت ما أقسمت عليه وأخذت مع نفسى من عهد... سأعود من أجل أولادى.

– وزوجتك...

– كلا... لقد ماتت زوجتى.

التزمت چوستين بالصمت قليلاً، ثم سألته:

– والشابة ذات المعطف الأزرق؟

ابتسم هوج بغموض، ولكنه لم يجب.

بعد أيام قليلة لاحقة، بدأت الأبراج الخشبية تتخذ هيئة وشكلاً واضحاً. وكذلك ارتفعت العوارض الخشبية الكبيرة، والتى قُطعت بشكل فظ على حجر أساس مكون من ألواح معشقة فى بعضها البعض بشكل أو بآخر. راح ضجيج المطارق يرد على أزيز المناشير[١]. حدث أمر كان بمثابة تحذير خطير لمصمم تلك الأبراج، جاستون دى بيرن، جعل مهمته تتعقد أكثر. فى الواقع، لقد احترق البرج الأول بفعل النيران التى قذف بها الكفار داخل أباريق تم ملؤها بسائل سريع الاشتعال. من بعد هذه الواقعة، حرص الصليبيون على تغطية قمم الأبراج بجلود الحيوانات لحماية الأخشاب من النيران.

---

(١) أداة لقطع الخشب إلى شرائح رقيقة مسطحة.

لقد أُنهكوا جميعًا واستنفدت قواهم، حتى إن البعض منهم كان يذهب لجمع الخشب اللازم من على بعد عدة فراسخ. وصلت لهم بعض المراكب من چنوة فى الوقت المناسب إلى يافا، جالبة بعض الأخشاب، وكذلك تم استقطاب بعض النجارين المهرة. لقد أُجهد الرجال واحمرت وجوههم، بعد أن لفحتها أشعة الشمس الحارقة، كما أصبحت عيونهم مدمعة، وانغرست للداخل، وقاموا بعمل ثقوب فى ستراتهم، حتى يمرروا الهواء بها. وهو هواء فاسد لا يصلح للاستنشاق، فهو ملىء بالغبار كان يهب، مكونًا رياحًا مستعرة. ولكنها رياح لا تحمل هواء منعشًا، بل تجفف كل ما هو فى طريقها.

– لماذا كل هذه الجهود المبذولة إذا كان الله يستطيع هدم جدران الشيطان هذه؟ هكذا سأل بعض رجال الدين، الذين كانوا يصلون فى منابرهم.

– ربما هذا هو الجحيم! قال هوج لروبير ثم أضاف: ويبدو أن البابا قد وعدنا بالقدس السماوية، وليس القدس هذه!

– ثلاث سنوات من المعاناة لكى نصل إلى هنا! قال روبير وهو يهز رأسه، مؤيداً.

لم يعد النحات الشاب يرسم شيئًا على دفتر لفائفه المخطوطية. لقد تشققت بشرة أصابع يديه، فلم يعد قادراً على الرسم.

– وهذا العطش! آه لكم أتوق إلى شىء من نبيذ منطقة شانتروج فى حانة المعلم چاك!

على الطريق الطويل الذى يوصلهم إلى نهر الأردن، لكى يستخرجوا منه الماء، كان الرجال يهذون تقريبًا من فرط الإجهاد، وكان كلٌّ منهم يتشبث بذكرى مثالية، دائمًا ما يكون لها علاقة بطعام أو بشراب.

– لا بد أن الأب يونس، الذى كان أول من أخبرنى بمشروع البابا هذا غير محروم من النبيذ. غمغم هوج متذمرًا، وهو يدفع أمامه جملاً محملاً بالأدوات.

– هل تتذكر ذلك العشاء الذى تناولناه عند برتراند دى مونت ڤير؟ لقد كان النبيذ فيه لذيذًا جدًا. هكذا سأل راؤول، وعيناه زائغتان من التعب، وراح يضرب بغلته التى رفضت التحرك.

و مع هذا، فقبل ذلك بساعات قليلة، كانوا قد اعتقدوا أنهم سيحيون وينتعشون من جديد، عندما وجدوا نهر الأردن وتفاصيله المتعرجة. ما إن فكروا فى ذلك، حتى وجدوا أنفسهم يغوصون فى مياهه الموحلة بالطبع، ولكنها مع ذلك لذيذة للغاية، فهى التى عُمد فيها المسيح.

أما الحاويات الجلدية، والتى جلبوا كميات وفيرة منها، فقد دفعوا ثمنها من جهودهم العديدة بعد أن حاكتها لهم النساء. ولكن جلود هذه الحاويات المستخرجة من المواشى، أعطت طعمًا مقززًا للماء، ومع ذلك عندما كانوا يصلون إلى مخيماتهم، كان الجميع يهرع للحصول كلٌّ منهم على حصته. بالفعل رأى هوج چوستين، تركض وطفلاها فى أعقابها. ومع أنه مدرك لكل هذه المشقة، التى يتكبدونها لجلب ذلك السائل الثمين،

إلا أنه ود بشدة لو أن يقدم كل ذلك لأجات فقط. لم يكن قد اقترب منها منذ حادثة سقوطها من على الجواد. فقط كان يراقبها من بعيد كل يوم، ويعرف عنها كل شيء.

عندما كانوا عائدين فى طريقهم إلى المخيم فى ذلك المساء بأحمالهم الثقيلة، بدا كل شيء قابعًا فى هدوء غريب. رأوا تجمعًا كبيرًا صامتًا حول الكونت ريمون دى تولوز، الذى كان جالسًا على صخرة يلقى فيهم خطبة من خطبه الرنانة:

- انظروا إلى الأبراج الخشبية، وهى على وشك أن تكون جاهزة قريبًا. ها هى وقد أصبحت تقريبًا مماثلة فى ارتفاعها لتلك الأسوار اللعينة. قال الكونت، وهو يشير إلى الأبراج التى مازالت قيد البناء، وقد تجمهر حولها عمال كثيرون.

فجأة، وأثناء إلقاء كلمته، أمطرهم وابل من السهام حتى إن سهمًا منها، جاء راشقًا عند قدمى الكونت الذى هتف قائلاً :

- بحق القديس ساتورنان، يجب أن ينتهى ذلك!

بدا الكونت، وقد خرج عن شعوره من شدة العصبية، وأمسك بالسهم المدبب، ولوح به فى قبضته.

- فلننته من ذلك! صاحت الحشود، وقد ألهبها الحماس.

- غدًا سوف نصوم و... واصل الكونت ريمون الذى قاطعته صيحات الاحتجاج.

– لقد صار لنا ثلاث سنوات تقريباً ونحن صائمون، ألا يكفى ذلك؟ صاح رجل واقف بين الحشود، وقد رفعه رفاقه المؤيدون له على أكتافهم وراحوا يهتفون أيضًا.

مدد الكونت يديه إلى الأمام فى محاولة منه لإعادة الهدوء إلى الحضور.

– إنه على تمام الحق. همس هوج

– وبعد غد، سوف نتنزه فى مسيرة حول المدينة. واصل الكونت ريمون، وقد اضطر إلى رفع صوته.

– هل أراد الله ذلك؟

– إنها مشيئة الرب! رد الكونت بحزم، ثم أضاف: إذن سيكون علينا فقط، أن نستعد، لكى نكون جديرين بدخول المدينة المقدسة.

– أحسنت القول.

هكذا قال بطرس الناسك، وهو يستقر جالسًا على صخرة. تحولت جميع الأعين إلى هذا الرجل الضئيل الحجم الآن. فمنذ فراره أمام موقعة أنطاكية، غاص الرجل الكهل بين الجموع، وأصبح يمشى كالمجهول وسط أفراد العامة من المهمشين، متكئا على عصا فى يده بكل تواضع. هكذا أصبح الرجل الذى كان مصدر إلهام لحشود كبيرة، قادها وراءه فى عداد المجهولين. فمن تلك الحشود التى انقادت وراءه وكانت أول من حمل الصليب، متجهًا إلى القدس، مات منهم العديد، أما الناجون

فقد وجدوا لهم أبطالاً آخرين. ولكن فجأة، وبعد أن بات الاستحواذ على المدينة ممكنًا ومتوقعًا فى القريب العاجل، فقد أصبح بطرس الناسك يأمل فى القيام بدور مرة أخرى. فمنذ وصولهم أمام أسوار القدس، اكتفى بوصف كل ما يعرفه عن المدينة، التى طالما ادعى أنه زارها بالفعل من قبل. ولكن لحسرته وغمه، فوجئ بما أظهره محاوروه من شكوك حول ما كان يقوله. ولكنه بالرغم من ذلك، وفى هذا المساء بالتحديد، شعر بأنه قد أصبح نبيًا، ورفع ذراعيه نحو السماء، التى راحت تحلق بها بشكل جنونى طيور برية غير مبالية. بدأ بطرس الناسك فى إلقاء خطبته فى الحشود، مثلما فعل من قبل فى مدينة كليرمون بفرنسا. وجد صعوبة فى أن يغطى بصوته على صيحات ازدراء وسخرية الآخرين.

ليس ببعيد عنه، وقف أرنو مالكورن، الخليفة الضعيف للأسقف الراحل أديمار دى مونتيل يصيح، معربًا عن أمله فى حدوث معجزة.

– تذكروا ما حدث فى أريحا. هتف أرنو دون أن يلقى أى صدى لكلامه، انطلقت صيحات محتجة آتية من الحشود التى تكالبت فى فوضى عارمة تجاه حاملى المياه. رأى هوج جمله وقد انتزعت أحماله من فوقه فى أقل من لحظة. كما سقطت بغلة راؤول على الأرض. ومع ذلك فقد وضع هوج ذلك فى حسبانه واحتفظ لنفسه بحاوية مياه جلدية، خبأها بين طيات درعه. أخذ يشق طريقه بصعوبة كبيرة وسط هذا الحشد من الرجال والنساء المستثارين، سواء بكلمات زعيم الحملة، أو بالحصول

على الماء، حتى تمكن من الوصول إلى المخيم، حيث كان يعرف الطريق إلى خيمة أجات. كانت جالسة وأموند الصغير على ركبتيها، عندما نظرت إليه وهو يقترب منها بخطوته البطيئة المتعبة.

توقف هوج، عندما أصبح أمامها تماماً، وقال لها:

- هذا لك! هكذا قال هوج فقط، وهو يضع أمامها الحاوية الجلدية وكانت بطنها منتفخة.

- ونحن؟ هكذا قالت چوستين بعد أن ظهرت فجأة.

- أعطها لهم! قالت أجات بصوتها الأجش، وهى تحدق بعينيها الداكنتين فى عينى هوج الرماديتين، ثم أضافت: لقد جلب لنا على، المياه بالفعل. قالت له وهى تشير إلى حاوية جلدية منتفخة على آخرها بالماء، وقد وُضعت بجانبها.

- وما شأنه هذا الحقير القذر؟

التفت هوج غاضباً، فوجد الطبول الصغيرة الخاصة بعلى موضوعة هى الأخرى بجوارها. راح هوج يجتر غضبه وحنقه جزءاً كبيراً من الليل. فبعد أن ترك أجات، وأيضاً چوستين، التى ألقى لها بالحاوية الجلدية، وكأنه يتخلص منها بضجر، تقابل مع چيفروا، الذى كان يعمل حتى ساعة متأخرة من الليل فى البرج الخشبى، الذى أطلقوا عليه برج جودفروا، وهو الأعلى والأعرض بين الأبراج الأخرى.

- الأحرى بك أن تراقب زوجتك. هكذا بادره هوج، وهو خارج عن شعوره من شدة الغضب وأكمل: سيأتى يومٌ، ويأخذها منك ذلك الحقير القذر على.

هز چيفروا كتفيه بلا اهتمام، ورد عليه قائلاً:

- إن أجات بالكاد زوجتى... لكنها لم تحب أبدًا رجلاً غيرك... لماذا جعلتنى أتزوجها؟ سأله چيفروا بصوت كئيب.

- هكذا كان يجب أن يكون الوضع!

أنهت لهجة هوج الآمرة الحوار بينهما، ومن ثم عاد كلٌّ منهما إلى مخيمه.

"لماذا زوجتهما؟" بالفعل راح هوج يردد على نفسه هذا السؤال وهو يتقلب مرارًا وتكرارًا فى فرشته غير المريحة. كانت سخونة الليل لا تطاق، فلم يستطع النوم إلا مع حلول الفجر، حيث استغرق فى حلم رأى فيه نفسه يقتل على أمام عينى أجات التى راحت تصرخ باشمئزاز.

عندما دوى صوت الأبواق فى صباح اليوم التالى، كان الكنسى ريمون دى أجويلير يمسك ريشته بعصبية، لينبش بها بضع الكلمات فى مخطوطته، التى وضعها على ركبتيه:

"إذا ما قمنا بغلى الرجال، فلن نستخلص منهم ولا أوقية دهن واحدة" هكذا كتب الكنسى بحزن ووحشة. كان قد وضع على كتفيه رداءه الكهنوتى، الذى تزينه رسومات لحيوانات خرافية، بينما راحت تتساقط من جبينه حبات عرق كبيرة.

بالقرب منه، كان الكونت ريمون دى تولوز، مستعداً منذ فترة طويلة بل نافد الصبر، هائماً على وجهه، وقد عقد يديه خلف ظهره. كان يشعر بالجوع مثله، مثل الجميع. لكم كان هذا النهار من الصيام عصيباً! كما كان عليهم الاستعداد للمسيرة حول المدينة. بالفعل تجمع رجال الدين غير آبهين بموجة الحر القائظ، التى خيمت على الطريق الذى خططوا للسير فيه إلى أسوار المدينة، وقد ارتدوا الملابس التى اعتادوا ارتداءها فقط فى المناسبات الكبيرة.

– يجب أن نبدأ!

ها هو جودفروا دى بويون، قد وصل هو وتانكرد، لتفقد البرج الخشبى.

– لقد انتهينا من صنع الجسر الذى سنقاتل عليه، لكى يوصل إلى المنافذ الموجودة فى حافة الأسوار. هكذا أعلن جودفروا، وهو يشعر بالرضا للكونت دى تولوز.

– سيتمكن ثلاثة رجال فقط من البقاء بجانب بعضهم البعض. رد تانكرد، مؤكداً

وبالفعل ظهر أول رجال الدين من وراء الصلبان الثقيلة، التى تزين قممها أحجار كريمة مستديرة ملونة، وراحوا يرتلون الأناشيد الدينية التى سرعان ما راح يرددها معهم باقى أفراد الموكب، الذى امتد على واجهة واسعة. ها هم نساء وأطفال وفرسان، وحتى الأفراد المهمشين، وقد تدفقوا جميعاً تجاه نقطة البداية عند سفح برج داوود. لمح هوج

أجات بالقرب من الكونتيسة إلڤير، أما سارة، فكانت تحمل بين ذراعيها أموند الصغير، الذى تناقض شعره الأشقر مع الشعر الأسود المجعد لألفونس، بن الكونتيسة.

تقدم الموكب المؤلف من عناصر مختلفة وألوان متنوعة ببطء فى اتجاه الشمال، عابرين مخيم تانكرد بعد أن تركوا على يسارهم الطريق المؤدى إلى يافا، قبل أن يتجهوا شرقًا فى مواجهة الشمس. راحت راياتهم ترفرف ساطعة تحت أشعة الشمس المبهرة، ولكن سرعان ما انهار حامل راية جودفروا دى بويون، بعد أن تغلبت عليه حرارة الشمس. حل محله حامل آخر هزيل للغاية، ولكنه راح يلوح، ممسكًا بالراية بحماس ونشاط كبيرين، حتى إنها بدت أعلى بكثير من غيرها. رسم جودفروا علامة الصليب على صدره بسرعة، فقد رأى أن ذلك فأل حسن. ألم يكن من الضرورى التشبث بأى بادرة أمل وحسن طالع خاصة فى ظل هذه الظروف الصعبة، التى بدا كل شىء فيها معوقًا وغير مؤكد؟

- سالڤا ريچينا... راح الفارس جودفروا يملأ رئتيه، وهو يردد النشيد الدينى اللاتينى، وحتى يعلو صوته على صوت المجاورين له.

- ماتر ميزريكوريا، ڤيتا دولسيدا...

هكذا هتف ريمون دى أجويلير، وهو يتنهد سائلاً نفسه: كيف يمكنه ألا يفكر فى الأسقف أديمار، وهو يرتل نشيده هذا؟

راح الكنسى ريمون ينفخ ويتصبب عرقًا، شاعرًا بالأسف والمرارة لارتدائه هذا الزى الكهنوتى، الذى كان يثقل على كتفيه. كانوا قد

قطعوا بالكاد ربع المشوار، ولكنه مع ذلك حاول جاهداً بصوته المكتوم أن يصاحب باقى من حوله بالغناء، الذى راح يتضاعف شيئًا فشيئًا. بالقرب منه كان هوج يسير، وهو يغنى بصوت عالٍ جداً، جعل أنفاسه تتقطع. راح ريمون دى أجويلير ينظر إليه، وقد بدا مندهشًا لسماعه يشكو بهذا الشكل اليائس، بينما كان يتقد الأمل والسعادة فقط فى عشية دخول المدينة المقدسة بعد ثلاث سنوات من المحن العسيرة. ولكن منذ أن شاهده، وهو يقبل تلك المرأة بجنون، لم يستطع الكنسى عن منع نفسه فى التفكير بذلك. لهذا كان يبدو أحيانًا شارد الذهن إلى درجة كبيرة جداً.

تبدى أمامهم الكونت ريمون دى تولوز، يسير غاية فى الخشوع، وقد راح يردد هو الآخر الأجزاء التى تفصل نشيداً عن آخر، والتى يطلقها رجال الدين فى المقدمة، ومع ذلك كان يتلفت وراءه بسرعة بين الحين والآخر. لقد هاله منظر البحر البشرى الذى وجده وراءه. تبدى له فجأة متسكعو القوات المختلفة القادمة من الغرب، كأنها تشكل مجموعة متجانسة جداً، تكاد لا تُصدق، بل من المستحيل قياسها، عندما تجمعت كلها حول المدينة[1]. فى هذه اللحظة نسوا صيحاتهم العدائية، تذمراً على الصيام وعلى المسيرة.

---

(١) لقد تبقى تقريبًا حوالى ١٢٠٠ فارس و١٢٠٠٠ من المشاة وبضعة آلاف من غير المقاتلين.

– معجزة... لا بد لنا من حدوث معجزة! إنهم ليسوا سيئين، وقد عانوا الكثير... اللهم ارضنا، أسقط هذه الجدران! هكذا راح الكونت ريمون دى تولوز، يصلى بخشوع كبير.

ثم راح ينقى ذهنه، وهو يفكر فى البابا، وعلى الأخص فى أديمار دى مونتيل، وتصور كيف كان سيصبح سعيداً، لو كان موجوداً فى مثل هذا اليوم.

ها هو بطرس الناسك يسير إلى جواره، وهو حافى القدمين، أشعث الشعر، أكثر من أى وقت مضى، بعد أن تخلى عن فكرة خطبته لعدم وجود مستمعين له. كان يرتدى عباءته الأبدية المصنوعة من الصوف الخام الخشن، والمتصلة بغطاء رأس الرهبان، وقد بدا متناقضًا مع الرداء الكهنوتى اللامع، الذى يرتديه القس الذى يسير إلى جواره. أما أرنو مالكورن فقد ارتدى بالفعل زيًا كهنوتيًا أنيقًا خاصًا لهذه المناسبة.

زاد الموكب من سرعة سيره قليلاً. ومع ذلك فعند باب "الساهرة"، بدا حماسهم على أشده، عندما اكتشفوا أولى ربوات جبل أشجار الزيتون، وهنا بدأت الحوادث تندلع. مع أن الهدوء كان سائداً داخل المدينة، بعد الأذان لصلاة الفجر. فجأة، ضاعف المؤذنون من نداءاتهم بينما كانت الحشود الكثيفة، تتكتل فوق أسطح الأسوار. استطاع الصليبيون أن يلمحوا ويميزوا رؤوس بشرية عديدة بين الفتحات المتعددة للحافة العليا للأسوار، وكان لا بد أن يرفعوا أصواتهم، لكى يغطوا

على ذلك الضجيج الذى عم المكان. كان انطلاق السهام التى صُوبت إلى الموكب خطيراً، ولكنه لم يصب أى شخص بسوء، وقد فُسر ذلك فوراً على أنه علامة لصالحهم. بسرعة شديدة تلت السهام الأباريق المستديرة اللعينة، والتى كانت أكثر ما يخشونها، فهى ممتلئة بسوائل حارقة. دبت حالة من الذعر انتشرت فى الموكب، ولكن سرعان ما قمعت عندما أعطى رؤوساء رجال الدين أوامر مختصرة، بالرد على ذلك بالتلويح بالصلبان تجاه أعلى الأسوار. تعالت الضحكات، وبعدها الصرخات.

ضحك على بسخرية، وهو ينظر إلى سارة، ولكنها كانت غير مبالية، فقط ضمت إلى صدرها أموند الصغير، الذى كان يبكى.

- الله أكبر. همس على، وقد ثبت عينيه على مؤخرة رقبة أجات التى كانت تسير أمامه بينما انسدل شعرها الأسود الطويل اللامع، وقد صُفف بعناية على شكل ضفائر.

حدجت سارة بنظرة بغيضة على، الذى أشار بإصبعه تجاه الراية التى ارتفعت منذ بضع لحظات فى أعلى قمة برج اللقالق. على ما يبدو ظهرت راية رأس زعيمهم عند الأفق. تعالى طنين الأبواق، وغطى بذلك على أناشيد الفرنجة، مما أشاع الاضطراب فى صفوفهم.

- إنه أفتخار!

صاح أحدهم... لقد تعرف هوج على رئيس المدينة بشعره الأبيض المجعد. فمنذ أن وصلوا عند مشارف القدس، كثيراً ما كانت چوستين

تشير عليه لهوج، عندما كان يأتى لتفقد قمة برج داوود، ليلقى نظرة ثاقبة على من يحاصرونه.

أثار ظهور الزعيم العربى موجة جديدة من الهياج على قمة الأسوار. انطلق سهم فرشق تحت قدمى الكنسى دى أجويلير، الذى فز فى مكانه لتفاديه.

- اهدأ أيها الكنسى. همس الكونت ريمون دى تولوز.

- انظروا!

هكذا هتف حامل راية الكونت دى تولوز، وهو يشير إلى الحاجز الحجرى لقمة الأسوار. ظهرت عليه صلبان عديدة، ولكن شكلها مثير للرعب، حيث كستها جلود لحيوانات مختلفة ومن حولها عرب متنكرون فى أزياء رجال دين نصارى، وقد راحوا يرقصون بطريقة هستيرية ويصفقون. ما إن استطاعوا أن يدركوا ما فى ذلك من تدنيس للمقدسات بشكل استفزازى، حتى رسموا جميعاً، وفى الوقت نفسه علامة الصليب على صدورهم، ثم استمروا من جديد، وبصوت أعلى فى ترتيل الأناشيد، فى محاولة للتغطية وللظهور بشكل أفضل.

و لكن عندما بدأوا عبور وادى سيدرون، اضطر الموكب أن يبطئ من سرعته، حيث راح رجال الدين، وهم على رأس الموكب فى تسلق جبل أشجار الزيتون، فى وسط المقابر التى أخذوا يتجاوزونها بحرص. أبتعدوا فى الوقت نفسه عن المدينة، مما قلل تعرضهم للمخاطر. بدا

ضجيج العرب وقد هدأ، كما أصبح انطلاق السهام غير ضار الآن، فقد بات يرشق فى الشجيرات المنتشرة فى عمق الوادى.

راح الكونت دى تولوز يلهث بصوت عال فقد كان الجبل مرتفعًا ارتفاعًا حادًا، وبالتالى مؤلمٌ للغاية. لم يتردد الكنسى دى أجويلير عن مسح جبهته بشريط ردائه. فجأة قرروا التوقف للراحة، رأى ذلك أوائل رجال الدين الذين يسيرون فى المقدمة، وصمتوا للصلاة، بالقرب من كنيسة صعود المسيح، والتى كان مبناها مثمن الشكل، وكان متكررًا بشكل غريب فى لفيف من أشجار السرو، والتى راح أفراد الموكب يهيمون حولها، ويسترخون قليلاً. كان هذا المكان بمثابة ملاذ آمن ملىء بالهواء المنعش يلتقطون فيه أنفاسهم قبل النزول مرة أخرى فى اتجاه حديقة جتسمانى. من موقعهم المرتفع هذا، راحوا يتأملون المدينة، وكأنهم يكتشفونها، حيث علت أبراج كنائسها ومآذنها، وعلى وجه الخصوص القبة الصخرية الذهبية الضخمة[1].

– إن قبر المسيح المقدس خلفنا! همس بطرس الناسك

هز جودفروا دى بويون رأسه بالإيجاب.

– غدًا سنكون هناك. قال الكونت ريمون دى تولوز، معلنًا

– أخيرًا!

---

(١) انظر صفحة ٢٢٣ ما هو مدون بخصوص هيكل سليمان.

- إنها مشيئة الرب!

- الله يعيننا!

- سالفا ريچينا...

راح هوج يرتل من جديد تراتيل الأسقف أديمار بحماس كبير. كان يرمش بجفنيه أمام الشمس المائلة فى الانخفاض تجاه الغرب، ساعياً لأن يطبع فى ذاكرته كل تفاصيل المدينة، التى لم يعد اليوم يشك أحد للحظة أن الفرنچة سيصبحون أسيادها غداً. نظر إليه الكنسى ريمون دى أجويلير، وقد بدا سعيداً بهمة هوج وتحمسه. ها هو أخيراً الفارس هوج دو رواموّن نابض بالحياة، ومندمج مع الآخرين وعلى ما يبدو قد أصبح على المسار الصحيح.

كان ذلك اليوم هو الموافق لأسبوع قبل بداية شهر يوليو. لقد صار لهم بالفعل حوالى شهر من يوم أن وصلوا إلى منعطف الطرق، الذى رأوا عنده أخيراً الهدف الذى عانوا من أجله. راح هوج يفكر فى زوجته مارى. لقد مرت ثلاث سنوات على وفاتها، بدت له وكأنها دهر أبدى. سوف يستولى على القدس مع رفاقه، ثم يعود إلى بلاده. راودته فجأة رغبة جامحة فى احتضان ابنته الصغيرة إليانور، التى لا بد أنها كبرت. سيحين الوقت أيضاً أن يجعل من ابنه تييرى فارساً، وأن يرعى توءمه. مرت صورة أجات فى خياله، بشكل عابر، ولكنه طردها.



٢١

سرعان ما ضاعت وتبخرت تلك القرارات الجميلة، التى توصل إليها هوج، عندما جاءه چيفروا، ليوقظه فى صباح اليوم التالى، وقد بدا منزعجًا للغاية:

- لقد اختفت أجات... إلا إذا كانت معك. راح هوج يفتح عينيه باتساع كى يفيق. لقد نام بشكل مريح جداً، خاصة بعد مجهود السير على الأقدام فى اليوم السابق، وبعد أن اطمأن بالدليل القاطع أنهم سيكونون عما قريب داخل المدينة، ولهذا تهاوى على فراشه، وراح فى سبات عميق، ناسيًا الجوع والعطش.

مثل كل صباح، نفخت الأبواق عاليًا، معلنة بدء يوم جديد فى المخيم. منذ أن كان فى مدينة أنطاكية، كان هناك أحد الموسيقيين، وقد اخترع نغمة مبهجة، يستطيعون أن يدندنوا عليها بسهولة:

- إنها مشيئة الرب... إنها مشيئة الرب!

كان هذا العازف، ويدعى مارسيل، وهو أصلاً من مدينة ليموج فى فرنسا، قد قام بتغيير اسمه إلى أريحا، بواسطة الكنسى ريمون، ولكن

أسوار مدينة القدس لم تنهر مع ذلك، وهذا ما جعل عازف البوق يضحك كثيراً ببشاشة على أى حال، وعند المرور بكل محنة.

– إنها مشيئة الرب... إنها مشيئة الرب! راحت الأبواق تردد اللحن، فى حين كان المؤذنون داخل المدينة يرفعون الأذان، وقد غطت أصواتهم على بعض أجراس الكنائس المنعزلة، مثل كنيسة صعود المسيح المعلقة على أحد جوانب جبل أشجار الزيتون.

– لقد اختفت أجات. كرر چيفروا

– وماذا تريدنى أن أفعل حيال ذلك؟ رد عليه هوج، وقد راح قلبه يدق بشدة؛ بسبب استيقاظه المفاجئ، ثم أضاف: لقد حذرتك من قبل، وقلت لك أن تراقب زوجتك. ابحث عن ذلك الوغد القذر، وسوف تجد زوجتك.

راح هوج يلعب بأصابعه العصبية على القوس والنشاب، اللذين كانا ملكاً لإبل دى سوج، وآلا إليه بعد وفاته. أحدث الوتر الوحيد فى القوس صوتاً نشازاً.

– علىّ؟ هكذا تساءل چيفروا، وهو يفكر.

– ولكننا اليوم لدينا أهم وأفضل من أن نركض وراء امرأة. أجاب هوج، وهو ينهض بشكل مباغت من فرشته.

– چيفروا... قيل لى إنك تبحث عنى؟

التفت الرجلان إليها معاً، وفى الوقت نفسه. وقفت أجات أمامهما مسالمة، تبتسم، وقد بدت منتعشة.

– لم أستطع النوم... فاصطحبنى على إلى ينبوع سيلوه.

– ولكنه لم يعد به الآن بالكاد أى ماء. قال چيفروا متذمراً، ومثل هوج، أذهله نطق اسم على.

– لقد بدأ ينساب منه الماء من جديد منذ أمس، أثناء المسيرة.

– إنها شائعة أخرى من هــذه الشائعات التى تعيد إلينا آذاننا. رد چيفروا وهو يزمجر، ثم سألها: وأين على الآن؟

– إنه يصلى لربه هو الآخر.

هز هوج كتفيه باستخفاف. كان چيفروا قد تركه بالفعل، وسلك طريقه فى الدرب المؤدى إلى البرج الخشبى، والذى ينبغى العمل فيه طوال اليوم، إذا ما أرادوا أن يكونوا على أهبة الاستعداد. بالفعل كان الحطابون هناك، يقومون بقطع شرائح كبيرة من جذوع الأشجار، والتى ستستخدم كجسر للعبور. ابتعدت أجات هى الأخرى بخطى خفيفة، بينما كان هوج يتبعها، عندما عاد كلوڤيس، ومعه رغيف خبز، سيكون هو غذاءهم الوحيد حتى المساء. مر أمامهم طابور من حاملى الحجارة، وقد انحنت ظهورهم تحت وطأة أحمالهم، وبها جعبات من البوص مليئة بالحجارة، جمعوها من التلال المجاورة، وبالرغم من ذلك، تقدموا مثل الشياطين. فمنذ بضعة أسابيع قليلة، كانت مهمتهم ردم وسد الثغرات الموجودة فى الأرض، التى سيتم تركيب الأبراج الخشبية فوقها.

– هل يمكن للبابا أن يتصور كل هذا؟ تساءل هوج وهو يراقب طابور الحمالين الكئيب.

– كلا ليس على! هذا الوغد القذر ليس إلا خائنًا! بادر هوج عند وقت الظهيرة تقريبًا، اجتمع زعماء الفرنجة مع الفرسان. كان الطقس خانقًا، ومرة أخرى، كانت الحرارة لا تطاق، وأخذوا ينتظرون بفارغ الصبر حمولة جديدة من المياه، تحتم وصولها من بلاد السامرة التى تقع على نحو خمسة عشر فرسخًا شمال القدس. إذا كان جميع أفراد الفرنجة الموجودين حول المدينة، يخشون وقوع هجوم وشيك حاسم، فالعرب المحاصرون فى الداخل كانوا يحبسون أنفاسهم أيضًا. بعد الإثارة المستفزة التى أحدثتها مسيرة النصارى، فقد عم الهدوء من جديد فوق الأسوار، حيث قلّ رمى السهام وإلقاء الكرات الحارقة، وأصبح معدلها متواضعًا نسبيًا، مقارنةً بصباح اليوم ذاته.

– على... خائنًا؟

ارتسمت الحيرة على وجه الكونت ريمون دى تولوز، وراحت قطرات كبيرة من العرق تتساقط على جبهته.

– سوف يخوننا هذا العربى، عندما تسنح له أول فرصة. رد عليه هوج.

– رغم أن والده فيروز هو الذى فتح لنا أبواب أنطاكية. علق جودفروا دى بويون، وقد بدا مفكرًا، وهو يتحسس لحيته الشقراء، التى

أطلقها لتنمو بشكل عشوائى منذ أيام عديدة، وهو يؤكد أنه لن يحلقها بالكامل إلا عندما يدخل إلى قبر المسيح المقدس.

– إن الأب يختلف عن الابن... وفى النهاية لقد كان الأب خائنًا هو الآخر.

– ولكن على ذكى وبارع للغاية.

هز الكنسى ريمون دى أجويلير رأسه، وقد بدا على وجهه الاقتناع.

– بالضبط، فهو حليف للشيطان. سريعًا ما بادره هوج.

– فلتتذكر أيها الكنسى أن چيربر بنفسه[1] أُتُهم بأنه قد باع عقيدته لإبليس، بعد أن أراد التعرف بعلوم الكفار العرب. قال له مذكراً الكونت ريمون دى تولوز.

– أنتم تستهزئون! إنكم راضون تمام الرضا، وتستفيدون من خدمات الطبيب العربى أيربك، الذى يرعاكم، ويحسب لكم الأرقام. ليس معنى أنهم لا يعبدون الإله نفسه الذى نعبده أنهم جميعًا شريرون[2]!

– كفى! فلنعد إلى القدس. قال جودفرا دى بويون بنفاد صبر، وقد راحت درعه المعدنية الموضوعة عند قدميه، تلمع تحت أشعة الشمس الساطعة.

---

(١) هو البابا سيلفستر الثانى (٩٩٩-١٠٠٣)، وهو أصلاً من منطقة أورياك بفرنسا.

(٢) لقد نقل العرب إلى الفرنچة أيضًا كلمة "زيرو" أى "صفر" والتى تعنى "لا شىء" والتى أتت منها كلمة "عدد" بالفرنسية.

ظل على منتظراً مع الرجال المختارين لأول هجمة من برج ريمون دى تولوز، وعندما هبط الليل جالبًا معه بعض الهواء المنعش، أخيراً شحذوا جميعًا هممهم وقوتهم ليدفعوا بالأبراج، حتى يصلوا بها تحت الأسوار. فى اتجاه الشرق، تم وضع برج جودفروا دى بويون، وإلى اتجاه الغرب وأمام بوابة صهيون، وضعوا برج ريمون دى تولوز. بالإضافة إلى هذا، تم رش كلٍّ من البرجين بالخل، حتى لا تشتعل النيران فى جلود الحيوانات المعلقة. ومن حولهما، وعلى الأرضية غير المريحة المليئة بالحجارة، انتشرت جميع المعدات المتواضعة، التى تم تجهيزها على مدار الشهر المنصرم. وجهت إلى الأمام آلات الحرب التى تقذف الحجارة، وغُرست على شكل ملاعق خشبية ضخمة، لاحتواء القذائف والحجارة والحصى والمواد القابلة للاشتعال. تحركها مصادر خشبية، وتجد طاقتها مع دفع المنجنيق[١] بمختلف الذخائر تجاه الأسوار التى ما إن بدأت تهتز وتتداعى، أمكن مهاجمتها بفضل الغربان، وهى عبارة عن مخالب معدنية قادرة على هدم الأحجار. كما سيتم أيضًا دفع لوحات جبسية ضخمة، بواسطة نقاط حديدية مثبتة فوق (أكباش) أو قواطيع تحميها المبانى الخشبية. وأخيراً سينهمك الرجال حول (المدافع) التى ستنطلق منها السنانير الحديدية المربوطة بحبال، أملاً فى - رغم أنه أمل ضعيف - انتزاع أحجار الأسوار، والتى عُرفت بصلابتها.

(١) هى آلات الحرب لإلقاء الحجارة.

فى هذه الليلة ارتسم القمر على شكل هلال فى السماء، وكان بمثابة الشاهد الوحيد المتواطئ مع كل ما يقوم به الرجال من تجهيزات، ثم اختفى فجأة ليحل محله نور الصباح.

"إنه فى يوم الجمعة الموافق الخامس عشر من شهر يوليو". راح الكنسى ريمون دى أجويلير يدون باختصار على مخطوطته المتهالكة، وقد بدا متعباً، حيث لم يكد ينام.

– الله معيننا!

– إلى الأمام يا فرسان المسيح!

– فلتعلموا جيداً أن من يضح بحياته من أجل أصدقائه يفز بمحبة الله إلى الأبد! هكذا صاح للمرة الأخيرة جودفروا دى بويون وهو يرسم على صدره علامة الصليب، قبل أن يرفع يده فى اتجاه قبر المسيح المقدس، هدفهم النهائى. أشهر سيفه، فلمع تحت أشعة الشمس، مرسلاً بانعكاسه على شجيرة، ومضت بالقرب من الكنسى. رطم جودفروا سيفه ليرن على درعه المعدنية المبهرجة. بدا مزهواً وفخوراً بهيئته. من حول الفارس، انطلقوا كالحمى المجنونة.

ركضوا جميعًا تجاه الأسوار، كلٌّ منهم حاملٌ سيفه أو رمحه أو خنجره أو حتى عصاه الخشبية البسيطة، مشهراً إياها تجاه هذه المدينة التى لم تعد حلماً. تقدمت أيضًا فى صفوف متقاربة للغاية، حملة

الأقواس والرماة التى فهم الفرنچة مدى أهميتها فى تصادمهم مع الكفار. ولكن العديد منهم هرولوا مذعورين، بعد أن شاهدوا ذلك الكم الهائل من المقذوفات التى راحت تُلقى من فتحات حافة الأسوار لم يروه من قبل أبداً. راح المُحاصرون يدافعون عن أنفسهم بجسارة ومرارة لا تجب الاستهانة بها. من أعلى برج داوود، استطاع الفرنچة أن يلمحوا القائد العام أفتخار، وهو يتحرك يمينًا ويسارًا، ملقيًا بأوامره المتضاعفة، التى نقلها معاونوه إلى أقل المقاتلين تواضعًا، وهكذا عاد الكثير من الفرنچة الجرحى بالفعل إلى المخيم.

وقف الكنسى ريمون يطالع الموقف من نقطة مراقبته، محتميًا بظل شجرة زيتون هرمة، فرأى الرجال، وقد انهمكوا حول موقد نيران كبير، حيث أتى رماة الأسهم، لكى يشعلوا فيها، ثم راحوا يلقون بها بعد ذلك بقوة. سُمعت أيضًا ضربات المطارق على بوابة صهيون، كما لُمح المهاجمون، وقد اشتبكوا بشراسة على قمة برج ريمون دى تولوز. راح الكنسى يفكر فى هوج وعلى، وتساءل كيف أمكنهما أن يكره كلٌّ منهما الآخر بهذا الشكل؟

كل هذه الجهود اليائسة، لم يكتب لها النجاح! فقد استمرت القذائف والحجارة، وكرات القش المشتعلة فى السقوط بلا هوادة من فوق الأسوار، لتنشر الفزع والموت والدمار.

- أيها الكنسى... أَحْضِرْ لنا الطبيب أيريك!

هكذا صاح هوج، وهو يحمل على ظهره تابعه فولبر، ثم وضعه أمام الكنسى. على جبهته بدى جرح كبير.

– الله يعيننا!

أخذ هوج يعدل من خوذته بيد، ومن سيفه باليد الأخرى، ثم ما لبث أن غادر عائداً إلى أرض القتال. راقبه الكنسى ريمون دى أجويلير، وهو يجرى بين الأسهم المنطلقة فى كلا الاتجاهين ثم راح يتسلق درجات السلم المشدود جيداً إلى أعلى البرج الخشبى. فى قمة البرج، استمر القتال على أشده، وبدت الأجسام، وكأنها تتطاير فجأة فى الهواء قبل أن تسقط مرتطمة على مسافة بضع أقدام أسفل البرج. فى الجهة المقابلة، كان القائد أفتخار ما زال يصيح بأعلى صوته، ويشير بيديه يميناً ويساراً، ثم إذا بكتلة كبيرة من النيران الجريجورية، تتهاوى أسفل باب صهيون، الذى لم يستسلم بعد، لتبث الذعر فى قلوب الفرنچة.

على طول سفوح الأسوار، لم يعد يُسمع إلا الصرخات والعويل وأصوات ارتطام الأجسام بالأرض، أو فى كلمة واحدة: فوضى عارمة. وحين انتصفت شمس لا هوادة فيها وسط السماء، وبلغت ذروتها، سُمعت فجأة ضجة عالية شاعت فى المكان، ثم تفاقمت وكانت قادمة من اتجاه الشرق.

فى لحظة، انتقلت جموع المهاجمين نقلة ضخمة بقوة، لم يعرف أحد من قادها، إلى اتجاه الشمال. عمت فوضى عارمة لا توصف. لم يعد أى

مقاتل يطيع أى أمر، بل راحوا يجرون على أرض، تتناثر فوقها أدوات وأشياء عديدة، بل راحوا يعبرون بخطى واسعة فوق الجثث ليلتقطوا درعًا مُلقاة هنا أو سلاحًا مرميًا هناك.

– لقد نجحوا! هتف رجل دين، ثم التقط صليبًا، وراح يجرى ملوحًا به.

– نجحوا؟ غمغم الكنسى ريمون متسائلاً بصوت متشكك، رسم علامة الصليب على صدره، ثم أضاف: وفى الساعة نفسها التى مات فيها سيدنا المسيح... أشكرك يا ربى!

تصاعد دخان كثيف أمام باب صهيون... لقد اشتعلت النيران فى برج الكونت دى تولوز.

– نحن داخل المدينة! جودفروا وشقيقه أوستاش وتانكرد موجودون فى المدينة بالفعل! لقد مهد لهم الطريق مقاتل يُدعى ليتو(١)!

– و ماذا يؤخركم؟

بدا الكونت دى تولوز منفعلاً، بل خارجٌ عن شعوره، ثم راح يسعى إلى إعادة تجميع قواته دون أن يلتفت وراءه ليرى كارثة احتراق برجه على آخره. نهشته الحسرة وخيبة الأمل لعدم كونه الأول فى دخول المدينة، ثم أعطى بعض أوامر مختصرة بصوت عالٍ.

– هيا إلى بوابة اللقالق! فليعنِا الله!

---

(١) كان فارسًا من فرسان فرقة جودفروا دى بويون، وهو أصلاً من مدينة تورناى (شمال فرنسا).

فجأة سقطت من أعلى الأسوار جثث عديدة، كوابل من المطر المرعب. كان هوج وچيفروا فى مقدمة قوات الريفيين الجنوبيين، الذين استطاعوا الوصول إلى بوابة دمشق، والتى انفتحت فى منتصف سور الشمال. تتبعهما على مثل ظلهما. لكم قاتل بجسارة فوق قمة برج الكونت! فوجب على هوج أن يعترف بذلك، حيث قفز على فى آخر لحظة، تاركًا قوسه المشتعل.

– من هنا!

اندس روبير فى أول اقتحام، بارزًا من درب ملتو، على أحد جانبيه مسجد. فوق قمة المئذنة، لمحوا مؤذنًا ينادى إلى الصلاة بصوت يائس. ما إن رآه روبير، حتى نصب قوسه واستعد ليسدد له سهمًا، عندما صاح فيه هوج بسرعة قائلاً:

– كلا!

– نحن فى القدس... إنها المدينة المقدسة ويجب ألا ترى الفظائع نفسها؛ التى أُرتكبت فى الأماكن الأخرى.

هز روبير كتفيه، ومع ذلك أطاع أمر هوج. نزل المؤذن على عجالة من فوق المئذنة التى على شكل برج مربع غليظ، ثم سرعان ما اختفى.

ولكن كان يجب الإذعان سريعًا بحقيقة الأمر الواقع: سوف تخضع القدس لنفس المصير الشائع للمدن، التى استولوا عليها من قبل، وربما أسوأ. لقد بدأت المذبحة، وحتمًا ستستمر. غمرت الفرحة الفرنچة بفضل انتصارهم المنتظر، منذ وقت طويل جدًا، ولهذا لم يتمكنوا من احتواء

غرائزهم العدوانية وحبهم للقتال. لم يمنعهم عن ذلك وجود الأماكن المقدسة من حولهم... وحتى إذا ما ارتفع صوت ضدهم، فهل سيصغون إليه؟

هكذا تناثرت الجثث فى الشوارع، واندلعت معارك فردية ضارية بين الفرنجة والكفار، لا يمكن تصورها. مثل المقذوفات التى كانت تسقط على أسقف المنازل، والجلبة الخادعة التى كانت تنذرهم خطأ، بقدوم أحدهم، ثم تتلاشى بعد ذلك. وفى الوقت نفسه، حين كان الصليبيون يشاركون فى مثل هذه الصراعات المنعزلة، كانوا يتقدمون، ولا محالة، فى هذه المدينة التى بدت مهجورة جزئياً من سكانها. فقد بدا كل شىء هادئًا فى المنازل البيضاء المطلة على الشوارع الضيقة التى تنعشها فتحات تهوية صغيرة ومتواضعة. دفع روبير أحد أبواب هذه المنازل، وراح يتمشى فى حديقته، ويقتطف من ثمار أشجارها، ثم وجد نفسه أمام مجموعة من أدوات مختلفة تراكمت بفوضى كبيرة... يبدو أن أصحاب المنزل كانوا على عجالة، وهم يفرون منه.

– هيا بنا جميعًا إلى هيكل سليمان[1] .

---

(١) شُيدت القبة الصخرية بين عامى ٦٨٧ و٦٩١على قمة جبل موريا فى موقع هيكل سليمان نفسه، الذى دمره الإمبراطور تيتوس فى عام ٧٠ ميلادى. وهو من أهم الأماكن المقدسة فى الدين الإسلامى، حيث ضحى عنده سيدنا إبراهيم، وعنده أيضًا ارتفع فى السماء سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم. استوحى المهندس المعمارى الذى بناه تصميم المبانى البيزنطية، وهنا ظهر شكله المثمن. انضم إلى مبناه المسجد الأقصى الذى شُيد عام٧٨٠، وفى القرن الثانى عشر، ثم تحول بعد ذلك إلى سكن ملكى للملك بودوان الأول.

انطلق رجال جودفروا ينهبون الأرض نزولاً من أعلى المدينة، وهم يطاردون العرب، الذين كان رفاق هوج يحصدونهم بأطراف سيوفهم. بعد عدة مبارزات شرسة، كان الناجون منهم يسلمون سيقانهم للريح، بينما يطاردهم الفرنجة وسط أكوام الجثث الملقاة على طول سفوح الأسوار.

- إلى بناء هيكل سليمان!

أثارت الدعوة هياجًا جديدًا فيما بينهم... هرع هوج، وكان على فى ذروة انفعاله، كما هو الحال دائمًا. أشهر كلٌّ منهما سيفه، وعلى قمته المدببة عمامة من إحدى عمامات ضحاياهم، والتى كانت الأرض مفترشة بها.

فى طريقهم إلى ميدان صغير، تعرفوا على المبانى التى رأوها من فوق جبل أشجار الزيتون، تهيمن عليها قبة ذهبية ضخمة.

- يجب أن ندخل.

تحت قيادة جودفروا دى بويون، الذى أصبح من السهل التعرف عليه من الخوذة الذهبية التى يرتديها، حاول الرجال أن يفتحوا عنوة، الباب الأمامى الكبير الذى على شكل مستطيل، تحيط بها جدران غير منتظمة الشكل. حاول آخرون أن يتسلقوا الجدران، ولكن تم رشقهم بالحجارة فكفوا عن المحاولة. استمرت التجارب لفترة طويلة، ولكنها باءت بالفشل. كلما تحتم على المقاتلين مواجهة الهجمات، ظهرت من خلفهم أعداد من العرب العزل. راح الفرنجة يشقونهم بالسيوف، أو يتركونهم،

غارقين فى الدماء وبهذا أصبحوا هم أسياد الموقف. ثم فجأة، وعندما بدأت الشمس فى الانخفاض، تمكنوا من فتح الباب أخيراً. وفى الوقت نفسه كان روبير قد نجح فى الوصول إلى أعلى الجدار... أصابه المنظر بالذعر. فى الداخل، لم تكن هناك سوى صرخات الرعب. بدا اليائس على وجوه اللاجئين الموجودين بالمكان، خاصة النساء والأطفال الذين راحوا يجرون فى جميع الاتجاهات داخل الساحة الواسعة المحاطة برواق، على جانبيه أعمدة. ألقى الأطفال أنفسهم فى النافورات، فراحت أجسامهم تطفو على سطح الماء، فى حين تمركز الرجال فوق الأسطح فى محاولة أخيرة منهم للمقاومة، سواء بالسهام أو بالحجارة. قفز روبير بخفة من أعلى الجدار، فهبط أمام عمود حجرى، قطره ضخم.

- إلى الأمام!

بالفعل تقدم طابور من الصليبيين، فتقهقر المحاصرون تجاه المظلة الصغيرة، التى تغطى جدارها الفسيفساء. بلغ التدافع ذروته فتساقطت النساء، ودهستهن الأقدام. جن جنون الرجال العرب الصامدين على الأسطح، فضاعفوا جهودهم، ولكن بعض السهام سُددت إليهم بدقة فقضت عليهم.

- إلى الأمام! والله معيننا!

سريعاً ما تكومت الجثث تحت المظلة الصغيرة. لاذ الناجون بالفرار إلى قاعة الصلاة. داس الصليبيون بأحذيتهم الملطخة بالدماء على

أرضية المكان، وسرعان ما كانوا يدفعون الأبواب المنقوشة بخشب الأرابيسك، التى تداعت أمام عدة ضربات قوية من البلطات الحادة.

- إلى الأمام!

- أوقفوا هذه المذبحة!

- كلا... يجب أن يكفروا بدينهم!

- تحلوا بالرحمة!

حاول بعض الفرنچة كبح موجة الغضب الدموى القاتل، التى اعترت زملاءهم، ولكن بعد فوات الأوان. فى وسط غابة من الأعمدة[1]، راح الفرنچة يطاردون بشراسة غير مسبوقة أعداءهم الذين يلعبون معهم لعبة استخفاء مرعبة. لم يكن هناك أى مجال للرحمة أو الشفقة، فسرعان ما تحولت الأرضية والجدران الحجرية الفاتحة اللون إلى بقاع من الدم المرشوش، وتكدست الجثث فى كل مكان. صعد هوج على بعض درجات المنبر ليكتشف من فوقه المنظر المفزع. أمامه وجد الأئمة[2] وقد اصطفوا فى خط على طول مكان القبلة. جحظت عيونهم وهم يراقبون، غير مصدقين لهذا المشهد، وكأنه كابوس. فى لحظة كان الأئمة هم الوحيدون الناجون من هذه المذبحة، وعندما وجدتهم جبهة الفرنچة أمامهم، كانت

---

(١) كان هناك ٢٨٠ عموداً موزعة فى ١٤ قاعة من قاعات المسجد الأقصى.

(٢) فى صلاة الجماعة عند المسلمين يكون شخص واحد هو الإمام، وليس مجموعة أئمة (المراجع).

هناك لحظة من التردد. إنهم عزَّل من دون أسلحة، مغلوب على أمرهم، وراحوا ينتظرون. ومع ذلك لم يفروضوا أنفسهم لفترة طويلة. قام چيفروا بالخطوة الأولى، فسقط إمام، ثم الثانى. صاح الآخرون "الله أكبر"، ثم سرعان ما ذبحوا جميعًا بالسيوف، مخترقة أجسادهم، أو فاصلة رؤوسهم عنها.

فى هذه اللحظة رأى هوج على يستدير ناحية چيفروا، ويهدده بالسيف قائلاً:

– لقد احترموا أماكنكم المقدسة! لم يكن عليك قتلهم.

رد عليه چيفروا بأن مس بحد سيفه سيف على، الذى لم يحرك ساكنًا. بل وقف ثابتًا على ساقيه المنفرجتين، وظهره إلى المنبر الذى زينته فسيفساء براقة[١].

راح المتقاتلان ينظران إلى بعضهما البعض، وقد لمعت فى أعينهما ومضة من الكراهية للحظة قبل، أن يتلاقا سيفيهما مرة أخرى. لم يترك هوج مكان المراقبة، الذى كان واقفًا فيه. بدا الفرنچة راضين بما قاموا به، فها هم عائدون الآن تجاه الأبواب، وهم يتخطون فوق الجثث التى غطت الأرض، وكأنها سجادة دموية. سرعان ما أصبحوا ثلاثتهم وحدهم من جديد. سيطر چيفروا على الموقف من فوق رأس على، ولكنه كان خفيف الحركة.

---

(١) هو المحراب الذى يمثل وسط الجدار الشرقى فى المسجد، ويشير إلى اتجاه مكة المكرمة.

– من يعش منا سينال أجات! صاح فيه فجأة على، وهو يسدد سيفه القوى بمهارة نادرة تجاه صدر چيفروا الذى أفلت منه بصعوبة.

– أجات زوجتى. رد عليه چيفروا بصوت لاهث

– الأحرى بك أن تقول إنها زوجة هوج! قال على، وهو يضحك ساخراً قبل أن يهاجمه چيفروا بدوره، دافعًا إياه داخل المحارب.

ولكن على، قام بتخليص نفسه، ومر تحت ذراع چيفروا، الذى وجد نفسه وقد انحبس بدوره ملتصقًا بالجدار، حتى إنه شعر بنتوءات الفسيفساء فى ظهره. ساد صمت ثقيل فى أرجاء القاعة الواسعة، وقد أصبح هوج هو الشاهد الوحيد على هذه المبارزة التى لا يمكن أن تنصرم إلا بموت أحد الطرفين المتنازعين. تسللت أشعة الشمس المنخفضة من خلال الأبواب المنفتحة، راسمة خطًا محورياً أمامهم، بينما انعكس بعيداً عن الفناء، ظل المئذنة.

بدت المعركة تميل لصالح چيفروا الذى حاصر منافسه من جديد لاصقًا إياه بالحائط، ثم أجبره على ترك سيفه الذى أحدث ضجيجاً أصم، وهو يسقط على الأرض، بين جثتى اثنين من الأئمة. ولكن وبسرعة مذهلة، استل على خنجر أبيه الصغير من درعه، وبقفزة عصبية، ألقى بنفسه على چيفروا، الذى وجد نفسه فجأة، فى موقف لا يحسد عليه، فطرف الخنجر على قيد أنملة من رقبته. رغم كونه أقوى بكثير من على، فإنه تمكن بصعوبة من دفع يده المتشبثة بمقبض الخنجر العاجى.

تدحرج چيفروا على الأرض من شدة الاندفاع. في ومضة عين، كان على جاثماً فوق صدره، ملوحاً بخنجره في الهواء. ولكن في اللحظة التى هم فيها بغرس خنجره في صدر الفرنچي چيفروا المهزوم، إذا بيد قوية تنقض عليه وتزيحه من فوق فريسته. كانت هذه هي يد هوج، الذى قفز من فوق المنبر، منقضاً عليه، ومطيحاً به تجاه الجدار، فارتطم به ساقطاً ومغشياً عليه، بينما راحت ذراعاه تترنحان يميناً ويساراً. نهض چيفروا من مكانه، وهتف قائلاً لهوج:

– اتركه لي!

– كلا...أنا الذى سيقتله!

في حركة كبيرة ومتقنة، فصل هوج رأس على عن جسده، فتدحرجت حتى وصلت عند قدمي چيفروا، فراح يطالع وجه على الذى ما زال مفعماً بالحيوية، بينما ارتسمت على فمه ابتسامة. رنت في آذان چيفروا مرة أخرى كلمات على وهو يقول :

– من سيحى سيفوز بأجات!

– من سيحى سيفوز بأجات! هكذا كرر بالضبط هوج، وهو يمسح نصل سيفه من دماء على، بعمامة أحد الأئمة.

– إننا لهمجيون! أضاف هوج، وهو يجز على أسنانه.

– كيف أصبحت لدينا القدرة على مثل هذه الوحشية؟ تساءل چيفروا.

– لأننا نحب ذلك! قال هوج، وهو يتخطى الجثث التى أحاطت به من كل جانب، كى يتمكن من الذهاب ناحية الأبواب.

وقف الكنسى ريمون دى أجويلير عند عتبة الباب الرئيسى، ليتأمل مشهد الخراب فى الساحة. ها هى جثة تسقط من أعلى المئذنة عند قدميه... وهذا رجل يغطى الدم جسده، يحاول النهوض من مكانه... وهناك صوت طفل يبكى... إذن ما زال من هم على قيد الحياة.

– الدم... والفزع... والرعب... هذا هو ما جلبناه! لست متأكداً ما إذا كانت هذه هى رغبة البابا وأمنيته. علق الكنسى ريمون، ثم أضاف: هل سيسامحنا الله؟

– ألم يكن بالتحديد فكرة البابا أننا على الأقل أحجمنا عن أعمالنا الوحشية المعتادة فى بلادنا؟ سأله هوج قبل أن يضيف: فقد صار لنا ثلاث سنوات الآن، لم نصب فلاحينا أو فلاحاتنا بأذى.

– تبارك الله الذى جنب سيدى الأسقف أديمار دى مونتيل، رحمه الله هذا المشهد! هكذا اكتفى الكنسى ريمون دى أجويلير بالرد، وصوته متهدج. بدا الخجل واضحًا على وجه جودفروا، ثم أضاف الكنسى ريمون: لقد لمحته منذ قليل يسير حافى القدمين تجاه جبل أشجار الزيتون.

ساد المسجد والمناطق المحيطة به هدوء غريب.

– أين ذهب الجميع؟ تساءل هوج بحيرة.

– إنهم عند برج داوود.

مرت چوستين لتوها من خلال أبواب الساحة الثقيلة. كانت جالبة هى وغيرها من النساء، بعض حاويات المياه التى أحضرتها آخر قافلة ووضعتها للتو، عند أبواب المدينة. ناولت چوستين الماء لهوج، فراح يشرب منها مستمتعًا، حيث لم يعد طعمهما المقزز يصيبه بالغثيان منذ فترة طويلة. قدمت له خادمة سمينة رغيفًا من خبز الشعير، فكان بنفس سوء طعم الماء.

انفزعت النساء عندما شاهدن منظر المذبحة، وقالت بعضهن:

– كيف استطعتم فعل ذلك؟ هكذا سألن وهن يرسمن على صدورهن علامة الصليب، ثم قلن: القدس لكم، ولكن العار عليكم.

بدأ الرجال يمسكون بالجثث، ويلقون بها من فوق أحد أسوار المدينة الذى كان متاخمًا للمسجد الأقصى من ناحية الشرق، فراحت تتهاوى وسط شجيرات وادى سيدرون. وقف مارسيل، عازف آلة البوق، بين فتحتين من فتحات حافة أعلى أسوار المدينة، وراح ينفخ فى بوقه، محدثًا طنينًا حزينًا طويلاً، وكأنه شكوى، فراحت ترد عليه من بعيد إلى أبعد أصوات أبواق عازفين أخرى.

لقد جعل الرعب والدمار نشوة الانتصار ضئيلة، وها هى الأبواق بطنينها الرتيب تُعرب عن مدى كآبة وحزن هذا الانتصار.

فى مواجهة هذه الشمس، التى أصبحت كالكرة المتوهجة، عاودا هوج وچيفروا، وهما منكسا الرأس أدراجهما، فى اتجاه الغرب. لقد استولى چيفروا على خنجر على الصغير، ولكن لا هذا ولا ذاك،

وهو يمر وسط الجثث، التى غطت الأرض المليئة بالغبار، رغب فى المزيد من القتال. وبالرغم من ذلك، فلم ينتهيا بعد من تلك الفظائع. فقد شاهدا خلال مرورهما بالحى اليهودى، الدخان الأسود يتصاعد فى السماء.

– لقد أغلقوا على اليهود، ويقومون بحرقهم الآن. فسر لهما رجل وهو يفر وعيناه زائغتان.

أخيراً وصلا إلى قلعة داوود، وهناك امتلأت عيونهما بالفرحة، حيث لاحت بشائر الهدنة. شاهدا مجموعتين من الرجال جالسين وجهًا لوجه تتحاوران فى هدوء. تعرفا على افتخار، الزعيم العربى، محاطًا بحراسه وحاملى راياته البيضاء، المطبوع عليها رأس فخور (الرأس المعصوبة). جلس أمامه الكونت ريمون دى تولوز، يساعده تانكرد، وراحوا يتفاوضون. أما ليتو، وهو أول فرنجى دخل وتغلغل فى المدينة، فقد وقف بالقرب منهم هو الآخر. بدا الكونت ريمون مذهولاً، وقد هاله ما حدث من مجازر، كان على أتم استعداد لقبول أى شىء. سريعًا ما توصلا إلى اتفاق، وهنا أعطى الزعيم العربى أفتخار بعض الأوامر السريعة لحراسه. انفتحت برفق أبواب قلعة داوود وبدأت تخرج منها مسيرة بطيئة. ها هم رجال ونساء وأطفال، قد تم إنقاذهم بأعجوبة، يسيرون فى هدوء. نظر أفتخار إلى الصفوف الأولى منهم نظرة مصيرية حزينة، ثم ما لبث أن انضم إليهم هو الآخر، ومن حوله حراسه المحيطون به على الدوام، رافعين راياته التى راحت ترفرف بشكل طفيف، تحت تأثير نسمة هواء ليلية عليلة.

- "إن الله مع المتقين"... فقط بادر افتخار بهذه العبارة الفرسان الفرنچة الذين نكسوا رؤوسهم.

لم يرفع افتخار عينيه إلى أعلى، حتى لا يرى رايات الصليبيين التى تبدت أعلى القلعة، وراح يتبع فرقته التى كانت ملابس جنودها ممزقة. من بعيد، رافق طنين أبواق مارسيل ورفاقه من نافخى الأبواق الموكب الحزين، الذى سلك طريقه، بعد أن نزل انحدار، إلى بوابة يافا التى انفتحت فعبروا من خلالها فى صفوف متزاحمة.

غابت الشمس، وهبط الظلام، فراح ضوء الغسق، وكأنه يُلقى بغلالة على الأهوال التى وقعت نهاراً. شعر الكونت ريمون دى تولوز بالارتياح. فبعد تلك الفظائع، أراحته هذه المبادرة بالسماح لأولئك الذين ما زال فى الإمكان إنقاذهم أن يحيوا حياة آمنة... لقد شعر بالتصالح مع نفسه، أو تقريباً هذا هو ما أحس به.

- القبر المقدس! غمغم الكونت ريمون دى تولوز.

- اتبعنى. أجابه بطرس الناسك

لقد أمضى الرجل المسن يومه فى الصلاة، وسط رجال الدين، وقد تجمعوا حول مذبح مُقام بالقرب من كنيسة القديسة مارى أم الرب، المواجهة لبوابة صهيون. سار الفرنچة فى موكب تحت قيادة بطرس الناسك الذى عاوده بعض الحماس والنشاط. وما إن أصبحوا على بعد خطوات قليلة من الأماكن المقدسة، حتى اعترض طريقهم رجل وقف أمام قواتهم، ذات الصفوف غير المنتظمة، وقال:

- أنا الأخ چيرار تونج، مدير مستشفى القديس چان. توقفوا أيها المتوحشون الكفرة مرتكبى الذنوب! عار عليكم! هل ستتمكنون من التكفير عن ذنوبكم هذه، فى يوم من الأيام؟ بماذا يجدى إذن مشيكم فى مسيرات هكذا؟ هل تعرفون أن الخليفة عمر، استقبل بترحاب وضيافة بطريرك المدينة، عندما دخلها على ناقته البيضاء؟ وأنه احترم الأماكن المقدسة؟ من الذى طلب منكم أن تدمروا كل شىء؟ لم يحدث أبداً أن مُنع حاج من القدوم إلى هنا للصلاة على القبر المقدس... لقد كذبوا عليكم!

فوجئ الكونت ريمون دى تولوز، وقد راح ينظر إلى الرجل الذى اعترض طريقهم. لقد فرض نفسه بهيئته الموقرة وقامته الطويلة، وعلى الأخص صدق كلامه.

- ما ردك على هذه الاتهامات؟ التفت الكونت ريمون يسأل بطرس الناسك.

- لا شىء.

بدا الإجهاد والضجر على وجه بطرس الناسك، وراح الرجل الضئيل ذو العباءة الصوفية الخشنة، يتقدم إلى الأمام غير آبه. انسحب چيرار تونج، وأفسح لهم الطريق.

أخيراً توقف بطرس الناسك، بعد خطوات قليلة للأمام. ظهرت أمامه مبانٍ غير متجانسة، ووقف رجال الدين ذوو اللحى الكثيفة، وقد شكلوا سوراً بشرياً. ارتدى معظمهم ملابس أنيقة، أقمشتها باذخة،

سواء كانت بيزنطية أو عربية منقوشة بالزهور أو سعف النخيل الصغير أو حيوانات. إنه لترف يتناقض مع جماعة الفرنچة المهوشة، مما عزز من زهو وعظمة وجودهم حراس الأماكن المقدسة.

مر أمامهم موكب الصليبيين المنبهرين فى صمت مطبق. بعد ذلك، وظاهريًا أمام الجميع، خلعوا خوذاتهم وأحذيتهم فى هذه الساحة الأولى. هكذا حفاة الأقدام ومكشوفى الرؤوس، كان من الممكن أن يعتقد من يراهم أنهم حجاج مسالمون، لولا أسلحتهم التى احتفظوا بها بكل حرص. دلفوا من خلال متاهة من الدهاليز والقاعات، مارين ببقايا آثار وأطلال[١]، لاهثى الأنفس، ولكنهم ملتزمو الصمت دائمًا، حتى وصلوا فى النهاية إلى البناء الدائرى الضخم، الذى أمر بتشييده الإمبراطور قسطنطين قبل سبعة قرون سابقة[٢]. راحوا يملون عيونهم بخشوع وتبجيل بالآثار الموقرة الموجودة من حولهم، وكأنهم يقبلونها، وقد تسمروا فى أماكنهم من التأثر الشديد... بل لم يجرؤ أحد منهم أن ينطق بكلمة. ترامى إلى مسامعهم من بعيد دوى البوق المزعج، الذى ينفخ فيه مارسيل، مواصلاً رثاءه الحزين. نسى الكونت ريمون دى تولوز

---

(١) هى الكاتدرائية الكبيرة التى شيدها الإمبراطور قسطنطين فى القرن الرابع، ثم هدمها الخليفة الحكيم فى عام ١٠٠٩ .

(٢) أعاد الإمبراطور البيزنطى قسطنطين مونوماك ترميم قبر المسيح المقدس فى عام ١٠٤٩، مع الاحتفاظ بالساحة الكبرى التى بنى الصليبيون عليها كاتدرائية أخرى كبيرة أُفتتحت فى عام ١١٤٩ .

كل شيء من حوله، وكان أول من ارتمى على الأرض، ناشراً ذراعيه على شكل صليب، فقلده الآخرون على الفور.

من دون أن يُحدث أى ضجيج، دخل جودفروا دى بويون إلى المكان وانضم إليهم. امتلأت عيناه بالدموع من شدة التأثر، وراح يؤم الآخرين فى صلوات خاشعة، ومستغرقة للغاية.

هبط الليل وانعكس بصيص من الضوء الخافت على قبر المسيح. رفع هوج عينيه إلى أعلى، فرأى القمر، وقد ارتسم فى السماء على شكل هلال، منعكساً بدوره على اللوح الحجرى البسيط، الذى يمثل قبر المسيح. كان المبنى مفتوحاً ومن دون سقف.



٢٢

فى صباح اليوم التالى كان الاستيقاظ أمرًا صعبًا للغاية. انتشرت فى المكان رائحة نتنة ونفاذة للغاية، راحت تتخلل أرجاءه، وقيل إن السبب الرئيسى هو التخلص من الجثث. فقد تم تجميع الجثث التى أُلقيت من فوق أسوار المدينة، واستغرق حرقها أيامًا كاملة. من ناحية أخرى، اكتشف الفرنجة بعض السكان مختبئين فى منازلهم، فأمسكوا بهم وسجنوهم.

إذا كانت المجازر التى ارتُكبت فى اليوم الأول، ما زالت محفورة فى أذهان الجميع، وهذا ما يمكن تفسيره من السعادة الظاهرة فى أعين بعضهم، إلا أن غرائز المنتصرين راحت تنشط وتتقد من جديد من أجل مزيد من المتعة والتسلية. ولهذا كان جودفروا دى بويون ورجاله أول من استولوا على كنوز معبد سليمان.

- ها هى أربعون شمعدانًا من الفضة! يزن كل منها ثلاثة آلاف وستمائة دراخمة[1].

---

(١) الدراخمة وحدة وزن تعادل٢٤ ,٣ جرام.

- والمصباح الفضى الكبير يزن على الأقل أربعين أوقية(١).

- أما الشمعدانات الصغيرة، فكلها من الذهب.

راح هوج يعلق هو وجيفروا وروبير على ما نهبه القادة. لقد أحضر جودفروا كنزه ووضعه فى برج داوود الذى قرر أن يحتله على الرغم من معارضة الكونت ريمون دى تولوز الذى كان يعتبر نفسه مالكه بالفعل. ألم يستسلم له افتخار؟

لهذا شاهدوا الكونت دى تولوز، وقد بدا خائب الأمل، غير راض، بل راح يتخبط فى معبد سليمان، ثم يصلى أمام الشاهد الحجرى للقبر المقدس ليلة كاملة دائمًا بنفس الحركات المسرحية التى كانت تثير عصبية جودفروا دى بويون. بعد ذلك عزل نفسه فى منزل جميل داخل الحى اليهودى ليس ببعيد عن المسجد الأقصى. داخل البرج المُشيد فى زاوية من زوايا المنزل، جلس الكونت ليراقب ويشرف على جهود رجاله وهم يسعون للوصول إلى أعلى القبة الذهبية الكبيرة، كى يغرسوا فوقها صليبًا، كرمز بارز على استعادة نصارى الغرب المدينة. هذا الصليب الذى استخرجه من كنزه الشخصى يمكنه أيضًا أن يدل على أنه ما زال القائد الأعلى لجيوش المسيح.

---

(١) الأوقية فى ذلك الوقت كانت وحدة وزن أيضًا تتراوح ما بين ٣٠٠ و٥٠٠ جرام، حسب المنطقة.

حان وقت الاستقرار فى المدينة وتقاسم بشىء من التساوى ما تم نهبه من غنائم، نتيجة نهب عام لم يعد يوُزع على القادة فقط، ولكن على صغار الجنود. وسيشارك فيها كلٌّ منهم بطريقته الخاصة. ففى البداية كان الفرسان يحتلون بفوضى، ليس لها مثيل، المنازل التى هجرها أصحابها، والتى سرعان ما أُعلنت ملكًا لأول محتل لها، والذى بدوره، يصبح سيد المنزل، دون أى نقاش كان.

هكذا استقر چيفروا فى منزل رائع شُيد حول حديقة غناء. لا بد أنه كان ملكًا لشخص ثرى، حيث إنه كان مريحًا وفخمًا من الداخل ويزخر بآلاف المقتنيات الثمينة، حتى إن چيفروا لم يعرف كيف يحصيها. سكن هذا المنزل هو وأجات وأموند الصغير.

كان هوج هو من أعلن لأجات عن موت على، هكذا بطريقة مختصرة، ودون الدخول فى أى تفاصيل. ولكن عندما رأى دمعتين تتكونان تحت رموشها السوداء، اشتعلت فى صدره نيران الغيرة، فأضاف قسوة:

- أنا الذى قتلته، فقد كان يحبك أكثر مما ينبغى!

نظرت أجات إليه ببرود وقالت:

- أما أنا فأكرهك! هكذا بادرته أجات، وهى تضم إلى صدرها تلك الطبول الصغيرة، التى طالما عزف عليها على من أجلها. كانت هذه الأدوات، ورغم تواضعها بمثابة كنز لها، حيث إنها من على.

منذ ذلك الحين، لم ير هوج أجات مرة أخرى، أما هى فلم تعد تبرح هذا المنزل الجميل، إلا فيما ندر، حيث راحت تتسلى بارتداء الفساتين الحريرية الطويلة التى اكتشفتها فى خزائن خشبية تعج بمثل هذه الأقمشة من الموسلين(١) الهفهاف الذى اعتادت النساء العربيات ارتداءه. ذلك فقد اعتقد هوج أنه قد لمح هيئتها بشكل سريع عابر عندما مرت أمامه ساعة الغسق عند منعطف درب ضيق. ظل يتتبعها حتى وصلت إلى المنزل الذى تعيش فيه الكونتيسة إلقير. إن هذا الجسم المشوق الطويل ذا الخطوة الرشيقة والذى راح ينزلق فوق تلك النعال الصامتة لا يمكنه إلا أن يكون لأجات.

أما چوستين فقد استقبلت هوج فى منزلها الصغير، الذى عادت إليه، وهى فى منتهى السعادة ، وهو مجاور لأحد أسوار المدينة بالقرب من بوابة يافا.

– تعال لتسكن عندى. قالت چوستين لهوج ثم أكملت: لن أطلب منك شيئًا... أعلم أنك لن تحب مرة أخرى.

أجابها هوج بابتسامة باهتة، وبضع كلمات لم تترك أى بارقة أمل للأرملة الشابة:

– لن أُثقل عليك طويلاً... لقد تحررت القدس، وقد حان الوقت لكى أعود إلى بلادى.

---

(١) اسم قماش ناعم ورقيق مثل الشاش سُمى بالموسلين، نسبة إلى مدينة الموصل.

ومع ذلك كانت عـادةً مـألوفة لدى هوج أن يداعب ابنتـها الصـغيرة إيلين أو يهدئ من روعـهـا حـيث كـانت تحب أن تحـتـمى بين ذراعيـه. وكانت جوستين ترمقهما بحنان.

كما أحضر هوج معه أيضًا تابعه الشاب فولبر الذى أصُيب أثناء اقتحام المدينة، وراح الطبيب أيربك يعالجه، ولكن بقليل من الأمل. أما جييوم الشاب، ابن صديقه بيرنييه، فقد لقى حتفه.

أقرب جار لمنزل جوستين، كان الكنسى ريمون دى أجويلير الذى اختار العيش فى منزل أحد النساخين بعد أن وجده مختبئًا فى القبو، وهكذا عاشا معًا من دون مشاكل. هكذا أُتيحت للكنسى جميع الأدوات اللازمة، لعمله وراح يمضى لحظات طويلة أمام مكتب مائل، تم تجهيزه تحت المظلة المطلة على الحديقة الضيقة التى تنعش وتجدد هواءها قناة صغيرة من الماء المتدفق وسط الأشجار المثمرة بالفاكهة.

اعتـاد هـوج القيـام بزيارته مسـاءً، حتى يتسـامرا معًا ويعلقا على الأحداث:

– داخل معبد سليمان، وفى الرواق الذى تحده الأعمدة كانت الخيول تغوص وهى تمشى فى الدم، حتى ركبها أو حتى أفواهها... ها هو ما كتبته، فهل هذا مبالغ فيه؟ تساءل الكنسى الذى كان يستيقظ كل ليلة، تطارد مخيلته هواجس تلك الصور الدموية.

– للأسف، كلا! قال له هوج مؤكدًا: أبدًا لن نستطيع أن ننسى ذلك... أبدًا!

أطرق الرجلان وقد استغرقتهما الخواطر الكئيبة نفسها، ولهذا شعرا بتقارب كبير. بعد ذلك عادا إلى الوقائع الحاضرة، وراحا يتناقشان فى أحداث اليوم. ثم حدث ذات مساء أن وجد الفارس هوج الكنسى ريمون ثائرًا ثورة عارمة، صعب عليه احتواؤها. لقد علم أن قادة القوات قد أزاحوا رجال الدين الشرقيين من خدمة ومسئولية قبر المسيح المقدس؟

– المجانين! يا إلهى... لماذا أخذت إلى جوارك عبدك المطيع أديمار؟ لو كان لا يزال على قيد الحياة، لما كان سيغفر أبدًا مثل هذا الشىء. راح الكنسى يردد، وهو يرفع ذراعيه إلى السماء وكأنه يستنجد بالملاذ الأخير فى مواجهة جنون هؤلاء الرجال الدمويين الظالمين. لماذا يخلعون أولئك الذين تعهدوا بالحفاظ على قبر المسيح المقدس على مدار قرون؟ حتى الكفار كانوا يحترمونهم(١)!

و مع ذلك لم ييأس الكنسى ويصل لذروة سخطه وحنقه مما حدث. فبالطبع فُتحت مناقشات اتسمت بالحدة اعتبارًا من يوم الأحد الذى تلا الاستيلاء على المدينة، وتركزت حول الوصايا على القدس: فمن

(١) جدير بالذكر أن المدينة كانت تحت سيطرة إمبراطورية القسطنطينية، ولكن قساوسة من أصول شرقية (يونانية، چورچية، أرمنية، قبطية وسورية) كانوا يطبقون معًا الطقوس الدينية فى قبر المسيح المقدس فى إطار تقليد قديم احترمه جميع الغزاة، الذين فتحوا المدينة منذ الأزل، وحتى الآن.

سيكون حاكمها الحقيقى؟ ومثلما حدث فى مدينة أنطاكية، استشاطت مجموعة الصليبيين الرائعة كالشرر المتطاير وتكشفت نياتهم وغرائزهم الوضعية المستعمرة من جديد وبوضوح.

تواجه رجال الدين والعلمانيون فى مناقشات عقيمة لا تنتهى. هل ينبغى أن يكون حاكم القدس رجل دين أو ملكًا؟

- إذا كان البابا قد اختار أديمار دى مونتيل كرئيس لجيوش الصليبيين، فهذا معناه أنه أراد جعل الأسقف حارسًا للمدينة. بادر بعضهم بالقول

- لا بد من ملك قادر على الدفاع عن المدينة! رد عليهم آخرون، وهم يشيرون إلى ما وقع من أحداث وتقلبات ألقت بالقدس فى أيدى الكفار.

- والإمبراطور؟

فى الواقع كان إمبراطور القسطنطينية أبعد ما يكون عن اهتمامات الصليبيين. ومثلما حدث فى مدينة أنطاكية، كان من المستحيل أن يسلموا له المدينة المقدسة... ولتذهب إلى الجحيم كل العهود والأقسام الجميلة!

و مع ذلك، فقد توصلوا إلى اتفاق مع نهاية الأسبوع. سوف يكون هناك قائدان للمدينة. ولن يكون أمام الطرفين إلا أن يتفقا معًا.

- أرنو مالكورن...

هز ريمون دى أجويلير رأسه بتشكك... لم يرضه تعيين هذا الرجل كبطريرك للمدينة، والذى كان سابقًا لا يتعدى قسيسًا متواضعًا لدوق نورماندى.

– وما نقاط الضعف التى تجدها فيه؟ سأل هوج الكنسى ريمون فى المساء ذاته بعد أن انضم إليه فى الحديقة الصغيرة الفواحة، حيث وضع فيها أريكة حجرية تحت شجرة خوخ مملوءة بالفواكه.

– إنه لم يؤمن أبدًا بالحربة المقدسة...

– ومن الذى آمن بها؟ سأل هوج وهو ينظر بطريقة ثاقبة ومباشرة فى عينى الكنسى ريمون الذى امتلأت خداه من جديد بعد أن أصبح الغذاء يرضى الجميع مرة أخرى بفضل المخزون الضخم الذى كان يكدسه أفتخار، ولهذا لم يكفوا عن اكتشاف المزيد من المؤن الغذائية سواء فى الأقبية أو فى الكهوف.

– أنا! رد عليه الكنسى، وهو يفرغ فى جوفه دفعة واحدة القارورة الصغيرة المصنوعة من الزجاج الملون التى سكب هوج فيها نبيذ توت العليق.

– وما الذى تلوم عليه أيضًا أرنو المسكين هذا؟

– إنه لم يتردد فى معاشرة عاهرات جيوشنا!

ضحك هوج من قلبه، ثم قال:

- أعتقد أنه لم يكن الوحيد من رجال الدين الذى فعل ذلك!

- هوج... لماذا تقول مثل هذه الأشياء؟

امتقع وجه الكنسى ريمون؛ بسبب هذه الإساءة، فأصبح لونه قرمزيًا.

بالإضافة إلى الأسقف أرنو، فقد اختُير جودفروا دى بويون ليكون ليس ملكًا، فقد رفض ذلك، وإنما أمين أسرارالقدس، أى حاميها. هكذا راح الفارس يردد على رفاقه بنبل، عبارة أثرت فيهم جميعًا:

- كيف لى أن أرتدى تاجًا من الذهب فى المكان الذى ارتدى فيه السيد المسيح تاجًا من الأشواك؟

وحيث إن الفارس جودفروا كان دائمًا شخصًا متحمسًا وعارمًا، فقد أثبت من جديد صدق وحماسة إيمانه. لقد سُر العديد منهم وهم يتذكرون كيف امتنع جودفروا عن أى مجزرة، وأصر على أن يدور المدينة بأكملها حافى القدمين فى الساعات الأولى من الغزو، قبل أن يتوجه ساجدًا أمام قبر المسيح المقدس ليتبارك به.

لقد شعر الكنسى ريمون بخيبة أمل لدى انتخاب جودفروا. لكم ود أن يُنتخب الكونت ريمون دى تولوز الذى اتضح له أنه خير وأفضل خليفة لقائد الحملة الصليبية الأسقف أديمار دى مونتيل، لما يتمتع به من حنكة دبلوماسية، كما أنه ثرى ويتمتع باحترام الجميع! ولكن الكونت ريمون قابل هذا العرض بالرفض على عكس كل التوقعات.

لقد اتضح كل شىء. استقر الفرنجة فى المدينة. وعلى الرغم من إنهم توقعوا أن السلام كان هزيلاً، فإن كلاً منهم راح يكدس ما يكفى من أسلحة وخيول، وكل ما هو ثمين، انتظاراً للأحداث المقبلة فى سكينة.

ومع ذلك فبالنسبة للكثيرين، لم تكن هناك أى نية للبقاء فى القدس إلى الأبد، حتى ولو استمر رجال الدين فى الدعوة إلى أن الموت فى القدس الأرضية هو بمثابة منفذ للمرور إلى القدس السماوية. لقد اعتبر الكثيرون أنهم قد نفذوا مهمتهم، وأوفوا بوعدهم، فقد خلصوا الأماكن المقدسة من بين أيدى الكفار، والآن يفكرون فى العودة إلى بلادهم. كان هوج من هؤلاء، ولكن العودة تعنى أن يضاعف فى المقام الأول الفراسخ، وبالتالى المسافات بينه وبين أجات. على العكس منه، فقد أعرب چيفروا عن نيته البقاء فى القدس، وهو ما سيكون أفضل أيضًا. لقد كان متعطشًا للمغامرات، ولكن هوج كان لا يطمح إلا فى رؤية المقربين له، حتى ولو كان الثمن التخلى عن أجات إلى الأبد.

من ناحية أخرى مال هوج كثيراً إلى رغد الحياة التى راحت تتغلغل بينهم ببطء، ماحيةً بذلك تقريباً الأهوال التى خاضوها فى الأيام الأولى للغزو. وإذا كانت الكونتيسة إلڤير أو أجات قد استسلمتا لإغراءات ترف وملذات حياة المسلمين، إلا أن چيفروا لم يكن يرى مصلحةً كبيرة وراء ذلك. فلمن سيقدم هذه الحرائر المطرزة، وهذه الأقمشة المخملية أو نسيج التفتاة الرقيق، أو هذه الأقطان التى تعج بها

الأسواق والمنازل؟ لكم كان هوج يود لو أن يشترى منها لأجات كى ترتديها! ولكنه أبدًا لن يتمكن من تحسس واستنشاق عبير بشرتها المعطرة بمياه الورد الرائعة هذه، والتى برع الكفار فى تصنيعها، كما لم يفعل أحد من قبل فى أى مكان آخر. لن يحدث أبدًا أن تنزلق قدماه داخل ذلك الخُف الملون والذى تتلذذ بارتدائه النساء الفرنجيات. أبدًا لن يستطيع خلع تلك العباءات الحريرية الطويلة ذات الأكمام الفضفاضة عن أجات، والتى كانت زوجات الصليبيين تسعدن بارتدائها. كان فقط يحلم بأن يضاجع أجات فوق فراش من الموسلين.

ولكم اندهش عندما رآها من جديد فى العشاء الكبير الذى أقامه جودفروا فى القاعات الواسعة لبرج داوود، احتفالاً بانتخابه حامى القدس، شعر بخيبة أمل. فشأنها مثل شأن جميع النساء، انجرفت وراء الموضة العربية، فطلت شفتيها باللون القرمزى، وصبغت شعرها بالزعفران. أين ذهبت تلك الفتاة الجميلة ذات الجمال الطبيعى والتى كانت عند حافة بركة روامون؟ ومع ذلك ظلت مغرية بهيئتها المتعالية والمتكاسلة شيئًا ما.

كانت وجبة العشاء حقًا باذخة. على المناضد، راحت الكئوس الكريستالية تتلألأ، وكذلك أوانى خزف سنان (كوريا). لقد أمر جودفروا بإشعال الشمعدانات الشهيرة الموجودة فى معبد سليمان. ثُبتت على الحائط مجموعة من أقمشة الحرائر الثمينة المطرزة، بينما افترشت

الأرضـيـة المكسـوة بالطوب اللبن قطـع من السـجـاد الفـارسى الفـاخـر.
تناثرت فـوق السـجـاد قطع أثاث على شكل صناديق، ترصـعـهـا مـقـابض
رقيقة مطلاة بالمينا اللامع والجلود المذهبة، وإلى جانبها خزائن تزينها
لوحات مصبوغة.

ارتدى الرجال جميعًا عباءات فضفاضة، طويلة ومطرزة، حتى إن
بعضهم كان يرتدى عمامات من الحرير، تتخللها خيوط الذهب، وتزينها
مراوح صغيرة من الريش.

لقد استغل جودفروا خدمات طباخ أفتخار، الذى لم يتمكن من
الفرار مثل سيده. هكذا استدعى السجين، لكى يطلب منه إعداد وجبة
كما كان يُعد لحاكم القدس السابق.

– أتريد "رغيف الصينية"؟ سأل الطباخ، مقترحًا عليه

– وما هذا؟

– ثلاثون أوقيـة من الدقـيق، وخمس أوقـيـات من الزيت، وثلاثة
حملان...

– حسنًا... هذا يبدو ملائمًا... فلتر هذا مع ليتو.

كان ليتو، وهو أول فرنجى وطأت قدماه أرض مدينة القدس، قد
أصبح أهلاً لثقة جودفروا، وكاتمًا لأسراره. فى الغرفة الصغيرة المجاورة،

استمر الطباخ رشيد فى الإملاء بصوت رتيب وحازم، وصفة الطبق الذى سيطهوه:

- ثلاثة حملان محمصة على النار ومحشوة باللحم المفروم، عشرون دجاجة صغيرة، خمسون طائراً صغيراً، ويمزج كل ذلك مع الفلفل والزنجبيل والكسبرة والكمون والهيل... لقد كان سيدى أفتخار يحب ذلك كثيراً.

ما إن تم إعداد الوجبة، وقُدمت للفرنجة، حتى أبدوا انبهارهم بها، خاصة أنهم كانوا قد نسوا المذاق الطيب للأطباق الشهية. وعندما قُدمت الكئوس الكبيرة المكتظة بالفواكه، جاءت معها كرات الماء المثلج وعجينة الزنجبيل، وكأنها صُنعت من المعجزات.

- هنا هى القدس السماوية، ولا شك... ألسنا إذن فى الجنة يا معالى البطريرك؟ سأله جودفروا، وهو يرفع كوبه فى اتجاه أرنو مالكورن.

- بالتأكيد... ولكن بحق القديس ڤاندريل، أيها الفارس، لا تنس أن الجحيم، ليس بعيداً عن الجنة!

- علينا إذن الذهاب جميعًا لنتطهر فى نهر الأردن. صرح جودفروا، لذى أراد أن يحيى هذه العادة للحجاج، عندما يذهبون من القدس إلى حافة النهر، ليتطهروا فيه من جديد.

– وننطلق بعدها حتى أريحا، حيث نعود منها، حاملين سعف النخيل. أضاف الكنسى ريمون دى أجويلير، مشيراً إلى العادات القديمة لحجاج الأراضى المقدسة[١].

– إن شاء الله! رد الكونت ريمون دى تولوز بابتسامة.

ومع ذلك، سرعان ما اتجه الحديث عن خيرات هذه الأراضى، التى لا ينفك الصليبيون فى اكتشاف المزيد منها، لا سيما حدائق المدينة الغناء. فسواء مشمش دمشق[٢] أو الخرشوف أو السبانخ كانت جميعاً ذات مذاق فى منتهى اللذة!

بعد أيام قليلة لاحقة، قام هوج بالحج إلى الأردن، ثم إلى أريحا برفقة الكنسى ريمون دى أجويلير والراهب أربر، الذى يحظى بحماية الكونت ريمون دى تولوز، ومن هناك ودع هوج الجميع. سوف ينتهز فرصة سفن بيزا المبحرة، عائدة إلى الغرب. وصل على إحدى هذه السفن كبير أساقفة المدينة ديمبر، بعد المعركة، ولكن الشائعات تهمس أنه على ما يبدو قد جاء بسرعة ليحل محل المسكين أرنو مالكورن، الذى

---

(١) إن المسار المعتاد الذى يسلكه الحاج يمر عبر القدس، ثم نهر الأردن وأريحا. أريحا مدينة غنية بالزراعات شبه الاستوائية (النخيل والنباتات التى تنبعث منها روائح عطرة)، وقد كانت نقطة الانطلاق لمسيرة السيد المسيح إلى القدس، وذلك يوم السعف (القديس مارك، ١١–١٠).

(٢) اشتُهر باسم مشمش دمشق.

اعُتبر لا يستحق منصبه، نظراً لشخصيته الضعيفة. ولكن الخبر الذى شاع عن تقدم جيوش نحو القدس، بعث بها خليفة القاهرة، يرغب فى استحواذ المدينة، استلزم تدعيم قوات الفرنچة(٢).

سيعود أيضًا روبير مع هوج إلى البلاد، كما وعد إبل بتولى أمر ابنه چاك الصغير الذى ترافقه مربيته ومرضعته. فلا شىء فى هذا العالم سيفرقها عن "حبيبها الجميل". سيرافقهم كذلك راؤول وماتيلد فى الرحلة. أما فولبر فقد توفى فى اليوم التالى لمأدبة العشاء الشهيرة التى أقامها حاكم القدس.

– إنه سعيد الحظ على الأقل، سيعرف القدس السماوية. هكذا همس هوج فى أذن الكنسى ريمون دى أجويلير، الذى جاء ليصلى أمام جثمانه.

وهكذا وجدت الفرقة الصغيرة نفسها بالقرب من بوابة يافا فى الصباح الباكر، حيث كانت الشمس على وشك البزوغ من وراء جبل أشجار الزيتون فى الجهة المقابلة للمدينة. من بعيد، وفى اتجاه الغرب، بدت أشجار السرو والرماد وكأنها تدعو المسافرين لمتابعة مسارها الذى ترسمه. هبت نسمة هواء طفيفة قادمة من الشرق فانحنت القمم الداكنة اللون والرؤوس القرمزية لهذه الأشجار فى الاتجاه الصحيح، ناحية البحر.

---

(١) بدءًا من يوم التاسع من شهر أغسطس عام ١٠٩٩، غادر جودفروا دى بويون مع قواته فى اتجاه مدينة عسقلان، جنوب غرب القدس، حيث قام بصد ذلك الجيش.

- وداعًا... فمن دون شك، لن يرى بعضنا البعض مرة أخرى أبدًا.
قال هوج للذين رافقوه.

قال ذلك لچوستين وطفليها، للكنسى ريمون دى أجويلير، كما انضم إليهم چيفروا وأجات. تقدم المسافرون إلى الأمام على خيولهم الجميلة، والتى اختاروها بعناية من بين قطعان الخيول، التى تركها أفتخار.

- أيها الكنسى، ألست آسفًا، كونك لن تتمكن أبدًا من الصلاة مرة أخرى أمام القديسة العذراء الأم، فى مدينتك بفرنسا؟

- إن الفراسخ التى تفصلنى عنها لن تمنعنى من التضرع إليها كل صباح. وهكذا فقد توسلت إليها أن تحقق لك العودة للبلاد، وأن ترعاك وتحفظك سالمًا.

- شكرًا لك... وداعًا.

لقد حرص ابن چوستين، چوليان الصغير، أن يقطع هذا المشوار القصير على حصان كلوفيس الذى كان يمسك لجامه بحرص شديد. هذا الخادم الشيخ، الذى لم يخف ارتياحه لعودته أخيرًا إلى بلاده. لقد بدأ بصره يخبو يومًا بعد يوم، ولهذا كان يحلم أن يرى تلال قريته الخضراء الجميلة، من جديد.

عانق هوج الكنسى، وهو يقول له:

- فلتقضوا أيامكم هنا فى هناء وسلام.

- هنا أو فى أى مكان آخر... فالكونت لديه خطط طموح... فهو ليس راضياً عما قُسم الله له.

- الوداع يا چوستين.

مال هوج على هيئتها النحيلة، وقبل وجنتيها اللتين تفوحان بعطر ماء الورد الرائع. تساءل بينه وبين نفسه للحظة، لكى يعرف ماذا لو كان قد استسلم لسحرها فى حال عدم وجود أجات. مسحت چوستين دمعة فرت من عينيها، ثم دفعت أمامه إلين الصغيرة، التى قدمت له غصن زيتون صغيراً وهى تتشبث فى سترته. لقد ارتدى الفارس هوج، بشكل رمزى، ملابس على النمط الغربى، فوضع سترة قصيرة مشقوقة من الجانبين بطريقة واسعة لتسهيل حركته فى ركوب الخيل. كانت المعلقات الذهبية المتدلية من سترته تحُدث رنيناً مع أدنى حركة يقوم بها هوج، فتُبهج إلين الصغيرة وتمرح بها.

راح هوج يتأخر، حتى حانت اللحظة التى كان يخشاها للغاية. حتى إنه حلم بها طوال الليل. أن يقول وداعًا لأجات، بدا له فجأة شيئًا يفوق احتماله. كانت أجات تقف فى الوراء، وهى ترتدى سترة زرقاء أنيقة بلون السماء. كان قماشها الخفيف يصاحب كل حركة تقوم بها، ولهذا أوضح بشكل أكبر، وأجمل لون بشرتها الرائع. بعد أن عانق چيفروا، وجد هوج نفسه أمامها. تركزت كل العيون عليهم. لم يعد أحد يعلم المزيد من العلاقات الخاصة جداً التى ترتبط هوج بزوجة تابعه.

– يا إلهى... لا تجعل هذا المذنب المسكين يستسلم للإغراء! غمغم الكنسى، ثم أضاف: أيتها الأم العذراء... احفظيه!

– الوداع! همس هوج

–الوداع! ردت أجات بصوت أجش، ثم أضافت: اذهب إلى أمى إذا كانت ما زالت على قيد الحياة، واحكِ لها حكايتى... سوف تتفهمها، وسوف تغفر لى.

تهدج صوتها غير الواثق على مر الكلمات.

– قل لأمى إننى على ما يرام، ومن الآن، فصاعداً سيكون تابعك أوبر، أخى الأوسط. هكذا قال چيفروا وهو يسعى جاهداً إلى التدخل فى الحوار، بتبادل هذه الكلمة الأخيرة التى أدرك بمرارة، وهو يقولها، مدى صعوبة الفراق.

– لا تنس أن ترسل سلامى للبركة ودجاج الماء والحجل. أضافت أجات، وكأنها تحاول أن تلفت انتباهه بأى ثمن، وقد راحت تلتهمه بعينيها: فأنا افتقدها بشدة .

نظر چيفروا إليها، فوجد وجهها، وقد أصبح أبيض من شدة الشحوب. خُيل إليه أنها على وشك أن تفقد وعيها. لم يتحرك هوج أو يهتز. بدا له أن الزمن قد توقف، فوق هذه المجموعة الصغيرة، التى كانت خيولها مستاءة من الذباب وبدأت تفقد صبرها.

– الوداع. كرر هوج بصوت بارد، وهو يطبق بأصابعه العصبية على غصن الزيتون الذى ناولته إياه إلين.

جفف الكنسى ريمون جبهته بظهر كمه، عندما رأى الفارس هوج وقد اقترب أخيراً من فرسه، ثم ركبها. تنفس الجميع الصعداء، ورفع روبير يده لتحيتهم. تقدمت العربة التى كانت تحمل المرضعة والطفل، وكذلك بعض الأغراض التى أُختيرت بعناية من وسط الأقمشة والأوانى الزجاجية أو المجوهرات، تقدمت ببطء لتعبر الباب الكبير المُشيد تحت مجموعة من الأقواس على شكل حدوات الخيول. تعلقت عينا هوج بالأقفال المعدنية، التى تزينه. كلا... لن يستدير إلى الخلف... راح قلبه يخفق خفقاناً مؤلماً.

– إن فى البقاء جنوناً... وفى الرحيل أيضاً جنوناً! هكذا صاح هوج، وهو يلكز بغضب كبير ركابه المعدنى فى جانبى فرسه، التى راحت تصهل بحنق... "اهدئى أيتها الأميرة الحسناء" قال لها هوج بتذمر.

كان قد وقع اختياره على فرس أبيض، راح يملس بحنان على جلدها ذى اللونين الأسود والرمادى، بينما يده الأخرى، ما زالت تمسك بغصن الزيتون.

أجهشت أجات بالبكاء، ثم خلعت سترتها وخُفيها وراحت تجرى عند قمة السور، بعد أن فجرت إيماءة هوج حزنها. وضعت يدها على درابزين السور، الذى ما زال حجره الأبيض محتفظاً بالحرارة من الليلة

الماضية. راح قماش ردائها الموسلين يهفهف فى الريح، بينما بقيت هى بلا حراك، وعيناها مثبتتين على الشريط الأرضى ذى اللون الفاتح المتصاعد على التل، بين حاجزى الأشجار غير المبالى بما يحدث.

وجدها چيفروا بعد ذلك بساعات ونظرتها مثبتة على الاتجاه نفسه... بل لم تحرك ساكنًا. لقد مرت فترة طويلة على أختفاء القافلة الصغيرة عند منعطف الدرب، الذى يقود إلى ناحية البحر. رسمت الشمس ظلالاً حزينة لأشجار السرو على الأرض.

- تعالى! قال لها چيفروا بهدوء

التفت أجات ناحيته، بدا وجهها، وكأنه مدمر، وقالت له:

- كما لو كان قد مات للمرة الثانية. همست أجات : لقد أعطاه الله لى مرة أخرى بعد نيقييه، والآن ها هو يأخذه منى إلى الأبد.

- إن الله لا شأن له فى كل هذا. أجابها چيفروا: هوج هو من أراد الرحيل، هذا كل ما فى الأمر... هيا تعالى من فضلك.

مد لها يده بخفيها بعد أن التقطهما ذات الصباح من على الأرض.

اقترب چيفروا منها ببطء، وأخذها من يدها برفق وضمها فى راحة يده الكبيرة ذات الأصابع الطويلة، فتركت أجات له نفسها، وأخيرًا حولت عينيها عن طريق يافا، ثم تبعته بخطى بطيئة. بعدها اختارت بحرص بعض الأحجار، وضعت عليها قدميها، كما لو كانت هذه الحركة التافهة

يمكن أن تجعلها تنسى الأمور الأساسية. تغلغلا ببطء داخل حارة ضيقة، كما لو كانت خيالية تصطف على جانبيها المنازل البيضاء. بعد ذلك وصلا إلى ميدان صغير، ليدلفا من جديد إلى شارع ضيق ملتو قبل أن يتوقفا أمام باب منزلهما، حيث مرا بمدخله الشاسع.

– أموند! صاحت أجات، تنادى على ابنها.

أسرعت أجات من خطاها فجأة فتعلق قماش ردائها للحظة بأفرع حوض الورد البلدى، الذى أشع فى المكان منظراً مبهجًا للغاية بالقرب من النافورة.

شاهدها چيفروا وهى تدفع الباب برفق، ثم توقفت للحظة على عتبته، وبعدها تقدمت بخطى واثقة إلى الأمام. بعد ذلك بلحظة، خرجت مرة أخرى هى، وأموند جالسًا على ذراعها اليمنى ممسكًا بعقد حول رقبتها، كان علىّ قد قدمه لها. راحت أجات تقبله بحنان وعاطفة جياشة. حاول چيفروا أن يخفى بصعوبة تأثره الذى تولد من رؤية هذا المشهد الرقيق. فها هى الأم ذات الشعر الداكن جداً، وقد وجدت سعادتها فجأة من جديد، وها هو ابنها الأشقر جداً، يبتسم لها. عند فتحة الباب الموارب، وقفت سارة تراقب هذا المشهد أيضًا، ثم عادت إلى الداخل بهدوء وسرية.

– خذ ابنك.

قالت أجات لچيفروا، ثم عبرت القناة الضيقة التى ينساب منها خيط من المياه الضعيفة. تلقى چيفروا طفله، الذى واصل السقسقة،

وهو يلهو فى العقد. تقهقرت أجات خطوتين إلى الوراء. بتوترها الحاد انجذب العقد وانكسر فانفرطت حلقاته النحاسية وتناثرت على العشب تحت قدميها فانحنت وراحت تلتقطها قطعة قطعة، ثم تركتها لتنزلق من بين أصابعها.

– مع هذا العقد تنتهى حياتى الأولى. قالت أجات بصوتها الأجش، وهى تتخلص من العباءة التى كانت جاثمة على جسدها منذ هذا الصباح: من اليوم ستبدأ حياتى الثانية معك.

نهضت أجات من مكانها، ولاحظ چيفروا فى عينيها السوداوين بريقًا لم يكن قد رآه منذ زمن طويل، ربما منذ كانا فى القسطنطينية عندما منحته نفسها تقريبًا بحب.

راح أَموند الصغير يبكى، فجاءت سارة لتأخذه. بدأ نسيم المساء العليل فى الازدياد، بينما راحت الطيور المحلقة فى السماء الزرقاء الداكنة، تهبط لشرب المياه من القناة الصغيرة.

– چيفروا... إذا ما زلت ترغب فىّ، فسأكون من الآن زوجتك بالفعل... تعال... حبنى.

تذكر چيفروا ذلك المساء الشهير، بعد هجوم السلوقاكيين، منذ حوالى عامين، عندما همست له بالكلمات نفسها.

٢٣

- وداعًا يا عزيزى روبير.

رفع هوج يده تجاه روبير النحات ليصافحه. كان روبير قد وصل الليلة السابقة إلى مدينة كليرمون، فهرول مسرعًا إلى موقع بناء كاتدرائية القديسة مارى الرئيسية، حيث لم تحرز أعمال البناء تقدمًا يُذكر. فقط رُسمت أسس الأجنحة الكنسية المنقوشة فى الأرض على شكل صلبان، بينما تكالب النجارون لتغطية الكنائس الصغيرة، المشيدة حول القاعة نصف الدائرية الموجودة فى العمق، والذى مازالت تتواجد فى وسطه الكنيسة القديمة، حيث ظل الكنسيون يمارسون بها طقوسهم وصلواتهم.

ومع ذلك، سرعان ما تبددت سعادة روبير بعودته، عندما علم بوفاة والده قبل أيام قليلة من فترة أعياد الميلاد المجيد.

- لقد قضى سنواته الأخيرة على أمل أن يراك من جديد. قال له الكنسى أودون، ثم خارت قواه عندما تصور أنه لن يراك أبدًا، وبالتالى لم يجد من الضرورى أن يجبر نفسه على العيش. إن الله أحيانًا

ما يكون قاسيًا، عندما يمنعنا من قطف ثمرة ما نرجوه في نهاية المشوار. إن أباك، مثله مثل البابا أوربان، الذي لم يعلم قط أنك دخلت مدينة القدس[1].

تمالك روبير نفسه بصعوبة بالغة، محاولاً احتواء حزنه وتأثره بموت أبيه. منذ أن غادرت بهم السفينة في ميناء بيزا، هو والعديد من رفاقه الذين كانوا من جيوش المسيح الصليبية، استطاع روبير أن يدرك كم كانت العودة إلى البلاد صعبة بل عسيرة! لقد مر الزمن، وها هم من تركوهم على مدار رحلتهم الطويلة إلى القدس قبل أن يعودوا أخيرًا إلى بلادهم، قد عانوا الكثير، وعاشوا لحظات مؤلمة وعصيبة. ففي أثناء رحلتهم الجنونية، استمرت الحياة بحلوها ومرها، وبكل ما تحمله من موتى ومصائب.

ها هو المعلم چاك الذي كان أصغر سنًا من والد روبير وقد اجتاز هذه السنوات بالرغم من اختفاء ابنته برتيلد. لقد نجح في عمله داخل حانته الرائجة التي لم تخل أبدًا من الزبائن، وحتى من كان يمر عليها مرور الكرام، كان لديه دائمًا ما يحكيه من أشياء مشوقة. من بينهم رجلٌ وصل من روما البعيدة، ليعلن لهم عن تحرير مدينة القدس على أيدي النصارى، وأيضًا وفاة البابا أوربان الثاني. أنصت المعلم چاك بشغف

---

(١) بالفعل وافت المنية البابا أوربان الثاني بعد أسبوع فقط، بعد الاستحواذ على مدينة القدس.

إلى حكايات هذا المسافر الآتى من نهاية العالم، والذى ألهب خياله بقصصه المثيرة المليئة بالتفاصيل.

دخل روبير إلى الحانة، حيث كان المعلم چاك واقفاً يضع قبضتى يديه على أردافه، وقد ازداد وزنه ضخامة. نظر إلى روبير، وبدا مندهشاً غير مصدق، ثم اخترق القاعة الطويلة ذات السقف المقبب، واقترب منه، وقال هامساً:

– ها هو عائد! هناك إذن من يعودون من هناك.

نزل روبير درجات عتبة الحانة الثلاث، وهو يحمل بين ذراعيه چاك الصغير، الذى كان يتحرك، فقد غالبه النعاس. لكم كانت رحلة العودة شاقة ومرهقة جداً لهذا الطفل الصغير، وأيضاً للمرضعة التى كانت ترافقه!

– ها هو چاك... حفيدك. قال روبير، وهو يناول الطفل لچاك صاحب الحانة.

– حفيدى؟!

من هول المفاجأة والكلمات التى فهمها المعلم چاك بالكاد من روبير النحات، سقط الطفل من بين ذراعيه، فراح يصرخ على الفور.

– إنه حفيدك. كرر روبير مفسراً: إنه ابن برتيلد، والفارس إبل دى سوج.

- برتيلد... حفيدى... الفارس...

تهاوى المعلم چاك على مقعد خشبى صغير من دون ظهر غير متزن، بينما أمسكت المربية بالطفل، لتهدئ من روعه.

- أيها المسكين روبير... لقد فقدت صوابك... ها أنت قد عدت إلى بلادك، ولكن بعد أن أصبحت مجنونًا... يبدو أن الحياة هناك كانت جحيماً.

عند المدخل، كان هوج يراقب الموقف. بدوره نزل ببطء الدرجات الثلاث، والتى كان تقعرها ينم عن تهالكها وقدمها، ثم عبر القاعة من بين المناضد والأرائك الخشبية، التى اصطفت بعناية، وأخيراً توقف أمام المعلم چاك.

- إن روبير ليس مجنونًا... هذا الطفل الذى تراه هنا، هو فعلاً حفيدك، أنا من أؤكد لك. قال له هوج بلهجة آمرة: لقد هربت ابنتك عندما وقعت فى غرام ذلك الفارس، الذى لا بد أنك تتذكره: إبل دى سوج... اغفر له، ولا تكون قاسيًا فى الحكم عليه، فقد كان فارسًا جيدًا... صحيح أنه ارتكب ذنوبًا مثلنا جميعًا، ولكنه غسل هذه الذنوب بالكامل، عندما ضحى بنفسه من أجل جيوش المسيح... بحق القديسة مارى، إنه أنقذ حياتى.

رن صوت هوج القوى تحت سقف الحانة المقبب، حتى إن بعض الزبائن توقف عن الحديث، ملتفتًا إليه. راح المعلم چاك يحدق فى وجه

هوج، وقد اتسعت عيناه من الدهشة. يا لها من أنباء، وقد سقطت عليه كالصاعقة! أخذ يهز رأسه، وقد بدا متشككًا. ومع ذلك فقد تبدت له كلمات هوج حقيقية وصادقة، وهنا برقت عيناه فجأة بالحيوية، وكأنه أخيرًا أدرك كلام هوج، فسأله:

– وأين برتيلد؟

– لقد توفيت، وهى تضع چاك الصغير... وهى التى طلبت أن يُسمى على اسمك.

– وإبل هذا؟

– لقد مات أمام القدس، وبالتحديد قبل أن ندخل المدينة المقدسة بشهر.

– هل كنت هناك؟!

هكذا هتف أحد الزبائن الجالسين فى آخر القاعة، قبل أن ينهض من مكانه ليحيى العائدين من السفر باحترام، رافعًا قبعته الصوفية الحمراء.

وضع المعلم چاك رأسه بين يديه، مستندًا بمرفقيه على المنضدة فى محاولة لتفهم والتحقق من كل ذلك. هكذا فى كرة واحدة، استعاد ابنته، ثم أُخذت منه على الفور. هدأ چاك الصغير الذى كان جالسًا بارتياح على ساقى مربيته. ضاغطًا بظهره إلى الوراء، انزلق الطفل، نازلاً، وراح يتجول بخطوات سريعة بين المناضد.

– انظر كم هو لطيف! قالت المربية وعيناها لا تنزلان من على چاك الصغير: بحق القديسة أپولين، ربتى، فأنا لم أقابل من قبل، طفلاً بهذه الرقة والوداعة... وها هو يأتى إليك من حيث لا تدرى... إنك محظوظ.

– محظوظ! نعم... ربما. رد المعلم چاك، وقد بدا مقتنعًا، وما زال يهز رأسه.

– هذا الطفل سيملأ عليك حياتك، ويبهج شيخوختك. أضافت أپولين: ولكن إذا كنت لا تريده، فسآخذه معى... فأنا وحيدة فى هذه الحياة... سوف يكون هو أسرتى.

– كلا لن تأخذى منى حفيدى. هكذا سرعان ما هبَّ فيها چاك الشيخ، وهو يضغط على كلمة "حفيدى".

– إذن عليك أن تحتفظ بى أنا أيضًا.

– ولِمَ لا؟ يا هيرمانجارد، أحضر لى نبيذ شانتورج من آخر برميل موضوع فى عمق القبو.

– حقًا يا معلم چاك!، بماذا تحتفل إذن؟ سأله أحد الزبائن الذى وصل لتوه عند عتبة المدخل.

– أحتفل بوصول حفيدى. رد عليه چاك بفخر، وقد عبر القاعة، وراح يصعد الدرجات الثلاث بخفة.

– أوه... أوه! سمعه الآخرون، وهو يصيح، ثم قال: لتأتوا جميعًا... سوف أقدم شرابًا بالمجان على شرف حفيدى.

- ها هو المعلم چاك، يفقد صوابه! هكذا قالت السيدة المثرثرة صاحبة محل الخردوات الذى يطل على نافذة فى الجانب الآخر من الشارع. من محلها نفسه، كان هوج قد اشترى قطعة قماش حمراء، محاكة على شكل صليب، ليضعها على سترته... منذ أربع سنوات مضت.

عند موقع بناء كاتدرائية القديسة مارى الرئيسية، بدا البناؤون سعداء، لأنهم توقفوا لبضع لحظات عن عملهم، وبالفعل وضعوا أدواتهم جانبًا، وقال بعضهم:

- وداعًا يا روبير.

فى صباح اليوم التالى، رافق روبير هوج وكلوقيس حتى بوابة شامپييه عند أسفل شارع الميناء. بدت الخيول متلهفة بعكس هوج الذى لم يكن متعجلاً. لقد كان روبير بمثابة الحلقة الأخيرة من هذه السنوات الأربع المجنونة تقريبًا. ها هى صفحة من حياته، وقد تردد فجأة فى إغلاقها. فعلى مدار رحلة العودة تلك، والتى بدت بلا نهاية، أولاً الرحلة التى خاضها فى عرض البحر خلال أيام طويلة من الخمول وعدم الحركة، ثم بدءًا من ميناء پيزا، حيث رست بهم السفينة أخيرًا، فطالما فكر فى هذه العودة، التى اشتاق إليها كثيرًا، وفى الوقت ذاته، كان يخشاها كثيرًا أيضًا.

كان يجلس تحت الصارى الرئيسى للسفينة الآتية من پيزا بين الحبال المتينة التى تمسك بالأشرعة، حيث يُطلق لخياله العنان من خلال

تأملات بها شيء ما من الوحدة والحنين، أو يتحدث مع روبير الذى يمزج بشيء من الاستثارة والحماس، مخاوفه وآماله وخططه وتطلعاته. كانت ظروف الرحلة المحفوفة بالمخاطر للغاية من الصعب أن تبعث على أى بهجة أو فرح. لقد كان الاختلاط هو السائد على متن تلك السفينة التى صعد إليها عدة مئات من الرجال والنساء، مصابين سواء جسمانياً أو معنوياً. رؤية كل هذا جعل هوج كثيراً ما يتحصر على نزهاته الحرة الطلقة على ظهر فرسه، حتى ولو كان روبير يذكره بحكمة، بمغامرات ومخاطر رحلتهم البطيئة.

- هل كنت ستنسى السلوفاكيين ؟ هكذا سنعود بصورة أسرع! هكذا كان روبير يقول له، خاصة عندما تهب الرياح من اتجاه الشرق بشكل أفضل.

- هل أنا حقًا متلهف للعودة؟ كان هوج يسأله، وقد بدا محبطًا فكان روبير يتأمله، مفكراً.

لقد بدا الفارس هوج حزيناً بشكل كبير، وفى بعض الأمسيات عندما كان يختفى، لكى يذهب، ويربت على فرسه، الأميرة الحسناء، التى شُحنت فى بطن السفينة، كان روبير دائمًا ما يقلق.

و مع ذلك تدريجياً، ومع قطع الفراسخ التى راحت تتضاعف، أخذا يميلان إلى نسيان ما قد عاشاه، وراحا يفكران فى المستقبل. ولكن إذا كان روبير، قد راح يتحدث من جديد بحماس عن "ورشته" وأفكاره

العديدة لتزيين القمم التى ستُعلق فى القواطيع الكبيرة، والتى عهد بها إليه قساوسة كاتدرائية القديسة مارى الرئيسية، فإن هوج لا يرى خطوطًا واضحة لما ينوى عمله. مما لا شك فيه أن البناء فى قصره الحجر لا بد أنه تقدم، ومن المؤكد أنه سيلتقى أطفاله، وسيحين الوقت، لكى يجعل من ابنه تييرى فارس المستقبل، ولكن لا مارى ولا أجات ستكونان هناك، لتجعلا حياته أجمل.

عندما رست المركب على شواطئ قبرص على بعد أقل من مائة فرسخ من القدس، كاد هوج يشرع فى ركوب قارب بيزنطى، للعودة به إلى القدس. لولا إقناع روبير القوى له بالعدول عن الفكرة، لكان ولا شك سيستسلم للإغراء.

– يقال إن الملك فيليب، قد اختطف زوجة أحد أتباعه... أهذا صحيح؟! سأل هوج روبير.

– نعم، ولقد عزله البابا! لم يكن عليك أن تُجبر چيفروا من الزواج بأجات. قال له روبير بأسلوب منطقى شيئًا ما.

– هذا ما كان ينبغى أن يحدث. رد هوج بطريقة رائعة، ولكنها مبهمة.

– إذن لا تشكو... بل عد إلى بلدك وانس كل هذا!

وخلال توقف طويل فى أثناء رسو السفينة لفترة طويلة فى إيراكليون فى جزيرة كريت، سيطرت عليه أفكاره الشيطانية القديمة، ولكنه صمد وتمالك نفسه. ثم وبعد أيام عديدة من الإبحار، وصلوا أخيرًا

إلى پيزا. بعد ذلك هدأ من مخاوف هوج وتوتره ركضه بفرسه لمسافات طويلة، رغم الهاجس والحلم الذى راوده فى پيزا، وتحديداً فى الليلة الأولى التى وطئت فيها قدماه الأراضى اليابسة. حلم بأنه وصل إلى روامون، ليكتشف أجات واقفة بين خدمه، وعندما سألها عن سبب وجودها، أجابته بأنها كانت تنتظره منذ زمن طويل، ثم ألقت بنفسها بين ذراعيه تحت أنظار قسيسه المسكين أرنو، الذى وقف مشدوهاً. استيقظ من نومه مفزوعًا فى النزل الصغير المطل على نهر أرنو فى پيزا، وأصابه الأرق، حتى إنه أمضى الليل بأكمله، يمشط ضفة النهر ذهابًا وإيابًا.

– آه لو كان ذلك صحيحًا! لو كانت فعلاً أجات تنتظرنى فى روامون... هكذا راح هوج يردد، متخذاً السماء شاهداً على كلامه.

منذ وصوله إلى پيزا، راح ذلك الحلم يطارده لمرات عديدة، حتى إنه باح لروبير به، متسائلاً.

– كلا يا هوج... لقد ظلت أجات فى القدس، وبالفعل هى زوجة چيفروا... وبالتالى فهى لا تنتظرك فى روامون... هكذا كرر عليه صديقه روبير بصبر.

فى اللحظة التى تركه فيها روبير النحات، شعر هوج بفراغ ضخم... فمع من سيتحدث عن أجات؟

– الوداع يا هوج.

– الوداع يا روبير.

راح هوج يرنو إلى منظر الأراضى الشاسعة، التى امتدت تحت سفح سور البلدة، وكأنه يقبلها بعينيه. كانت السماء شديدة الزرقة، فذكرته بذلك اليوم الشهير لخطبة البابا أوربان الثانى. انطلق سربٌ من العصافير من بين فتحات أعلى سور البلدة، محلقًا ناحية المزارع الممتدة فى اتجاه الشرق.

- إنها مشيئة الرب!

- الله يعيننا!

فى لحظة واحدة، تغطت الرقعة الأرضية الشاسعة الرحبة بالرؤوس والسيوف الملوحة. هكذا تخيل هوج مرة أخرى المنصة الخشبية وهيئة البابا الهزيلة العصبية. لقد أصبح كل هذا فى خبر كان. بدت فرسه، الأميرة الحسناء، نافدة الصبر، فالتفت هوج خلفه للمرة الأخيرة. لوح روبير له بيده، يحيه. أمسك كلوڤيس بلجام حصانه بصعوبة، والذى كان متحفزًا للانطلاق.

- إلى روامون!

- إلى روامون. ردد وراءه كلوڤيس.

- سيدى اللورد هوج...

- لقد عاد سيدى اللورد هوج!

اخترقت الخيول سياج المدخل، وتوقف الجميع عما كان يقومون به من أعمال فى الساحة السفلية لبرج القصر. حتى كلاب الصيد الواقفة فى أكشاكها الخشبية والمحاطة بسياج مغلقة بإحكام، فراحت تنبح نباحًا جماعيًا مستثارًا ومفاجئًا.

- سيدى اللورد هوج.

هتف دينيس، وقد غادر أريكته الخشبية، الجالس عليها، وهو يرمش بعينيه أمام الشمس المائلة للغروب، وكرر بصوت مندهش:

- سيدى اللورد هوج...

- نعم إنه أنا... أنت لا تحلم. بادره هوج، وهو يقفز من على فرسه بخفة، ومن ورائه قام كلوڤيس بالشىء نفسه.

وضع هوج يده على كتف الشاب دينيس الخادم، وسلمه لجام فرسه، وهو يقول:

- أدخل الأميرة الحسناء إلى الإسطبل فلا بد أنها متعبة!

فى حظيرة الدواجن، كانت هناك فتاة ترش حفنة من الحبوب من يدها، فتدافعت الدجاجات والفراخ الصغيرة ناحيتها، وهى تقوقأ. من ظهرها، كان بالإمكان أن تخدع هوج بهيئتها الممشوقة الطويلة وسترتها الحمراء. وآه لو كان ذلك ليس حلمًا، وإذا كانت أجات فعلاً فى روامون!!...

– يا إلهى! لقد عاد سيدى اللورد.

جذبت انتباه القسيس أرنو، هذه الجلبة غير المعتادة التى صدرت من الساحة السفلية للقصر، فخرج على عتبة باب كنيسته الصغيرة ليرى ما يجرى. كان يمسك فى يده كتابًا صغيرًا، راح يتابع قراءة نص سطرًا سطرًا بحماس، واضعًا إصبعه السبابة على الكلمات.

– الحمد والشكر لك يا إلهى!

هكذا هتف القس، ثم رسم علامة الصليب على صدره، فى عجالة، وهرع ناحية هوج، قاطعًا عليه تأمله بوحشة للمكان.

– الحمد والشكر لله على عودتك. قال القس: لقد حررت الأراضى المقدسة من هؤلاء الملاعين البربريين... هيا لنصل كلنا!

لوح القس أرنو بيده تجاه الخدم، الذين هموا جميعًا، مهرولين ناحية الكنيسة الصغيرة.

– نصلى... بدا هوج ممتعضًا ثم أردف: نعم، ولكن غدًا... أين أولادى؟

– إذن أنت قد عدت...

التفت الفارس هيوج ناحية الصوت الرفيع المتهدج كصوت الماعز، وهتف:

– إيتينت!

ابتسمت المرأة العجوز، فانكشف فمها الخالى من الأسنان. أعرض جبينها إلى الوراء، وأصبح شعرها أبيض بالكامل.

- إذنْ فأنا لم ألعنك بما فيه الكفاية... وبالتالى فالرب لا يريدك إلى جواره.

- كلا... فأنا كما ترين.

ابتسم هوج وهو يربت على كتفيها، وقد بدت يداه ضخمتين فوق جسدها الهزيل للغاية.

- وكيف حال أبقارك؟

- بخير... بل أفضل منى، حيث لم تعد يداى تقدران على ضغط ضروعها.

وقعت عينا هوج للحظة على أصابع إيتينت المشوهة، والتى أضافت بسرعة:

- ولكن هذا لا يمنع قلبى من الفرح اليوم... فحقًا، أرى فيك الآن نفس صورة جدك بشعرك الذى ملأه الشيب، والتجاعيد التى خطت على جانبى أنفك.

- إنك لن تنسيه أبدًا!

- كلا، سأظل له دائمًا. ردت عليه إيتينت، وهى تنظر إلى عينيه مباشرة، ثم سألته: أيمكنك أن تعرف الحب الذى يدوم طويلاً بهذا الشكل؟

– أعرف... أعرف. رد عليها هوج بشجاعة.

– أبى!

طلت طفلة جميلة على قمة الدرج المنحدر، الذى يؤدى إلى الساحة العلوية، المشيد فوقها برج القصر الخشبى القديم.

– إليانور...

– انظر كيف أصبحت تشبه أمها مارى. همست إيتينت

شعر هوج بقلبه يدق بشدة... ها هى الفرحة أخيراً تسرى داخله.

تقدمت الفتاة الصغيرة ببطء، وهى تنزل المنحدر الضيق، ممسكة فى كلتا يديها طفلاً صغيراً، راح يتدحرج فى مشيته.

– لويس ومارى.

– أجمل طفلين عرفتهما عيناى! لقد أتما أربعة أعوام فى يوم القديس چان، قالت إيتينت، وهى تبتعد، متجهة إلى الزريبة، حيث بدأت الأبقار تخور.

– أقبض على اللجام بحزم!

– ها هو هوج راكبٌ على فرسه، الأميرة الحسناء، وأمامه تييرى راكب على حصان اختاره له أبوه بعناية من إسطبل الخيول، ثم الخادم كلوڤيس يمسك بلجامه. لقد اكتشف هوج أن تعليم ابنه ليصبح فارس

المستقبل كان شيئًا ليس بعسير بالمرة. ما هو أكيد أن القس أرنو، قد غرس فيه بعض أساسيات الكتابة والقراءة، وهو ما قد تعلمه هو نفسه تقريبًا، ولكنه لم يكن يعرف بالمرة كيف يجلس فوق ظهر الجواد.

- لن تصنع منه رجل دين! هكذا قال هوج، متذمرًا، وهو خارج من القداس صباح اليوم التالى الذى عقده القس أرنو للأسرة بأكملها، لتقديم الشكر لله الذى أعاد لهم سيدهم.

بعد ذلك قام هوج بتسوية بعض الأمور والمشكلات مع بودرى، مأمور عزبته، وكذلك ألوى، مساعده، رئيس الخدم، ثم كلفهما بنشر خبر عودته إلى تابعيه ومزارعيه. بعد ذلك تفقد المخزن، والذى امتلأ بالحبوب دليلاً على المحاصيل الجيدة، خلال العام المنصرم، وكذلك المخازن التى زخرت على آخرها باللحوم المحفوظة والمواد الغذائية، ثم انتقل بعدها إلى الإسطبل.

لاحقًا راح يتحدث معهما عن موقع بناء قصره الجديد. عند سفح التل، سلكوا الدرب الضيق الذى ينقسم فى آخره إلى فرعين. عرج هوج إلى الفرع الأيسر، تاركًا على يمينه الطريق المؤدى إلى البركة، والذى تحده الشجيرات الكثيفة. وهناك مر دون أن يلقى نظرة واحدة على المياه الراكدة فى البركة.. بل سيذهب وحده مرة أخرى ليحوم وحده فى المكان، إذا ما واتته الشجاعة على عمل ذلك.

فى أسفل الطريق المؤدى إلى موقع بناء القصر الجديد انغرست عربة على أربع عجلات. لمح هوج أربر الحداد، الذى استدعوه، ليحاول تعديل استدارة الحديد، على إحدى العجلات. كان جيرن، شقيق أجات وتوأمه، يعمل معه.

نزل سيدهما، هوج، من على فرسه، لكى يحيى الرجلين. حتى وبعد أن أصبح جيرن شابًا فحلاً قوى البنيان، فما زال وجهه يحتفظ بتلك الملامح الرقيقة، وخاصة تلك النظرة السوداوية المتفاخرة. مر هوج بلحظة مؤثرة، ثم سرعان ما حول وجهه. تلاحقت فى مخيلته من جديد صور عديدة.

- أجات. غمغم هوج

- سيدى اللورد...

ها هو بيجون، رئيس موقع البناء، يخرجه من وحشة أفكاره الشاردة لحسن الحظ.

- لقد عملت على أحسن ما يرام يا بيجون.

ففى اليوم السابق، الذى وصل فيه هوج إلى روامون، سرت فى جسده قشعريرة الارتياح، عندما لمح من بعيد البناء الضخم، وقد هيمن الآن ليس فقط على الربوة التى شُيد فوقها، بل أيضًا على المنطقة المحيطة بأكملها. من الآن فصاعداً ينبغى على الجيران أن يتوقعوا وجود قصر روامون من حولهم.

– ألم ينته بناء قصرك؟ سأله خادمه كلوڤيس، والذى نادرًا لا يخرج من صمته المعتاد، وهو يكتشف الصرح المتفاخر، ووراءه السماء زرقاء صافية.

– لا أعرف... ولكن على ما يبدو أنهم أحرزوا تقدمًا هائلاً منذ رحيلنا!

– وهذا انقضى عليه زمنٌ طويل! هكذا علق كلوڤيس فقط، وهو يهز كتفيه.

أوقف هوج فرسه، الأميرة الحسناء، وراح يتأمل لفترة طويلة، المنظر الذى طالما اعتاد على رؤيته، وقد بدا الآن، وكأنه تشكل من جديد حول القصر الجديد.

ها هو هوج يتبع بالفعل بيجون على الطريق الذى راحت تتدحرج فيه الحجارة، ترفعها عجلات العربة الطويلة، يدفعها رجال، وقد انحنوا ليستجمعوا أكثر ما فيهم من قوة. رُبط بها جذع شجرة بلوط، منزوع القشرة الخارجية، وراحت أربعة ثيران تجره، صاعدة المطلع بصعوبة.

وصولاً عند ساحة الربوة، انبهر هوج أكثر بالصرح، الذى بدا أكثر ضخامة.

– لقد عملت على أحسن يا بيجون. كرر هوج، معربًا بطريقة تلقائية، عن ارتياحه.

- سوف تقيم فيه عندما يحين عيد القديس چان العام المقبل. رد بيجون، وقد احمر وجهه من الفرحة.

- بحق القديسة العذراء... ها هو حقًا خبر يسعدنى.

أراد هوج ويتبعه ابنه تييرى أن يتفقد المكان بأكمله، فراح بيجون يرشده بصبر، معلقًا ببعض التفسيرات. عند سفح البرج الرئيسى، رأوا النجارون وهم منهمكون فى قطع ألواح من الخشب، والتى ينبغى أن تكون الطابق الأخير. راحت مناشيرهم تسير فوق وعورة الأخشاب، وكانوا يمسكونها بدقة وحنكة. انهمك آخرون بمهارة، وهم يدقون بالمطرقة وبالخرامة والفأس.

سمح لهم سلم خشبى أن يصلوا إلى الباب الموضوع على ارتفاع أكثر من خمس عشرة قدمًا. ثم استخدموا سلمًا آخر، لكى ينزلوا إلى الطابق الأرضى المظلم تمامًا، والذى سيتم تعديله تحت قبة مثبتة بأربع قوائم إلى مخازن وقبو؛ فوقها تقع القاعة الكبيرة التى تضيئها فتحات طويلة مستطيلة، ويغطى القاعة سقفٌ من الخشب. احتلت مدخنة كبيرة وسط الجدار الشمالى. وضُع حجر ضخمًا من الجرانيت الأزرق، ليدعم السقف. على طول الجدران تم بناء مقاعد حجرية، على الدرج الحجرى الضيق المؤدى إلى الطابق الثانى، والذى يماثل سمك المقاعد الحجرية، وهكذا استطاع هوج قياس حجم الجدران. كما فى قاعة الطابق الأول، كانت قاعة الطابق الثانى، يغطيها سقف خشبى، ما زال بعض العمال

منهمكين فى إنجازه، وفى أيديهم مطارق. فى قمة المبنى، ثُبتت سقالات بواسطة حزم جبسية طويلة معشقة داخل فتحات، لتسمح للعمال بالبدء فى بناء السقف. أراد هوج أن يتسلقها، وكان تييرى يفضل بحذر أن ينتظره فى الطابق السفلى، لكن والده أمره باتباعه.

- ها هى الشرفة. أعلن بيجون بفخر: إن النجارين يقومون بإعداد الأسوار(١).

- انظر. بادره هوج: من هنا تستطيع أن تكشف أراضينا بالكامل. ها هى غابات القديس أندريه، وهنا غابة توردو الخشبية ذات أشجار الدردار الكبيرة، وهناك طاحونة أوديلون ونهرها المتجمع، ثم بركة البطات الثلاث، وبييركولوى، وهو دير القديس ميشيل، وقرية الأخشاب...

- هل تعلم إذا ما كانت زوجة الرجل الذى يُدعى ألدفرد، الذى توفى هنا فى الموقع قبل رحيلى، مازالت على قيد الحياة؟

- أعتقد ذلك يا سيدى اللورد.

ترك هوج تييرى يعود مع كلوڤيس إلى القصر، بينما اتجه هو إلى قرية الأخشاب. لقد تزوجت والدة أجات أربر، الحداد وها هى متفاجئة من زيارة لورد منطقة روامون لها.

---

(١) قضبان من الخشب تُعلق فى الخارج على قمة جدران القصر.

– يا إلهى... هل حدثت مصيبة؟ هكذا قالت الأم، عندما رأت هوج يدخل كوخها المتواضع، المجاور لورشة الحدادة. تأثر هوج لسماع صوتها الأجش للحظة ثم رد:

– كلا... هكذا طمأنها هوج سريعًا، ثم أضاف: إن أربر وجيرن بخير... لا بد أنهما يشربان بعض النبيذ الآن!... أعطينى كوبًا منه.

كان لون النبيذ أحمر فاتحًا، ولكن مذاقه طيب. شرب هوج الكوب الأول على جرعة واحدة، ثم ناوله من جديد لأم أجات، وهو يطالعها صامتًا. هل ستصبح أجات هكذا؟ هل سيتمكن الشيب من الوصول إلى شعرها الأسود الفاحم؟ هل سيمتلئ خصرها النحيل، فوق أردافها الضخمة؟ هل ستفقد قوامها المماثل لفتى يافع، والذى طالما تأثر عند رؤيته؟

وضعت المرأة بالقرب منه شمعدانًا من الحديد لا بد أن أربر هو من قام بصناعته. ذابت عليه المادة الشمعية المتساقطة من الشموع فأضاء وهجها المتأرجح وجهها. لقد ذبلت ملامحها، ولكنها ذكرته بأجات. الجبهة العريضة نفسها، والعينان السوداوان اللتان تحددهما الرموش الطويلة، وحتى الأنف المستقيم، والفم المرسوم بدقة.

داخل الموقد الذى يخدم كمدفأة أيضًا وضِعت مقلاة كبيرة، مثبتة فوق مسند ثلاثى الأرجل، بها مهروس الفول، ففاحت رائحة الثوم الأبيض، المتصاعدة منه فى الغرفة.

– لقد جئت، لكى أنقل لك أخبار ابنتك. هكذا نطق هوج أخيراً بعد أن أفرغ الكوب الثانى من النبيذ.

– ابنتى؟

– نعم أجات.

– لقد اختفت تلك الشيطانة منذ زمن طويل... إنها لساقطة!

– إنها فى القدس.

أخذت المرأة تطالعه، وهى غير مصدقة، فواصل هوج قائلاً:

– لقد غادرت مع جيوش الصليبيين... إنها بخير... لقد تزوجت، وهى الآن أم لطفل صغير.

جلست المرأة أمامه، وقد لاحظ هوج هول الصدمة على وجهها. لقد اعتقد للحظة أنه سيستطيع فى النهاية التحدث عن أجات مع أمها. نهض من مكانه، وخرج وهو يشعر بالأسف.

٢٤

- تييرى... هل تقبل بونيت كزوجة لك؟

وقف أرنو بفخر أمام مذبح الكنيسة، والذى تم نصبه قبل بضعة أيام فى القداس الصغير، الذى يعلو ثلاث درجات، مقارنة بصحن الكنيسة. إنها الكنيسة الجديدة لقصر روامون، والتى ما زالت غير مسقوفة، رغم أنها خُصصت للأب أميريك، وهو أب دير شيز - ديو، خليفة پونس دى تورنون، الذى حل محل أديمار دى مونتيل فى منصب أسقفية مدينة پووى.

قبل شهر من هذا التاريخ ، وبالتحديد فى يوم عيد العنصرة، قام هوج بتعميد ابنه فارسًا . وقد وضع بذلك نهايةً لسنوات طويلة من التعليم، مرت منذ عودته من الحملة الصليبية. وكان قد قاد ابنه فى رحلات برية ركضًا على الخيول، التى كانت ترمح بجنون فى عمق تلك الغابات، حيث كان الطفل المذعور يتوقع فى كل لحظة هجوم تلك الحيوانات المفترسة، أو تبرز فجأة إحدى تلك الشخصيات الخرافية، التى طالما غذى طفولته بحكاياتها القس أرنو. نظرًا لعدم وجود حرب، والتى منعها رجال الدين وشددوا عقوبتها أكثر فأكثر وبقسوة، فقد ظلت

رحلات الصيد أفضل وسيلة للتقاتل. هكذا تعلم تييرى تحديد جحور الحيوانات البرية وممراتها، كما تعلم تقليد أصواتها والتعرف عليها. وتعلم أيضًا كيف يقود قطيعًا من كلاب الصيد، أو توجيه الطيور الجارحة على فرائسها، والآن يستطيع صيد خنزير برى أو ثعلب أو حتى غزال الأيل، فكل هذا لم يعد سراً عليه.

راح هوج يتأمل ابنه، وقد دل بنيانه القوى أنه قد أصبح شابًا مراهقًا لا يمت بصلة للطفل السقيم المتخوف، الذى وجده لدى عودته من الحملة الصليبية.

- بونيت... ها أنا أقبلك كزوجة، وأكرمك بجسدى.

لقد ارتدى تييرى سترة من القماش الفاتح، تزينها معلقات معدنية صغيرة، تحت معطف مصبوغ باللون الأرجوانى أعطاه إياه والده خلال تعميده كفارس. علق فى جانبه سيفًا، أهداه له هوج، وكان قد جلبه معه من القدس، وتشير قبضته المرصعة بالأحجار الكريمة إلى أهميته وجودته العالية. ألقى هوج نظرة على سيفه؛ الذى قد أعطته له الأميرة آن؛ وهو ذاته الذى قتل به على.

إلى جانب تييرى، وقفت بونيت دى سيڤيراك، وقد بدت هزيلة. كانت ترتدى سترة وردية من الحرير، الذى جلبه معه هوج من الشرق. بدا مرتسمًا بدقة على جذعها من الأمام، بينما انسدل واسعًا على ظهرها، مبرزًا قوامها النحيل. التف حول خاصرها حزام من الحرير أيضا، قبل أن يلتف مرة أخرى حول أردافها، وينعقد على بطنها.

مدت بونيت يدها تجاه تييرى، وقد لاحظ هوج أنها قد طبقت موضة الأكمام الواسعة الفضفاضة وربطت نهاياتها. وقفت إلى جوارها أمها أود دى سيڤيراك، والتى فضلت ارتداء أكمام ضيقة لردائها بلون الماء الأخضر الرقيق. إن أود هى أرملة ابن خالته أموند، وكانا قد اتفقا معًا منذ زمن طويل على تزويج أبنائهما. حتى إن هوج حدث أن فكر جديًا، بعد فترة من عودته، أن يتزوج مرة أخرى من أود، ولكنه سرعان ما عدل عن الفكرة، فقد كانت أجات حاضرة بقوة فى حياته.

– تييرى... إننى أقبلك كزوج، وأكرمك بجسدى.

هكذا قالت العروس بصوت واضح، ربما مرتفع قليلاً وحاد، فرنت أصداؤه بين جدران الكنيسة الصغيرة المصنوعة من الحجارة الخام، التى لم تطل بعد. كانت الأم متأثرة بشكل ضفيف لزواج ابنتها المفضلة، والتى تحمل اسم جدتها. وقفت أود شابكة يديها بشكل عصبى، تصلى لقديستها، بونيت الصغيرة، راعية الأوز، التى أنقذت مدينة بريود من غزو النورمانديين. ها هو ابنها أوبر، يراقبها من على الأريكة المجاورة. لقد تم تعميده فارسًا هو الآخر يوم عيد العنصرة، وأصبح تابعًا لهوج، بما أن چيفروا غائب، فبالتالى طبيعى أن يكون هو خليفة لأبيه.

لم ترضخ أود أبدًا لحقيقة بقاء ابنها الأكبر فى القدس. وكان هذا سببًا لخلاف خطير مع هوج، الذى حكى لها أيضًا، ولكن على طريقته، قصة زواج ابنها الشاب. كانت هذه فرصة اغتنمها هوج بتلهف، لكى يتحدث عن أجات.

– إنها أميرة... قال هوج بطريقة غامضة.

– أميرة ؟!

– نعم... امرأة جميلة كالأميرات. راح هوج يكرر فى وصفه بطريقة مثالية وغامضة فى آن واحد.

– كلمنى عن أموند الصغير... طلبت منه أود.

– إنه صورة طبق الأصل من والده.

أمام هوج دى روامون الذى كان محاطًا بمارى ولويس، وقفت إليانور تتبع بحرص واهتمام لمراسم الزواج. لقد قام هوج بخطبتها إلى ابن برتراند دى مونقير، وهو لورد الجانب الآخر من الوادى، وهو الذى تعارك مع هوج كثيرًا قبل مغادرته مع جيوش الحملة الصليبية. حتى إن هوج كان يحتقره كونه لم يقرر الذهاب إلى القدس. أما ابنه، فكان همجيًا ومتغطرسًا، ولكن ألم يكن من الأفضل إنهاء تلك الخلافات وتوحيد العائلتين المتناحرتين؟ لقد لعب يونس دى تورنون دور الوسيط بينهما، بعد أن هدد بعزل اللوردين العنيدين.

– بهذا الخاتم، أعاهدك على حبى وولائى وأمنحك كل ممتلكاتى...

– زوجتك نفسى باسم الأب، والابن والروح القدس.

بتركيز كبير، ولكن بشىء من البطء، تقدم القس أرنو وأخذ قطعة خبز من على المذبح وكوبًا من النبيذ المبارك، وناولهما إلى العروسين. قضم كلٌّ منهما قطعة صغيرة من الرغيف الذهبى، ثم بللا شفتيهما

بالنبيذ الموضوع في كأس الزجاج الملون، تذكار آخر اشتراه هوج من تاجر في مدينة طرابلس.

سُمعت ضجة تكاد تكون ملحوظة وابتسم هوج. انحنى لويس الصغير، خلسة لكي يلتقط من على البلاط الحجرى الفاتح إحدى قطع العظام اللعبة، والتى لا تفارقه أبداً، كانت قد تدحرجت عند قدمى والده. نظر الطفل متحدياً بشجاعة نظرة أبيه، الذى أراد أن تكون قاسية، ولكنها كانت مليئة بالحنان. سيصبح لويس أكثر إقداماً وجرأة من شقيقه. فرغم سنه الصغيرة، كان بالفعل يحلم برحلات الصيد، وأن يصطحب شقيقته التوءم في مغامرات مجنونة حول القصر. لقد حاكت المربية برتراد له صليبًا على سترته، كما أنه لا يفارق أبدًا السيف الخشبى، الذى صنعه له كلوڤيس. كان يلهو إلى حد ترويع أو إيذاء نفسه، أو يركب على عصا وكأنها جواد، أو يبنى أكواخًا صغيرة من أفرع الشجيرات ... كل هذه الأنشطة كانت تُسعد والده. ولكن عندما راح الفتى الصغير يلعب لعبة الحرب الصليبية، لم يكن أبوه على القدر نفسه من السعادة. إنه لا يود أن يرى ابنه راحل إلى تلك المدينة البعيدة. التفتت مارى الصغيرة وابتسمت ابتسامة رقيقة إلى والدها. كانت ترتدى فستانًا أحمر جميلاً لأول مرة، وقد مزجت المربية برتراد ضفائرها الشقراء بشرائط بيضاء.

وقف العروسان الآن يصليان أمام تمثال العذراء، قديسة هذه الكنيسة الصغيرة تذكاراً لمارى. أُضيئت شمعة بينهما، وراحا يرتلان معًا صلاة، أملاها عليهما هامساً، القس أرنو.

- هل أنت راضية يا ابنة خالتى؟

هكذا قال هوج وهو يميل تجاه أود، بينما كان العروسان يصعدان الممر الضيق المؤدى إلى الخارج. فى الساحة الصغيرة الموجودة أمام الكنيسة، كان فى انتظارهم حشد من مزارعى هوج. أُلقيت عليهما حفنات من الحبوب تصاحبها صيحات ابتهاج وسعادة.

- فلتحى الخصوبة! هتف بارتليميه ملوحًا، وهو الفران الذى تزوج ڤاليرى، الخادمة السابقة لمارى.

من خلفه، وقفت متوارية بخجل أكبر، پولين من قرية القديس چورچ. التقت نظرتها السوداوية بنظرة هوج، الذى طالما استقبلته فى كوخها المتواضع. كانت واحدة من الفتيات اللائى يختارهن سيدهن اللورد، عندما يلتقى بهن على الطريق أو فى حقل ما ، لكى يملأ بهن وحدته. إلى جانب پولين، كانت تقف فتاة صغيرة تفضح عيناها الرماديتان هوية أبيها. لقد لاحظ بيرنييه هذه النظرة أيضًا.

منذ زمن طويل وبيرنييه قد توقف عن مغامراته النسائية. فمع عودة هوج، دار بينهما نقاش حتمى على ما يبدو أنه أنهى خلافاتها بصورة نهائية. كان هوج قد رآه، وهو يقترب بهيئته المتعجرفة بعد يومين من وصوله إلى روامون.

- طمئنى بأخبار عن ابنى. هكذا سأل بيرنييه هوج دون أى مقدمات، عندما ظهر فجأة تقريبًا فى الساعة الثالثة بعد الظهر، فى يوم

كان الطقس فيه عابساً للغاية. كان نبات الزيزفون الفارع الطول، قد نما حتى وصل ارتفاعه إلى مستوى سياج النباتات، الذى يحيط بالساحة السفلية للقصر، وراحت قممه المستديرة تتحرك مع نسمة الهواء، لتنضح على جيرانه من أوراق الشجر والزهور.

– لقد مات جييوم. رد عليه هوج، وهو يراقب فرعًا راح يترنح بشكل خطير.

راحت الطيور الداجنة تدور، مفزوعة داخل عشتها بشكل لا نهائى، بينما أخذت الكلاب القريبة منهم تنبح بشكل جماعى عاصف.

– مات جييوم...

قال بيرنييه، وهو يتهاوى مصدوماً على أريكة حجرية أمام إسطبل الخيول، حيث اعتاد الخادم دينيس أن ينتظر سيده هوج لفترات طويلة.

– ها أنا من دون أولاد... لقد مات ابناى الآخران فى فصل الشتاء اللعين المنصرم، وترهبنت ابنتى الوحيدة، ودخلت إلى دير لاقوديو.

– مسكين يا بيرنييه... قال هوج وهو يجلس بدوره إلى جواره.

– أنا لا أريدك أن تشفق علىّ... فقد جلبت علىّ الخراب، عندما أخذت جييوم معك إلى الحملة.

هب بيرنييه واقفًا مواجهًا هوج، ثم استل سيفه بحركة سريعة من غمده المعلق فى الحزام، ثم بادره قائلاً:

– وأجات، ماذا فعلت بها؟

- أجات ؟!

- ألم تعترف لقسيسك بأنك أخذتها معك فى الحملة الصليبية؟

- لم آخذ أجات معى. رد هوج عليه بحزم

- إذنْ لماذا اختفت؟ لا تتصنع البراءة... لقد بحثت عنها فى كل مكان بعد مغادرتك... فلم أجد إلا شقيقها جيرن، الذى كان ظاهرياً قد غادر معك... أنت كاذب.

- كلا يا بيرنييه.

- فلنتبارز إذن.... وسيقول لنا الله إذا ما كنت كاذباً... ولكن ليس هنا.

ألقى بيرنييه نظرة دائرية على المكان، ثم فى اتجاه الكنيسة الصغيرة. فهو ما زال يتذكر ما حدث قبل عدة سنوات، عندما تدخل القس أرنو وفصل بينهما، وبلا شك منعهما من أن يقتتلا من أجل أجات.

- إذن فى الساعة التاسعة تحت شجرة الدردار!

- فليكن! رد هوج عليه بضجر.

كانت المبارزة شرسة وصعبة. دون أى شهود، بدأ الرجلان بالتصارع كلٌّ منهما برمحه ضد الآخر، وكان الاصطدام عنيفًا، حتى إن رمحيهما انتهيا بالالتواء. بعد ذلك، اشتبكا الرجلان على الأقدام فى معركة حامية حتى استنفدا آخر قواهما. أخيراً سقط سيف بيرنييه منه

تحت وطأة ضربات السيف الرائع المهدى من الأميرة آن؛ بينما تدلى كم سترة هوج بشكل مؤسف، وتدفق الدم من ذراعه. ومع ذلك فقد واصلا تقاتلهما بالخناجر.

ارتفعت الشمس في السماء، وكأنها تلعب بأشعتها لعبة "البحث عن الآخر" مع الأفرع المورقة لشجرة الدردار المظللة للفرسان. من داخل بستان تظلله الأشجار، خرجت إحدى الفلاحات كانت ترعى أمامها بعض الماعز، وهكذا شاهدت نهاية المعركة الدائرة بين الرجلين. رأت خوذة هوج المعدنية تتدحرج على العشب المصفر، وسحبت أنفاسها عندما شاهدت خنجر هوج يرسم خطًا أحمر كبيرًا على وجه بيرنييه. وصل جنون الكراهية إلى ذروته، ثم وفيما يشبه المعجزة، هدأ الرجلان المتعاركان، ربما بسبب خيلاء شجارهما... هكذا جلس الاثنان عند سفح المظلة، وألقيا بأسلحتهما وخوذتيهما جانبًا.

لقد انقشعت العاصفة... حينئذ بدأ هوج يروى قصة أجات التى استغرق سردها، حتى ساعة الغسق. وقتها شعر هوج بارتياح عميق لتمكنه من الإدلاء بسره، ومشاركته مع شخص آخر. منذ ذلك الحين، لم يعد يتحدث عن أى شيء مع بيرنييه، الذى بدوره، قبل أن يكون الأب الروحى لتييرى، وافق على المساهمة فى تعليم هذا الفتى الشاب.

أقيمت مأدبة بمناسبة زواج تييرى ويونيت فى القاعة الكبرى للقصر الحجرى، الذى أضاءته بشكل مبهج المشاعل المعلقة فى زواياه، وأيضًا أضاءته نيران المدفأة التى أُلقيت داخلها جذوع الحطب الضخمة.

ظل الخدم مقبلين ومدبرين من المائدة التى حفلت بأشهى الأطباق المتنوعة، بينما راح بعض الحواة يقدمون عروضهم أمام المدعوين[١].

بدأوا العرض برقصة شيطانية قامت بها فتاتان بهرتا الحضور، حيث راحت كلٌّ منهما تلوى جسدها دون أى جهد، مظهرتين بذلك مرونة متفردة. بعد ذلك وعلى إيقاع أكثر هدوءًا، اقترب أحد العازفين من مائدة المدعوين، وهو شاب مراهق يحمل بين ذراعيه آلة العود، وراح يغنى بصوت حالم ومتناغم:

"أبدًا لن أحب، لن أتمتع أبدًا... إذا لم أتمتع بهذا الحب البعيد..."

بدت الأجواء حالمة وشجية، بينما فاح فى المكان شذى عصير العنب الأخضر ذى الحبات الكبيرة.

"آه لو رايت يومًا ذلك الحب البعيد... ولكننى لا أعرف متى سأراه!..."

أخذ هوج يصغى إلى عازف العود، الذى بدا وكأنه يوجه غناءه إلى أود، أم العروس، الجالسة إلى جواره.

– لا أعرف متى سأراها... همس هوج رغمًا عنه، فنظرت أود له مستغربة وسألته:

– ماذا تقول يا ابن الخالة؟

---

(١) كان الحاوى يعتبر فنانًا فى ذلك الوقت، تهدف مهنته إلى الترفيه عن الناس بما يقوم به من حركات بهلوانية ورقصات وعزف موسيقى، وحتى إلقاء الشعر.

– لا شيء... كنت أحلم قليلاً.

تقدم بعد ذلك أحد الحواة، وراح يقوم ببعض الحركات البهلوانية وبعض التهريج، راقبها لويس الصغير بشغف وتلهف. انهمك الموسيقيون من حوله فى العزف من جديد، فراحت آلاتهم الموسيقية، كالكمان والمزامير والصنج، تصدح بسعادة.

– سيدى اللورد... هناك زوار. قالت له خادمة شابة، وهى تقترب منه بين المدعوين.

– ومن هم هؤلاء المزارعون؟

– لا أعرف يا سيدى... أحدهم أسود الوجه تماماً!

– أحضريهم إلى هنا... فاليوم عى،د ومرحبًا بالجميع.

– هوج... أتعلم أن هناك دبًا فى غابة القديس أندريه؟ سأله بيرنييه.

– لم أكن أعلم ذلك... فلنذهب لاصطياده غداً. رد عليه هوج.

– مع مراعاة احترام المحاصيل... فقد حان موسم الحصاد ويجب أن يعمل المزارعون، وأن يتكسبوا. قال القس أرنو بجدية، حيث كان دائمًا ما يحرص على تلقين الفرسان دروسًا، فقد كانت تصرفاتهم الهوجاء تفزعه.

لقد مر زمَنٌ طويل، والقس أرنو بات مقتنعًا بأفكاره حول فعالية الطرق السلمية والهدنة الإلهية، وإذا كان هوج ليس ولا شك أسوأ لوردات المنطقة، فلا بأس بتذكيره بالنظم واللوائح.

- أجل أيها القسيس.

هكذا أجابه هوج بضجر قبل أن يلمح رجلاً فارع الطول ذا بشرة سمراء، يقف وراء الموسيقيين ببضع خطوات. يحمل بين ذراعيه طفلاً، بينما يقف بجانبه صبيان صغيران، شقراوان مثل لون القمح. توقفت الموسيقى، ومعها توقف كلام المدعوين، الذين تحولت نظراتهم إلى هؤلاء الغرباء القادمين.

- من أنت؟ سأل هوج، وهو ينهض حتى يكون فى مستوى هذا الرجل الفارع.

- على. رد الرجل، وهو يضع يده على صدره، وينحنى تبجيلاً أمام هوج، الذى لم ترمش له عين، رغم ذلك الاسم الملعون الذى أيقظ داخله ذكريات أليمة.

- ومن أين أنت آت؟

- من القدس... وقد جئت مرافقًا لأسيادى الصغيرين أموند، وهوج - چوردان وبول دى سيڤيراك...

- يا إلهى! هتفت أود، وقد أصبح وجهها شاحبًا

- وأين والداهم؟ سأله هوج متلاحق الأنفس.

- إن سيدى چيفروا، والذى وقعت أنا أسيراً بين يديه تحت أسوار مدينة عسقلان[1]، توفى بعد حوالى عام فى مدينة حران، أثناء تقاتله مع الأميرين بوهيموند وتانكرد[2]... و قد ولُد هذا الطفل الذى أحمله بين ذراعى بعد وفاة أبيه.

انحنى الرجل مرة أخرى إلى الأمام بأناقة واحترام بلا حدود.

- يا إلهى... لعن الله القدس هذه. هتفت أود بصوت متهدج

- وأمه؟ سأله هوج بصوت بارد ومرتعب

- لقد استحلفنى چيفروا دى سيفيراك أن أوصل أولاده إلى بلاده... وقد سافرت بنا سفينة إمبراطور القسطنطينية، ووصلت بنا حتى ميناء إيج - مورت (جنوب شرق فرنسا) وها نحن هنا... وقد نفذت وعدى.

- ووالدتهم؟ كرر هوج سؤاله، وهو يُخبئ توتره خلف هذه اللهجة المتسلطة، أمام ذلك العملاق الذى تجاوزه بحوالى قدم.

---

(١) إنها المعركة التى وقعت فى الثانى عشر من أغسطس عام ١٠٩٩، والتى انتصر فيها الأمير الأفضل حاكم مصر، والذى استغاث به الأمير أفتخار بعد غزو الصليبيين للقدس.

(٢) وضع انتصار المسلمين فى شهر مايو ١١٠٤ حداً لسياسات توسع الفرنجة فى المشرق.

- إنها على بعد عدة فراسخ قليلة من هنا. أخيراً نطق على

شعر هوج بجبينه ينديان بحبات عرق، راحت تتلألأ عليه، بينما راح قلبه يدق بشدة تحت سترته، وكأن كل شيء قد انفجر داخل رأسه.

- وهكذا تركتها وحدها أيها البائس! وجد هوج نفسه يوبخه بصوت عالٍ.

- إنها لم تكن على يقين من أنها ستكون موضع ترحيب... كما أنها ليست وحدها...

- ماذا تعنى؟

- لقد رافقها الرحلة جندى من جنود الإمبراطور ومعه زوجته... وسوف يعودان إلى بلادهما... ولكنه قبل ذلك يرغب فى مقابلتك.

- اذهب لإحضارهم!

- إيزيدورو... سامحنى يا رب! الله أكبر... لقد استحلفنى ألا أكشف عن اسمه.

كان سماع اسم إيزيدورو له وقع الصاعقة على هوج. ظل لحظة مذهولاً. راح أحد العازفين يحك على أوتار عوده بلا مبالاة، وآخر يربت على صنجه. انخرط پول الصغير فى البكاء، فسارع على يهدئ من روعه. كانت إليانور قد سبقته، وأخذت كلاً من أموند وهوج چوردان بالقرب منها.

- إنهم تحت حماية أسقف مدينة پووى، فى قصره.

- هيا بنا إليهم!

هكذا قال هوج، وقد أخذته حماسة مفاجئة، فمشى متجاوزاً المائدة بخطى سريعة، فأحدثت المعلقات الصغيرة التى تتدلى من سترته صريراً.

- إلى أين أنت ذاهب؟ صاح به بيرنييه

- سأقابل امرأة عمرى، وربما أواجه الموت معها!

أشار هوج لخادمه كلوڤيس، الذى سارع، جالبًا له خوذته وسيفه. هكذا علق سيف الأميرة آن فى جانبه، ثم تناول حربة كانت مستندة على الجدار. سلم على پول الصغير لجدته التى ما لبثت أن احتضنت بحنان الطفل الأشقر، الذى ذكرها كثيراً لچيفروا. فبعد أن علمت بنبأ وفاته، ها هو ابنه، بمثابة وعد بالسعادة.

- يقابل امرأة عمره...

هكذا كرر وراءه القس أرنو بفضول، وقد اعتبر أن ما حدث بمثابة صخب تلى الإيقاع الرتيب الذى كان يصاحب مأدبة الزفاف. راح يهز رأسه وقد بدا متشككاً، بينما تدلى لغده على الشريط الأبيض العريض، الذى التف حول كتفيه فوق رداء الدلمطيق الكهنوتى، ذى اللون الأرجوانى المزركش.

- بيرنييه... لا بد أن تعلم ما فى الأمر. سأل القس أرنو، وهو يميل ناحية تابع، وصديق هوج.

– نعم، أعتقد ذلك... وأنت أيضاً تعرفها. رد بيرنييه عليه بغموض

– أنا أعرفها؟

هكذا اختفى هوج بعد أن أشار بيده إلى الموسيقيين، لكى يعاودوا عزفهم، بينما اقترب راوٍ من مائدة المدعوين، وقال:

"صديقى رولاند، انفخ فى بوقك..."

وجد كلوڤيس صعوبة فى تعقب الرجلين اللذين راحا يركضان على الخيل، لينهبا المنحدرات بسرعة عالية، ثم يتغلغلا فى الغابات دون تهدئة جواديهما. كان كلوڤيس على تمام العلم من كان على موعد مع سيده، ولهذا كان قلقه يتزايد مع تزايد الفراسخ التى كانوا يقطعونها بسرعة أكبر. أدرك على أنه تسبب فى إثارة حفيظة هذا اللورد المتفاخر والمتهور، ولكنه اتبعه دون أن يعرف السبب وراء ذلك.

بعد أن أمضوا ليلة قصيرة فى استضافة الأب إيمرياك، داخل استراحة رهبان دير شيز – ديو، غادر الرجال الثلاثة مع طلوع الفجر، عندما كان الرهبان يرتلون صلوات الصبح. مثلما حدث فى الليلة السابقة، حث هوج فرسه على الركوض بسرعة كبيرة، لم يخفضها إلا عندما لاحت له الربوة التى انتصبت عليها الكنيسة الصغيرة المكرسة للقديس ميشيل. لقد غادر دون تفكير، مسترشداً بغريزته فقط، على أمله المجنون بالالتقاء من جديد بالمرأة التى، حتى وإذا تعذر له الوصول إليها طوال تلك السنوات، إلا أنها لم تبرح أبداً مخيلته. هكذا فجأة، وبعد أن

نظم حياته من دونها، وبينما كان الشهود الوحيدون على تحاوره اليائس مع نفسه، هم أسماك وطيور البحيرة، فجأة جاءت هذه المرأة هنا، وليس على بعد مئات الأيام من الجرى على الخيل، ولكن هنا وعلى بعد عدة فراسخ فقط. ها هى أجات تنتظره فى هذا البناء، المعتم الذى يحد من جهة الجنوب تلك الكاتدرائية التى ما زالت فى حالة بناء دائم. أخذه تفكيره الشارد يصلى ويفكر فى الأسقف أديمار دى مونتيل، طالبًا حمايته.

لم يجرؤ لا على ولا كلوڤيس على مقاطعة حالة تأمل هوج وذهنه الشارد. ود خادمه كلوڤيس أن يلف لجام حصانه ويستدير عائدًا إلى روامون، ولكنه كان يعرف سيده بصورة تجعله متأكدًا أنه لن يغير رأيه. هز على رأسه، وقد بدا قلقًا بشكل طفيف. فمنذ اللحظة التى اتخذ فيها قرار الذهاب والفارس هوج منقاد وراء إصرار مدهش لم يخب للحظة.

ببطء، تقدم هوج على فرسه، الأميرة الحسناء، بعد أن لكزها لكزة خفيفة فى جانبها، على الأرض الوعرة المنحدرة المؤدية إلى البلدة. مروا عند سفح كاتدرائية القديس ميشيل، بالقرب من الكنيسة الصغيرة للقديس كلير، ثم صعدوا بعد ذلك فى اتجاه الكاتدرائية.

- إلى تمثال قديسة الكنيسى!

هكذا هتف هوج، ثم أوقف فرسه بشكل مباغت أمام المبنى قيد الانشاء. وقف على وكلوڤيس ينظران إليه مندهشين. دخل هوج إلى الكاتدرائية، دون أن يلقى نظرة على الباب الذى أُطلق عليه باب البابا أوربان الثانى،

حيث كان هو الوحيد الذى مر منه خلال زيارته مدينة پووى وسرعان ما أغلقه الأسقف أديمار دى مونتيل قبل ذلك اليوم بسنوات عديدة. رغم عتمة الظلام فى الداخل، تعرف هوج على تمثال القديسة العذراء التى طالما وصفها الكنسى ريمون دى أجويلير بانبهار وإعجاب.

- وجهها بشرته سمراء وعيناها زجاجيتان. ترتدى تاجًا من الأحجار اللامعة، تزينه يمامة. رداؤها الطويل له لون أحمر قان، تنتشر عليه وردات صغيرة، ويزينه من الأمام وشاح أصفر كبير. فى بعض الأيام يضعون عليها عباءة من الذهب. يبدو الطفل الذى أمامها صغيرًا للغاية...

كانت واقفة هناك، وقد جعلها وهج الشموع الخافتة تبدو أكثر غموضًا. ركع هوج على ركبتيه، وضم يديه أمامها.

أخيرًا شعر هوج بسلام نفسى كبير بعد أن أقام صلاة طويلة أمام العذراء التى تشبه ملامحها إلى حد كبير امرأة شرقية. وقف كلوڤيس إلى جوار على، وراحا ينظران إلى هوج العائد ناحيتهما بخطى ثابتة. دق جرس الكنيسة الثقيل ليعلن الساعة الثالثة بعد الظهر، فذهب عمال موقع بناء الكاتدرائية ليأخذوا قسطًا من الراحة، وراحوا يتناقشون بمرح وهم يتقاسمون أرغفة خبز كبيرة.

سيرًا على الأقدام، قاد كلٌّ من الرجال الثلاثة جواده إلى مكان الإقامة القريب جدًا من مكان الأسقف. بدت جدران المكان صارمة وموحشة، وكأنها جدران حصن حقيقى.

– هوج! ها.هو أنت...

سرعان ما تعرف هوج على الصوت. استدار، فوجد أمامه إيزيدورو الذى لم يتغير. ما زال شعره الأسود الفاحم يحيط بوجهه ذى السمات القاسية. تذكر هوج تعبير فم إيزيدورو الساخر المتهكم ذى الشفتين الغليظتين، وموقفه فى مدينة نيقييه، عندما قرر إلقاء القبض عليه وأخذه كسجين فى القسطنطينية. ما زال يرتدى زى مبعوثى الإمبراطور ذا اللونين الأبيض والذهبى. ارتسمت ساقاه النحيفتان تحت بنطاله اللاصق، وفوقهما حذاؤه الأحمر ذو الرقبة من الجلد الناعم، تماماً كما رآها هوج فى ساحة قصر الإمبراطور فى القسطنطينية.

– كنت أعلم أنك ستأتى، وأنك لن تستطيع مقاومة الإغراء.

ازدادت ملامح إيزيدورو صرامة، وهو واقف أمام هوج الذى شعر وأنه قد غاص فى موجة من الكراهية والازدراء.

– ها أنت مندهش من وجودى هنا فى طريقك. واصل إيزيدورو، وهو يقهقه الآن ضاحكاً ضحكة عالية، رنت أصداؤها فى الطريق الضيق.

حرص هوج ألا يقول إن على قد أفشى السر.

– إن أجات هنا وعلى بُعد خطوات قليلة... ارفع رأسك... إنها عند النافذة الرابعة على يمين الباب... ولكن فى المسافة التى بينك وبينها، توجد سانشا وأنا... أتتذكر سانشا، والخطأ الذى ارتكبته فى حقى؟

مع هذه الكلمات، استل إيزيدورو سيفه من حزامه فى حركة خاطفة فلمعت شفرته فى الشمس المائلة إلى الانخفاض، فاستقرت أشعتها لبعض اللحظات فى محور الممر الضيق.

– بحق القديس بازيل، بما أننى سأنتقم للمسكين بازيل، وبحق القديس إيزيدورو، يا رب ساعدنى!

فى حركة مسرحية، قبّل إيزيدورو سيفه الذى يمسك به بيد، ثم رسم علامة الصليب على صدره بيده الأخرى. بدا هوج هادئًا للغاية، وقد وقف مواجهًا له، بعد أن استل سيفه هو الآخر. ومع ذلك فقد شعر بالدم يغلى فى صدغيه. كان يعلم أن هذه المبارزة ستكون مميتة. وقف كلوقيس يراقب سيده، وقد بدا عاجزًا على ساقيه الهزيلتين. اعتراه خوفٌ لم يشعر بمثله أبدًا... حتى فى اليوم الذى دخلوا فيه القدس. ربط على ألجمة الخيول الثلاثة بحلقات معدنية مثبتة فى واجهة القصر الأسقفى. لقد أدرك هو الآخر مدى خطورة المعركة، التى بدت مميتة.

– إن الله مع المتقين..

همس على، وهو قبالة الشمس المائلة فى اتجاه الشرق.

كان إيزيدورو هو من بدأ الهجوم بطريقة عدائية. راح سيفه الخفيف المتقن يلوح بحركات كأنها رقص باليه خطير، وجد هوج صعوبة بالغة فى التعامل معها. فقد شعر بجسده ثقيلاً وغير مرن، أو تقريبًا متحجر فى مواجهة خصم بارع، سريع ومبتكر. خرج رجال الدين من

الكاتدرائية بعد إقامة صلوات العصر وتجمعوا للتمتع بهذا العرض. عند نهاية الشارع توجد حانة وتركها زبائنها، واقتربوا بعد أن استرعى انتباههم صياح وصراخ مشجعي المتبارزين.

- الله المعين! أخيرا هتف هوج، كما لو كان أمام أسوار القدس.

- الله المعين! ردت عليه تلك الجمهرة من الناس وقد أسعدهم العرض.

متشجعًا ومتحرراً بفضل هتافات الحرب هذه، أصبح سيف هوج ثاقباً أكثر، ولكنه راح يضرب دون جدوى درع إيزيدورو الذي اعتمد منذ سنوات عديدة، على الدرع المستديرة التي اقتبسها من الكفار، وأصبح يستخدمها بمهارة فائقة. هذه الدرع مطلية باللون الأحمر القاني، برز في وسطها يزهو نسر أسود. على العكس منه، فاجأ إيزيدورو درع هوج المستطيلة، ووصل إلى صديريته الواقية بقوة لا تصدق. مع ذلك لم يُذعن له هوج، وفي الوقت ذاته لم ينتصر عليه، بل قاوم من أفضل إلى أفضل.

في هذه الأثناء كان علي قد انتهى من الصلاة، حيث تضرع إلى الله أن يغفر له جلبه هذين المتقاتلين وجهاً لوجه. في الوقت ذاته كان غير مبالٍ بمن سيفوز، أو أن يختار المنتصر. أما كلوڤيس، فكان يقف، وفي يده اليمنى حربة سيده، وهو ينتفض في مكانه لكل حركة، يقومان بها، متخوفًا من الحركة القادمة.

- توقفا!

هكذا هتفت امرأة سمراء ترتدى ثوبًا أخضر، ويغطى شعرها وشاح فضى، بعد أن ظهرت على عتبة القصر، فتحولت أنظار المتفرجين إليها. تمهلت للحظة تحت المدخل المقوس السقف، المدرج بحجارة صُبغت بألوان متبدلة بدقة بين تمثالى الأسدين المتربعين وكأنهما يحرسان بلا اكتراث مبنى سكن الأساقفة، ثم هتفت، مكررة مرة أخرى تجاه المتعاركين قائلة:

- توقفا!

أمسكت بذراع إيزيدورو التى ظلت قابضة على السيف معلقًا، وهنا اكتشف هوج أنها سانشا.

- ألن تكفا أبدًا عن هذا الشجار؟ هكذا وجهت توبيخها إلى الرجلين. تبادلا نظرات سوادوية غاضبة، كما لو كان صاحب النظرة المتسلطة أكثر هو من سيستطيع بأعجوبة وقف حنقهما.

- كلا، لن ننفض منه أبدًا. صرخ إيزيدورو، خارجًا عن طوعه

بحركة مباغتة، انتزع ذراعه من قبضة سانشا ووجهها بقوة ومرونة صوب هوج. فى هذه المرة وبخفة، تفادى هوج الضربة، وهاجمه بدوره. انغرست تقريبًا شفرة سيفه بلا مجهود يُذكر فى رقبة إيزيدورو الذى ترك سلاحه، وتصلبت أصابعه فوق الجرح، الذى راح يدفق الدم منه على

دفعات كبيرة. وقعت منه درعه، وتدحرجت على الأرض... تقدم إيزيدورو ثلاث خطوات إلى الأمام قبل أن يتهاوى هو الآخر.

وقف هوج وذراعاه تتأرجحان، غير مدرك أنه انتصر. فقط تنبه إلى أن إيزيدورو على وشك الموت عندما رأى رجل دين يهرع ناحيته ليباركه، ويتلو عليه الصلاة الأخيرة.

- أيها الفرسان... ألا تفكرون فى شىء غير التقاتل؟

هكذا قال الأسقف، عندما ظهر هو الآخر. إنه يونس دى تورنون[1]، خليفة أديمار دى مونتيل. قصير القامة وهزيل الجسد، ذو شخصية متسلطة، راح يُعنف الفارس من على الدرج الحجرى الفاتح اللون. لعبت أشعة الشمس دورها مع لون تمثالى الأسدين غير المبالين فبدا لونهما وردياً.

- اغفر لى! هكذا تدخلت سانشا، موجهةً كلامها للأسقف

- لقد كان زوجى يكرهه بسببى... أنا المذنبة... ولم يبق لى إلا أن أكَفر عنه بقية حياتى. فأنا لم يعد لى زوج، وقد مات أولادى، أما الوحيدة التى تبقت من عائلتى هى الكونتيسة إلڤير، وقد ظلت فى الشرق.

---

(١) احتل يونس دى تورنون منصب الأسقف بدءًا من عام ١١٠٢ . وقد ظل منصب الأسقفية شاغراً لمدة أربع سنوات، بعد وفاة أديمار دى مونتيل.

– حسنًا يا ابنتي. رد عليها البطريرك بارتياح: عظيمًا أن يعترف المرء بخطاياه في تواضع. "طوبى لأصحاب القلوب النقية، فهم سيرون الله"(١). سوف آمر بإرسالك إلى دير راهبات لاقوديو(٢)... سترحب بك الراهبات هناك، أفضل ترحيب. سيجلب إليك التعبد على ضفاف نهر الستوير (في منطقة أوقرنيي) الصفاء والسلام النفسي. أما أنت يا هوج دي روامون، فأنت معزول لمدة عام، حتى يوم القديس چان!

لم يسمعه هوج، بل كان قد تسلل في صمت عبر باب السكن الأسقفي، وصعد درج السلم الضيق المظلم ببطء. في العلية، سار بخطوات متثاقلة في ممر تضيء جدرانه الحجرية مشاعل على الجانبين، مر برجل دين، فلم ينظر حتى إليه. رفُعت ستارة مواربة فجأة.

– أچات...

– هوج...

اختنق صوتها الأجش بين طيات درعه.

جلين – مونتاچو (إحدى ضواحي مدينة كليرمون فيرن – وسط فرنسا) ٢٦ نوفمبر عام ١٩٩٤

---

(١) الطوبى، إنجيل متى: السطر الثامن من الفصل الخامس.

(٢) هذا الدير الخاص بالبنديكتين (الراهبات)، كان تابعًا لدير شيز – ديو.

المؤلفة فى سطور:

آن كورتييه

ولدت آن كورتييه فى بلدة سيدى بلعباس بالجزائر. و هى متزوجة وأم لثلاثة أولاد، وجدة لثلاثة أحفاد.

تعمل كأستاذ فخرى من عدة جامعات فى فرنسا، وقد نُشرت لها كتب عن تاريخ الفن لمنطقة أوڤيرنى ومدينة كليرمون فران (وسط فرنسا).

كرست آن كورتييه جهدها لكتابة الروايات التاريخية، مثل رواية (ليه دام دو كليرمون) أو سيدات كليرمون، التى ترصد فيها حياة هذه المدينة فى العصور الوسطى. صدرت هذه الرواية عام ١٩٩٣، ثم تلتها برواية عن تاريخ المدينة نفسها أيضًا باسم (فلورين) عام ١٩٩٤ بنفس شخصيات الرواية الأولى، لترصد من جديد حياة المجتمع البرجوازى للمدينة فى هذه الحقبة.

فى عام ١٩٩٥ صدرت لها رواية (مشيئة الرب) تُطلعنا فيها على تفاصيل مثيرة لأول حملة صليبية، شُنت فى التاريخ عام ١٠٩٨

عام ١٩٩٧ عاودها الحنين مرة أخرى للكتابة عن مدينتها، فصدرت لها رواية (رجال كليرمون)، ومرة أخرى فى عام ١٩٩٩ كتبت (شجرة السيدات) .

بعد ذلك شغلت آن كورتييه منصب مستشارة فى مجلس مدينة كليرمون فران من عام ١٩٩٥ إلى عام ٢٠٠١ . أما حاليًا فهى تعمل كمستشارة للشئون الإقليمية منذ عام ٢٠٠٤

تعمل هى وفريقها تحت شعار "المستقبل قادم بخطى سريعة"، الذى تأمل من خلاله تقديم دفعة جديدة و تطور أكبر لمدينتها التى تعشقها "كليرمون فران "!

المترجم فى سطور:

درس **محمود وصفى** الإخراج السينمائى فى الكونسرفتوار الحر للسينما الفرنسية بباريس من عام ١٩٩٥ إلى عام ١٩٩٩، وقبل عودته إلى مصر، عمل كمساعد مخرج تحت التدريب فى فيلم (الآخر) للمخرج المصرى العالمى الراحل يوسف شاهين، حيث تابع كل مراحل ما بعد التصوير فى معامل مكساج الصوت فى باريس. عاد إلى مصر فى العام نفسه، ليبدأ العمل كمعد برامج، ومساعد مخرج، ثم مخرج فى قناة النيل الدولية فى الجزء الناطق باللغة الفرنسية. كان شغله الشاغل هو تعريف الجمهور المصرى بالسينما الفرنسية. فى عام ٢٠٠٣ ساهم بالعمل فى كيفية تطويع المادة الفيلمية داخل مناهج تدريس اللغة الفرنسية فى المركز الثقافى الفرنسى بالإسكندرية، كما ألقى سلسلة محاضرات مطولة، بها تحليل لأهم أفلام يوشف شاهين. فى عام ٢٠٠٤ سافر إلى الدوحة، ليعمل كمذيع فى البرنامج الفرنسى التابع لإذاعة قطر، حيث أعد وقدم برنامجًا عن وقائع وكل ما هو جديد فى عالم السينما الفرنسية، وذلك على مدار عامين ونصف العام. كما عمل أثناء تواجده هناك كمساعد لمخرج فرنسى لفترة مؤقتة فى قناة الجزيرة للأطفال.

صدر له فى نفس سلسلة الإبداع القصصى ترجمة روايتين هما: "حقل الغربان"، "على ساحل بونديشيرى".



المراجع فى سطور:

حمادة إبراهيم

رئيس قسم اللغة الفرنسية بمركز اللغات والترجمة بأكاديمية الفنون.

رئيس لجنة الترجمة بالمهرجان العالمى للمسرح منذ ١٩٩١

مؤلف وناقد مسرحى ومترجم.

من أهم الترجمات:

الأعمال الكاملة للمسرح الفرنسى (أوجين يونسكو) صدرت فى خمسة مجلدات فى الكويت تباعًا، (من ١٩٧٣ حتى ١٩٨٨). ثم أعيد طبعها فى هيئة الكتاب، وصدرت فى مجلدين ضخمين، ١٩٩٨، ١٩٩٩ (٣٤ مسرحية).

الأعمال المسرحية الكاملة للمسرحى (ألفريد جارى)، رائد الفكر المعاصر، صدرت فى الكويت فى ثلاثة أجزاء (١٩٩١، ١٩٩٢، ١٩٩٣)، ثم أعيد طبعها فى هيئة الكتاب عام ٢٠٠٢ .

مسرح الغرفة للمسرحى الفرنسى (جان تارديو) القاهرة ١٩٩٨

كما شارك فى ترجمة ومراجعة موسوعة (وصف مصر).

بالإضافة إلى أكثر من عشرين عنوانًا آخر بين ترجمة ومراجعة.

نشر ثلاثة أعمال فى المشروع القومى للترجمة آخرها كتاب: "الإسلاميون الجزائريون".



التصحيح اللغوى : **عـــــزت ســــلامـــــة**

الإشـــراف الفنى : **حــــــسن كـــــامـل**

بعد أن ناشد البابا أوربان الثانى الشعب فى خطبته الشهيرة على أرض أكبر ساحة لمدينة كليرمون بفرنسا عام **1095**، هب الجميع من فرسان و مزارعين و نساء وأطفال ذاهبين إلى القدس لتحرير الأراضى المقدسة من تسلط المسلمين. وبين هؤلاء الصليبيين، هيوج، بطل الرواية، وأتباعه. استغرقت الرحلة حوالى ثلاث سنوات قبل أن يصلوا إلى القدس وصادفوا خلالها مخاطر عديدة . وبرغم هذه المحن العسيرة التى مروا بها من معارك شرسة وحصار بلدان ومجاعات وأوبئة، فقد استطاع هيوج و أصدقاؤه أن يحيوا الحياة بحلوها ومرها وبما فيها من حب وكره. يعتقد هيوج أنه قد نسى قصة حبه المؤلمة مع الجميلة أجات، فى القدس ويعود إلى أوفيرنى، مسقط رأسه فى فرنسا، فإذا بحبيبته الجميلة أجات تلحق به هناك بعد مرور سنوات. قبل أن يسعد بلقائها، تظهر فى حياته من جديد سانشا ذات الأصول الإسبانية، زوجة الجندى البيزنطى الصارم إيزيدورو.

